



كنيسة السيدة العذراء

محرم بك - الإسكندرية

سفر نشيد الأنشاد

www.christianlib.com



القس مرقس ميلاد



سفر نشيد الأنشاد

القس مرقس ميلاد

اسم الكتاب : سفر نشيد الأنشاد

إعداد : القس مرقس ميلاد

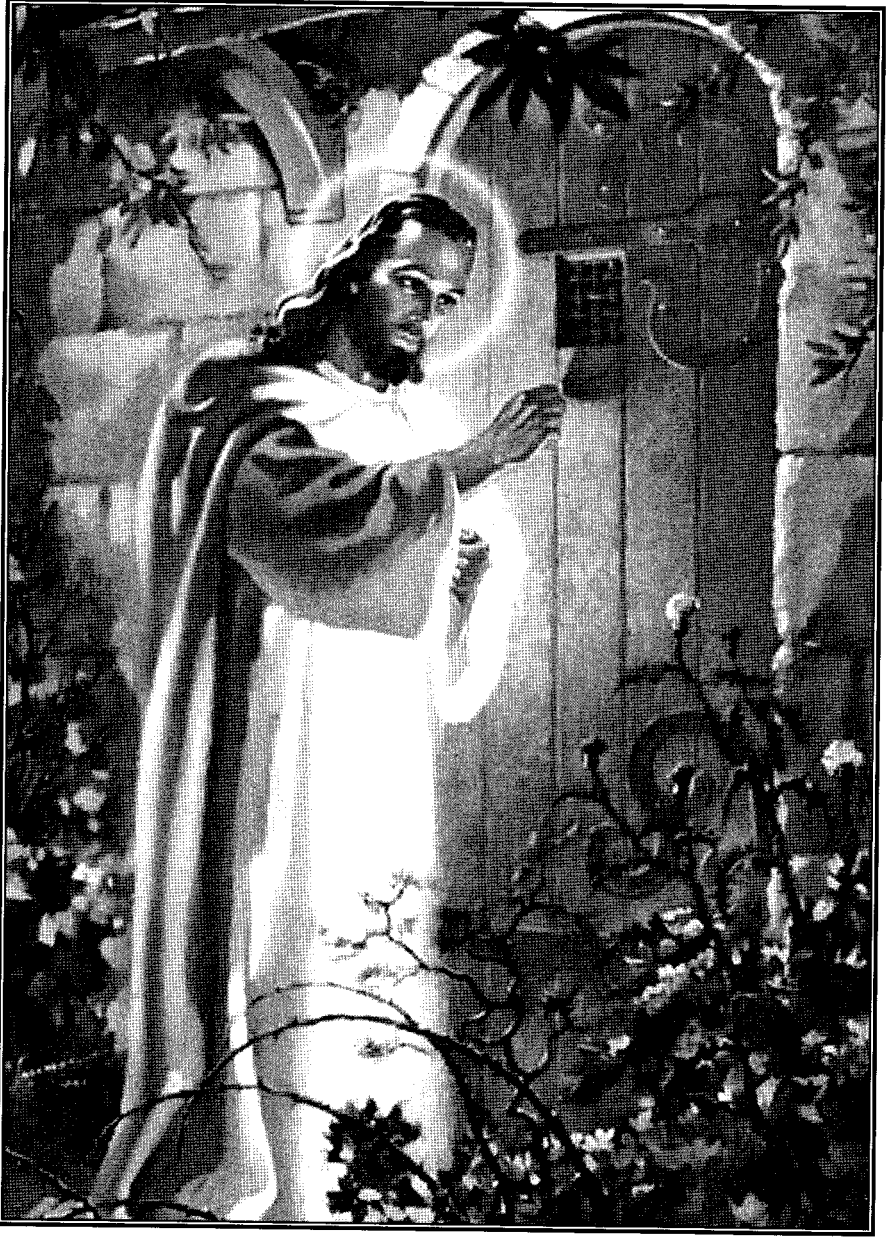
الطبعة : الثانية - يولييه ٢٠١٧

فصل ألوان وطباعة:

مطبعة دير الشهيد العظيم مارمينا العجائبي بمريوط

موبايل: ٠١٢ / ٥٥٥٠٤٤١ .١٢ & تليفاكس: ٤٥٩٦٤٥٢ ٠٣

رقم الإيداع : ٢٠١٤ / ٢٠٢١٨



"افتحي لي يا أُختي، يا حبيبتِي، يا حمامتي، يا كامِلي!
لأن رأسي امتلأ من الطَّلِّ، وقُصَّصِي من نَدَى الليل."
(نش ٥ : ٢)



صاحب الغبطة والقداسة

البابا تواضروس الثاني

بابا الإسكندرية وبطريك الكرازة المرقسية الـ ١١٨

مقدمة

"اسْتَيْقِظِي يَا رِيحَ الشَّامَالِ، وَتَعَالِي يَا رِيحَ الْجَنُوبِ! هَبِّي عَلَى جَنَّتِي فَتَقَطُرْ أَطْيَابُهَا. لِيَأْتِ حَبِيبِي إِلَى جَنَّتِهِ وَيَأْكُلُ ثَمَرَهُ الْبَيْسِ" (نش ٤: ١٦).

هب روح الله على نفوس خُدام كثيرين في كنيسة المسيح الممتدة من المشارق إلى المغرب فأثمر فيهم بكلمات النعمة التي نطقها الروح على ألسنتهم مكتوبة أو مسموعة.

وخرجت نفسي على آثارهم أقطف من ثمارهم وأشبع من رحيق زهرهم، وكأنه أمر السيد لهم "وَأُسْلُوا أَيْضاً لَهَا مِنَ الشَّمَائِلِ وَدَعُوهَا تَلْتَقِطُ وَلَا تَسْهَرُوهَا" (١٦: ٢١)، فكل الفضل لروحه القدوس، ولتلك الأنية التي تطهرت فاستخدمها السيد لأرتوي منها. وأيضاً حرَّك الروح أنية أخرى ليخرج هذا العمل للنور:
- الأخت ماري، لتفريغ وصياغة العظات.

- المهندس الفاضل عاطف، لضبط قواعد اللغة ومراجعة الصياغة النهائية.
رجائي في الرب أن يحرك قلب كل من يقرأ للتلامس مع نعمته كل حسب اشتياق قلبه.

القس مرقس ميلاد

نوفمبر ٢٠١٤

مقدمة السفر

سفر نشيد الأنشاد من أكثر أسفار الكتاب المقدس الذي تعرّض للنقد، وليس الغاية من دراستنا هذه الرد على الانتقادات بقدر ما هي تهدف إلى التأمل في المعاني الروحية التي يتضمنها. فسفر النشيد هو جزء من الكتاب المقدس، وكما قال بولس الرسول: "كل الكتاب هو موحى به من الله، ونافع للتعليم والتوبيخ" (٢ تي ٣: ١٦). فنحن نؤمن أن سفر النشيد موحى به من الله، ونثق أنه نافع جداً لتعليم المؤمن المسيحي، لأنه يحتوي على دروس روحية هامة، تشمل جميع مراحل الحياة الروحية التي يجتازها المؤمن وتساهم في نموها. ولكننا لا ننكر أن من يقرأ سفر النشيد قراءة سطحية سوف يسأل نفسه السؤال الذي طرحه فيلبس على الخصي الحبشي: "ألعلك تفهم ما أنت تقرأ؟" (أع ٨: ٣٠)، أو قد يتساءل ما هو الداعي لوجود هذا السفر في كتابنا المقدس. لذلك سوف نجلس عند قدمي السيد المسيح، لأنه وكما قال الخصي لفيلبس: "كيف يمكنني أن أفهم إن لم يرشدني أحد"، وننتظر إرشاد الروح القدس "لأن الحرف يقتل ولكن الروح يحيي" (٢ كو ٣: ٦). والإنسان الذي يقرأ سفر النشيد ويتوقف عند المعاني الحرفية للكلمات لن يستفيد شيئاً. ونحن على مثال هارون رئيس الكهنة الذي كان يخلع نعل رجله قبل أن يدخل قدس الأقداس، وعلى مثال موسى الذي قال له الرب: "اخلع نعل رجلك، لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة" (أع ٧: ٣٣)، سوف نخلع عنا الفكر البشري والاهتمامات الأرضية ونحن نقرأ ونتأمل ونتعلم في سفر النشيد، لكي تسمو قلوبنا أمام عرش النعمة.

ولكن قبل كل هذا، لا بد من توضيح أربع نقاط أساسية تساعدنا في فهم السفر:

أولاً، محور السفر:

هو سفر رمزي يحكي قصة حب ما بين عريس وعروسه، فالعريس هو السيد

المسيح، أمّا العروس فيمكن فهمها على ثلاثة مستويات:

- فقد ترمز العروس إلى القديسة مريم العذراء. والكثير من آباء الكنيسة قالوا أنَّ هناك مواضع كثيرة في السفر لا يمكن أن نجد لها تفسيراً إلا في شخص أمنا العذراء، فهو بالدرجة الأولى يمثّل علاقة الحب ما بين العذراء والرب يسوع.
- وقد ترمز العروس إلى الكنيسة. فالمسيح هو العريس والكنيسة عروسه. وقد قال السيّد المسيح في تعاليمه في أكثر من موضع في الكتاب أنّه هو العريس، ومنها مثل العذارى، فالعشر عذارى هم الكنيسة وقد خرجن للقاء العريس. وأيضاً عندما سأله تلاميذ يوحنا: "لماذا نصوم نحن والفرّيسيّون كثيراً، وأمّا تلاميذك فلا يصومون؟ فردّ عليهم الرب يسوع وقال لهم: "هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا ما دام العريس معهم؟ ولكن ستأتي أيام حين يُرفع العريس عنهم، فحينئذ يصومون" (متى ٩: ١٥). وأيضاً القديس يوحنا المعمدان قال في تعاليمه وفي توجيه الناس نحو المسيح: "مَن له العروس فهو العريس، وأمّا صديق العريس... فيفرح فرحاً من أجل صوت العريس" (يو: ٣: ٢٩)، فأكد بكلامه هذا، أنَّ المسيح هو العريس والكنيسة عروسه، وهو صديق العريس، صديق المسيح. وكذلك مُعلّمنا بولس الرسول قد استخدم هذا التشبيه بقوله إلى أهل كورنثوس: "لأنّي خطبتكم لرجل واحد، لأقدم عذراء عفيفة للمسيح" (٢كو ١١: ٢). فهذا المفهوم ليس جديداً على روح الكتاب.
- وقد ترمز العروس إلى النفس البشريّة. فتغدو كل نفس فينا هي عروس المسيح، وهذا المفهوم أيضاً ليس بجديد في الكتاب المقدّس بل على العكس فقد سمعنا في سفر إشعياء عنه كثيراً، وعلى سبيل المثال قوله: "كفرح العريس بالعروس يفرح بك إلهك" (إش ٦٢: ٥). فهو يشبّه علاقة النفس البشريّة باللّه كعلاقة عريس بعروسه، لأنّها في الحقيقة من أسمى العلاقات ما بين شخصين. وقد أراد الرب من خلال هذه الصورة أن يُظهر مدى قوّة علاقته بالكنيسة، لأنّ أقوى علاقة في الأرض يمكنها أن تمثّل علاقة الحب القويّة هذه، هي علاقة العريس بعروسه.

ولكن ما يدعو للعجب أنَّ علاقة الحب ما بين النفس البشريّة واللّه، التي تجلّت في سفر النشيد لم تغب عن الفكر اليهودي. مما جعل للسفر مكانة خاصة في حياتهم

الروحانية، فكل عيد من أعياد اليهود مرتبط بسفر من أسفار الكتاب المقدس. ففي عيد الفوريم يقرأون سفر أستير، وفي عيد الحصاد يقرأون سفر الجامعة، ومن ضمن تقاليداتهم أيضاً أن يقرأوا سفر النشيد في عيد الفصح. فالروح الذي كان يعمل في القديم، هو هو الذي يعمل في الجديد. وقد اختاروا أن يقرأوا هذا السفر في عيد الفصح، لأنهم يؤمنون بأن محبة الله ظهرت لكنيسة العهد القديم في عيد الفصح، فالله قد أخرجهم من أرض مصر وأعنتهم من العبودية، فعندما ترى النفس محبة الله القوية، وكيف أخرجها من كور الحديد، بيد قوية وذراع ممدودة، فلا تملك سوى أن تبادل الله حباً بحب وكما قال الكتاب: عمق ينادي عمقاً وغمر ينادي غمراً. فسفر النشيد هو تعبیر عميق وقوي عن محبة النفس لله.

ثانياً، أسلوب السفر:

كُتِبَ الكتاب المقدس للبشر، لذا فقد كتب بأسلوب يفهمه البشر، فلو كُتِبَ هذا الكتاب للملائكة، لُكُتِبَ بطريقة تناسب الملائكة، وبما أنه كُتِبَ للبشر فقد استخدم ألفاظاً ومفاهيماً يفهمها البشر. لكن حتى وإن استخدم ألفاظاً بشرية لكنه لا يقصد المعنى الحرفي للكلام. ولن أسترسل في هذا الموضوع في المقدمة لكن سوف أتوسع فيه خلال دراستنا للسفر، إنما أحب أن أشير إلى نقطة هامة وهي: إن كانت الألفاظ تبدو للبعض وكأنها ألفاظاً لا تليق بالكتاب المقدس لكننا عندما نتعمق في معانيها نكتشف أن المفهوم الذي يقف خلف الكلمات بعيد تماماً عن المفهوم الجسدي، وعلى سبيل المثال الآية الثانية التي تقول: "ليقبلني بقبلات فمه"، لأن حبك أطيب من الخمر"، فالمشهد يصور لنا عروساً تقول لعريسها: حبك، مما يعني أنها في حضرة حبيبها، وتكلمه مباشرة، وتقول له: لأن حبك. فهل يُعقل أن تقول عروس لعريسها التي تقف أمامه: حبك، ثم تطلب قبلات رجل آخر! "ليقبلني بقبلات فمه"، لأن حبك أنت يا حبيبي أطيب من الخمر. فهذا ليس منطقي ولا يقبله عقل. بينما الحقيقة أنها تخاطب السيد المسيح الذي هو حبيب النفس البشرية وتطلب المزيد من قبلات الآب، كما سنرى في الدراسة. ولكن الغاية من هذا التوضيح أن نبين استحالة تطبيق كلمات

السفر على علاقة بشرية بأي صورة من الصور، إنما هو سفر رمزي، لذلك قال العلامة أوريجانوس: "إنَّ سفر النشيد هو سفر البالغين"، وحتى التقاليدات اليهودية لا تسمح للشباب الذين دون الثلاثين من العمر أن يقرأ سفر النشيد، لأنَّ الشباب صغار السن ترتبط أفكارهم بالجسد ولن يفهموا عمق الكلام بسهولة إلاَّ بعد أن ينضجوا على المستويين الفكري والروحي، لأنَّ "الطعام القوي للبالغين" (عب ٥: ١٤).

ثالثاً، اسم السفر:

احتوى الكتاب المقدس على أناشيد كثيرة، وهذا السفر هو قمة الأنشيد، لذلك دعي نشيد الأنشيد، وسليمان الحكيم كتب ألفاً وخمسة نشيد، ولكنَّ السفر موضوع دراستنا هو قمة الأنشيد جميعها، لذا فهو نشيد الأنشاد.

رابعاً، كاتب السفر:

هو سليمان الحكيم كما هو مكتوب في (نش ١ : ١) "نشيد الأنشاد الذي لسليمان". وقبل الدخول في السفر لا بد من القول، أنَّ سليمان الذي بنى الهيكل بحسب ما أمر الرب قد كتب أيضاً أربعة أسفار في الكتاب المقدس. واللافت أننا نجد ترابطاً بديعاً ما بين الأسفار الأربعة والأقسام الأربعة للهيكل. فالقسم الأوَّل للهيكل هو الدار الخارجية حيث كانوا يضعون كراسي باعة الحمام وموائد الصيارفة، الذين طردهم السيّد المسيح منها، كما ذكر لنا الإنجيل، وهي تعتبر الرواق الخارجي للهيكل، وكانت تسمى رواق الأمم. ويليهما القسم الثاني من الهيكل، وهو رواق داخلي ويسمى الدار الداخلية أو دار الرجال، ويُطلق على جزء من هذا القسم دار الكهنة. وحين نتقدّم نحو داخل الهيكل نصل إلى القسم الثالث الذي هو القدس، بما يشبه اليوم صحن الكنيسة. وأخيراً ندخل إلى القسم الرابع من الهيكل الذي هو قدس الأقداس مثال الهيكل في الكنيسة.

وبالعودة إلى الأسفار الأربعة التي كتبها سليمان وعلاقتها بالهيكل، نجد أن الدار الخارجية تمثل سفر الأمثال الذي يعلم الإنسان الحكمة وكيف يتعامل مع الأحباء ومع

الأعداء، وكيف يتصرّف في مواقف الفرح ومواقف الحزن، فهو يمثل بداية طريق الحكمة. وبعد أن يقرأ الإنسان سفر الأمثال، ويرى جمال الحكمة، يتوق إلى اقتناء الحكمة بحد ذاتها، حينئذٍ يدخل إلى السفر الثاني وهو سفر الحكمة، أمّا أعلى درجات الحكمة التي يصل إليها الإنسان هي أن يرى هذا العالم وما فيه باطل، وهذا منتهى الحكمة. وسليمان أحكم بني البشر قال: "باطل الأباطيل الكل باطل... ولا منفعة تحت الشمس" (جا ١: ٢، ٢: ١١)، فيتقدّم الإنسان ويصل إلى سفر الجامعة الذي يمثل القدس في الهيكل، وسفر الجامعة رأى أن هذا العالم كله قبض الريح. وهنا يقف الإنسان ويسأل نفسه إذا ما كان العالم باطل الأباطيل، لماذا أعيش؟ وما الغاية من وجودي؟ فيقول له سليمان: ادخل إلى القسم الرابع من الهيكل، أو السفر الرابع وهو نشيد الأنشاد قمة الحكمة. وقمة الحكمة أن يهب الإنسان ذاته بكلّيتها إلى الله: "اتّق الله واحفظ وصاياه، لأنّ هذا هو الإنسان كله" (جا ١٢: ١٣). التي بها يختم سليمان سفر الجامعة، ومعها ندخل إلى القسم الرابع من الهيكل إلى قدس الأقداس إلى سفر النشيد.

الفصل الأول

(الأصْحاح ١ : ٣-١):

في هذا الجزء من السفر تتكلم العروس أو النفس البشريَّة وتخطب عريسها وتقول له: "يُقَبِّلَنِي بِقُبْلَاتِ فَمِهِ، لَأَنَّ حُبَّكَ أَطِيبُ مِنَ الْخَمْرِ". (١ : ٢)

القُبلة علامة المحبة، وهناك ثلاثة أنواع من القبلات: القبلة على الجبهة وهذه يقبلها الأب لابنته. والقبلة على الوجنتين وهذه يتبادلها الأحبة عموماً وأيضاً الأصدقاء. أمَّا قبلة الفم فهي أعمق وأعذب القبلات، لأنها قبلة العروسين. فالعروس أو النفس البشريَّة تطلب إلى عريسها أن يقبلها بقبلات فمه، والفم الذي ترغب النفس البشريَّة بالتمتع بقبلاته هو فم الأب السماوي، وكأن النفس ترجو المزيد من التمتع بمحبة الأب السماوي، وترغب بتذوق محبته أكثر فأكثر. فالنفس في القديم ذاقَت محبة الأب السماوي، هذه المحبة التي لم تنحصر في خلق هذه النفس إنما بدأت من قبل أن توجد. فالله قبل أن يخلق الإنسان أعدَّ الأرض لفترة امتدت آلاف السنين وهياها لسكنى الإنسان، فبواكر هذا الحب قد ظهرت قبل أن يوجد الإنسان، حين هيا الله له الكون وكل ما يحتاجه قبل أن يأتي به إلى هذه الحياة، فهذه قُبلة من قبلات الأب.

وعندما خلق الله هذه النفس تذوقت قبلة أخرى من قبلات فم الأب، لا سيما بالطريقة التي خلقها بها، فعندما أراد الله أن يوجد كل هذه الخليفة قال: ليكن نور، فكان نور. وقال: لتقض المياه زحافات ذات نفس حيَّة... فكان كذلك. وقال الله: لتخرج الأرض ذوات أنفس حيَّة... فكان كذلك. ولكن عندما أراد الله أن يخلق الإنسان لم يقل: لتخرج الأرض. إنساناً! مع أنَّه باستطاعته أن يفعل، ولكنَّه قال: "نعمَلُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبْهَانَا" (تك ١ : ٢٦)، فالله قد عمل الإنسان بيديه، وهذا إكرام للإنسان، وهذه قبلة أخرى من قبلات الأب. ولم يقتصر إكرام الله للإنسان على هذا، إنما عمله "على صورتنا كشبهنا"، وهذه أيضاً قبلة أخرى منه، ولاحقاً تذوقت النفس قبلاته عندما أعطاها الناموس، و لم يتخلَّ عنها بعدما خالفت الناموس، بل أرسل من

أجلها الأنبياء "من أجلي أنا المريض" (كما نصلي في القداس)، وبعد هذا الفيض من القبلات لم تكف بل تطلب المزيد من تذوق محبة الآب.

وإنسان اليوم، أي نوع من القبل يطلب، هو الذي يقيس محبة الرب له بأمور مادية، ويريد أن يتذوق محبة الآب السماوي في تسهيل أمور حياته، فيكون أولاده في حالة جيدة، ولا تعترضه مشاكل مادية ولا تواجهه ضيق في العمل. وهذا أمر مؤسف لأن الرب يسوع قال أن الله ينعم بهذه الأمور على الأبرار والأشرار، وأنه لأمر محزن أن يحصر الإنسان محبة الله له في تلبية بعض الاحتياجات المادية مهما كان نوعها. وحتى المؤمن الذي يأتي إلى الكنيسة، فرحاً بالصلاة وبالإنجيل وفرحاً بالقداس، فلا ينبغي أن ينتهي به الأمر عند هذا الحد، فتقتصر علاقته بالله على بعض الممارسات. ولكن على النفس أن تظل في اشتياق مستمر للمزيد من القبلات، فلا تكفي في القبلات التي ذاقتها في الماضي، ولا في التعزيات التي سبق لها وذاقتها في الصلاة، إنما عليها أن ترغب في أن تنمو وأن تزيد، ففي كل مرة تدخل القداس فلتقف وتصل وتقول له: "يارب أنا أرغب أن أذوق تعزية جديدة". فلا تكف بالقبلات التي حصلت عليها منذ سنة أو منذ شهر، إنما تتشوق لمزيد من القبلات الجديدة كل يوم من فم الآب، فعندما تدخل إليه النفس البشرية بهذه الرغبات فهي تتاجي الآب السماوي وتقول له: "ليقبلني بقبلات فمه".

يبدو أن في الآية جسارة، فالإنسان الخاطئ، الإنسان الدنس يقف أمام الآب القدوس، ويطلب منه قبلات! صحيح أن فيها جسارة، لأن الإنسان لا يستحق أن يتذوق محبة الآب، لكن هذه الجسارة هي جسارة المحبة، "المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى الخارج"، فعندما يقف الإنسان أمام الآب السماوي ويقول له: أرغب في أن أذوق المزيد من محبتك والمزيد من تعزياتك والمزيد من الفرح بك والمزيد من الالتصاق بك، ولا أقول هذا لأنني إنسان طاهر، ولكنني أقوله لأنني جنث إليك كالابن الضال الذي عاد من كورة الخنازير بثياب رثة، ورائحة نتنة، ورغم ذلك لم تضن عليه بقبلات فمك". فالابن عاد إلى أبيه إنساناً خاطئاً، ولكن الآب السماوي "وَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَقَبَّلَهُ" (لوقا: ١٥: ٢٠). فإن كان يبدو في الآية تجاسر لكن الحقيقة إن المسيح من خلال هذا المثل هو الذي

شَجَعْنَا عَلَى هَذَا التَّجَاسُّرِ. فَبِالرَّغْمِ مِنْ خَطَايَانَا وَرَغْمِ الضَّعْفَاتِ الَّتِي فِينَا لَا نَتَرَدَّدُ فِي أَنْ نَنْهَلَ مِنْ مِثْلِ الْابْنِ الصَّالِ جَسَارَةَ الْمَحَبَّةِ، وَكَمَا قَبَّلَ الْآبَ الْابْنَ الَّذِي رَجَعَ مِنَ الْكُورَةِ الْبَعِيدَةِ، نَطْلُبُ نَحْنُ أَيْضاً هَذِهِ الْقَبْلَاتِ "لِيَقْبِلَنِي بِقَبْلَاتِ فَمِهِ". لَكِنَّ هَذِهِ الْجَسَارَةَ لَا تَخْلُو مِنْ اتِّضَاعٍ، فَالْنَفْسُ لَا تَقُولُ لَهُ قَبْلَنِي، إِنَّمَا لِيَقْبِلَنِي، وَكَأَنَّهَا تَرْجُوهُ أَنْ يَقْبِلَهَا، وَلِمَاذَا تَطْلُبُ هَذَا الطَّلِبَ؟ تَقُولُ النَفْسُ لَعْرِيسِهَا: لِأَنَّ حُبَّكَ أَطِيبَ مِنَ الْخَمْرِ.

ولماذا يا نفس لا تفصحي عن اسم حبيبك! فمن هو حبيبك هذا؟ فنقول: "وهل يوجد سواه! هذا حبيبي وهذا خليلي يا بنات أورشليم! وهل لي سواه؟". وهى بموقفها هذا تشابه مريم المجدلية التي قدّمت لنا صورة رائعة للمحبة العذراوية للمسيح، حين ذهبت إلى القبر وقالت للبستاني: "إِنْ كُنْتَ أَنْتَ قَدْ حَمَلْتَهُ فَقُلْ لِي أَيْنَ وَضَعْتَهُ، وَأَنَا آخُذُهُ" (يو: ٢٠: ١٥)، ولم تفصح عمّن تتكلّم. فتصوّر امرأة تلتقي رجلاً في البستان وتقول له: إن أنت أخذته، فقل لي أين وضعته، فأذهب وآخذه! فيسألها الرجل: مَنْ هو الذي أخذته؟ فنقول له: "وهل أتكلّم عن سواه؟ وهل لي حبيب سواه؟ وهل يشغل فكري وقلبي سواه؟ وهل ينفّث فمي للكلام عن شخص سواه؟ فليس لي سواه، ولست بحاجة أن أذكر اسمه، لأنّه حبيبي، وهو واحد وحيد هو شخص الرب يسوع المسيح.

"لِأَنَّ حُبَّكَ أَطِيبَ مِنَ الْخَمْرِ"، شَبَّهَتِ النَفْسُ الْبَشَرِيَّةَ مَحَبَّةَ الْمَسِيحِ بِالْخَمْرِ لِأَكْثَرِ

من سبب:

أولاً: الخمر في الكتاب المقدّس ترمز إلى الفرح، "وَحَمْرٌ تُفَرِّحُ قَلْبَ الْإِنْسَانِ" (مز ١٠٤: ١٥)، فالنفس ترى محبة المسيح كالخمر تفرّح قلبها في وسط عالم مثقل بالهموم والأحزان، هو الذي لم يعدنا بالراحة في العالم "وَجَمِيعَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَعِيشُوا بِالتَّقْوَى فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ يُضْطَهُدُونَ" (٢ تي ٣: ١٢)، في أي بلد وفي أي عصر فالذي يريد أن يعيش بالتقوى لا بد أن يحاصر بالضيق، ولم يحدد المسيح مكاناً معيناً في الأرض، فهي تشمل كل المؤمنين أينما وجدوا، "فِي الْعَالَمِ سَيَكُونُ لَكُمْ ضَيْقٌ" (يو ١٦٠: ٣٣)، ولكن يبقى لنا معين في وادي الدموع الذي نسلك فيه هو تذوق فرح المسيح "عَابِرِينَ فِي وَادِي الْبُكَاءِ، يُصَيِّرُونَهُ يَنْبُوعاً" (مز ٨٤: ٦)، ففي وسط آلام وضيقات الأرض غدت محبة

المسيح هي الخمر المفرحة التي تعزّي الإنسان لذلك قال المزمور عن الأرض: "لأنّه على البحار أسَّسَهَا، وَعَلَى الْأَنْهَارِ ثَبَّتَهَا" (مز ٢٤: ٢)، فالأرض مؤسّسة على هاتين الركيزتين، مؤسسة على البحار التي ترمز إلى الاضطرابات والقلق والتجارب والآلام التي لا تُحتمل لو لم يكن إلى جانبها نهر تعزية محبّة المسيح التي هي أطيب من الخمر، وهو ما أكد عليه بولس الرسول إذ قال: "كَحَزَائِي وَنَحْنُ دَائِماً فَرِحُونَ" بمحبة المسيح (٢كو ٦: ١٠).

ولكن مشكلة الإنسان حينما يدخل في ضيقة أنّه يحصر فكره في الضيقة، لذا عليه أن يتعلّم أن المخرج هو أن يفكر في المسيح يسوع مهما كانت الأسباب أو الظروف، فالتفكير في محبة المسيح يهبه الفرح حتى في أحلك الضيقات "يَسُوعُ الْمَسِيحُ هُوَ هُوَ أَمْسَاءً وَالْيَوْمَ وَإِلَى الْأَبَدِ" (عب ١٣: ٨)، فيفكر في الخلاص الذي تمّمه المسيح، ويتأمل في المسيح الذي أحبّه ومات من أجله، حينئذٍ يتحوّل هذا الرجاء إلى خمر فرح في نفسه فينتشي بالرغم من كل الآلام التي يعاني منها.

فعندما يفكر المؤمن في معاملات الله معه، ويتذكّر كم من ضيقات وكم من آلام وكم من تجارب وكم من أمور لم يجد لها معنى، ولم ير لها سبباً، وكم تجاذبته أسئلة وتساؤلات لم يجد لها إجابة، ومن ثمّ مرّت الأيام واكتشف أن يد الله كانت تعمل من خلال كل تلك الظروف لخيره، وبات يردد مع بولس الرسول: "وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الْأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعاً لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ اللَّهَ" (رو ٨: ٢٨)، لذلك فبدل أن يحاصر نفسه بالمشكلة فالأجدى أن يفكر في خمر المسيح، والفرح الذي سبق له وتذوّقه من يد المسيح، فيحيا بهذا الخمر على رجاء أن يضع الله في فمه تسبحة جديدة، كرجاء أيوب في القديم "مُؤْتِي الْأَغَانِي فِي اللَّيْلِ" (أي ٣٥: ١٠)، ففي وسط الليل يثق أن المسيح سوف يضع في فمه خمرًا جديدة، فرح سوف يساعده في اجتياز الطريق الضيق الذي يسلك فيه.

ثانياً: شُبّهت محبة المسيح بالخمر لأنّ الخمر يُسكرُ، والنفس التي تتذوّق محبة الله تفرح، فتغدو في حالة سكر روحي، وقد قال بولس في رسالته إلى أهل أفسس:

"ولا تَسْكُرُوا بِالْخَمْرِ الَّذِي فِيهِ الْخَلَاعةُ، بَلِ امْتَلِئُوا بِالرُّوحِ" (أف ٥: ١٨)، كما حصل في يوم الخمسين مع آباءنا الرسل حين امتلأوا من الروح القدس، فقال البعض عنهم "إِنَّهُمْ قَدْ امْتَلَأُوا سُلَافَةً" (أع ٢: ١٣)، معتقدين أنهم سكارى، ففرح المسيح يُسَكِّرُ الإنسان. وهناك فرق شاسع ما بين سُكْر العالم الذي يلجأ إليه الإنسان كي ينسى همومه ويهرب من مشاكله، وبين خمر المسيح. فخمر العالم له تأثير وقتي وما أن يبطل مفعوله حتى يعود الإنسان ليرى المشكلة أمامه دون حل يرتجى، بينما خمر المسيح ليس له تأثير وقتي ولا هو هروب من الواقع، إنما يرفع النفس فوق المشكلة، فالنفس التي تتأمل في محبة المسيح وسط الضيقات، يرفعها المسيح فوق الضيقة، فالضيقة موجودة ولكن النفس لا تنحصر فيها وتتعامل معها من الخارج، بينما الذي يهرب من مشكلة معينة يحاول أن ينساها بجرعة من خمر العالم، ولكنه بعد قليل من الوقت يستيقظ ويرى المشكلة أمامه، وهذه حالة مختلفة عن الفرح الروحي حيث ترى النفس المشكلة ولكن لا تعتمل في داخلها ولا تعتصر في قلبها إنما هي تعيش برضاء وثقة بأن المسيح سوف يرفعها كما رفع بطرس فوق الموج.

وقد يقول البعض لماذا خمر المسيح؟ فالعالم متَّخَم بالخمر ومسرات العالم متنوِّعة ولا حصر لها. ولهم أقول الكلمة التي قالها سليمان: "لِلضَّحْكِ قُلْتُ: مَجْنُونٌ وَلِلفَرَحِ: ماذا يَفْعَلُ؟" (جا ٢: ٢)، فما هي أفراح العالم؟ إذ ترى البعض عندما يفرحون ويستغرقون في الضحك، يتوجَّسون شراً ويقولون: "خير اللَّهُم اجعله خيراً"، لاعتقادهم أن أفراح هذا العالم لا بد أن يقابلها أحزان وبالمقدار نفسه، وهذه القناعة هي وليدة خبراتهم في الحياة. فضحك العالم هو جنون، لأنَّ الإنسان يفرح ويضحك وما يلبث أن يحزن ويقلق. لكنَّ فرح المسيح هو فرح دائم، وفرح يُسَكِّرُ لدرجة أن أهل العالم ينظرون إلى الذين امتلأوا بمحبة المسيح ويقولون: لقد أصابهم مسّ من الجنون، فالأنبيا أنطونيوس الذي ذاق خمر المسيح وذهب وباع الثلاثمائة فدان، هو بتقييم رجل العالم: إنسان مختل العقل.

ثالثاً: سبب تشبيهه محبة المسيح بالخمير هو أَنَّ الخمر تُصَنَّع من عصير العنب، وقديماً لم تكن المعاصر متوفرة كما اليوم، فكانوا ينحتون حوضاً كبيراً في الصخر ويجعلون في محوره فتحة صغيرة، ويضعون فيه عناقيد العنب، ثم يدخل رجل ويدوس العنب بقدميه، فينعصر العنب ويتسرب العصير من الفتحة وينساب في مجرى ليصب في حوض آخر. والنبي إشعياء قال: "مَا بَالُ لِبَاسِكَ مُحَمَّرٌ، وَثِيَابُكَ كَدَائِسِ الْمِعْصَرَةِ؟" فقد رأى بروح النبوة السيّد المسيح بعد الجلد يحمل صليبه وثوبه ملطّخ بالبقع الحمراء، فقال له: شكلك يشبه رجلاً كان يدوس معصرة عنب وآثار قطرات عصير العنب الأحمر المتطايرة واضحة على ثوبك. فردّ عليه السيّد المسيح وقال له: "قَدْ دُسْتُ الْمِعْصَرَةَ وَحْدِي، وَمِنَ الشُّعُوبِ لَمْ يَكُنْ مَعِيَ أَحَدٌ" (إش ٦٣: ٢ - ٣)، فكما يعصر العنب لكي يعطينا الخمير، هكذا عصر المسيح على الصليب، لكي يذوّقنا فرح محبته، لذلك شبّه فرح المسيح بالخمير.

(١ : ٣) "لِرَائِحَةِ أَذْهَانِكَ الطَّيِّبَةِ. اسْمُكَ دُهْنٌ مُهْرَاقٌ، لِذَلِكَ أَحَبَّتْكَ

الْعَذَارَى".

لِرَائِحَةِ أَذْهَانِكَ الطَّيِّبَةِ، عندما تتمتع النفس بقبلات الآب تدرك أَنَّ حب المسيح لها هو أطيب من الخمير، وحين يقبلها الآب السماوي بقبلات فمه تفتح عيناها وتكتشف محبة المسيح القويّة التي ظهرت في الصليب، وهذا الرابط يبرز الشركة ما بين الآب والابن في علاقتهما مع البشر. فالإنسان يذهب إلى المسيح، والمسيح يربطه بالآب وحين يرتبط بالآب فهو بدوره يربطه بابنه. فعندما يتذوّق الإنسان محبة الآب السماوي بفعل قبلات فمه، يدرك محبة المسيح التي هي أطيب من الخمير، وحين يتمتع بقبلات الآب يفهم عمق الصليب "لَأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ (الآب) الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ" (يو ٣: ١٦).

ومن جهة أخرى، عندما يتذوّق الإنسان قبلات الآب يدرك صفات المسيح ويقترب من المسيح فيشتم رائحته الطيبة، فيجلس معه ثم يخرج إلى الناس حاملاً معه

رائحة المسيح، فيصبح كما قال بولس "لأننا رائحة الْمَسِيحِ الذَّكِيَّةِ" (٢كو ٢: ١٥)، فهو يشبه إنساناً دخل إلى حديقة مزروعة بالريحان، فيخرج وعبير الريحان يفوح منه، وكلما يمضي وقتاً أطول في الحديقة يمتص أكثر أريج الريحان فيخرج معبّقاً برائحتها العطرة. وهذا هو حال الذي يجالس المسيح كثيراً، وبعلاقة مستمرة معه، يتأمل في محبته وفي أعماله، فتفوح منه رائحة المسيح وتنعكس في شخصيته طباع المسيح، دون أن يشعر أو يعرف كيف حصل له هذا الأمر وكأنه سرّ، فتتطبع فيه صفات المسيح وصورة المسيح، ينظر إليه الناس فيروا فيه المسيح.

وموسى صعد إلى جبل سيناء وتكلّم مع الله، ثم نزل وهو لا يعرف ما الذي حصل له، فبحسب اعتقاده إنّه كان يصلي فقط، ولكنّه عندما وقف أمام الله، انطبع نور الله في وجهه (خر ٣٤: ٢٩)، وعندما نظر الناس إلى وجه موسى رأوا نور الرب، فقالوا له: يا موسى احجب وجهك لأننا لا نقدر أن ننظر إليه. حتى اضطر موسى أن يضع برقعاً فهذا ما يحصل بالضبط مع الذين يعكسون طباع المسيح، فهو سرّ المسيح يظهر في كل من يجالسه كثيراً ويتكلّم معه كثيراً وفي كل من يصلي ويقرأ في الإنجيل ويتقدّم للتناول فيتقرّب من المسيح من أعماق قلبه فيشتم الذين حوله رائحة المسيح فيه، كيف؟ لا نعرف.

وأحياناً نلتقي بإنسان نعرفه منذ زمن بعيد، ونلاحظ تغييراً كبيراً في كلامه وفي طبعه وفي تصرفاته. فنسأله ما الذي جرى لك؟ فيقول لنا: "صدّقاً لا أعرف، وكل ما في الأمر أنني بدأت منذ فترة أذهب إلى الكنيسة، وأصلي أكثر من ذي قبل، وأتأمل في الإنجيل، وأناجي الرب طوال اليوم". فالذي حصل له أنّه اقترب من المسيح فأخذ رائحة المسيح الطيبة، وأصبح الناس الذين يلتقون به يشتمون فيه رائحة المسيح.

ولنا مثال عن أشخاص حملوا رائحة المسيح هو المتنيح أبونا ميخائيل إبراهيم الذي كان موظفاً في إحدى الدوائر الحكومية قبل أن يرسم كاهناً، وكان زميله في العمل رجلاً غير مسيحي، فقال له ذات يوم: "يا ميخائيل أفندي أنت كلك حلو وعيبك

الوحيد إنك مسيحي". فردَّ ميخائيل عليه بمنتهى البساطة وقال له: "الصفات التي تراها فيَّ ليست مني، إنما منه هو، ولو تركته سوف تتركني هذه الصفات". وقد عُرِفَ عن هذا الرجل العظيم أنَّه كان يقول للرب في صلاته: "الرائحة الحلوة هذه هي رائحتك، والرائحة النتنة هي رائحتي أنا، ولو ظهرت فيَّ رائحة حلوة، فهي رائحتك يا ربي".

اسْمُكَ دُهْنٌ مُهْرَاقٌ، ومهراق تعني مسكوب، فالعروس تقول لعريسها اسمك كالطيب المسكوب. ولكنَّ اسم الله في القديم لم يكن طيباً مهراقاً، إنما كان اسماً في داخل زجاجة، ولم يدركوا في القديم اسم الله بالصورة التي اعلنت عنه في الجديد، فاسم الله لم يكن معروفاً وسط الأمم ولم يكن دهنًا مهراقاً أو مسكوباً حتى بالنسبة لشعب الله. فيعقوب سأل الله وقال: "أخبرني بِاسْمِكَ. فقال: لماذا تسأل عن اسمي؟" (تك ٣٢: ٢٩). وأيضاً منوح والد شمشون قال لله: "ما اسمك حتى إذا جاء كلامك تُكْرِمُكَ؟" فقال له الرب: لماذا تسأل عن اسمي وهو عجيب؟" (قض ١٣: ١٧-١٨). وجاء في سفر الأمثال: "مَنْ ثَبَّتَ جميع أطراف الأرض؟ ما اسمه؟ وما اسم ابنه إن عرفت؟" (أم ٣٠: ٤). فاسمه لم يكن معروفاً لشعب إسرائيل أيضاً. بينما في العهد الجديد فإنَّ اسم الله قد أعلن في الأرض كلها "اذْهَبُوا إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعِ وَابْرِزُوا الْإِنْجِيلَ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا" (مر ١٦: ١٥)، فأصبح اسم الله دهنًا مسكوباً في كل الأرض، "لأنَّ للربَّ الأرض وملؤها" (مز ٢٤: ١). فالنفس تقول له: اسمك دهنٌ مهراق، وما اسمه؟ اسمه يسوع، ويسوع عُلق على الصليب وعندما صُلب "سَكَبَ لِلْمَوْتِ نَفْسَهُ" (إش ٥٣: ١٢)، فبالصليب أُعْلِنَ اسم يسوع المسيح في الأرض كلها، فيسوع المصلوب غدا اسمه دهنًا مهراقاً دهنًا مسكوباً.

لِذَلِكَ أَحَبَّكَ الْعَذَارَى، وكلمة لذلك تشير إلى الأسباب التي حملت العذاري على حبِّه، فبعد أن تذوّقت النفس قبلات الآب، وتذوّقت محبة المسيح، وتعرّفت على صفات المسيح وتقربت منه أكثر، كانت النتيجة أنَّ العذاري أحبته، محبة شملت الثالث الأقدس. فالنفس تقول للآب ليقبلني بقبلات فمه، فيما هي تتذوّق حب الابن، وتتقبَّل عطية الروح القدس المشار إليها بالدهن. فعلاقة النفس هي علاقة بالثالث، فالنفس

تتذوق قبيلات الآب وتتمتع بصليب المسيح، وينسكب في داخلها الروح القدس الدهن المهرق، وثمره عمل الثالث هو حب العذارى لله.

والآن نقدر أن نفهم لماذا الست دميانه انفطمت حتى عن المحبة البنوية الطبيعية لوالدها، عندما أنكر الإيمان أرسلت له قائلة: كنت أشتي سماع خبر موتك أفضل من خبر انكارك للمسيح، فما الذي يجعل فتاة تتصرف هذا التصرف سوى أنها ذاقت قبيلات فم الآب وأدركت محبة المسيح الفائقة التي ظهرت في الصليب، وانسكب فيها دهن الروح القدس بثماره وبأعماله، حتى أنه يمكننا القول: "لذلك أحبتك دميانه وتركت الدنيا وما فيها". فكلما يدرك الإنسان عمل الثالث في حياته، يرتبط بعلاقة حب قوية بالله، وما حصل مع دميانه ينسحب أيضاً على النساك والعباد ولباس الصليب مثل: مكسيموس ودوماديوس اللذان تركا الغنى والمجد وتبعوا الرب يسوع، فما الذي دفع كل هؤلاء إلى هذا القرار سوى تذوق النفس لمحبة الثالث، من خلال قبيلات الآب وعمل الابن على الصليب وانسكاب الدهن المهرق، عمل الروح القدس في النفس، فإذا بالنفس هائمة بالله "هؤلاء الذين اشرقت عليهم بشعاع حُبِّكَ لم يحتملوا السكنى بين الناس" كما قال الشيخ الروحاني، بل تاقوا إلى الانفراد بالله.

ولكن مادام الثالث يعمل في كل نفس من نفوس المؤمنين، فلماذا لا يحمل الكل بداخلهم ذات الحب لله؟ لأنَّ هذا الحب ينبض في قلوب العذارى فقط، والنفس العذراوية هي الغير مرتبطة بآخر. فالنفس التي تقطع الرباط بالعالم وتعيش حياة عذراوية بالمفهوم الروحي، تتيح لمحبة الثالث أن تثمر علاقة حب قوية بالله. ولكن عندما يحيا الإنسان وفكره منشغل في الأرض وكل اهتماماته في أمور الأرض، يستحيل عليه أن يتذوق محبة الله، مهما تمنى ذلك، لذلك فالحب العذراوي لا يعني أن يترك الإنسان أشغاله وأعماله ويتفرغ كلياً للعبادة فهذه دعوة خاصة للبعض.

لذلك سفر حزقيال ذكر لنا ثلاثة رجال قال عنهم الوحي أنهم أبرار في عيني الله (حز ١٤: ١٤). هم نوح وأيوب ودانيال. لماذا، وما الذي ميّزهم عن غيرهم؟ فنوح بار لأنه كازز بالبر، كما قال عنه معلمنا بولس الرسول، وهو يمثل الخدام والمكرسين، وقد يرى البعض في أن يكونوا مكرسين أبراراً لهو أمر سهل. وأيوب بار لأنه إنسان

صبور، احتمال كل ما جرى له في حياته وقبل الصليب برضى. وأيضاً قد يتذرع البعض بأن لكل إنسان طاقة محدودة للاحتمال. فكون نوح وأيوب رجلين بارين لهو أمر معقول، ولكن العجيب اعتبار دانيال باراً وهو مجرد موظف في البلاط الملكي، يعمل رئيس وزارة ويرأس المرازبة الذين هم حكام الولايات، مما يعني أن دانيال يشغل منصباً يتطلب منه جهداً ووقتاً، فيعمل ما لا يقل عن ستة عشر ساعة في اليوم وتحت أمره مئة وعشرون وزيراً. ولكن الذي حققه دانيال في وظيفته يعجز عنه حتى المكرسون لله. فدانيال كرز باسم الله إلى أعظم ملوك الأرض في ذلك الوقت وهو نبوخذنصر ومن بعده كرز لداريوس، وكان يستحيل على أي مكرس أو خادم أن يقف أمام نبوخذنصر، لكن الموظف الذي عنده شهد لإلهه، ونبوخذنصر اعترف بإلهه دانيال.

لذا فدانيال هو مثال وقدوة لغير المكرسين، فنحن لا ندعو الناس إلى ترك أشغالهم ولا ننكر أهمية تخصيص وقت لله، ولكن الإنسان المسيحي يستطيع وهو في عمله أن يكون شاهداً للمسيح، فقد يشهد في محبته أو في أمانته، أو على الأقل في ابتسامته، ولا أعني بها البشاشة الاجتماعية لأنها لا تبني الناس، فالناس بحاجة إلى ابتسامة من إنسان روحاني تكون ثمرة الروح القدس كاللطف فهذه تشيع محبة الرب بينهم. فالسعي إلى تذوق محبة الله لا يتطلب منا بالضرورة أن ننقطع للعبادة، وقولنا أن العذارى هن اللواتي ذفن محبة الله لا يعني أن نترك العالم ونتركس لله، فهذه الدعوة ليست للجميع، لكن هذا لا يمنع الإنسان من أن يعيش بقلب عذراوي، أينما كان في العالم، بل إن شوقه إلى تذوق محبة الله يحتم عليه أن يكون المسيح موضوع انشغاله وأن يستحوذ الله على أولى اهتماماته وأن يتدرب على أن يعيش بقلب عذراوي في عمله في وسط العالم.

ويحكى عن رجلٍ تقيٍّ كان يقطن الإسكندرية في الستينات ويدعى المقدس سعد، يعمل في محطة السكة الحديد، وكان خلال فترة العمل يستقطع وقتاً كل ثلاث ساعات ويدخل إلى عربة من عربات القطار ليرفع قلبه إلى الله ويصلي جزءاً من صلاة الأجبية، وكان مواظباً على هذا الأمر. وأي إنسان في عمله متى كانت الساعة

التاسعة صباحاً على سبيل المثال، يرفع قلبه إلى الله، ويفتكر أنه في هذا الوقت حل الروح القدس، ويسأله أن يعمل فيه، وبهذا يتدرب أن يقتني قلباً عذراوياً، صحيح هو في العمل، لكن القلب مشغول في المسيح. لذلك لا نستغرب أن الكنيسة قد اختارت في كل أعياد يوحنا المعمدان أن تصلي مزمور ٥٢ والذي نقول فيه: "أما أنا فمثل زيتونة خضراء في بيت الله"، مع أن يوحنا لم يدخل إلى بيت الله طوال حياته، إنما كان يعيش في البراري إلى يوم ظهوره لإسرائيل (لو ١ : ٨٠)، صحيح أنه كان في البرية، لكن قلبه كان مع الرب. وهذا لا يعني أننا ننكر أهمية التواجد في بيت الله، وتخصيص وقت للرب. ولكن الإنسان صاحب القلب العذراوي، حتى وإن كان خارج أماكن العبادة، فإن قلبه مع المسيح.

الفصل الثاني

(الأصحاح ١ : ٤ - ٦):

نتابع رحلتنا مع قصة الحب العجيب الذي تربط الله بالنفس البشريّة. فبعد أن تذوّقت النفس شركة الثالوث من خلال محبة الله الآب ونعمة الابن الوحيد التي تجلّت على الصليب وشركة الدهن عطية الروح القدس، بدأت تتاجي الله وتقول له: "الآن فهمت لماذا العذارى ذبن حباً بك، ولماذا أحببتك القديسة دميانه هذه المحبة الكبيرة، ولماذا تنازل بولس الرسول عن كل ما كان له ربحاً وحسبه من أجلك نفاية". وفيما النفس تتأمل في محبة العذارى للثالوث القدوس، نظرت إلى نفسها، وبدأت تتساءل: "أين أنا من هذه المحبة، محبة أبينا إبراهيم الذي قدّم ابنه طاعة لك، ومحبة بولس الذي تفرّغ في خدمتك، وغيرهما من القديسين، أين أنا منهم؟". ثمّ صرخت إلى المسيح وقالت له: "اجذبني وراءك فأجري، كما جذبت هؤلاء القديسين بمحبتك".

(١: ٤) "أَجْذُبْنِي وَرَاءَكَ فَنَجْرِي. أَدْخَلْنِي الْمَلِكُ إِلَى حِجَالِهِ. نَبْتَهِجُ وَنَفْرَحُ بِكَ. نَذْكُرُ حُبَّكَ أَكْثَرَ مِنَ الْخَمْرِ. بِالْحَقِّ يُحِبُّونَكَ".

أَجْذُبْنِي وَرَاءَكَ فَنَجْرِي، العالم مليء بمغريات كثيرة تستحوذ على انتباه الإنسان، لذا تصلّي النفس إلى الله لكيما يجذبها وراءه، ويشدّها إليه، لكي تنقطع الرباطات التي تعطل اهتمامها به وتشغل قلبها عنه. وفي القداس يقول أبونا للمؤمنين: "أين هي قلوبكم؟"، وقد نردد الكلام دون أن نعيه، ونقول: "هي عند الرب"، بينما هي قد تكون في مكان آخر! ففي كل مرة نقول هذه الكلمات في القداس، فليقف كل واحد منّا ويسأل نفسه بصدق: "هل قلبي فعلاً عند الرب؟"، وإن قال لي المسيح في تلك اللحظة: "تعال"، هل قلبي مشغول بالمسيح؟ فمن المهم عندما نصلّي أن نقول الكلام بصدق، ومن عمق القلب.

وأحياناً يستهوي القلب أمور أخرى غير الرب، فيما النفس ترغب بالتححرر من هذه المشغوليات الكثيرة التي تحيط بها وتشد القلب نحوها، لذا تصرخ وتقول له: اجذبني لكي تنقطع الرباطات التي تحول دون قربي منك"، لأنَّ المسيح قال: "لأنَّكم بدؤوني لا تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئاً" (يوه ١٥: ٥)، فهي تطلب إليه أن يقطع الرباطات لأنَّه الوحيد القادر على ذلك، فنتطلّع إليه وتقول: "يا ربي قلبي ليس عذراوياً، لأنَّه مهموم بالبيت وبالأولاد، وبالعمل وبالظروف، وبالمشاكل، وأنت وحدك قادر أن تحررني من هذه المشغوليات. اجذبني "لأنَّ الأجنَّة دَنَّتْ إِلَى الْمَوْلِدِ وَلَا قُوَّةَ عَلَى الْوِلَادَةِ" (إش ٣٧: ٣)، وأنا ليس عندي قوَّة لكي آتي إليك، ولا قدرة لي لكي انفضم عن العالم، فشدني إليك واقطع هذه الرباطات التي تُكَبِّلُني، ولو بالرغم مني".

اجذبني وراءك فنجري، فالنفس التي تقول للمسيح هذا الكلام، سوف يقول لها: الأمر الوحيد الذي يجذبك إليَّ هو الصليب، "وأنا إِنِ ارْتَفَعْتُ عَنْ الْأَرْضِ أَجْذِبُ إِلَيَّ الْجَمِيعَ" (يو ١٢: ٣٢)، ففي الصليب يكمن سر الألم الذي يسمح به الله لأولاده، ولكن لماذا الألم؟ وهل الله عاجز عن أن يجعل الحياة سهلة؟ بالطبع لا، ولكنَّ الألم هو السكين التي سوف تقطع الرباطات، فلولا وجود الألم ينغمس الإنسان أكثر فأكثر في العالم، ويتعلَّق به بإصرار، لأننا نتعلَّق بالعالم بالرغم من الأشواك المغروسة فيه. فكيف يكون الحال دون الآلام، فكيف يجذب الله الإنسان إليه وهو مربوط في العالم من كل الجهات؟ فمن المؤكد أنَّه سيتمزَّق، لذا كان لا بد من الآلام لكي تقطع الرباطات، وحينها يصبح القلب عذراوياً ويجري وراء المسيح الذي يجذبه إليه. وإذا ما راجع الإنسان حياته يكتشف كم من أمور تعلَّق بها عطَّلتَه عن الله وشغلته عن المسيح، ويدرك أن ثمرة الدخول في الآلام كانت قطع هذه الرباطات. لأنَّه لا يوجد ما يقطع الرباطات ويجذبنا إلى المسيح سوى الألم والتجارب.

والرب قال ليونان: "قُمْ اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة ونادِ عليها، لأنَّه قد صَعِدَ شَرْهُمُ أَمَامِي" (يون ١: ٢)، ولكن يونان لم يذهب! فماذا فعل الرب؟ أمسك الصليب وبدأ يقطع الرباطات، وبهذه الآلام البسيطة التي دخل فيها يونان جذبه الله إليه. فالله

يجذب النفس إليه بالألم، لذا فليقبل الإنسان الألم الذي يسمح به الله في حياته، وليكن على ثقة أن هذا الألم هو السكين التي ستقطع الرباطات، وأي ضيقة يسمح بها المسيح هي لكي تنفذ الإنسان من رباط معين يبعده عن الله، "احسبوه كل فرح يا إخوتي حينما تقعون في تجارب متنوعة" (يع ١: ٢). وحتى إن كان رباطاً طبيعياً كما حدث مع أبينا إبراهيم، حين طلب إليه الرب أن يأخذ ابنه وحيد الذي يحبه ويصعده محرقة، فكيف لإبراهيم وإسحق ابن شيخوخته. وهي محبة طبيعية، فحب الأب لابنه ليس خطيئة، ولكن الله بحكمته وجد أن هذه المحبة سوف تعطل إبراهيم، ولن يكون قلبه عذراً إذا ما تعلق بابنه، والرب أراد نفس إبراهيم عذراء عفيفة، لا تعرف سوى حبيبها ولا ترى ولا تسمع سواه، عذراء عفيفة للمسيح. فحتى المحبة الطبيعية يمكن أن تكون حاجزاً بين الإنسان والله ولا بد من قطعها.

والسيدة العذراء من دون أدنى شك حملت بين ضلوعها قلباً عذراً، لم ينبض سوى بمحبة المسيح، ولم يكن في حياتها سوى المسيح، وما وصلت إليه هو بسبب الآلام الكثيرة التي احتملتها منذ طفولتها، فعاشت يتيمة واحتملت آلام الرفض من الجميع، وبلغت قمة الألم عندما رأت ابنها معلقاً على الصليب كما قال لها سمعان الشيخ: "وأنت أيضاً تجوز في نفسك سيف" (لوقا ٣٥: ٢). فالسيف هو الذي جعل قلبها، قلباً عذراً.

فالمسيح يجذب إليه الإنسان أولاً: بالألم، لذا فلنقبل الألم من يد الله لأنه سوف يقطع الرباطات. وثانياً: يجذب المسيح الإنسان بالكلمة، فيسمع الإنسان كلمة تشده إلى المسيح، وهذا ليس عملاً بشرياً إطلاقاً، إنما عمل روح الله، كما عمل في ليدية وفتح قلبها لتصغي إلى ما كان يقوله بولس (أع ١٦ : ١٤)، فسمعت كلمة من بولس، الكلمة التي بالروح القدس، جذبت ليدية إلى الإيمان والاتصاق بالمسيح. فأحياناً يكون الإنسان مكتلاً برباط معين ويسمع آية من الإنجيل، فيشعر بقوة جذب جبارة تشده وتحله من الرباط، ويحظى بحرية أولاد الله.

وثالثاً: يجذب المسيح الإنسان بالنعم وبفيض الخيرات، فالله يعرف الأسلوب الذي يناسب كل إنسان. كما فعل مع أحدهم، فجاء إليّ وأخبرني عن نعم الله عليه

وقال لي: "يا أبانا أنا لا أستأهل كل هذا الخير الذي صنعه الرب معي! لأني أعمل كذا وكذا وكذا، ولكنَّ اللهَ برحمته بادلني بعطايا ونعم لا أستحقها". فاللهُ يجذب الإنسان بهذا الأسلوب، كما فعل مع يعقوب الذي كان يمكر ويحتال، فيعقوب خدع أباه إسحق وأخذ منه البركة واحتال على أخيه عيسو وسمح الله بنجاح خطته ليس لأنَّه راضٍ عن أسلوبه، وأيضاً مكر يعقوب على خاله لابان، وأنجح الله خطته، لأنَّ الله أراد أن يجذب يعقوب من خلال هذه الناحية من حياته. وعندما ظهر الله ليعقوب قال له صراحة: "أنت اعتقدت أن القضبان التي وضعتها في مساقى الماء هي التي ساهمت في ولادة الغنم مخططة، ولكنِّي أنا الذي عوَّض عليك بهذه الطريقة". فمع أنَّ يعقوب سلك في طريق ملتو ولكنَّ الله جذب يعقوب إليه من خلال عمله هذا، وعندما أدرك يعقوب أنَّ كل ما حصل عليه هو عطية من الله وليس نتيجة أساليبه الملتوية قال للرب: "صَغِيرٌ أَنَا عَنْ جَمِيعِ الطَّافِكِ وَجَمِيعِ الأَمَانَةِ الَّتِي صَنَعْتَ إِلَيَّ عَبْدِكَ" (تك ٣٢: ١٠). فاعترف أمام الله عن عدم استحقاقه للمعاملة التي عامله بها الله، فقال له الرب: أنا كنت أجذبك إليَّ بهذه الطريقة.

فعندما تقف محتاراً بين طريقين أيهما تختار، فقل له: يا ربي ما الذي يرضيك، أن أسلك في هذه الطريق أو في تلك. ما هي الوجهة التي تريدني أن أسير إليها حتى لو كانت ضد رغبتني، فليس هذا مهماً ما دامت هذه إرادتك، أريد أن أشعر أن هذا خيارك، وليس خيارني. واعطني قوَّة لكي أسلك في الطريق التي تتوافق مع رغبتك، حتى ولو كنت لا أقوى على السير بها، اجذبني وراءك فنجري، مهما كانت الطريق التي تقودني إليك مؤلمة، فالطريق ضيق والطريق كرب.

أَدْخَلَنِي الْمَلِكُ إِلَى حِجَالِهِ، فما إن سمع السيّد المسيح طلبه العروس "اجذبني وراءك" حتى استجاب لها، لذلك تتابع وتقول: ادخلني الملك إلى حجاله، فالطالبة التي تجد قبولاً كبيراً في قلب الرب هي أن تقول له النفس: اجذبني وراءك، كما جذبت القديسين. فحبة المسيح تشبه المغناطيس الذي تضع بقربه قطعة من الحديد فيجذبها، هكذا يجذب النفس إليه.

فبعد أن قارنت النفس حالها بحالة العذارى اللواتي أحبن المسيح، تولّد في قلبها رغبة قويّة في أن يجذبها المسيح إليه، لكي تحبّه كما أحبّته العذارى. وكما أسلفنا القول، فالعذارى بالمفهوم الروحي تعني كل إنسان وكل نفس. والطلبة التي تفرّح الرب هي أن تقول له النفس: "يا ربي اجذبني وراءك، ولا تدع العالم يجذبني، ولا تسمح لضعفاتي أن تجذبني، بل اجذبني أنتَ إليّ". وبعد أن يجذب المسيح النفس يدخلها إلى حباله. والحبال هو غرفة الملك الخاصة، ولكنّ مَنْ هو الذي يحق له الدخول إلى الحبال؟ فكما يحصل في البيوت عادةً، يستقبلون الغرب في الصالون، ولكن الابن أو أهل البيت عموماً، هم الوحيدون الذين لهم الحق في الدخول إلى الحبال، وكأنّ حال هذه النفس كما يقول بولس الرسول: "فَلَسْتُمْ إِذَا بَعْدَ غُرَبَاءَ وَنُزُلًا، بَلْ رَعِيَّةٌ مَعَ الْقَدِيسِينَ وَأَهْلِ بَيْتِ اللَّهِ" (أف ٢: ١٩)، فقد أعطى لأولاد الله أن يدخلوا إلى الحبال. والحبال في مفهومه الشامل هو السماء، ويستحيل الدخول إلى السماء بدون نعمة المسيح "لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً" (يو ١٥: ٥)، ولكن ما هو الحبال الذي سوف يتمتع المؤمن بالدخول إليه على هذه الأرض؟ المعنى الأوّل للحبال هو الكنيسة، والدخول إلى الكنيسة رحمة من الله، كما قال داود النبي: "أَمَّا أَنَا فَبِكَثْرَةِ رَحْمَتِكَ أَدْخُلُ بَيْتَكَ" (مز ٥: ٧)، فبدون رحمة الله لن يتاح لنا أن نجتمع في حبال الله، بيت الرب، لذلك في كل مرّة نأتي إلى الكنيسة ونشارك في القداس نقول: "أتيت بنا إلى هذه الساعة"، فكون الله دعانا وجعلنا في هذا الموضع المقدّس، فإنّه عمل يستحق الشكر، لأنّ مجيئنا إلى الكنيسة لم يكن ليحصل، حتى وإن كان في داخلنا رغبة للمجيء، لو لم يجذبنا المسيح ويدخلنا إلى بيته.

لذلك نقّ بآنّ محبة المسيح هي التي تجذبنا وتجمعنا وتمنع العوائق الكثيرة التي يضعها عدو الخير في طريقنا، لأنّه لم يكن لنا الحق بالدخول إلى بيت الرب إنما "اخترت لنفسي أن أطرح على باب بيت الله، أفضل من أن أسكن في مظال الخطاة" (صلاة الساعة السادسة)، وهذه تذكرنا بحمامة نوح حيث يخبرنا سفر التكوين أنّه بعد الطوفان، أرسل نوح الحمامة، فلم تجد مقرّاً لرجلها، فرجعت إليه ووقفت في كوة الفلّك، فمد نوح يده وأخذها وأدخلها عنده إلى الفلّك (تك ٨: ٩). ونحن نقف أمام الله ونقول

له: نحن كالحمامة ليس لنا مقر ههنا، ونفوسنا لا ترتاح في عالم مليء بالخطايا والنجاسة، بل نتوق أن تمد يدك وتدخلنا إلى حبالك.

أمّا المعنى الثاني للآية "أَدْخُلْنِي الْمَلِكُ إِلَى حِجَالِهِ" فهو كما قال العلامة أوريجانوس: الكتاب المقدّس يحمل معنيين، المعنى الحرفي أو السطحي أو اللفظي، وهذا متاح لكل مَنْ يقرأ الكتاب أن يفهمه. ولكن يوجد عمق آخر في الكتاب وهو إدراك المعنى الروحي الذي وراء الكلمات. وكان الرابيون اليهود يقولون في تعاليمهم: "الإنسان الذي يدرك المعنى الروحي في كلمات التوراة يَتَذَوَّقُ فرح الفردوس ذاته". والقديس أغسطينوس قرأ الكتاب المقدّس قبل أن يقبل الإيمان بالمسيح، وهو قال عن نفسه أنّه أمسك بالكتاب وطوّح به بعيداً معتبراً إياه مجرد كتاب يحتوي على بعض القصص. وما زلنا في أيامنا هذه نسمع من بعض الناس مثل هذا القول! وأيضاً هناك البعض الآخر يقول: قد قرأت الكتاب المقدّس، فما هو الجديد فيه لكي أقرأه ثانية! لأنّ ما رأوه هؤلاء هو المعنى الحرفي للكتاب. لكنّ عندما يصلّي القارئ أو المتأمل قبل أن يبحر في رحاب الكتاب، ويقول: "يا ربي، اجذبني وأدخلني إلى حبالك، واكشف عن عينيّ لكي أرى عجائب من ناموسك". فيحمّله الروح إلى عمق لا تسبر أغواره، ويكشف له الله المعنى الروحي الذي يقف وراء كلمات الكتاب المقدّس. فالمعنى الثاني للدخول إلى الحجال هو معرفة أسرار الله، لذلك قبل أن نفتح الكتاب فلنطلب هذه الطلبة ونقول: "أدخلني الملك إلى حجاله"، حتى ينعم علينا الروح القدس بالتفسير الروحي، ونبلغ العمق الروحي لكلمة الإنجيل.

أمّا المعنى الثالث للحجال فهو الشعور بمعية الله في الصلاة، فالصلاة ليست مجرد إنسان يقف ويردد بعض الكلمات، بل هي الوقوف في حضرة الله، فيكفي المؤمن خلال القداس الذي يمتد لساعتين أو أكثر من الوقت، أن يشعر ولو لدقائق معدودة وكلّ على قدر قامته، بحضرة الله في الصلاة، فإذا بفكره بالكامل منصب في المسيح، فيتذوّق لحظات من الدخول إلى حجال الملك، لم يكن ليحظى بها لو لم

يجذبه المسيح، كما حصل مع بطرس ويعقوب ويوحنا حين أخذهم إلى جبلٍ عالٍ منفردين، وتجلّى أمامهم (مت ١٧ : ٢١). فهذه قَمّة أوقات الصلاة وهى الدخول إلى حجال الملك.

"تَبْتَهْجُ وَنَفْرُحُ بِكَ"، فعندما دخلت العروس أو النفس إلى حجال الملك وبدأت تدخل إلى عمق أكثر، وتتعرف على أسرار الله، صرخت وقالت: نبتهج ونفرح بك. في أكثر الأحيان يطلب الإنسان أن يدخل إلى حجال الملك لكي يسأله عطايا مادية، وإن سألته عن أحواله يقول لك: "أنا سعيد وجميع أموري على أحسن ما يرام". فتقول له: ما سر سعادتك؟ فيقول لك: "كان عندي مشكلة والرب قد حلّها". فهل يقول هذا الإنسان مع العروس، نبتهج ونفرح بك؟ بالطبع لا، فهو فرح ومبتهج بالعطايا التي أغدقها عليه الرب، وليس بالرب نفسه. ولكن النفس التي تدخل إلى الحجال وتفرح بالرب، فإنّ جمال الحجال نفسه لا يحول دون فرحها بالرب، وقد وصفه القديس يوحنا في سفر الرؤيا، حين تكلم عن العرش الإلهي، والبحر الزجاجي شبه البلور، وعن طغمت الملائكة التي لا نعرف عنها سوى أسمائها. فعندما نصعد إلى السماء سوف ننبهر بجمال السماء التي هى بيت الأب ولكن لن نبتهج ونفرح بالبيت، ولا بالملائكة، وليس بالكل الذي صار جديداً (رو ٢١ : ٥)، بل سوف نفرح ونبتهج بالله.

ومريم المجدلية دخلت إلى القبر وهى تبكي ورأت ملاكين، ومع أنّ رؤية الملائكة تفرح ولكن مريم لم تكف عن البكاء، وتحدثت معهما عن الذي يشغل فكرها، والدموع تتفرق في مقلتيها، فقالت لهما: "إنهم أخذوا سيدي، ولست أعلم أين وضعوه!" (يو ٢٠ : ١٣). فلم تكتف مريم برؤية الملائكة، فهى تريده هو، لأنها تبتهج وتفرح به هو.

والسيد المسيح قال قبل صعوده إلى الأب: "أنا أمضي لأعد لكم مكاناً". والأمر الطبيعي أن يقول: سوف آتي وأخذكم إلى المكان الذي أعدته لكم. ولكنّه لم يقل هذا، إنما قال: "آتي وأخذكم إليّ" (يو ١٤ : ٢ - ٣). لأنّ فرح النفس ليس بالمكان، رغم أنّ بيت الأب يتسم بجمال أخاذ لم تره عين من قبل، ولكنّ فرح النفس هو بالرب يسوع.

والملفت في المشهد أنَّ العروس دخلت بمفردها، "أدخلني الملك إلى حجاليه"، ولكنَّها لم تفرح وتبتهج به وحدها، لذا قالت: نبتهج ونفرح بك، بصيغة الجمع. فالمؤمن المسيحي يتطلَّع حوله فيرى نفوساً بعيدة عن الرب، ويشتاق من كل قلبه أن يأتي بها إلى المسيح، ولا يعرف كيف! فإن تكلم مع إنسان كلمة روحية لا تؤثر فيه، وإن دعا آخر إلى الكنيسة لا يلبي الدعوة، فيحترار في أمره ماذا يفعل! والحل يكون بالمثل والقوة، فما دام هو فرحاً بالرب فعندما يدخل إلى حضرة الله ويتذوق محبته ويبتهج ويفرح بالرب، فلا بد أن يؤثر فيمن حوله، وهكذا يحضرهم إلى المسيح. ولكن هذا لا يعني أن يتمتع المؤمن الذي لم يتذوق بعد محبة المسيح عن دعوة الآخرين إلى الكنيسة، بل على العكس، فهذا العمل يفرح قلب المسيح جداً، وفي مرات كثيرة يعطي السيد المسيح الخدام، ولا أقصد فئة الخدام فقط، ولكن كل من يخدم المسيح بأي صورة من الصور حتى في دعوة الآخرين، فإنَّه يعطيهم بفيض ليس من أجل الخدام أنفسهم بل من أجل النفوس التي يريد المسيح أن يجذبها عن طريقهم.

"تَذَكَّرْ حُبَّكَ أَكْثَرَ مِنَ الْخَمْرِ"، فالمسيح أدخل النفس إلى حجاليه، وهناك رأت الكثير من العذارى اللواتي جذبهنَّ المسيح بمحبته، وجميعهنَّ لهنَّ اهتمام واحد، ويشغلنَّ شخص واحد هو السيد المسيح، وهؤلاء العذارى يرمزن إلى القديسين، فكل ما تقوى علاقة النفس بالمسيح تزيد بالتبعية علاقتها بالقديسين، فثمرة محبة النفس للمسيح، هي مزيد من الارتباط بالقديسين، وثمرة محبة النفس للمسيح، الدخول إلى حجاليه حيث تلقى وتتعرَّف إلى القديسين، بعكس ما يدعي إخوتنا البروتستانت ويقولون: أنَّ محبة القديسين والارتباط بهم تلغي المسيح من حياة المؤمنين. في حين أن روابط المحبة والشركة مع القديسين ما هي إلا ثمرة محبة المؤمنين للمسيح، فيصبحون رعية مع القديسين، وأهل بيت الله.

"تَذَكَّرْ حُبَّكَ أَكْثَرَ مِنَ الْخَمْرِ"، وبإليت الجميع يحذون حذو العذارى فيكون موضوع أحاديثهم باستمرار المسيح وذكر محبة المسيح، بدلاً من أن يتكلموا في أمور

ومواضيع لا طائل منها وهذا ما يحصل غالباً، إمّا لأنهم يخلطون من التحدّث عن المسيح أو لأنّ المسيح ليس في فكرهم أساساً، بل يفتكرون به فقط عندما يأتون إلى الكنيسة، بينما المطلوب منهم أينما اجتمعوا ومهما كانت المناسبة، إن كان اجتماع عمل أو واجبات اجتماعيّة أو في أي لقاء يضمهم هو أن "تذكر حبك"، فيتكلمون عن المسيح وعن محبة المسيح، فيخبرون بعضهم البعض عن كلمة تعزية سمعوها أو يتشاركون في آية من الإنجيل فيتعزّون بها.

وأيضاً نذكر حب المسيح عندما نجتمع في القداس ووصلّي أبونا ويقول: "في كل مرّة تأكلون من هذا الخبز وتشربون من هذه الكأس تبشّرون بموتي". فيرد المؤمنون: "حقاً، حقاً بموتك يارب نبشّر"، وقد قال لنا المسيح: "اصنعوا هذا لذكرى"، ففي كل مرّة نجتمع في القداس "تذكر حبك"، والأمر العجيب هو بقدر ما نتكلّم عن المسيح، ونذكر حب المسيح، نزداد حباً لشخص المسيح، وبذلك نشابه الإنسان الذي يشرب الخمر فكما يشرب مزيداً من الخمر كلما يسكر بها ويرغب في أن يستزيد منها، وهكذا نحن كلما نذكر حب المسيح ونذكر معاملاته، نجد أن ذكره ومحبته أطيب من الخمر، ونزداد في معرفة المسيح.

"بالحقّ يُحبُّونك"، وكما أسلفنا القول، فإنّ الكتاب المقدّس يحمل أحد معاني الحال، فإذا ما دخلت النفس هذا الحال، وبدأت تقرأ في الكتاب، وتتعرّف على حياة القديسين، فتراق أبانا إبراهيم في طريقه الروحي وترى محبة إبراهيم للرب، حينئذ تصرخ وتقول: "يا ربي، بالحق إبراهيم يحبّك". فعلاقة النفس بالقديسين تتّمي علاقتها بالمسيح، وكلما تتعرّف إلى حياة قديس، يخفق قلبها بمحبة المسيح، لأنّ عمل المسيح قد ظهر في حياة هذا القديس. وأيضاً "بالحق يحبونك"، تعني أنّ محبة المسيح ليست بالكلام، بل وكما قال المسيح: "إِنْ أَحَبَّنِي أَحَدٌ يَحْفَظ كَلَامِي" (يوه: ١٤: ٢٣)، فهذه هي المحبة الحقّة. فالبعض يظن أن محبة المسيح مجرد عواطف أو انفعالات نفسيّة، فيما حياتهم العمليّة بعيدة تماماً عن كلمة الله، وهذه تعكس محبة زائفة وليس محبة حقيقيّة،

لذلك قال معلمنا القديس يوحنا: "يا أولادي، لا نُحِبُّ بالكَلَامِ ولا باللسانِ، بل بالعملِ والحقِّ" (١ يوحنا ٣: ١٨)، أي السلوك في وصية الرب.

(١ : ٥) "أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم، كخيام قيدار، كَشَقَقِ سَلِيمَانَ". فالنفس تنظر إلى محبة العذارى للمسيح، وتتساءل: أين أنا من محبة هؤلاء للمسيح؟ حينئذٍ ينتابها إحساس عميق بعدم فائدتها، فتصرخ وتقول: أنا سوداء. فارتباط النفس بالقديسين يعلمها الاتضاع، لأنها حين تنظر إليهم، وتجري مقارنة صغيرة بين محبتهم للمسيح ومحبتها هي للمسيح، وبين خدمتها البسيطة وخدماتهم الجزيلة للمسيح، تدرك هول المسافة، وتقول: أين أنا منهم؟

فأحياناً البعض منا إذا ما صلى مرة، أو حتى إذا قضى الليل بطوله في الصلاة، يخال نفسه قد أصبح قديساً، وطبعاً كلنا قديسون بتعبير معلمنا بولس الرسول في رومية، ولكني أقصد القداسة بالمفهوم الشائع، فيعتقد أنه وصل إلى قمة روحية عالية. ولكن حين ينظر إلى الأنبا بيشوى، ويقارن نفسه به، يكتشف المسافة الشاسعة التي تفصله عن القداسة الحقّة، ويتيقن أنه مهما صلى فلن يوازي الأنبا بيشوى. حينئذٍ يقول عن نفسه: "أنا سوداء"، فالمؤمن الذي يغمض عينيه عن مآثر القديسين، وينظر فقط إلى إنجازاته، فمن السهل جداً أن يعتريه الغرور والاعتداد بالنفس. وإذا ما صلى قليلاً أو قام بخدمة صغيرة، ينادي على السطوح: "تعالوا انظروا أنا صليت وأنا خدمت". مع أننا إذا ما أخذنا أية خدمة، أو بالحري جميع خدمات الخدام مجتمعة، ووضعناها مقابل خدمة بولس الرسول، فإنها لا تساوي شيئاً. فمهما خدم الإنسان فإذا ما نظر إلى حياة وأعمال القديسين الذين أحبوا المسيح، سوف يكتشف ما اكتشفته عروس النشيد ويقول معها: "أنا سوداء"، وأنه لم يفعل أي أمر ذي أهمية أو ما يستحق الذكر. ومهما أعطى الإنسان فإذا ما نظر إلى الأنبا أنطونيوس أو الأنبا ابرام، سوف يجد عطاءه بسيطاً جداً وزهيداً، مقارنة مع عطائهما، ويقول: "أنا سوداء". وهكذا بالمقارنة تتعلّم النفس الاتضاع وتُحفظ من الغرور.

ولكن إن اكتفت النفس بالقول أنا سوداء، سوف تتعب وتحبط جراء إحساسها بصغر النفس، لذا تداركت الأمر بالقول: "وجميلة يا بنات أورشليم، كخيام قيدار، كشقق سليمان". وقيدار هو ابن اسماعيل، وخيام قيدار تفتقد إلى الجمال، بينما شقق سليمان أو ستائر بيت الملك سليمان، مؤلفة من ألوان مختلفة كالقرمز والإسمانجوني والأرجوان والبوص، وجميعها ألوان جميلة. فالنفس تقول: أنا سوداء كخيام قيدار، ولكني جميلة كشقق سليمان، وهذان الشعوران تارةً بالسواد وتارةً بالجمال، ينتابان الإنسان مداولةً فيما هو سالك في الطريق الروحي، ومن الأهمية بمكان أن ننتبه لهما لأن لكلٍ منهما مخاطره، فمن السهل جداً أن ينتفخ الإنسان وينكبر لمجرد أن يقوم بأي عمل روحي، ولكن عندما ينظر إلى القديسين، يكتشف أنه لا شيء، ويقول: "أنا سوداء"، وهنا يكمن الخطر الثاني، فإن اكتفى الإنسان بالنظر إلى ضعفه، سوف يصاب بصغر نفس ويتعب، لذا عليه أن يثق أن نعمة المسيح التي عملت في القديسين سوف تعمل فيه أيضاً، وهذه الثقة سوف تشدّه، وحينها يقول: "أنا سوداء وجميلة"، فالإنسان أسود بذاته لأن هذه طبيعته البشريّة، ولكنّه جميل بفعل عمل المسيح فيه.

لذلك استخدم القديس أغسطينوس تشبيهاً لطيفاً ومعبراً جداً، فقال: إن النفس البشريّة تشبه قطعة فحم لونها أسود، ولكن عندما تتوهج بالنار تتغيّر وتشتع بالنور والدفع، والنفس البعيدة عن المسيح، تشبه الفحم السوداء، ولكن حين نتحد بالمسيح فإنّها تلتهب بمحبة المسيح، لذا فهي تقول: أنا سوداء بطبيعتي، ولكنني جميلة بنعمة المسيح.

وقد أشار القديس أبو مقار إلى تدريب مفيد يساعد الإنسان في الحفاظ على توازنه خلال تأرجحه بين محاربة الشيطان له بصغر النفس حيناً والكبرياء حيناً آخر. فيقول له: "عندما يحاربك الشيطان بصغر النفس ويدفعك إلى أسفل، فاصعد إلى فوق، وحين يحاربك بالكبرياء، ويدفع بك عالياً، انزل إلى تحت". فالشيطان يُلقي في عقل الإنسان أفكاراً ليمنعه من النّقدّم في الطريق الروحي، فيرى الإنسان سواده أمام عينيه، ويقول في نفسه: "أنا لا فائدة مني، دائماً أعد الله ولا أفي بوعودي، وأكرر الخطايا

نفسها، فلا جدوى مني مهما حاولت"، ففي هذه الحالة ينصح القديس أبو مقار أن يتطّلع إلى فوق، فيتذكّر نعم الله، ويتذكّر محبة المسيح، ويتأمل في محبة المسيح للسامريّة، وينظر إلى المسيح الذي تحن على الابن الضال، وكيف ركض ووقع على عنقه وقبله.

وأحياناً أخرى يُلقي الشيطان في عقل الإنسان فكر كبرياء، ويهمس في أذنه: "أنت رجل قديس، أنت عملت وخدمت وحققت كذا وكذا"، فالشيطان يغري الإنسان بجمال المسيح الذي وضعه المسيح فيه، لكي ينسبه الإنسان إلى نفسه، ففي هذه الحالة ينصح القديس أبو مقار بالنزول إلى تحت، وأن يتذكّر سواده. وذلك بالرجوع إلى نفسه ورؤيتها على حقيقتها حينئذ سوف يقول: "أيعقل أن أنسى نفسي؟ وأنسى ضعفاتي! وأنسى خطيئتي؟". وهذه الموازنة بين الأمرين سوف تشكّل مقياس الكمال الروحي للنفس: "أنا سوداء وجميلة. لأنّ طبيعتي السوداء جميلة بالمسيح".

أيضاً، "أنا سوداء وجميلة"، يصح أن تقولها كنيسة الأمم لكنيسة اليهود، فكنيسة الأمم سوداء لأنّ الأمم كانوا غرباء عن رعيّة إسرائيل، بلا إله في العالم، ولكن بعد أن غمرتهم محبة المسيح وجذبتهم إليه، أصبحوا رعيّة مع القديسين وأهل بيت الله. فكنيسة الأمم تقول لكنيسة اليهود: "أنا سوداء بتاريخي وبكل الماضي الذي كنت فيه غريبة عن الله، لكنني فيما بعد أصبحت جميلة بالمسيح".

(٦:١) "لا تَنْظُرْنَ إِلَيَّ لَكُونِي سَوْدَاءَ، لَأَنَّ الشَّمْسَ قَدْ لَوَحَّتْنِي. بَنُو أُمِّي غَضِبُوا عَلَيَّ. جَعَلُونِي نَاطُورَةَ الْكُرُومِ. أَمَّا كَرَمِي فَلَمْ أَنْطُرْهُ".

"لَا تَنْظُرْنَ إِلَيَّ لَكُونِي سَوْدَاءَ"، فما هو سرّ سواد النفس؟ تعرض لنا النفس ثلاثة أسرار لكونها سوداء. السرّ الأول، لأنّ الشَّمْسَ قَدْ لَوَحَّتْنِي، والشمس هي شمس التجارب، ففي مرات كثيرة، وإن كان الله يسمح بالضيقَات لأجل نمو النفس، ولكنها في الوقت عينه تكون سبباً في انحناء النفس في داخلها.

وبولس الرسول اختبر شمس التجارب حين سخر منه أقرب المقرّبين إليه، الذين هم أهل كورنثوس، وقالوا عنه: "حضور الجسد فضّعيف، والكلام حَقِيرٌ" (٢كو ١٠: ١٠)، فبحسب رأيهم عندما يكون بولس حاضراً بينهم فلا يعكس حضوره الشخصية القويّة والحازمة التي تبدو في رسائله، فلا يرون فيه سوى الضعف، ولكن عندما يبتعد عنهم يتسلّط عليهم برسائله. وبولس عندما يسمع هذا الكلام يقول: "لأنّ الشمس قد لوحنتي". وأيوب أيضاً عانى من السخرية، وقد عبّر عنها بالقول: "أما الآن فقد ضحك عليّ أصاغري أياماً" (أي ٣٠: ١)، فإن سألنا أيوب فسوف يجيب: "لا تنتظرن إليّ لكوني سوداء في التجربة، لأنّ الشمس قد لوحنتي".

والسرّ الثاني لكونها سوداء، فنقول: **بَنُو أُمِّي غَضِبُوا عَلَيَّ**، فإن كان السيّد المسيح قد تألم من شعبه، من اليهود، "إلى خاصّته جاء، وخاصّته لم تقبله" (يو ١١)، فلا نستغرب أن يتألم أولاده الآلام نفسها، لأنّ "أعداء الإنسان أهل بيته" (متى ١٠: ٣٦). بنو أُمِّي غضبوا عليّ، يقولها شخص مثل داود النبي، عندما هاج ضده ابنه أبشالوم، وأراد أن يسلب منه المملكة. وأيضاً يقولها شخص مثل بولس الرسول، لأنّ أكثر الكنائس التي تعب من أجلها وخدم فيها، كانت الأقلّ حباً له، فعندما ينظر إليهم يقول: بنو أُمِّي، أحبائي، أقربائي، والمفترض أن أمدح منهم، قد غضبوا عليّ.

أَمَّا سَرّ سَوَادِ النَفْسِ الثَّالِثِ، فنقول: جَعَلُونِي نَاطُورَةَ الْكُرُومِ. أَمَّا كَرَمِي فَلَمْ أَنْظُرْهُ، والناطورة هي حارسة الكرم، ففي أحيان كثيرة يشغل الشيطان النفس بكرم العالم، ويلهيها في أمور العالم، حتى إذا ما جاءت إلى كرم الرب تعجز عن الاعتناء به، فيتعطّل نمو النفس الروحي، لأنّه يستحيل على الإنسان أن يحرس كرمين، ومشكلة الإنسان أنّه دائماً يعرج بين الفرقتين، فهو يريد أن يحصل على كرم الرب بدون أن يتخلّى عن كرم العالم، ولكنّ النفس التي تحرس كروماً كثيرة سوف يغطيها السواد.

وهناك مفهوم آخر للآية، وهو حين يجتهد الإنسان لكي يحرس كروم الآخرين بدل أن يسهر على كرمه لينقيّه ويصلحه، فيراقب كروم الآخرين، وينشغل بالناس

وبقضاياهم، ويقِيم أعمالهم ويرى عيوبهم ويصدر الأحكام عليهم، فيما الأجدى لخلص نفسه أن ينظر إلى عيوبه ونقائصه، لكي ينقي نفسه ويصلحها، فتكون النتيجة أن الآخرين ينمون ويزدادون فيما حياته الروحية تتقهقر إلى الوراء.

وهذا هو العامل الرئيسي الذي يجعل الإنسان يشتكي ويقول: "أنا أذهب إلى الكنيسة، وأصلي الأجبية وأقرأ في الإنجيل، فلماذا لا أنمو روحياً؟!". لذلك عندما يقرأ عن حياة القديسين وكيف عاشوا، يعتقد أنهم أناس جاءوا من كوكب آخر. مع أن الإنجيل الذي يقرأ فيه اليوم، هو نفسه الذي قرأه الأنبا انطونيوس، والقديس الذي يشارك فيه اليوم هو نفس القديس الذي كان يصليه الأنبا بيشوى، وهو يتبع نفس النهج الذي نهجه القديسون! فلماذا هم وصلوا إلى القامات العالية هذه، بينما هو ما زال في مكانه؟

والسبب في ذلك لا يعود إلى أنهم انطفأوا عن كرم العالم، وكرسوا ذواتهم لكرم الرب فقط، إنما لأنهم لم يكونوا يتفحصوا مطلقاً في كرم الآخرين. وإن سألتهم: "ماذا فعل فلان أو فلانة؟" يقولون: "هذا ليس من شأننا". فهم يهتمون فقط في أمورهم، ولا يتدخلون في أمور سواهم من الناس، بل يصبؤون كل اهتمامهم في نمو حياتهم الروحية. من هنا ندرك أن مشكلة الإنسان المتعثر في الطريق الروحي تكمن في أن عينيه ليست على كرمه، بل على كرم الناس، وشغله الشاغل مراقبة الذين حوله، ماذا قالوا، وماذا فعلوا، في حين يكفي الإنسان أن يكتف عن النظر إلى كرم الآخرين والتدقيق في ضعفاتهم حتى ينمو ويتقدم في الطريق الروحي أشواطاً بعيدة.

لذلك نسمع قصصاً عن القديسين تدعو للعجب، تكشف لنا مدى إصرارهم على عدم الإدانة، ومنهم القديس الأنبا موسى، عندما طُلب منه أن يشارك في الحكم على أحد الرهبان فامتنع، لأنه كان رجلاً فاهماً وحكيماً، فرفض أن يجعلوه ناطورة الكروم فينسى كرمه، فينظر إلى خطيئة أخيه ويتغاضى عن خطيئته، ولمّا أصرّ الآباء على حضوره، خرج من قلايته وأحضر شوالاً وملأه بالرمل، وحمله على ظهره، وذهب إلى الآباء المجتمعين، فلما رآه بهذه الصورة، سألوه: ما هذا؟ فأخبرهم: خطيئتي ورأيي

وأنا لا أراها، وأنتم تريدون مني أن أدين راهباً على خطيئته وهكذا نحن، نحمل خطايانا وبدل أن نتفحص كرمنا ننظر إلى خطيئة أخينا.

والخلاصة أنَّ النفس المتمثلة بعروس النشيد تعرف أنَّها سوداء بسبب التجارب التي اجتازتها، تجارب مصدرها الله، وقد عبَّرت عنها العروس بقولها: الشَّمْسُ قَدْ لَوَّحَتْني وهذه التجارب قال عنها القديس يعقوب: "إِحْسِبُوهُ كُلَّ فَرْحٍ يَا إِخْوَتِي حَيْثَمَا تَقَعُونَ فِي تَجَارِبِ مُنَوَّعَةٍ" (يع ١: ٢)، فهذه التجارب لن تعطل الإنسان، بل تساهم في نموّه الروحي. وأيضاً تجارب مصدرها الناس، وقد عبَّرت عنها العروس بقولها: "بنو أُمِّي غضبوا عليّ". وأخيراً تجارب مصدرها الشيطان، عدو الخير الذي يسعى وراء الإنسان لكي يشغله عن الاهتمام بكرم الرب، ويوجهه إلى كرم العالم.

والعروس تقول: لَا تَنْظُرَنَّ إِلَيَّ لَكُونِي سَوْدَاءَ، رائع وأن يردّد الإنسان هذه الآية لنفسه عندما يشعر بضعفه أو حين يعي خطيئته، وكأنّه يقول: "لا تنظري يا نفسي إليّ لكوني أنا سوداء، لنألا أشعر بصغر نفس، ولكن تطلّعي إلى فوق إلى الرب، وترجّي نعمته، وكفي عن إدانة الآخرين لكونهم سود، فتستقر فيكِ نعمة الرب".

الفصل الثالث

(الأصاح ١: ٧ - ١٧):

تعتقد النفس أنَّ هذه التجارب التي صيرتها سوداء، هي التي حالت دون ارتقائها درجات روحيّة عالية. وهذا ما يظنه كل إنسان، لذلك نسمعه يقول: "لو أنَّ المشكلة الفلانيّة لم تحصل، لو كنت أعيش بمفردي، لو أنَّ الناس تكفَّ عن مضايقتي، لكنك الآن أعيش مع الرب، وأتقدّم في الطريق الروحي، وأصبح قديساً". فهو يحسب أنَّ التجارب التي يجتازها في حياته، سواء كانت تجارب من الله، أو من الناس، أو من الشيطان، هي التي تعطلّ تقدّمه في الطريق الروحي.

وعروس النشيد قد اعتبرت أن شمس التجارب هي السبب في تأخرها الروحي، لذلك حاولت أن تستنقهم من عريسها عن هذه التجارب؟ وما حكمته منها؟ والسيد المسيح سوف يرد عليها ويكشف لها أنها أخطأت في تفكيرها، لأنَّ هذه التجارب هي الطريق الوحيد لكي تنمو النفس وتبلغ إلى قامة روحيّة عالية.

(٧: ١) "أخبرني يا مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي، أَيْنَ تَرَعَى، أَيْنَ تَرُبُّضُ عِنْدَ الظَّهِيرَةِ. لماذا أنا أَكُونُ كَمَقْتَنَعَةٍ عِنْدَ قُطْعَانِ أَصْحَابِكَ؟"

بدأت النفس تخاطب العريس وتقول له: "أنت تعرف أنني أحبك، رغم أنني لم أصل بعد إلى درجات روحيّة عالية، كذلك التي وصل إليها القديسون، ولكن هناك أمراً يحيرني، أين ترعى وأين تربض عند الظهيرة؟". فهي تريد أن تعرف أين يتوارى عند الظهيرة، أي في وقت التجربة حين تعاني وتتألم، ويشغل تفكيرها سؤالان، وتبحث لهما عن إجابة، السؤال الأول: أين يرعى؟ والمقصود بالرعاية قيادة الراعي للغنم وتأمين العلوقة له. والسؤال الثاني: أين يربض؟ أي المكان الذي تستريح فيه خرافه في وقت التجربة.

وهذان الأمران طالما شكّلا مصدر قلق وحيرة للنفس وهى في التجربة، فهى تسأله أين ترعى، لأنّ الإنسان في التجربة في وقت الظهيرة يشعر أنّه تائه، ويجهل أيّة وجهة يسلك، بعد أن كان فيما مضى داخل الحظيرة وسط قطعان المسيح، الذين ينتظرون مجيء الراعي فيفتح لهم الباب ويخرجون وراءه، مستأنسين بصوته، يقودهم إلى المراعي الخضراء حيث يسد جوعهم ويروي عطشهم من ماء الراحة، ثمّ يعود بهم إلى الحظيرة. وهذه المرحلة تعتبر فترة راحة، تخلو من التجارب والآلام. ويظن الإنسان أنّ هذه الأوقات، هى التي توقّر له الفرصة لكي ينمو روحياً.

فالأمر الأوّل الذي يتعب النفس في التجربة إحساسها بالضياع، فتفقد القدرة على تمييز صوت الله في هذه الفترة، فتعتقد أنّ الله قد تركها وتخلّى عنها، فتتساءل في حيرة، ما هو الذنب الذي اقترفته، وماذا يريد الله منها! فتشعر أنّها قد فقدت راعيها، لأنّها لا تشعر بحضوره، ولا ترى يده تعمل في حياتها، وتنتظر حولها، فإذا بالأبواب قد أغلقت جميعها في وجهها.

ولا تقتصر مشكلة الإنسان في التجربة على هذا الأمر، إنما ينتابه إحساس بعدم الشبع، فعندما كان مع الراعي كان يقوده إلى المرعى الأخضر، حيث كان يقتات فرحاً، بينما في وقت التجربة، لا يوجد طعام، لأنّ الخروف لا يستشعر حضور الراعي، لذا لا يعرف أن يأكل. وهذه إحدى نتائج التجربة، فهو يقرأ في الإنجيل كما هى عادته فلا يتعرّى، ولا تحرك الكلمة مشاعره، ولا يفهم معنى الكلام، بعد أن كان فيما مضى، يشعر بفيض النعمة داخل قلبه كلما تأمّل في كلمة الله. فالتجربة لا تتعبه بحد ذاتها بقدر ما يقلقه فقدان شبعه بكلمة الإنجيل، فسابقاً عندما كان يصلّي كان يشعر أنّه يقف في حضرة الله، وأنّ صلاته تدخل فعلاً، فيتلقفها واحد من الأربعة والعشرين قسيساً ويقدمها للعرش الإلهي، بينما في التجربة يفقد حتى الرغبة في الصلاة، ويعجز عن رفع قلبه إلى الله.

وما يتعبه أيضاً في التجربة فقدان التعزية، رغم أنّه يتابع الممارسات ذاتها، ويشارك في القداسات ولكنّه لا يشعر بالتعزية ولا بالفرح، فهذه هى صعوبة التجربة، لذا

تتساءل النفس وتقول لله في وقت التجربة، عند الظهيرة: "أين ترعى؟ لماذا لا أتعزى ولا أفرح، لماذا كلّمك لا تلمس قلبي؟ بعد أن كنتُ فيما مضى أسمع صوتك يكلمني، وأشعر أنّ كلام الإنجيل مكتوب لي أنا".

وهذه كانت مشاعر أيوب عندما اجتاز في التجربة، فأيوب لم يشتك من التجربة بحد ذاتها، لكن ما أحزنه تساؤله أين ترعى؟ فوقف أمام الله وقال له: "فهمني لماذا تخصمني" (أي ١٠: ٢)، وكأنه يقول لله: أنت تحيرني، قل لي لماذا، ما هو ذنبي، لماذا تتركني دون تعزية؟ وبهذا يكون أيوب قد عبّر أصدق تعبير عن أكثر ما يضايق النفس في التجربة.

لذا نرى النفس تعاتب عريسها ومخلّصها بعتاب الحب، الحب الذي ما زال يملأ قلبها بالرغم من التجربة وتقول لحبيبها: "أخبرني، قل لي يا ربي، يا من تحبّه نفسي أين ترعى، أين تخنفي في وقت التجربة، فأبحث عنك ولا أجذك. أخبرني يا مَنْ تحبّه نفسي أين تريض؟"، وهو الأمر الثاني الذي تشتك منه النفس في التجربة.

فبعد أن كان الراعي يقود الخراف إلى المرعى الأخضر الغني بالعشب والنباتات المتنوعة، حيث تسرح وترعى فتأكل كميات كبيرة جداً، ثم يعود بها إلى مكان راحة رطب فتستظل خلف صخرة حيث المريض. فيستريح الخروف ويبدأ يجتر فيسترجع الأكل ويمضغه على مهل ويتلذذ بطعمه. وفي المريض أيضاً يتفقد الراعي خرافه واحداً واحداً، ويتفحص كلّ خروف على حدة، ليرى إذا ما كان بصحة جيدة أو يشكو من خطب ما، ففي المريض يكون للراعي جلسة خاصة مع كل خروف بمفرده.

وينسحب الأمر نفسه على المستوى الروحي مع المسيح الراعي الصالح الذي يهتم بخرافه، تلك النفوس التي تحبّه وتتبعه، فبعد أن يقدّم لها الطعام، يقودها إلى المريض، إلى مكان الراحة حيث تنمو الشركة بين الراعي والخروف من جهة والشركة ما بين الخراف بعضهم البعض من جهة أخرى. وهذه الحالة سبق للنفس واختبرتها مع المسيح ولكنها الآن تشعر أن المسيح محتجب وهذا ما يزعج النفس ويقلقها في هذه التجربة وهو إحساسها بغياب المسيح، أين تريض؟ مع أنّها مرّت في تجارب سابقة،

ولكنّها احتملتها لأنّها كانت ترى المسيح وتحس به، بينما هذه المرّة تجتاز التجربة وحدها، لذلك هي مضطربة وتئن من ثقل التجربة عليها.

فالفتية الثلاثة دخلوا في تجربة صعبة جداً حين ألقوهم في أتون النار المتقدة، ولكنّ التجربة لم تلقِ بثقلها عليهم، ولم يعانون من نتائجها، كما حدث مع عروس النشيد، لأنّ الرابع كان يتمشّى معهم في وسط النار، وهو "شبيه بابن الآلهة" (٢٥: ٣١د)، والنفس أو العروس قد شعرت في تجارب سابقة بيد الله تسندها لذلك لم تشتك لأنّها لم تكن متعبة أو منزعة، بل على العكس فقد كانت تتعم بالراحة في وسط التجربة، لأنّها لمست حضور الله وتمتعت بدعمه آنذاك، ولكن ما أزعج النفس في هذه التجربة الجديدة هو غياب الله، وإحساسها بأنّها متروكة، متروكة من الله وأحياناً من أخواتها أيضاً، ففقدت الشركة مع الجميع وبالتالي فقدت الفرح وأصبحت تعاني ما تعانيه وحيدة حزينة.

وهذا الإحساس بالتخلي لم يختبره الفتية لأنّ الرب لم يتركهم وحدهم في أتون النار، ولا حتى دانيال عندما ألقوا به في الجب لأنّ الله أرسل له ملاكاً من السماء فتعزى به. لذا نرى النفس تتساءل في حيرة واضطراب أين ترعى؟ وأين تريض؟ وهنا يكمن جوهر المشكلة، فليست التجربة رغم صعوبتها، إنما غياب الراعي وفقدان الشبع وعدم الراحة، وهذه هي الأسباب التي لأجلها تعتقد النفس أنها تحول دون تقدّمها في الحياة الروحية فهي لا تشعر بحضور الله ولا بالشبع ولا بالراحة.

وقبل أن نسترسل مع العروس التي تمثّل كل نفس من أنفس المؤمنين في مراحل كثيرة من حياتهم، لا بد لنا من أن نتوقف عند بعض الدروس الروحية لحياتنا. فكما سألت العروس هذين السؤالين أين ترعى؟ أي أين تطعم خرافك. وأين تريض؟ أي أين تستريح خرافك. فنحن أيضاً بحاجة إلى مكان الأكل وإلى مكان الراحة.

والطعام الروحي هو كما قال الرب في سفر التثنية "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل ما يخرج من فم الرب" (ث ٨: ٣)، لذلك نحن بحاجة إلى غذاء الروح الذي هو القراءة المستمرة في الكتاب المقدّس، وأشدّد على القراءة الشخصية، لأنّه قد يستمع المؤمن إلى عظات وهو أمر جميل "ليكن كل إنسان مُسرِعاً في الاستماع" (يع ١: ١٩)،

ولكنَّ هناك فرقاً شاسعاً ما بين الاثنين. فقد يحلو لإنسان أن يجلس قرب بئر ماء وينتظر آخر لينتشل له الماء ويعطيه ليشرب، وتجده مرتاحاً وفرحاً، ولكن هناك لذة أخرى حين يُنزل الإنسان دلوهُ في البئر وينتشل الماء بنفسه، حتى وإن لم ينجح دائماً، فإذا بدلوه تارةً ملآن وتارةً أخرى فارغ، أو حتى إن انتشل مقدار كوب واحد فأثَّه سوف يكتشف لذةً مختلفة.

فمن المفيد والجيد أن نذهب إلى اجتماعات ونسمع عظات، أو نصغي إلى إنسان يكلمنا بكلمة الله، لأنَّ هذا هو غذاء النفس "وُجِدَ كلامك فأكلته، فكان كلامك لي للفرح ولبهجة قلبي" (إر ١٥: ١٦)، فهذا جانب مهم وضروري، لكنَّ الإنسان بحاجة إلى أن يفتح الكتاب المقدَّس وينهل من ينابيعه بنفسه. وهناك الكثيرون ممن لهم علاقة حميمة ومميزة مع الكتاب، لدرجة أنَّه أصبح يجد في الكتاب ما يتلاءم مع أوضاعهم وظروفهم، ويجدوا فيه الجواب الشافي، فيغدو الكتاب مرشدهم. ونبع فرحهم. وأيضاً نسمع عن الآباء الأولين في الكنيسة كيف كانوا يرشدون أبناءهم في الاعتراف إلى نصوص في الكتاب كلٌّ بحسب حاجته وبما يتوافق مع الخطيئة التي تعثره، فتسمع أباً يقول لإنسان يعاني من خطيئة اللسان: اذهب واقرأ رسالة يعقوب الأصحاح الثاني، ويقول لآخر قد فترت المحبة في قلبه نحو إخوته: اذهب واقرأ رسالة كورنثوس الأولى الأصحاح الثالث عشر، وهكذا دواليك. فالنفوس التي ترشد الآخرين بهذا الأسلوب لها عِشْرَة عميقة ودائمة مع الكتاب المقدَّس، وتعرف من أي سفر تستقي وكيف تنتقي النصوص بشكل يتناسب مع حاجاتهم أو ضعفاتهم أو مشاكلهم، فهي تعرف كيف تأكل من الكتاب.

والأمر الثاني أننا أيضاً بحاجة إلى أن نريض، بمعنى أن نأخذ قسطاً من الراحة. فالمؤمن يأتي إلى العشية، ويشارك في اجتماعات الصلاة، فيستمع إلى عظات كثيرة. وبعد ذلك يحتاج لأن يريض فلا يكتفي بالحضور والاستماع فقط، بل يشابه الخروف الذي تضع أمامه مائدة دسمة تحتوي على كميات كبيرة من الغذاء، فيأكلها ويخزنها في جوفه، دون أن يهضمها، وفيما بعد يريض وحده ويبدأ يجتر، أي يسترجع الطعام ويمضغه ثانيةً. كذلك المؤمن بحاجة إلى أن يختلي بنفسه، لكي يسترجع الكلام الذي

سمعه ويفكر فيه. فموهبة البحث والدراسة لم تعطَ للجميع ولكنَّ اللهَ خصَّ بها البعض، وإذا ما استمع المؤمن إلى شروحات أحد الآباء يدهش من الغنى والدَّسم الذي يفسر به كلمة الله، ورغم هذا الغنى الذي ولا شك يستفيد به المؤمن من المعلمين ولكنَّ إذا ما انفرد بنفسه واجتر ما سمعه، فلا بد أنَّ اللهَ سوف يعطيه هو أيضاً أن يكتشف بنفسه ويتذوَّق من هذا الغنى، ولو بمستوى أقل من الذي سمعه، ولكن هذا اليسير الذي يحظى به بمجهوده الخاص له فرحته، وله لذته، لأنَّه يشعر أنَّ المسيح قد قدَّم له خصباً هذا الطعام. والمؤمن بحاجة إلى الاثنين فهو بحاجة إلى أن يرعى فيأتي ويسمع كلمة الله، وبحاجة إلى أن يربض ويجتر بالأفكار والمعاني التي سمعها.

وحينما يكون المؤمن في اجتماع وتلمس قلبه كلمة أو فكرة، فليتجاوب معها ويجتر فيها وليس من الضروري أن يتابع بقية الموضوع، وحتى إن كان في الكنيسة أو في الصلاة، فأحياناً وخلال القداس يسمع المؤمن صلاة تلمس قلبه، مع أنَّه يسمعها دائماً في القداس ولكن في ذلك اليوم يكون لها وقعها الخاص عليه، وعلى سبيل المثال، الصلاة التي نردها في القداس فنقول: "إننا يا سيِّدنا لسنا أهلاً أن نتشعَّع في طوباوية أولئك القديسين"، فالمؤمن يقولها كل يوم ولكن في لحظات معينة يشعر بخشوع وانكسار لمجرد سماعها ويقول في نفسه: "فعلاً يا ربي من أين لي أن أطلب شفاعاً أمنا العذراء، أو شفاعاً مارمرقس، فأنا لا أستحق"، وتغدو هذه الصلاة الدسم الذي يجتر فيه بقية القداس، ويمر الوقت دون أن يشعر، وربما الى نهاية القداس، ويشعر بفرح لم يسبق له أن شعر به في قداس آخر، وهذا فقط لأنَّه رضى يجتر فيما سمعه. فرائع أن نسمع العظات، ولكنَّ الأروع أن نربض ونجتر ونتأمل فيما سمعناه.

"أخبرني يا من تُحبُّه نفسي، أين ترعى، أين تُربض عند الظَّهيرة"، ولهذه الآية مفهوم على مستوى آخر، وهو الحاجة إلى الخلوة مع المسيح وهو أمر مهم للحياة الروحية، لا يمكن أن تنمو من دونها هذا من جهة، ومن جهة ثانية الجلوس مع بقية الإخوة خراف المسيح في سبيل بناء حياة الشركة فيما بينهم. على أن لا يكتفي المؤمن بأمر ويهمل الآخر ظناً منه أن الصلاة في البيت والخلوة تغنيه عن شركة الكنيسة لأنَّ

الكتاب يقول: "هُودًا مَا أَحْسَنَ وَمَا أَجْمَلَ أَنْ يَسْكُنَ الْإِخْوَةُ مَعًا!" (مز١٣٣: ١)، ويتابع المزمور "لأنَّه هناك أمر الرب بالبركة"، والبعض ممن قرر أن يكتفي بالصلاة والتأمل بمعزل عن الإخوة قد اختبر بأسى الجفاف الروحي، فرغم اجتهاده ومحاولاته، لم تتبع له السماء نقطة ماء واحدة ولم ي تلقَ أي تعزية ولم يشعر بأي فرح، ولكنَّه حين ذهب إلى الكنيسة، للصلاة مع إخوته المؤمنين، أفاض الله عليه الخيرات، وفتح له كوى السماء.

وكما أنَّه لا يمكن للمؤمن أن يكتفي بالأولى ويهمل الثانية، كذلك لا يمكنه أن يكتفي بالتانية ويهمل الأولى، فيظن أن حضور العشيات ومشاركته في القداسات تغنيه عن الخلوة الخاصة مع المسيح، فهو بحاجة إلى أن يرعى، أي الخلوة مع الراعي، وأيضاً بحاجة إلى أن يربض، أي حياة الشركة مع إخوته المؤمنين، لأنَّ حياة الشركة تمد المؤمن بالقوة، وفيها يحظى كل واحد منهم باهتمام الآخر، كما يقول بولس الرسول: "ملاحظين بعضكم بعضاً"، فيأتي المؤمن إلى الكنيسة ويرى إخوته، ويلاحظ أنَّ الأخ الفلاني لم يأت اليوم، فلا يقول باستخفاف: "وأنا ما شأنى"، كما قال قايين: "أحارسُ أنا لأخي؟" (تك ٤: ٩)، لأنَّه إن تخلَّى عن المسئولية ولم يسأل عن أخيه مرةً ومرتين، فإنَّ هذا الأخ سوف يضيع في العالم. ونحن كمؤمنين مسئولون عن بعضنا البعض، وكلُّ منَّا حارس على أخيه، فنجتمع معاً ونؤازر بعضنا البعض، في عالم تسوده البغضاء لأنَّ "جَمِيعُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَعْيشُوا بِالتَّقْوَى فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ يُضْطَهُدُونَ" (٢ تي ٣: ١٢).

ففي بعض البلدان يضطهد الإنسان لكونه مسيحياً، فيتعرَّض لمضايقات في عمله وفي رزقه بالإضافة إلى سوء المعاملة التي يتلقاها من بعض المحيطين به في حياته اليومية. أمَّا في البلدان التي تتمتع بحرية المعتقد فيتعرَّض المسيحي لنوع آخر من المضايقات، وذلك لأنَّه قرر أن يعيش حياة تَقِيَّة نَقِيَّة طاهرة في وسط مجتمعات تنادي بمبادئ تتنافى مع مبادئ الإنجيل، فيضطهد لأنَّه يريد أن يسلك بالأمانة في وسط جماعة تستخدم أساليب ملتوية لبلوغ أهدافها. ولا يغيبنَّ عن بالنا أنَّ الإنسان الذي يعيش في بلدان متحضرة تنعم بالحريات الدينية هو أكثر عرضة لإغراءات العالم

وما فيه من تجارب يسهل السقوط فيها، لذا فإنَّ وضعه لا يقل صعوبة عن الإنسان الذي يعيش في بلد يضيق عليه بسبب إيمانه المسيحي، لأنَّ هذا الأخير قد انطم عن العالم بعد أن ساهمت هذه الضيقات التي تمارس عليه في نموّه الروحي، فهو يشبه فرخ النسر الذي لا يبارح العش إلا بعد أن تدسَّ له أمه عيدان الشوك في العش لكي تحمله على الطيران، فكلما بسط جناحه الصغير تؤلمه وخزات الشوك وتحثّه على ترك العش والتخليق عالياً بعيداً عنه فيبدأ في تعلّم الطيران.

وهكذا يتعامل الله مع أولاده، فيسمح للمؤمن ببعض الضيقات في العالم ليضع في قلبه الرغبة في الطيران "لَيْتَ لِي جَنَاحاً كَالْحَمَامَةِ، فَأُطِيرُ وَأَسْتَرِيحُ" (مز ٥٥: ٦)، كما يقول داود النبي، لأنَّ الحياة السهلة تجعل الإنسان يجنح نحو إغراءات العالم، لكنَّ الضيقات تقطمه عن العالم، وتقضي على كل رغبة قد تتنازع نحو أي شيء في العالم، وتزرع في قلبه توقفاً إلى السماويات.

فالضيقات تلازم كل الذين يريدون أن يعيشوا بالنقوى، وإنْ بأشكال متعددة تختلف بحسب المجتمعات، ففي بعضها يضطر الإنسان أن يعمل طوال اليوم، وهذا نوع من الاضطهاد واقع عليه، لأنّه إذا ما استقطع من وقت العمل كي يتفرّغ للصلاة، فسوف يقلل من دخله المالي مما يؤثر على مستوى معيشته. ولكنْ مهما كانت ظروفه ومشغوليّاته يمكنه أن يجد وقتاً للخلوة واللقاء الفردي مع الله، فيخصص نصف ساعة للصلاة قبل ذهابه إلى العمل، وليس لأحد أن يتذرع بعدم توفر الوقت، فليس عليه سوى أن يستيقظ قبيل الموعد المعتاد لنهوضه من النوم بنصف الساعة، وهذا الوقت يكرسه للرب، وتكون خلوة يتعزى فيها في بداية اليوم، قبل أن يرتبك ذهنه في صعوبات الحياة ومشاكل العمل، وهذه الخلوة الصباحية مع الرب، تكون جلسة حلوة لأنّ الذهن لا يزال صافياً، ومن ثمّ يذهب إلى عمله وفي داخله قوّة تساعد على مواجهة العالم. فالإنسان بحاجة إلى "أين ترعى" الخلوة الفردية، وبحاجة إلى "أين تريض" وهو مشاركته في اجتماعات الكنيسة.

"لماذا أنا أكون كمقنعة عند قطعان أصحابك؟"

فتقول العروس لعريسها: "لماذا أشعر أني أضع قناعاً على وجهي؟". فالصورة مأخوذة من العالم الشرقي القديم، حيث كانت المرأة تستر وجهها أمام الغرباء، وليس أمام أهل البيت. فالنفس تقول له بمرارة: "لماذا أشعر أني غريبة عنك، وعن قطعانك، عن خرافك؟" فما يزعجها أنها تشعر بما تشعر به رغم أنها في وسط القطيع، وداخل المرعى فهي لم تغادره، مما يعني أنها موجودة في الكنيسة تصلي وتقرأ الإنجيل، فهي في المرعى، ولكنها تشعر أنها مقنعة، تشعر أنها غريبة عن الله، فلا تشعر به ولا تسمع صوته، كذلك تشعر بالغربة عن إخوتها المؤمنين، فتتظر إلى أخ في الكنيسة فإذا هو منسحق وعيناه ملآنة بالدموع فيما هي تعاني من جفاف ي نابيعها، فتتساءل لماذا هي غريبة؟ ثم تتظر إلى أخ آخر فإذا به فرح في وسط قطعان المسيح، بينما هي حزينة لا تستطيع أن تشاركه فرحه. فالنفس تسأله في توجع وحيرة: "لماذا أنا مقنعة أمامك؟ لماذا يوجد برقع ما بيننا؟ وأيضاً بيني وبين إخوتي، لا أستطيع أن أشاركهم أفراحهم أو ضيقاتهم! لماذا هذا القناع؟!". فلا شك إنها حالة صعبة تجتاز فيها النفس في هذه الضيقة والتجربة.

ولنا من الكتاب مشهد معبر عن حالة هذه النفس وتغربها عن إخوتها، وهي بين لوط وأبينا إبراهيم، فبينما أبونا إبراهيم جالس أمام الخيمة يستقبل الرب، ويستقبل ملائكة، ونرى فضائله في جوده ويأخذ وعد الله له بآب، ويقف يشفع في سدوم ويصلي: "شَرَعْتُ أَلَكُمُ الْمَوْلَى وَأَنَا ثَرَابٌ وَرَمَادٌ" (تك ١٨: ٢٧)، بينما لوط وكما قال عنه الكتاب: "وكان البار يوماً فيوماً يعذب نفسه" (بط ٢: ٨)، فهذا ما شعر به لوط، فأخوه متعز وفرح وفي شركة مع الرب وحياته الروحية تنمو، بينما هو يكابد الآلام ومتعب ويصرخ إلى الله: "لماذا يا ربي أعاني ما أعانيه؟ لماذا أكون كمقنعة عند قطعان أصحابك؟ فهذا هو الأنين الذي تنن به النفس، وهذا هو تقرير النفس عن سر تأخرها الروحي.

(١ : ٨) "إِنْ لَمْ تَعْرِفِي أَيُّهَا الْجَمِيلَةُ بَيْنَ النِّسَاءِ، فَاخْرُجِي عَلَى آثَارِ الْعَنَمِ،
وَارْعِي جَدَاكَ عِنْدَ مَسَاكِينِ الرُّعَاةِ".

في الآية السابقة عرضت العروس مشكلتها أمام العريس وأوضحت له سبب تراجع مستواها الروحي، فسمع العريس كلماتها المثقلة بالأنين ودخل صراخها أذنيه، وتكلم...، وهذه هي المرة الأولى التي نسمع فيها صوت العريس في السفر، تكلم وقال لها: إِنْ لَمْ تَعْرِفِي أَيُّهَا الْجَمِيلَةُ بَيْنَ النِّسَاءِ، وحين يتكلم العريس فَإِنَّ الأرض والسماء تصمتان. ومن كلامه سوف ندرك فكر المسيح ونفرح، وهذا هو هدف الكتاب المقدس، فهو لا يحتوي على قصص، إنما غايته كشف فكر الرب.

فبعد أن تعرّفنا إلى حالة النفس وما تعانيه في التجربة من ضياع وعدم شعور بالشعب وفقدان للتعزية، يملكها إحساس بالرفض وعجز عن بناء شركة مع إختوتها، وأيضاً تبين لنا كيف ساهمت كل هذه في إصدار حكمها على نفسها، لنقول: "أنا سوداء". نجد أنّ للمسيح رأياً مختلفاً في العروس عن رأيها في نفسها لذلك لم يقل لها: "إِنْ لَمْ تَعْرِفِي أَيُّهَا السُّودَاءُ، أَوْ أَيُّهَا الشَّاةُ الشَّارِدَةُ، أَوْ أَيُّهَا النُّعْجَةُ الْغَيْرُ مُتْعِزِيَّةٌ، أَوْ أَيُّهَا الْخَاطِئَةُ"، لأنّ التجارب هي نتيجة الخطيئة، فالمسيح لم يتفوّه بكلمة واحدة من كل هذه الكلمات، فالوقت ليس مناسباً للكلام عن الخطيئة، وبالرغم من الحالة الصعبة التي تعيشها النفس، قال لها المسيح: "إِنْ لَمْ تَعْرِفِي أَيُّهَا الْجَمِيلَةُ بَيْنَ النِّسَاءِ". ومن الملاحظ أيضاً أنّه لم يقل لها: يا جميلة بين النساء. مما قد يعني أنّ هناك الكثير من النسوة وأنّ مجرد واحدة منهنّ، بل قال لها: أَيُّهَا الْجَمِيلَةُ. لأنّه أراد أن يقول لها: أنتِ تتمتعين بجمالٍ فريد! ومن هنا ندرك أن الله عجيبٌ في محبته. وكما قيل في سفر العدد: "لَمْ يُبْصِرْ إِثْمًا فِي يَعْقُوبَ، وَلَا رَأَى تَعَبًا فِي إِسْرَائِيلَ" (عد ٢٣ : ٢١)، فبالرغم من كل مساوئ يعقوب فإنّ الرب يراه "الجميلة بين النساء"، ولا يرى فيه عيباً أو نقیصة. وكلمة الرب هذه تعزي نفوسنا، لأنها تكشف مدى تفهّم الرب لحالة النفس التي تشتكي، لأنّه يعرف مدى صعوبة الضيقة عندما تحاصر النفس.

وقد ظهر مدى تفهم الرب لمعاناة الإنسان وطول أناته عليه مع أيوب الذي قال للرب: "ثَرِيعُنِي بِالْأَحْلَامِ، وَثَرِهْبُنِي بِرُؤْيٍ" (أي ٧: ١٤)، فأيوب يدّعي أن الله يريعه ولا يتركه حتى في الأحلام، فلا يدعه ينام ويرتاح، ويتساءل أيوب بمرارة لماذا يعامله الله هذه المعاملة! ولكنّ الرب يختم سفر أيوب بالقول لأصحاب أيوب الثلاثة: "لَمْ تَقُولُوا فِي الصَّوَابِ كَعَبْدِي أَيُّوب" (أي ٤٢: ٧)، متناسياً ما قاله له أيوب في التجربة. لا بل نستشف من تقرير الرب عن أيوب ما يشابه قول العريس لعروسه: أيتها الجميلة بين النساء، مما يدعونا للعجب من موقف الرب تجاه أيوب، فبالرغم من كلام أيوب الذي لا يليق بالرب، فإنّ الرب يقول: لا بأس، فأنا أعرف أيوب، وأعرف كم أنهكته الآلام وأضنته التجارب. وهذه أيضاً تعزي نفوسنا، وتدخل الفرح والبهجة إلى قلوبنا، لأنّه كما رأى الله كلاً من يعقوب وأيوب سوف يرى كل واحد منّا بالمنظار عينه.

وسارة امرأة إبراهيم عندما سمعت الوعد بميلاد إسحاق ضحكت. والسبب لا يحتاج إلى تفكير أو تحليل، فهي بكل بساطة ضحكت لأنّها لم تصدّق ما سمعته، لذلك قالت: "أُبَعْدُ فَنَائِي يَكُونُ لِي نَعْمُ، وَسَيِّدِي قَدْ شَاخَ؟" (تك ١٨: ١٢)، فتساءلت سارة، ما هذا الكلام، هل يُعقل أن تحمل في أحشائها طفلاً بعد كل هذه السنوات؟ فإبراهيم قد شاخ وناهر التسعة والتسعين من العمر، وهي قاربت التسعة والثمانين سنة! فكيف يكون لهما ابن! والرب عاتب أبانا إبراهيم، وقال له: لماذا ضحكت سارة؟

وقد يكون للبعض مأخذ على موقف سارة الغير مصدقة لكلام الله، ولكن لنسمع بولس الرسول ماذا يقول عنها: "بِإِيمَانِ سَارَةَ نَفْسَهَا أَيْضاً أَخَذَتْ قُدْرَةَ عَلَى إِنْشَاءِ نَسْلِ، وَبَعْدَ وَاقْتِ السَّنِ وَلَدَتْ، إِذْ حَسِبَتْ الَّذِي وَعَدَ صَادِقاً" (عب ١١: ١١)، وقد يتساءل البعض حول كلام بولس ويقول: أين هو إيمانها؟ فهي ما إن سمعت حتى ضحكت! ولكنّ الحقيقة أن سارة إنسانة مؤمنة، والله لا يحسب ردّة الفعل الأولى التي تصدر عن الإنسان ولا ينظر لها ولا يأخذها في الاعتبار، لأنّ الله يدرك أنّ الإنسان في التجربة يشابه الدجاجة المذبوحة التي تتلوى من الألم فهل يسألها الله لماذا تتألمين؟ فهي

تتلى لأتھا مذبوحة، والرب يقدّر هذه المواقف الصعبة التي يوضع فيها الإنسان، لذلك يطيل أناته عليه ويشيح بنظره عن بعض أقواله وأفعاله، ويقول للإنسان الذي يجتاز التجربة: لا عليك! فأنت أيضاً "جميلة".

ولكن، لماذا يقول الرب هذه الكلمات للنفس؟ فهل هي من باب المجاملة؟ بالطبع لا، فالمسيح لا يجمال، إنما يقول كلام الحق. إذًا، ما هو الجميل فيها لكي يقول لها: أنت جميلة. في الواقع أن جمال النفس قد ظهر في حديثها السابق حينما قالت له: أخبرني يا مَنْ تحبّه نفسي، فهي تحب المسيح، والمسيح متيقن من محبتها له، ويعرف أنّه هو مَنْ يشغل قلبها، ويعرف أيضاً أنّها حائرة ومرهقة ومتألّمة، وهذه هي أسباب تدميرها وضجرتها تحت الصليب، ولكن يكفي النفس أن تحب المسيح لتكون جميلة، ومحبتها له جعلته يتجاوز الانفعالات التي تصدر عنها.

وهذا هو الأسلوب عينه الذي اتبعه الرب يسوع مع بطرس، فالذي فعله بطرس صعب ويتخطى كل التوقعات، فهو لعن وشتّم وأقسم، وأنكر معرفته بالمسيح. ولكن المسيح بعد قيامته حينما التقى بطرس، لم يسأله: لماذا أنكرتني؟! لأنّه يعرف أن الشيطان قد حاصره، وسبق للرب أن حدّره وقال له: "هوذا الشيطان طلبكم لكي يُغربكم كالحنطة" (لو ٢٢: ٣١)، فالرب مدرك لكل ما جرى، ويعرف صعوبة وقساوة التجربة عندما تحاصر النفس، ويعرف أنّها تجربة مرّة. إنما حرص الرب أن يسأل بطرس سؤالاً واحداً، وهو: أتحبّتي؟ وكرر السؤال ثلاث مرات، وفي المرّة الثالثة فهم بطرس الرسالة، ونظر إلى الرب في انكسار قلب وقال له: يا رب أنت تعرف ما في قلبي "أنت تعلم كل شيء، أنت تعرف أنني أحبّك" (يو ٢١: ١٧)، صحيح أن بطرس تعثّر، وأدرك أنّه يستأهل كل ما حصل له، ولكنّ بطرس يحب الرب فعلاً، ولأجل هذه المحبة رأى المسيح بطرس كنفس "جميلة بين النساء". وليس من مانع القول عن بطرس عذراء بالمفهوم الروحي، فكنيسة المسيح مؤلّفة من عذارى بحسب ما جاء في إنجيل القديس متى أصحاح ٢٥

وأيضاً المرأة التي رآها سمعان الفريسي امرأة زانية امرأة خاطية، وهى بالحق كذلك بشهادة الكتاب "وإذا امرأة في المدينة كانت خاطئة" (لو ٧: ٣٧)، فكل المدينة تعرف قصتها. ولكن، ماذا رأى فيها المسيح؟ فقد رأى فيها المسيح ما لم يره سمعان، لذلك قال له: "هذه المرأة أحببت كثيراً". ولأنها أحببت كثيراً رآها المسيح "جميلة بين النساء"، وهذا ما يبحث عنه المسيح، إنه يبحث عن الحب. فالمسيح يعرف ضعف الإنسان، وهذا لا يبيح للإنسان أن يتهاون ويستعثر بحجة طبيعته الضعيفة، ولكني أقصد النفس المطحونة في تجربة، فعندما تدخل النفس في تجربة لا يتوانى الشيطان من أن يظلم أمامها الطريق، فإذا بكلمة المسيح هذه تبث النور في النفس، وتقطع الطريق على الشيطان.

فعلاج التجربة الأول للنفس التي تشتكي من شمس التجارب التي لوحتها، التجارب التي تمنع النفس من التقدم في الطريق الروحي، هو أن تعرف وتثق أن المسيح يحبها ويرأها جميلة، بالرغم من ضعفاتها، التي لا تغير نظرة المسيح إليها، لأن الإنسان يعتقد بخلاف هذا فيظن أن المسيح يعامله بالحسنى، لأنه يصلي أو لأنه تقي، فلو كان هذا هو مقياس حب المسيح للإنسان فلن يحصل الإنسان على شيء مهما صلى ومهما خدم، ومهما فعل، فإذا كان الله "إلى ملائكته ينسب حماسة" (أي ٤: ١٨)، فكيف بالإنسان. لكنه يعطي الإنسان ليس لأن الإنسان يستحق، بل لأن المسيح معطاء، وهو يحب الإنسان ليس على أساس المبادلة، بل لأنه "أحبنا أولاً" (١ يوح ٤: ١٩)، فيما نحن خطاة، والمسيح مات عن الإنسان ولم يمت لأن الإنسان يحب، إنما هو الذي بادر بالحب، لذا فمعرفة إله المحبة هو أول علاج للتجربة، وهذه المعرفة سوف تطرد من فكره الظنون التي تملأ عقله، والتي تصوّر له أن ما أصابه ما هو إلّا عقاب بسبب خطيئته، وأن الله غاضب منه وغاضب عليه. لذلك فالعلاج الأول للنفس في التجربة هي أن تعرف أن المسيح يراها جميلة.

"فَأَخْرِجِي عَلَى آثَارِ الْغَنَمِ"، والعلاج الثاني للتجربة هو "أخرجي"، فالمسيح ينصح النفس فيما هي تجتاز التجربة أن تخرج، ولكن من أين وإلى أين؟ سوف نعرف لاحقاً أن العروس متواجدة داخل المدينة، وكما هو معروف فإنَّ المدينة ترمز إلى العالم، والمسيح يقول للنفس: أخرجي من العالم. وبحسب رأي بولس الرسول: "فلنخرج إذاً إليه خارج المَحَلَّةِ حَامِلِينَ عَارَهُ" (عب ١٣: ١٣)، لأنَّ تعلق النفس بالعالم وانشغالها بما فيه هو السبب في دخولها التجربة. وحكمة الله من التجربة أن يقطعها عن العالم، لأنَّه يخاف عليها من الانغماس أكثر فأكثر في العالم، لذلك سمح لها ببعض وخزات الشوك لكي ترفض العالم وتخرج منه.

وفي مرات كثيرة نسمع البعض يعترض ويقول: "أليس عندكم سوى الصلاة والاجتماع في الكنيسة؟ فهذه الممارسات الروحية هي عادات مُملَّة، لماذا لا تقومون بأنشطة تفرحنا؟". وهو لا يدري أن الفرح الحقيقي ينبع من الروحيات، بل يعتقد أنَّ في العالم أموراً قد تفرحه، ونحن لا ننكر أن الإنسان قد يجد في العالم ما يفرحه، ولكن أهم ما يحتاجه الإنسان هو الله، والله ليس موجوداً في العالم. والقديس يوحنا يقول: "لأنَّ الذي فيكم أعظم من الذي في العالم" (١ يوء: ٤). فقد يفرح ويمرح الإنسان ويضحك ولكن في نهاية الأمر ماذا يكون له؟ لا شيء "لِلضَّحْكِ قُلْتُ مَجْنُونٌ" (جا ٢: ٢) فالفرح الحقيقي والدائم هو مع المسيح، "سكنى الفرحين جميعهم فيك يا الله". مزامير الساعة السادسة.

فالإنسان ينغمس في ملذات العالم، ويجزَّب هذا الأمر ويختبر ذاك، مراراً وتكراراً ويعرف النتيجة، وهذا كافٍ لكي يتعلَّم ويخرج تاركاً العالم وراءه. والمقصود بالخروج من العالم هو عدم سلوك مسلك العالم، "أنتم في العالم"، فالإنسان يأكل ويشرب ويعمل، فظاهرياً هو مثل باقي الناس، ولكن "لستم من العالم"، مما يعني أن قلبه وفكره ليسا في العالم.

فالعلاج الأوَّل للتجربة هو: أن تعرف النفس أنَّها جميلة في عيني الله، وهو لا يبصر فيها إثماً ما دام في قلبها محبة.

والعلاج الثاني للتجربة هو: أن تنفطم النفس عن العالم، فإلله قد سمح بالتجربة من أجل قطع القيود التي تربطها بالعالم.

أمّا العلاج الثالث للتجربة هو: اقتفاء آثار الغنم. فالمسيح ينصح النفس التي تجتاز ضيق وتشعر بالتخلّي عنها ويجتاحها جفاف روحي وتشتهي من شمس التجارب، بأن تتبع آثار الغنم، "فاخرجي عَلَى آثَارِ الْغَنَمِ". فالمسيح ينظر إلى النفس الحزينة بسبب التجارب، ويقول لها: "انظري إلى الخراف التي سارت قبلك على درب التجارب، فلا يوجد نفس لم تجتري هذه الضيقات". وإن بحثنا في الكتاب المقدس وسير القديسين، نجد أنّها زخرة بالضيقات المتنوعة التي لا حد لها.

وهذه النفس ليست الوحيدة التي يهيئها الرب بالتجارب عروساً له، إنما هي واحدة من قافلة طويلة من القديسين. والتجارب لا تعني أن الإنسان شرير ولكئها تعني أن الإنسان يسلك في طريق الكاملين، فأى ابن لا يؤدبه أبوه؟ ومن هو الذي لم يؤدبه الرب من أولاده؟ ومنهم أبو مقار الذي تلوّث سمعته جرّاء ادعاء امرأة أنّه قد أخطأ معها، وحملت منه طفلاً في أحشائها، وعيّره كل أهل القرية وهو لم يفتح فاه، بل ضاعف العمل، وكان يقول لنفسه: "كد يا مقار فقد صار لك زوجة وابن"، والرب تركه في هذه المرارة تسعة أشهر، وكان كل من يراه يبصق في وجهه ويهينه، والرب صامت فيما هو يتعذّب، إلى أن حان موعد الولادة فلم تستطع المرأة أن تلد إلا بعد أن اعترفت بالحقيقة، وظهرت براءة وطهارة أبي مقار. وأيضاً الأنبا أنطونيوس عندما أمعن الشيطان في مضايقته حتى أنّه بكى، قال للرب: "لماذا تتركني أصارع وحدي؟" فظهر له السيّد المسيح وقال له: "إني أراقب جهادك"، فالرب يراه ولم يتخل عنه.

فالمسيح يعزّي النفس حين يشير عليها أن تتبع آثار الغنم، فكل الغنم وعلى مدار تاريخ الكنيسة قد اجتازوا هذه الضيقات. ويحكي القديس أبو مقار في كتاباته أنّه في وقت من الأوقات انحصرت نفسه في ضيق شديد لدرجة أنّه اضطر أن يقول كلمة صعبة، فقال: "حتى تكاد أن تكفر النفس بالطريق الروحي"، فعندما تحاصر الضيقة النفس تجعلها تظن أنّها قد أخطأت عندما قررت أن تسلك في الطريق الروحي. ويذكر البابا كيرلس في مذكراته تحت عنوان "رأيت النور" أنّه اجتاز اختباراً مشابهاً، حينما

كان يعيش في الطاحونة، فضجر وتذمّر من الطريق الروحي. فهذه الحالة تتكرر مع كل القديسين. لذلك عندما يشعر الإنسان أنّه يمر في هذه الحالة فليعرف أنّه سالك في طريق القديسين. فنحن نضع القديسين نصب أعيننا، ليس لكي نزيّن جدران الكنيسة بصورهم ولكن لكي ننظر إليهم ونقتفي آثارهم.

العلاج الرابع للتجربة هو: "ارعى جداءك عند مساكن الرعاة". فالمسيح ينصح النفس التي تجتاز هذه الضيقات، أو شمس التجارب بتعبير العروس، أن ترعى جداءها عند مساكن الرعاة. والجداء هي صغار الخراف. فالمسيح يطلب من النفس التي تعاني وتتألم أن تستمر في خدمتها، صحيح هي في تجربة وتشعر بتخلّي وتفقد إلى التعزية ومع ذلك يقول لها المسيح: "واظبي على رعاية جدائك عند مساكن الرعاة، وابحثي عن إخوتك وتابعي عملك الروحي كالمعتاد". لأنّ الإنسان الذي يمر بهذه الحالة، يتوقف عن الصلاة عندما يشعر أنّه يصلّي ولا يتعزى، ونحن لا نصلي لكي نتعزى، بل نصلي لأنّ الصلاة هي وصيّة الرب لنا، "يَنْبَغِي أَنْ يُصَلَّى كُلَّ حِينٍ وَلَا يُمَلِّ" (لو ١٨: ١)، وإذا ما أراد الرب أن يعزي النفس في الصلاة، فهذا أمر يعود إليه وحده، لذلك وإن خلت الصلاة من أي تعزية، وجب الاستمرار في الصلاة.

وهذه هي حكمة الكنيسة من وضع قانون روحي، لأنّ الطوائف الأخرى تعترض على صلاة الأجيبة، وتشجّع الصلاة العفوية وتعلّم: كل واحد له ملء الحرية بأن يصلّي بحسب ما يخطر في فكره، وأن يصرخ بما في قلبه لله. ونحن لا نرفض الصلاة القلبية ولكن نشدّد على أن ترتبط بصلاة الأجيبة، حتى يتسنى للإنسان أن يبقى على تواصل مع الله حين لا يجد ما يقوله بدل أن يتوقف عن الصلاة، لا سيما في الفترة الصعبة التي يشعر فيها بعدم الرغبة في الصلاة وحين لا يجد ما يقوله بل يشعر كما قال سفر التثنية: السماء نحاس والأرض حديد (تث ٢٨: ٢٣)، لأنّ الجفاف الروحي يمنعه من أن يجد الكلمات فلا يستطيع أن يقول كلمة، فعندما لا يعرف أن يصلّي حينئذٍ يفتح الأجيبة ويصلّي منها. ولكنه في هذه سوف يواجه مشكلة أخرى وهي أنّه

لا يشعر بالكلام الذي يصلية من الأجبية، وهنا عليه أن يستمر في الصلاة بالرغم من كل شيء، حتى يجتاز فترة الجفاف الروحي، فهذا هو علاج التجارب، وهو أن يستمر في ممارساته الروحية حتى وإن كان غير متعز، وأن يستمر في خدمته حتى وإن كان غير مسرور.

"ارعى جداءك عند مساكن الرعاة". فالمسيح يطلب من النفس أن تبحث عن إخوتها وأن تدعوهم وتحضرهم إلى الكنيسة، حتى وإن كانت تجتاز في تجربة، لأنه لا يستطيع أحد أن يجذب إخوته إلى الكنيسة مثل النفس المجربة، فالنفس المتألمة التي تحمل الصليب لها تأثيرها الخاص والفعال في نفوس الآخرين، لا سيما عندما تلنقي بأخ وتعاتبه بحبة وتقول له: "ماذا لم تأت اليوم إلى الكنيسة؟ فالיום قد تعزينا كثيراً وفرحنا"، فعندما يرى هذا الأخ هذه النفس المتألمة من مرض أو من مشكلة تذهب إلى الكنيسة، ويسمعها تقول له هذا الكلام فسوف يتأثر ويقول في نفسه: "هذه النفس مريضة ومتألمة وتذهب إلى الكنيسة، وأنا في صحة جيدة وبكامل عافيتي، ولا أذهب إلى الكنيسة!"، فكلما سوف يحرك قلبه. وارعى جداءك عند مساكن الرعاة تعني أيضاً: احضري إخوتك إلى مساكن الرعاة، أي إلى رعاة الكنيسة.

فبعد أن أعطاها المسيح هذه الوصفة اللطيفة التي سوف تسندها في وقت التجربة، يبدأ يحذرنا وينبهنا من عدة أمور حتى لا نتفاجأ بها عندما تخرج للخدمة، لأنه سوف تعترضها ضيقات وتجارب، "يا بني إن أقبلت لخدمة الرب ... أعد نفسك للتجربة" (سي ٢: ١)، ولا تقتصر الخدمة هنا على الخدام، إنما تشمل كل الذين يتبعون المسيح، والمسيح قال بفمه الطاهر: الباب ضيق والطريق كرب (متى ٧ : ١٤)، لذا فهو يدعوها للاحتراس والتنبه فيما هي سالكة في الطريق ويقول لها:

(٩: ١) "لقد شبّهتُك يا حبيبتي بفَرسٍ في مركباتِ فرعون".

كانت مصر قديماً تصدّر الخيول، وقد ذكر سفر الملوك أن الملك سليمان كان يستورد الخيول من مصر، لأنّ الخيول المصرية كانت من أفضل الخيول آنذاك، لذلك

كانت تستخدم في جرّ مركبات فرعون. والمسيح يقول للنفس: فيما أنت خارجة للخدمة، ضعي في ذهنك أنك مثل الفرس الذي لا يهاب الحرب. وقد ذكر الوحي في سفر أيوب الأصحاح (٣٩ الآية ١٩)، وصفاً بديعاً للخيّل. فالحصان في الحروب عندما يسمع صليل السيوف ينشرح ويجري إلى ساحة المعركة، بينما الحمار يجفل ويتراجع إلى الوراء ويلبد في الأرض ويستحيل أن يتحرك أو أن يتزحزح من مكانه، فالرب يقول لأولاده أنتم مثل الفرس الذي لا يهاب الحرب. وبالرغم من أنّ الطريق الروحي مضني لكنكم كالخيّل لا تتراجعون أمام المخاطر والصعاب.

فالفرس يضعون أمامه الحواجز فيخطاها، وكما الفرس لا يفرض أن يتخطى الحاجز فالمفروض بالقدّيسين أولاد الله أن يكونوا كذلك، لا يهابون حروب عدو الخير، عاملون بقول الكتاب: "قاوموا إبليس - وعندما يقاومونه ماذا يفعل - فيهرّب منكم" (يع ٤: ٧)، فعندما تأتي التجربة لا ينكسروا تحتها، لأنّ البعض من الناس عندما يجتاز في ضيقة ينهار، ولا ينفك يردد ويقول: "لا أريد أن أصلي ولن أذهب إلى الكنيسة، فقد صليت كثيراً ولم أحصل على شيء، وحتى المشكلة التي أنا واقعٌ فيها لم يحلّها الرب لي، فقد تركني وتخلّى عني!"، فهذا الإنسان، بتصرّفه هذا، أين هو من الفرس؟

فالحياة الروحية بحاجة إلى عزم وتصميم وثقة بقدرة الله "إِنْ نَزَلَ عَلَيَّ جَيْشٌ لَا يَخَافُ قَلْبِي. إِنْ قَامَتْ عَلَيَّ حَرْبٌ فَفِي ذَلِكَ أَنَا مُطْمَئِنٌّ" (مز ٢٧: ٣)، فهو لا يتكل على قوّته الخاصة إنما على قوّة الله. وبولس الرسول فرس بحق لا يخاف، لأنّه بالرغم من كل الحواجز التي اعترضته، ومع كل الضيقات التي ألمّت به من الداخل ومن الخارج، من داخل الكنيسة ومن خارجها، فإنّه لم يضعف ولم يتراجع.

وقد ذكر لنا سفر الأعمال حين عزم بولس أن يصعد إلى أورشليم، جاء نبي اسمه أغابوس، وأخذ منطقة بولس وربط يدي نفسه ورجليه وقال: "هذا يقوله الروح القدس: الرّجل الذي له هذه المنطقة، هكذا سيربّطه اليهود في أورشليم ويسلمونه إلى أيدي الأمم" (أع ٢١: ١١)، فلمّا سمع أبناء الكنيسة هذا الكلام، بدأوا يكون ويرجونه أن يبقى معهم، ولا يذهب لئلا يموت، فقال لهم بولس: "ماذا تفعلون؟ تبكون وتكسرون قلبي،

لأنني مستعد ليس أن أربط فقط، بل أن أموت أيضاً لأجل اسم الرب يسوع" (أع ٢١: ١٣)، فبولس فرس شجاع.

فالمسيحي فرس في مركبات الرب لا يهاب ولا يتراجع حتى وإن تعرّض إلى خطر الموت، وكما قال بولس: "مَنْ سِفْصِلْنَا عَنْ مَحَبَّةِ الْمَسِيحِ؟ أَشِدَّةُ أَمْ ضِيقُ أَمْ اضْطِهَادُ أَمْ جَوْعُ أَمْ عُرْيُ أَمْ خَطَرُ أَمْ سِيفُ؟" (رو ٨: ٣٥)، فالمسيح يقول للنفس التي على مثال بولس أنت تشبهين الفرس الذي لا يخاف.

والقديس أبو مقار عندما كان متوحّداً في البرية سمع ذات يوم أصوات سيوف تدوي في الصحراء، ففتح باب قلايته ونظر إلى الخارج، وقال: "أهّى حرب؟". فظهر له عدو الخير وقال له: "هّى حرب يا راهب، أتحارب؟". فأجابه: "طبعاً نحارب". فأبو مقار فرس في مركبات الرب، يشبه بجرائه الفرس الذي في مركبات فرعون. وإن سألت الفرس: لماذا لا تخاف؟ فيقول لك: "ما يشجّني على الاستمرار هو العمل العظيم الذي أقوم به، فأنا أجز مركبات فرعون، وأموت إكراماً له". فعندما تدرك النفس دورها والمهمة الموكلة إليها، وتعرف رسالتها والكرامة التي وضعها المسيح فيها حين جعلها فرسه، فلن تتوانى عن عمل أي شيء لأجله، وكما قال بولس: "نحن من أجلك نُمات كل النهار" (رو ٨: ٣٦). وهو لأمر رائع أن تكون هذه هي مشاعر النفس عندما تدخل في ضيقة وفي تجربة، بعيدة عن أي إحساس بالانكسار أو الإحباط.

لَقَدْ شَبَّهْتُكَ يَا حَبِيبَتِي بِفَرَسٍ فِي مَرْكَبَاتِ فِرْعَوْنَ، فَالْفَرَسُ يَجْرُ وَلَا يُجَزَّرُ، بَيْنَمَا الْبَغْلُ تَدْفَعُهُ دَفْعاً لِكَيْ يَسِيرَ، وَالْفَرَسُ يَجْرُ غَيْرُهُ، وَالْبَابَا أَثْنَاسْيُوسُ فَرَسٌ بِحَقٍّ، وَقَدْ جَرَّ الْكَنِيسَةَ كُلَّهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ ذَاهِبَةً وَرَاءَ آريُّوسَ، فَالْبَابَا أَثْنَاسْيُوسُ رَجُلٌ جَبَّارٌ جَرَّ الْكَنِيسَةَ كُلَّهَا فِي طَرِيقِ الْمَسِيحِ.

وكذلك يتميَّز الفرس بالطاعة، فعندما يوضع اللجام على فمه ينصاع للفراس أينما وجَّهه ميمناً أو يساراً، والمسيح يشبه النفس بالفرس كيما تطيعه وتخضع له وتتصاع لإرادته.

وأيضاً يشبّه النفس بفرس في مركبات فرعون لأنّ المركبة تحتاج إلى ستة أو ثمانية أفراس يسيرون اثنين اثنين، الواحد بجانب الآخر، ويكونان متكافئين في القوة والسرعة، لئلا تجنح المركبة وتقلّب، لذلك من المهم جداً أن تعمل جميع الخيول بتناغم، فالمسيح يشبّه النفوس بالخيول لأنّه لا يمكن للمركبة أن تسير بحسب مزاجية فرس واحد إنما وفق تعاون الكل وتناغمهم مع بعضهم البعض، كذلك أولاد الله، فمهما كانت مواهب الواحد منهم أو إمكانياته لا يستطيع أن يقود الكنيسة بمفرده، فالله أعطاهم مواهب متنوّعة، ولكل واحد موهبته الخاصة لكيما يتناغم الكل معاً في سبيل جذب المركبة إلى السماء، فلا يشعر فرس في الكنيسة أنّه أفضل من أخيه، إنما يسعى أن يعمل بحسب الموهبة التي أعطاه إياها الرب.

ولكنّ الأهم أنّ هذه الحرب التي تخوضها النفس تؤهلها للفوز بثمار، فما هي هذه الثمار؟

(١ : ١٠) "ما أَجْمَلَ خَدَيْكَ بِسُمُوطٍ، وَعُنُقَكَ بِقَلَائِدٍ!".

الثمرة الأولى: السموط على الخدين.

في القديم كانت المرأة تستر وجهها بمنديل يتدلّى منه خيوط معلّق فيها جواهر تتمايل على خديها. فالمسيح يقول للنفس: ما أجمل خديكِ بسموط، والسموط هي الجواهر التي تتدلّى على خديها، وهي ترمز إلى ثمار الروح القدس. وهذه الثمار لا بد أن تظهر على وجه الإنسان الذي يدخل في تجربة. فبعد أن تدخل النفس في تجربة ويعطيها المسيح الوصفة المناسبة وينبهاها إلى أن الطريق بحاجة إلى فرس مقدام لا يهاب الحرب، يقول لها ما هي المكاسب التي سوف تحصل عليها. وهذه المكاسب هي ثمار الروح القدس التي سوف تظهر على وجهها، ومن بين هذه الثمار المحبة. فكيف تتولّد المحبة في قلب الإنسان؟ فالبعض يعتقد إذا ما عامله الناس معاملة حسنة، فإنّ قلبه سوف يحمل لهم الكثير من المحبة! ولكنّ هذا الاعتقاد منافٍ للحقيقة، لأنّ المحبة لا تتولّد بهذه الطريقة، وأيضاً لا أحد يقتني المحبة إذا ما سمع وعظة عن المحبة، مع أهميّة السامع، لكنّ المحبة الحقيقيّة تتولّد حين يعيش الإنسان اختبار

التعامل مع إنسان لا يحبّه لكي ترزع وتتأصل في داخله المحبّة. ونفس الأمر ينسحب على الحكمة، فكيف يقتني الإنسان الحكمة؟ فمن المؤكد أنّه لن يحصل عليها إذا ما قرأ كتاباً عن الحكمة، مع أهميّتها، لكنّ عندما يدخل في ضيقات يتعلّم الحكمة، كما علّمت الضيقات يوسف الحكمة.

فما أودّ قوله هو: من أين وكيف تحصل النفس على الثمار الروحيّة؟ فهي سوف تحصل عليها من التجارب، وحينئذٍ تبدأ الثمار تظهر على خديها، وإحداها المحبّة التي تظهر بقوة على وجه الإنسان، فإذا ما نظرنا إلى إنسان يحمل في صدره قلباً محباً فإننا سوف نرى السلام والفرح يظهران جلياً على خديه.

الثمرة الثانية: وعنقك بقلائد

يبرز جمال عنق العروس عندما تضع حوله قلادة، فالعنق الذي يخلو من الزينة يفقد حسنه وجماله. ولكن إلى ما يرمز العنق؟ الله في القديم عاتب شعب إسرائيل، وقال عنه: "شعب صُلِبَ الرَّقَبَةِ" (خر ٣٢: ٩)، فهو شعب عاصٍ ومتمرّد، رقبته قاسية لا تتحنى، والله يطلب إليه أن ينحني لكّنه يأبى الخضوع. لذا يقول المسيح للعروس: "جمال عنقك هو في خضوعك".

وفي أحيان كثيرة تكون غاية الله من زج الإنسان في التجربة هي لي رقبته قليلاً، ولكي يقول له: "انحن واكسر ذاتك قليلاً"، لأنّ كسر الذات لا يتحقق في الراحة ولا في النجاح، بل على العكس فالنجاح فسوف يزيد من شموخه وانتفاخه، لذلك يضيق الله على الإنسان فيبدأ عنقه ينكسر، وتبدأ الذات تنكسر.

والابن الضال كان ذا عنق صلب فتمرّد على والده، ولكن عندما انكسرت ذاته، أفسح المجال لوالده كي يقبله في عنقه ويجعل منه عنقاً جميلاً، بعد أن كان عنقاً قبيحاً. فجمال النفس يتجلّى في خضوعها لله.

(١١:١) "نَصْنَعُ لَكَ سَلَاسِلَ مِنْ ذَهَبٍ مَعَ جُفَمَانٍ مِنْ فِضَّةٍ".

يريد الرب أن يصنع للنفس سلسلة من ذهب معلق فيها لآلئ من فضة، ليزينها بحلي جديدة، "فَمَنْ لَهُ سَيُعْطَى وَيَزَادُ" (متى ١٣: ١٢)، وَرُبَّ قَائِلٍ يَقُولُ: القلائد والسموط على الخدين لهو أمر جيد، لكن لماذا السلاسل! هل يريد العريس أن يقيد العروس؟ نعم، هذا هو مراده. فبعد أن أعطاها هذه الثمار الحلوة لن يتركها، لأنه لو فعل وتركها على راحتها سوف يسرقها الشيطان منها، لذلك يربطها المسيح بسلاسل، كي تحفظ الفضائل والنعم التي أغدقها المسيح عليها، لأنها إن تصرفَت النفس بحسب فكرها سوف تضيع وتخسر كل شيء، لذا فالأفضل لها أن تسير وهي موقنة بهذه السلاسل التي هي وصية الرب.

ويتخلل سلاسل الذهب أجراس من فضة، فحين تشد السلسلة يرن الجرس، فما إن تحاول النفس أن تتملص من وصية الرب حتى تسمع صوت كلمة الإنجيل تجلجل في داخلها، وتقول لها: "هذا العمل خطأ، وتلك الفكرة ليست سوية"، فهذه السلاسل سوف تحفظ النفس.

أما ردة فعل النفس على قرار المسيح هذا، فتقول:

(١٢:١) "مَا دَامَ الْمَلِكُ فِي مَجْلِسِهِ أَفَاحَ نَارِدِينِي رَائِحَتَهُ".

عندما ترى النفس هذه الفضائل، فلا تملك سوى أن تسكب الناردين الذي بحوزتها الذي هو أثنى ما تسكبه النفس في حضرة السيد، كما فعلت مريم، ولا تملك سوى أن تسبح الله وتشكره على نعمته.

(١٣:١) "صُرَّةُ الْمَرْ حَبِيبِي لِي. بَيْنَ ثَدْيَيْ يَبِيتُ".

المرّ يرمز إلى الصليب، وبين الثديين يوجد القلب. فالعروس تقول: "حبيبي احتمل المر خلال فترة تجسده، ابتداءً من ميلاده إلى أن غلق على الصليب، وكانت حياته كلها مرارة من أجلي، لذا سوف أحمل الصليب وأضعه داخل قلبي بمنتهى الفرح. فإذا كان حبيبي احتمل المر من أجلي، ألا أحتمل أنا بعض التجارب؟". فجميل عندما

نمرّ بتجارب أن نفتكر في صليب المسيح، ونتأمل في آلام المسيح، فليس كثيراً أن نتألم بعض الآلام البسيطة، مقارنة مع الآلام العظيمة التي كابدها الحبيب من أجلنا.

ثمّ تتابع العروس وتقول له:

(١٤:١) "طَاقَةُ فَاغِيَّةٍ حَبِيبِي لِي فِي كُرُومِ عَيْنِ جَدِّي".

تُشَبِّه العروس عريسها بطاقة فاغية وهي حزمة من نبات الحناء المعروف برائحته الطيبة، وكما هو معروف عندنا أن العروس تضعه في كفيها ليلة زفافها وتبقيه إلى اليوم التالي، وبعد أن تغسل يديها يبقى لون الحناء منطبعا على يديها وتفوح منهما رائحة ذكيّة. فالعروس لم تكتفِ بوجود العريس داخل قلبها، بل تذهب لتشهد له وتقّده إلى العالم، ولا تقّده بالكلام بل تظهر رائحة المسيح في تصرفاتها وأعمالها ومعاملتها للآخرين.

وعين جدي هي اسم منطقة ذُكرت في سفر صموئيل الأوّل، عندما كان شاول يطارد داود النبي، فهرب منه واختبأ في عين جدي، وفيها وجد داود الراحة والشبع، فاستظل تحت أشجارها وأكل من كرومها. وهكذا النفس التي تتمتع بثمار الروح القدس تصير مثمرة ككروم عين جدي.

وعندما سمع المسيح مناجاة النفس، فرح بها جداً وقال لها:

(١٥:١) "هَـا أَنْتِ جَمِيلَةٌ يَا حَبِيبَتِي، هَـا أَنْتِ جَمِيلَةٌ. عَيْنَاكِ حَمَامَتَانِ".

فالعريس يمدح العروس ويتغنّى بجمالها، ولكن من أين لها هذا الجمال؟ هذا الجمال هو ثمرة عمل المسيح فيها، المسيح الذي أحبّها قد وهب لها هذا الجمال، فجمالها ليس من ذاتها، إنما مكتسب من عمل المسيح فيها. فالمسيح يقول: "ها أنتِ جميلة"، للنفس التي قالت عن نفسها "أنا سوداء"، هذه هي شهادة الرب للنفس البشريّة، ومشكلة الإنسان أنّه يولي شهادة الناس الاهتمام البالغ، وينسى أنّ شهادة الله هي أعظم. فهو يفرح عندما يقول له أحدٌ من الناس "ها أنتِ جميلة"، لكنّ المسيح قال:

"مجداً من الناس لست أقبل" (يوه : ٤١)، والمؤمن الذي يسير على خطى المسيح، لا يسعى لكي يسمع هذا المديح من الناس، إنما يحيا على رجاء أن يسمعه من الرب في يوم الدينونة عندما يقف أمامه يقول له: "ها أنت جميلة يا حبيبتي ها أنت جميلة". ومقياس الجمال عند الله مغاير لمقياس الجمال عند الناس. فقد ينظر الناس إلى رجل صائم، فيرون جسده هزياً ووجهه شاحباً وركبتيه ترتعشان من الميطنات، فيبدو مظهره في عيونهم منظرًا شاحباً بلا جمال، ولكن الرب ينظر إليه ويقول له: "ها أنت جميلة يا حبيبتي ها أنت جميلة". وأيضاً أبائنا الشهداء الذين قُطعت أعضاؤهم وشوّهت أجسادهم، أصبح منظرهم صعباً في عيون الناس، منظرًا مقزراً، لكن في عيني الرب الأمر مختلف فيقول لهؤلاء الشهداء: "ها أنت جميلة يا حبيبتي ها أنت جميلة". لذا فالأفضل أن لا نكثر بحكم الناس بل بحكم الله.

"عيناك حمامتان"، والحمامة تعود بنا إلى أيام نوح، حين أرسل الحمامة إلى خارج الفلك، إلى العالم الواقع تحت دينونة الله، والمحكوم عليه بالطوفان، فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها (تك ٨ : ٩)، فرجعت إلى الفلك، وهكذا أولاد الله مثل الحمامة، لا يجدون مستقراً لهم في العالم، لأنّ العالم كله قد وضع في الشرير، ولأنّ مكانهم هو في بيت الرب فيدخلون إليه ويقولون مع داود: "واحدة سألت من الرب وإياها ألتمس: أن أسكن في بيت الرب كل أيام حياتي، لكي أنظر إلى جمال الرب، وأفترس في هيكله" (مز ٢٧: ٤)، فأولاد الله تتعب عيونهم من المناظر المعثرة في العالم، لذا يغمضون أجفانهم عن عالم مليء بالأباطيل، ولا ترتاح عيونهم إلّا في بيت الرب. أمّا الذي ترتاح عيناه بمشاهدة بشاعة العالم فهو لا يملك عيني حمامة إنما عينا غراب، مثل الغراب الذي أرسله نوح ووجد مقراً له على الجثث، فوجد راحته وشهوة قلبه.

"عيناك حمامتان"، والحمامة رمز للروح القدس، فالروح القدس قد حلّ على شكل حمامة. فالعينان الحمامتان ترى الروح الذي وراء حرف الكلام، "لأنّ الحرف يقتل ولكنّ الروح يحيي" (٢كو ٣: ٦)، وعينا الحمام ترى الأسرار الروحية، تقرأ قصة في الإنجيل

فتخرج منها معاني روحية عميقة جداً، فالعيون رمز للمعرفة، لذلك نقول عن الشاروبيم ممثلون أعياناً إشارة الى المعرفة، وللكروب عيون من أمام وعيون من خلف، فهو له معرفة كثيرة.

فأصبحت العين رمزاً للمعرفة، وعينا الحمامتين تشير إلى معرفة مصدرها الروح القدس، وليست آتية من مفاهيم العالم، فقد ترى إنساناً معرفته مبنية على خبرات العالم وعلى الكتب وتعتمد على الطرق البشرية العادية، وترى إنساناً آخر عيناها حمامتان، مما يعني أنَّ معرفته مستندة إلى معرفة روحية، معرفة من السماء، فهناك فرق شاسع بين إنسان يقرأ كتاباً فيكتسب معرفة وهذا أمر جيد، وإنسان آخر يجلس مع الرب، والرب يكشف له أسراراً فيصبح له عينا حمام.

(١٦:١) "ها أنتَ جميلٌ يا حبيبي وحُلُوٌّ، وسَرِيرُنَا أَخْضَرُ".

فبعد أن سمعت العروس المسيح يقول لها: "ها أنتِ جميلة". قالت له: أنت سر جمالي، فهذا الجمال هو جمالك أنت، وأنا لم أنس نفسي، فما زال السواد فيّ، "ها أنتَ جميلٌ يا حبيبي وحُلُوٌّ" عندما تخطئ النفس واللّه يطيل أناته عليها، فتتظر النفس إلى اللّه وتقول له: أنت يا ربي في طول أناتك، ها أنتَ جميل يا حبيبي وحلو. وعندما تتظر النفس إلى المسيح في الشدائد والضيقات وترى تعزياته لها، تقول له: ها أنتَ جميل يا حبيبي وحلو. وداود النبي يقول: "ذوقُوا وانظُرُوا ما أَطْيَبَ الرَّبُّ!" (مز ٣٤: ٨)، ذوقوا ... فهذا المسيح الحلو، انظروا ... فهذا المسيح الجميل، وأيضاً قال داود: "الذي معه كانت تَحْلُو لَنَا الْعِشْرَةُ" (مز ٥٥: ١٤)، فالعيشة مع الرب عيشة هنيئة، كما تقول الترنيمة.

فبعد أن قال لها المسيح "ها أنتِ جميلة يا حبيبتي"، ترد عليه النفس وتقول له: بل أنتَ هو الجميل. فالمسيح رأى المحبة التي في قلبها، لذلك قال لها: ها أنتِ جميلة يا حبيبتي، والنفس بردّها هذا، تعترف وتعلن أن المحبة التي في قلبها هي صدى لمحبة المسيح لها، فهي تحبه لأنّه هو أحبّها أولاً، "نَحْنُ نُحِبُّهُ لِأَنَّهُ هُوَ أَحَبَّنَا أَوَّلًا" (١يو ٤: ١٩)، فالمسيح أحبنا قبلاً ونحن بعد خطاة.

واللافت للنظر في قول العروس أنها تخاطب المسيح بكلماته، تستخدم نفس التعبيرات التي خرجت من فمه. هو قال لها: ها أنتِ جميلة، وهى تقول له: ها أنتِ جميل. وكم هو حلو ورائع عندما نقف أمام المسيح أن نكلمه بكلماته كما فعل أبونا يعقوب، فالرب أمسك يعقوب وقال له: "لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به" (تك ٢٨: ١٥)، فالرب قال ليعقوب لن أتركك حتى أنفذ ما وعدتك به، فوقف يعقوب أمام الرب وقال له: أنت يا ربي قلت لي لن أتركك حتى أنفذ وعدي، فنفذ وعدك. فيعقوب أخذ الكلام من فم الله وكلم به الله. وهذا هو الإنجيل، فنحن حين نقرأ في الإنجيل فإننا نخاطب الله بكلامه، لذلك جاء في ترتيب الصلاة: "صلاة الأجيال"، فالمزامير هى كلام الله، لأن الكتاب ذكر: وقال داود بالروح (مت ٢٢: ٤٣)، فنحن عندما نصلّي فإننا نكلّم الله بكلام الله، لأننا مهما سمونا بكلماتنا لن تصل إلى كلمة الحياة المنطوق بها بالروح القدس، "تكلّم أناسُ اللهِ القديسونَ مَسُوقِينَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ" (٢بط ١: ٢١).

والعجيب في حوار العروسين، هو يقول لها: ها أنتِ جميلة يا حبيبتى، فتسمع هى كلمة جميلة لكنّها لا تشغل بنفسها ولا بجمالها، فقد تناست نفسها تماماً، ونظرت إليه وقالت له: "ها أنت جميل يا حبيبي وحلو"، فهو سر جمالها، فلم تلتفت إلى نفسها بعد أن سبأها جمالها، فلا يمكن أن تسرق مجده وتنسبه لنفسها، لأنّ جمال العروس ما هو إلّا انعكاس جمال العريس عليها.

"هَآ أَنتِ جَمِيلٌ يَا حَبِيبِي وَحَلُو، وَسَرِيرُنَا أَخْضَرُ".

السريّر هو المكان الذي يرتاح فيه الإنسان، والمكوث مع الرب هو منتهى الراحة. والسريّر يرمز للارتباط والشركة، والخضرة ترمز إلى الحياة، فالنفس تلتقي بالمسيح بعيداً عن ضجيج العالم فتتفرّد به وتكتشف جماله، لذلك قال الرب يسوع للتلاميذ: "تعالوا أنتم مُفَرِّدين إلى مَوْضِعٍ خَلَاءٍ وَاسْتَرِيحُوا قَلِيلًا" (مر ٦: ٣١)، فهو يدعوهم إلى الجلوس معه على انفراد لمزيد من العشرة ولتعميق الشركة حيث يتذوقون جمال المسيح، ويتمتعون بالمراعي الخضراء.

والملاحظ أن النفس قالت سريرنا، ولم تقل سريري، لأنَّ الإنسان الذي يختلي بنفسه بدون المسيح فلن يحصل على السلام ولا على الفرح ولا على الشبع، بل تكون خلوته متعبة وغير مثمرة، لكنَّ الخلوة مع المسيح تهبه الفرح والشبع، فالنفس تقصد بكلامها "سريرنا أخضر"، أن تقول للرب: أنا لست وحدي لأنني في شركة معك.

وأيضاً السرير يشير إلى النوم، والنوم يرمز للرقاد والموت، في حين تشير الخضرة وترمز إلى الحياة. لذا فالقول: "سريرنا أخضر"، يعني أنَّ لا شيء يفصل النفس عن المسيح ولا حتى الموت. فهي ترقد على رجاء الخضرة، على رجاء القيامة من بين الأموات، "لأنَّه ليس موت لعبيدك، بل هو انتقال"، لذلك عندما نصلي للمنتقل في اليوم الثالث، نحضر معنا حزمة بقدونس أو جرجير، كتعبير عن إيماننا بأنَّ الذي رقد، قد رقد على رجاء القيامة، رجاء الحياة، وقد انتقل إلى مراعي خضر، إلى الفردوس الأوَّل الذي كان كله أخضر، والذي طُرِدَ منه أبونا آدم.

(١٧:١) "جَوَائِزُ بَيْتِنَا أَرَزُ، وَرَوَّافِدُنَا سَرُو".

يزرع شجر الأرز في أعالي جبال لبنان، وخشب الأرز هو من أقوى وأمتن أنواع الخشب. لذا فجوائز بيتنا أرز تعني أن علاقتنا بالرب علاقة قويَّة وثابتة لا تنتزع كخشب الأرز، فهي علاقة قويَّة وأبواب الجحيم لن تقوى عليها كما قال المسيح، فمهما هبَّت الرياح وعصفت فكنيسته ثابتة. وهي علاقة متينة لا شيء يستطيع أن يهز ارتباط المؤمنين بالرب، ولا حتى الخطيئة، ففي ضعفاتنا لا يتركنا الرب ولا يفصل عنا فالعلاقة ما بين الله والمؤمنين علاقة متينة، ولا شيء يقدر أن يحطِّمها فهي متينة مثل خشب الأرز.

جَوَائِزُ بَيْتِنَا: وشجر الأرز عال جداً ويستحيل تسلُّقه، مما يعني أن الرب يحيط بنا كسور أرز ويحمينا، وقد قال الرب يسوع: "لا يخطِّفُهَا أَحَدٌ مِنْ يَدَيَّ" (يو: ١٠: ٢٨)، فمع الرب منتهى الأمان.

وَرَوَّافِدُنَا سَرَوْ: يستخدم خشب السرو في صناعة آلات الطرب، والمعنى الرمزي هو أن علاقتنا بالله يسودها السرور والفرح.
فالنفس محاطة بسور من الأرز والسرو. حتى وإن اجتازت في ضيقات، أو مرّت في تجارب، فهي مطمئنة لأنها تحيا مع المسيح في أمان وفرح.

الفصل الرابع

(الأصاح ٢ : ١ - ٩):

بدأت النفس تتنقى بفعل التجارب، وبالتالي تقتني الفضائل، فإذا بالتجارب للنفس كالنار التي تمحّص الذهب، فمع أنّه فان إنما يمتحن بالنار، وهكذا تركية إيماننا كما قال القديس بطرس (١بط: ٧). فعندما ننظر إلى قطعة من الذهب يبدو لنا أن شكلها جيد، رغم أنها تحتوي على شوائب كثيرة، لا تظهر للعين المجردة، ولكن عندما نضعها في أتون النار تبدأ الشوائب تطفو على السطح وتظهر بوضوح، وهكذا التجارب تنقي الإنسان من عيوب كثيرة لم تكن ظاهرة للعيان، فعندما يدخل الإنسان في تجربة يظهر الغضب وعدم قدرته على الاحتمال، ويظهر عدم التسامح والغيرة وسواها.

فالإنسان في حالته العادية لا يشعر أنّه يكره أو يحسد، لكن عندما يدخل في تجربة يتنبّه لوجود هذه الخصال في شخصيته. فحسناً التجارب أنّها تنقي الإنسان. فعندما محّصت شمس التجارب هذه النفس بدأت تتنقى، وبعد التنقية اكتسبت العديد من الفضائل، وتمتعت بثمار الروح، فظهر الفرح على ملامح وجهها ونعمت بالسلام وعلت وجنتيها علامات المحبة، كذلك تعلّمت الخضوع لمشيئة الله، وخرجت للخدمة، وأيضاً تمتعت بالراحة والحماية والسرور.

فالنفس التي تزينت بهذه الفضائل، وغمرت النعمة حياتها أعلنت بفرح كبير قائلة:

(١: ٢) "أنا نرجسُ شارون، سوسنة الأودية".

نرجس هي زهرة النرجس البيضاء، وشارون اسم لوائي في إسرائيل، وهو واد خصب ينتج أفضل الثمار ذات الجودة العالية. فالنفس تقول: أنا زهرة نرجس في وادي شارون المثمر. وقد يظن البعض أنّ قول النفس هذا يدل على كبرياء، لكنّه ليس افتخاراً بذاتها إنما هو افتخار بنعمة الرب عليها، هي التي سبق لها وقالت في الإصحاح الأول: "أنا سوداء كخيام قيدار"، فهي مدركة لطبيعتها السوداء ولكنها تفتخر

بالبياض الذي حصلت عليه بالنعمة من الله الذي قال: "إن كانت خطاياكم كالقمرمز تبيضُ كالثلج" (إش ١: ١٨).

فالقرب هو مَنْ نفحها بالبياض الناصع، وما يؤكد على تواضع هذه النفس أنَّها لم تكتفِ بالقول: "أنا نرجس شارون"، إنما أردفت قائلة: "أنا سوسنة الأودية"، والسوسن هي زهرة بيضاء تنبت في الوادي. فهي تعترف أنَّها موجودة في أسفل الوادي، والوادي مكان منخفض، يحتوي على مزروعات كثيرة ومتنوعة، وزهرة السوسن تنبت في وسطها، ولا يشعر أحد بوجودها لدرجة أن أي إنسان يجتاز الوادي قد يدوسها بقدميه، مما يؤكد على أنَّها تدرك نعمة الله التي جعلتها نرجس شارون، ولكنها في نفس الوقت متضعة لم تنس أنَّها سوسنة الأودية.

وهذا ما يبين لنا مفهوم الاتضاع الصحيح، فنحن نظن أن الاتضاع يكمن في أن يبرز الإنسان سيئاته وفي نفس الوقت يخفي حسناته. إنما الاتضاع كما عبّر عنه معلّمنا بولس الرسول قوله في: "أستطيع كل شيء..."، ولو توقّف بولس في كلامه عند هذا الحد، لقلنا له: ما هذا الكبرياء يا بولس؟ ولو قال: أستطيع كل شيء بذاتي، لكان متكبراً فعلاً، ولكنه قال: "أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقوّيني" (في ٤: ١٣)، فالإنسان المتضع يشعر في قرارة نفسه أنه حاصل على نعمة من الله، ويدرك أنَّها عطية خاصة له من المسيح في ناحية معيّنة، وهذه اليقينيّة بعطية الله ليست كبرياءً، لا سيما وأنّه يعتبر أنّ هذه الموهبة أو القوّة التي لديه ليست نابعة من ذاته، إنما هي نعمة من الرب.

فعروس النشيد أو النفس شعرت بنعمة الله وفرحة بها، وهكذا أولاد الله في العالم لذا يقولون: نحن "ورثة الله ووارثون مع المسيح" (رو ٨: ١٧)، وهي مدعاة مجد لأولاد الله الذين قال عنهم الكتاب المقدس: "لم يكن العالم مستحقاً لهم" (عب ١١: ٣٨)، فهم نرجس شارون ولكثّهم في الوقت نفسه سوسنة الأودية، فهم في وسط العالم منبوذون ومضطهدون ومهانون، وهذا هو الميزان الذي يزن به المسيح النفس البشريّة.

فبعد أن قالت النفس: أنا نرجس شارون سوسنة الأودية، تعبيراً عن فرحها بعطية الرب وبنعمته، قال لها المسيح مؤكداً على كلامها:

(٢ : ٢) "كَالسَّوسَنَةِ بَيْنَ الشُّوكِ كَذَلِكَ حَبِيبَتِي بَيْنَ الْبَنَاتِ".

فالمسيح يقول لها: "نعم، أنتِ زهرة سوسن، وأنا مَنْ أضيفُ عليكِ هذه المسحة من الجمال، ولكني زرعتك وسط الشوك". فهي سوسنة واحدة وحيدة محاطة بالشوك من جميع الجهات. وكذلك أولاد الله في العالم، "في العالم سيكون لكم ضيق" (يو ١٦: ٣٣)، والرب بحكمته جعل حول هذه الزهرة أشواكاً كثيرة، كما سمح بأن يصير أولاده قطيعاً صغيراً وسط ذئاب. لأنَّ هذا هو المكان أو الحالة التي ستتعلم النفس فيها الاتضاع.

فالمسيح أعطى الإنسان نعم كثيرة سوف تجعله عرضة للانتفاخ والتكبر بسهولة، لأنَّ هذه هي طبيعة الإنسان مهما كان مستواه العلمي أو المادي أو الاجتماعي، فإن كان ينتمي إلى طبقة راقية تجده منتفخاً بسبب مركزه أو أمواله أو شهاداته، وقد نبرر له موقفه هذا إما له من امتيازات، ولكن حتى الذي ينتمي إلى طبقة أقل نراه ينتفخ أيضاً. وليست الغاية من المقارنة التقليل من شأن الناس بقدر ما هي للإضاءة على واقع الإنسان وحقيقته، بسبب بذرة الكبرياء التي دخلت إلى طبيعته بفعل خطيئة أدينا آدم، فأصبحت مشكلة الإنسان الأساسية الانتفاخ والتكبر.

وأمام هذا الواقع، ماذا يفعل الله؟! فالله لا يحتمل الكبرياء لدرجة أن الكتاب يقول: "يقاوم الله المتكبرين" (يع ٤: ٦)، ولم يقل يقاوم الله الزناة أو عابدي الأوثان، إنما قال: يقاوم الله المتكبرين، لأنَّها خطيئة الشيطان، وقد قال الآباء: "خطيئة الكبرياء هي أم كل الخطايا"، وبالتالي هي أخطر خطيئة قد تصيب الإنسان. فالنعم الكثيرة التي يعطيها المسيح للإنسان والفضائل الكثيرة التي يزيّنه بها هي سبب قوي لكي ينتفخ. ومما لا شك فيه أنَّ الإنسان ينتفخ حتى ولو لم يكن يملك شيئاً، فكيف به إذا ما بدأ يتزيّن بالثمار الروحية.

وهذا الافتخار هو ما جعل الرب يخاف على النفس، ويحرص كل الحرص على حمايتها منه لئلا تقع في فخاخ إبليس. فبعد أن جعلها زهرة سوسن كان لا بد أن يحوطها بالشوك، حتى إذا ما أرادت أن تميل يميناً أو شمالاً تتألم من الشوك فتستقيم، ولا يبقى أمامها سوى أن ترتفع إلى أعلى وتنمو. لذلك يسمح الله بالضيق في حياة

أولاده. وهذا ما عبّر عنه بولس الرسول بقوله: "بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله" (أع ١٤: ٢٢)، وللغاية نفسها قال معلّمنا يعقوب: "احسبوه كل فرح يا إخوتي حينما تقعون في تجارب متنوّعة" (يع ١: ٢)، وليس الغرض التلذذ بالألم أو الرغبة في الأحران، بل لأنّ الشوك هو الحماية لكي لا تنتفخ الطبيعة البشريّة وتتكبّر، لأنّ الكبرياء هي الخطيئة المبعضة من الرب.

والرب في القديم عمل أعمالاً عظيمة مع حزقيّا، وأنقذه من شرور كثيرة. فبعد أن مرض حزقيّا ذهب إليه إشعياء النبي وقال له: "أوص بيتك لأنك تموت ولا تعيش" (مل ٢٠: ١)، فكانه يقول له: كل شيء انتهى لأنّ حكماً إلهياً قد صدر. ولكنّ حزقيّا صلّى إلى الرب، وسمعت صلّاته، وأمدّ الرب بعمره خمس عشرة سنة. وفيما بعد جاء جيش سنحاريب وحاصر حزقيّا، فصلّى حزقيّا الملك، وصلّى إشعياء النبي، فنزل ملاك من السماء وقتل مئة وخمسة وثمانين ألفاً من جيش سنحاريب.

ورغم حياة التقوى هذه لم يسلم من مفاعيل بذرة الطبيعة البشريّة التي فيه وكانت نتيجة هذه الانتصارات كارثيّة، فالانتصار على المرض والانتصار على العدو، جعل قلب حزقيّا يرتفع، وهذا ما بدا واضحاً عندما جاء إليه رسل من عند ملك بابل وقالوا له: سمعنا أنك كنت مريضاً وشفيت. فقال لهم: "لم أشفَ فقط ولكنّ الله أرجع من أجلي الشمس عشر درجات، وانتصرت في الحرب، وأيضاً عندي كنوز فتعالوا انظروا". فأراهم بيت أسلحته وكل ما وجد في خزانته. وكل ما قاله لهم وما فعله أمامهم إنّ دلّ على شيء فإنّما يدل على مدى افتخار وكبرياء حزقيّا. وكانت النتيجة أنّ الرب غضب من حزقيّا، وأرسل إشعياء إليه، وما إن رأى إشعياء حتى اضطرب وانقبض قلبه، لأنّ الإنسان الروحاني عندما يخطئ يعرف نفسه. وسأله إشعياء عن الرجال الذين دخلوا بيته، فقال له حزقيّا: "هم رسل جاءوا من بابل للتهنئة بشفائي". فسأله إشعياء: "ماذا أريتهم؟" فأجابه حزقيّا: "رأوا كلّ ما في بيتي. ليس في خزائني شيء لم أريهم إياه" (مل ٢٠: ١٥). قال هذا لأنّه كان فخوراً بما يملك، وفرحاً بما عنده. فقال له إشعياء: اسمع قول الرب، واسمع تأديب الرب لك: "هوذا تأتي أيام يُحمَل فيها كل ما في بيتك..."، لأنك انتفخت وظننت أنّ كل هذا قد حققته بقوة ذراعك.

وهذا هو الفرق بين الكبرياء والاتضاع، فالمتكبر يقول: هذه قوتي، فعندما صليت شفاني الرب لأنني رجل صالح، وعندما تذلت هزم الرب أعدائي لأنني رجل تقي. فقال له الرب: لا، هذه ليست قوتك إنما نعمتي. وبسبب كبريائه وقع تأديب الله. فحماية الإنسان تحتم إحاطته بالشوك، الذي يتمثل بالضيق في حياته، فالإنسان لا يعرف سبب وجود الشوك في حياته، لذلك يصلّي إلى الله كي ينزع الشوك منها، ولكن الله يأبى أن ينزعه لأنه هو الحماية لحياة الإنسان ولخلاصه.

والله يعلم الإنسان الاتضاع بطرق شتى، ومن بينها كلمة الإنجيل، فحين نقرأ الكتاب المقدس من أوله إلى آخره ندرك أن الدرس الأول والأساسي الذي يريد المسيح أن يعلمه لكل نفس من أولاده هو الاتضاع، "إلى هذا أنظر: إلى المسكين والمُسحَق الروح والمرْتَعِد من كلامي" (إش ٦٦: ٢). وأيضاً نتعلم الاتضاع من خبرة أمتنا العذراء فهي قد عاشت مع الرب ولها خبرات كثيرة معه. فإن طلبنا منها النصيحة، فأمامها بحر من الروحيات تعترف منه لكنها اكتفت بواحدة تحوى الكل إذ قالت "أنزل الأعزاء عن الكراسي ورفع المتضعين" (لو ١٤: ٥٢). لأن الاتضاع يناقض خطيئة الشيطان وكما قال: "أرفع كرسيي فوق كواكب الله ... أصير مثل العلي" (إش ١٤: ١٣-١٤). والضربة القاضية التي ضرب بها الإنسان كانت ضربة كبرياء حين قال له: تصير مثل الله. (تك ٣: ٥). فعندما نقرأ كلمة الإنجيل نكتشف أن الكبرياء خطيئة بغیضة جداً عند الله.

وهيرودس الملك رجل متكبر جداً لدرجة أنه في أحد الأيام لبس الحلة الملوكيَّة ووقف ليخطب في الشعب، فصرخ الشعب: "هذا صوت إله لا صوت إنسان"، ويقول الكتاب: "ففي الحال ضربه ملاك الرب، فصار يأكله الدود ومات"، وقد يقول البعض: "كل الناس سوف تموت ويأكلها الدود". هذا صحيح فعندما يوضع الإنسان في التراب سوف يأكله الدود، ولكن هيرودس بدأ يأكله الدود وهو ما زال على قيد الحياة، وهذا منتهى الذل. وإن سألنا الرب: لماذا غضبت على هيرودس؟ فسوف يقول: لأنه إنسان متكبر، لم يعطِ المجد لله، عندما قالوا له: "هذا صوت إله لا صوت إنسان" (أع ١٢: ٢٢).

والكتاب المقدس زاهر بقصص تشابه قصتي حزقيّا وهيرودس الملك، والمسيح يريد أن يعلمنا منها درساً: "طوبى للمساكين بالروح، لأنّ لهم ملكوت السموات" (متى ٥ : ٣). لأنّ الكبرياء هو سبب طرد بني آدم من الفردوس، والاتضاع هو الذي سوف يعيدهم إلى الفردوس. فإنّ تعلّم الإنسان الدرس من كلمة الله خير وبركة، وإنّ لم يتعلّم سوف يسمح له الرب ببعض الأشواك لكي يعلمه الاتضاع.

وبولس كان يشفي المرضى لدرجة أنهم كانوا يأخذون عن جسمه المآزر ويضعونها على المرضى فيبيرأون، وأمر كهذا قد يجعل بولس ينتفخ، بالإضافة إلى أنه صاحب رؤى وإعلانات، وليس فقط يجري المعجزات ويشفي المرضى. وكذلك صعد إلى السماء الثالثة ورأى أموراً وسمع كلمات لا يُنطق بها (٢كو ١٢ : ٢)، وكل هذا شكّل سبباً مهماً لكي يخاف المسيح على بولس بعد أن رآه "زهرة سوسن" جميلة، فسمح له ببعض الشوك. وهذه الشوكة أخبرنا عنها في رسالته إلى أهل كورنثوس "أعطيت شوكة في الجسد" (٢كو ١٢ : ٧)، والتي عانى منها الكثير، وتضرّع إلى الرب ثلاث مرات بسببها، فقال له الرب: لكي لا ترتفع. وفهم بولس الدرس وقال: "لئلا أرتفع بفرط الإعلانات".

وأى إنسان إن نام ورأى العذراء في الحلم، أو ظهرت له العذراء مريم في رؤية، ألا يزهو بنفسه! حتى أنّ الدنيا تكاد لا تسعه من شدّة انتفاخه، فكيف ببولس الذي لم تقتصر رؤيته على إعلان أو إعلانين، إنما رأى فرط إعلانات مما سيؤدي به حتماً إلى الانتفاخ جرّاء الطبيعة البشرية. لذا قال له المسيح: خذ هذه الشوكة يا بولس فسوف تحفظك، وفي كل مرّة تحاول أن ترتفع وتتمايل عجباً فتتألم فليس أمامك سوى أن تستمر في الصعود والنمو.

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال عن بولس الذي كان يعرف أن يشفي المرضى، لماذا لم يشف نفسه؟! لم يشف نفسه لأنّ قوّة الشفاء ليست نابعة من قوّة بولس، إنما هي نعمة من الله. وبولس الذي شفى الكثيرين من الناس، لم يعرف أن يشفي تلميذه وحبيبه تيموثاوس، إنما كتب إليه رسالة تضمنت وصفة طبيّة يقول له فيها: "لا تكن في ما بعد شراب ماء، بل استعمل خمراً قليلاً من أجل معدتك وأسقامك الكثيرة" (١ تي ٥ : ٢٣).

وإن سألته لماذا لم تشفه يا بولس؟ فسوف يقول لك: "وهل الأمر بيدي! وهل هي مشيئتي أو قوّتي أو قدرتي! لا، إنما هي قوّة الرب يسوع التي تشفي."

وهذا هو الطريق الثاني الذي يعلّم به المسيح الاتضاع، فالشوك الذي في حياة الإنسان يجعل نفسه منكسرة، متضعة مهما تزيّنت بالفضائل والمواهب والنعم، وإن سألت بولس عن كل ما أنجزه وحققه، فسوف يقول لك: أنا أعرف حدودي وقدراتي، إنما هي نعمته، وقوله هذا ليس مجرد كلام يقوله بولس، بل هو يقين في داخله، وأكدت عليه الشوكة التي تنخس في جسمه طوال الوقت، لذلك قال: "لنا هذا الكنز في آوانٍ خزفية، ليكون فضل القوّة لله لا ممّا" (٢كو ٤: ٧).

والله يسمح بظهور الشوك في حياة الإنسان بأشكال مختلفة، فقد يصادف أخ في عمله مسئلاً أو زميلاً يضايقه ويقلق راحته، ويبدأ هذا الأخ يصلّي إلى الله كي يكف زميله عن مضايقته أو أقلّه يبعده عن طريقه، ولكن الرب لا يستجيب لطلبته، لأنّ هذا الزميل هو الشوكة التي غرسها الرب إلى جانبه، حتى تبقى نفسه متضعة ومنسحقة وتصلّي وتلجأ إلى الله. فإن اقتلع الرب الشوك من حياة الناس فمن يضمن أنهم سوف يذهبون إلى الكنيسة أو يصلّون إلى الله، ولا أحد يدري كيف يتصرّفون وإلى أين يتوجهون.

ولكن حين لا يتعلّم الإنسان من الشوك، يتدخل المسيح، ويقول له: "بسبب إصرارك على الكبرياء سوف أتركك تحصد الثمر المرّ". كما فعل الرب مع إسرائيل أيام يشوع، فبعد أن هزم إسرائيل أريحا، افتخر الشعب أنّه هزم مدينة محصّنة من أقوى مدن كنعان، وبدون ضربة سيف، فقط بالدوران حول أريحا، فسقط سور المدينة. وفيما بعد قرّروا أن يحاربوا عاي، وكانوا يقولون بكثير من الاعتداد بالنفس: نحن غلبنا أريحا وماذا تكون عاي مقارنة بأريحا. وقالوا ليشوع: لا داعي لأن يصعد كل الجيش ليحارب عاي، فيكفي أن نذهب بعدد قليل وسوف نقضي عليهم. وما قالوه منتهى الكبرياء. والله قال لهم: إذاً فاحصدوا ثمرة الكبرياء. فانكسروا في عاي وقتل منهم ستة وثلاثون رجلاً. (يش ٧: ٢ - ٦)، فانسحق يشوع أمام الرب، فكان الرد لأنكم نسيتم الدرس انظروا ما حلّ بكم!

فالمسيح يرغب أن يزيّن النفس بالفضائل، ولكنّه يخشى عليها من الكبرياء، لذا يستعين بالشوك من أجل حمايتها، ويقدر ما تحتل الشوك حينئذٍ يُغدق عليها عطاياء. كما حصل مع البابا كيرلس الذي ائتمنه المسيح على مواهب كثيرة بعد أن أحاطه ببعض الأشواك. فعندما نقرأ التاريخ نكتشف كم عانى هذا الرجل في حياته، لا سيما من أناس من داخل الكنيسة وقد وصل بهم الأمر لدرجة أنهم قالوا له: "أنت لا تصلح أن تكون بطريركاً، مكانك هو في الدير، فاذهب ونحن سوف نتدبر شئون الكنيسة". فلجأ البابا كيرلس إلى القديس مرقس في الإسكندرية، وقال له: "لن أعود إلى مقرّي قبل أن تجد لي حلاً". وطبعاً تدخل الرب وحل الأمور. ولكن الغاية من ذكر هذه الحادثة هي أن نعرف أنّ الأشواك الكثيرة والواضحة في حياة البابا كيرلس هي التي أمّنت له الحماية.

(٣:٢) "كَالتُّفَّاحِ بَيْنَ شَجَرِ الْوَعْرِ كَذَلِكَ حَبِيبِي بَيْنَ الْبَتِينِ. تَحْتَ ظِلِّهِ اسْتَهَيْتُ أَنْ أَجْلِسَ، وَثَمَرَتُهُ حُلْوَةٌ لِحَلْقِي."

وفضيلة الاتضاع مكرّمة جداً في عينيّ الرب، ومدى تدفق المواهب والعطايا الإلهية أو شحّها مرتبط بدرجة اتضاع النفس، فالله يعطي النفس بقدر اتضاعها، لأنّه حين يمتنّ عليها بأكثر مما يناسبها فسوف تنتفخ، ولكن حين تحيا النفس حياة متضعة فسوف تحظى بحياة الشركة مع المسيح، ومن ثمّ تبدأ تتعرّف على شخص المسيح، وفي نفس الوقت يأتمنها المسيح على أسرارهِ. ويستحيل أن تقوم شركة ما بين نفس متكبرة والسيد المسيح. فبعد أن تتزيّن النفس بفضيلة الاتضاع يدعوها الرب يسوع لكي تبدأ شركة معه ومن ثمّ تتعمق العلاقة ما بينهما وتزداد معرفتها به.

"كَالتُّفَّاحِ بَيْنَ شَجَرِ الْوَعْرِ كَذَلِكَ حَبِيبِي بَيْنَ الْبَتِينِ" فبعد أن تعرّفت النفس على السيد المسيح وجدته كالتفاح بين شجر الوعر، وشجر الوعر هو شجر الشوك، والنفس شبّهت المسيح بالتفاح لأنّ شجرة التفاح معروفة برائحتها الطيبة وثمرتها التفاح ثمرة مغذية تحتوي على سوائل تروي العطش وغنيّة بالسكر والأملاح التي تمد الإنسان بالطاقة، فالتفاحة وجبة كاملة.

فالمسيح هو كشجرة التفاح في وسط الوعر، فكل الشجر المحيط بالنفس شجر شوك لا يعطي ثمراً ولا تقدر أن تستظل به، وهكذا المسيح في وسط العالم، وهذه حقيقة وليس كما يقال أن الوعر مختلف عن الواقع، لكن إدراك هذه الحقيقة هو ثمرة الخبرة الشخصية، فكلما تتعلم النفس الاتضاع تتعمق الشركة مع المسيح، فتلمس أن الكلام متطابق مع الواقع، وتكتشف أن المسيح فعلاً كالتفاح بين شجر الوعر.

فعندما يقترب الإنسان من المسيح، ويقارن بينه وبين سائر الناس، يكتشف أنهم مجرد شجر وعر، فلا يجد معهم راحة أو تعزية وحتى إن التجأ إليهم فإذا بهم مثل الشوك تؤلمه وخزاتهم. ولكن حين يذهب إلى المسيح ويلوذ به يكتشف أنه كالتفاح بين شجر الوعر.

فالنفس دخلت في شركة مع المسيح وبدأت تتأمل في شخص المسيح وفي حياته، وتطلعت إلى نهر الأردن حيث كان يوحنا المعمدان يعمّد الناس، وجاء يسوع ووقف في وسط الطابور، وكان يبدو للناظرين إليه أنه واحد من ضمن مجموعة، ولكن النفس قالت: لا، هؤلاء جميعهم شجر وعر لكن هو منفرد "حبيبي... مُعَلِّمٌ بين ربوة" (نش: ١٠)، لأن الجميع جاءوا يعتمدون بسبب خطاياهم بينما هو بلا خطية فهو كلي الاختلاف عن كل الذين يحيطون به. والحياة معه مختلفة وتعاملاته مختلفة ومحبة مختلفة.

ولو وضعنا إلى جانب المسيح أي شخص ولو حتى أفضل الأنواع من رجال الكتاب المقدس، رجلاً مثل موسى وما له من جمال وعظمة، هو الذي تربى كابن لابنة فرعون، وأعدّ لكي يكون فرعون مصر، ومع ذلك رفض كل غنى وأمجاد مصر، وتخلّى عن كل شيء، مفضلاً أن يكون رجل الله. ولكن عندما نضعه إلى جانب المسيح فسوف نجده شجر وعر. فماذا ترك موسى! أو عن ماذا تخلّى! مقارنة مع المسيح الذي ترك أمجاد السماء وأخلى ذاته من أجل البشرية آخذاً صورة عبد. فأين موسى منه؟ فالمسيح لا يقارن بأحد.

موسى الذي وقف أمام الرب، بعد أن صنع الشعب عجلاً وعبدوه، فقال له الرب: "فالآن اتركني ليحمي غضبي عليهم وأفنيهم" (خر ٣٢: ١٠)، فوقف أمامه موسى وقفة يشهد

له بها، وقال للرب: "والآن إن غفرت خطيئتهم، وإلاً فامحني من كتابك الذي كتبت" (خر ٣٢: ٣٢)، فلم يتخلَّ موسى عن شعبه وريط مصيره بمصيرهم، ورغم ذلك عندما نضعه إلى جانب المسيح، فهو ليس سوى شجر وعر. لأنَّ موسى نفسه في يوم من الأيام ضجر، وقال للرب: "لماذا... وضعت ثقل جميع هذا الشعب عليَّ؟ ألعلي حَبَلْتُ بجميع هذا الشعب؟ أو لعلي وَلَدْتُهُ..." (عد ١١: ١١-١٢)، فموسى بمرور الوقت فقد قدرته على الاحتمال، وتذمَّر على الله. لكنَّ السيّد المسيح الذي خدم مظهراً كل محبة لم يتذمَّر ولو لمرة واحدة في حياته، فمدينة كفر ناحوم التي صنع فيها أكثر قوَّاته رفضته، فهل وقف المسيح يتذمَّر ويصب اللعنات على كفر ناحوم؟ لا، أبداً. بل قال: "أحمداًكِ أيُّها الآب رب السماء والأرض، لأنك أخفيتَ هذه عن الحكماء والفُهَمَاء وأعلنتها للأطفال" (مت ١١: ٢٥)، وبموقفه هذا، ماذا يكون موسى إلى جانب المسيح؟ لا شيء.

وإذا ما نظرنا إلى نوعيّة أخرى من شخصيّات الكتاب المقدَّس، إلى داود الملك، ويكفي أنَّ الرب قال عنه: "وجدت داود بن يسَّى رجلاً حسب قلبي" (أع ١٣: ٢٢)، ولكنَّ داود الذي قلبه حسب قلب الرب في يوم من الأيام افترس واحدة من الشعب، وهو فيما مضى أنقذ نعجة من بين أنياب الأسد والدب (١ صم ١٧: ٣٥). فالذي أنقذ نعجة هو نفسه افترس النعجة التي هي زوجة أوريا الحثي. وبعد غدره هذا، هل يصح أن نضعه إلى جانب المسيح؟ بالطبع لا، فهو شجر وعر ولا يقارن بالسيّد المسيح شجرة التفاح.

وسليمان أحكم بني البشر عندما جاءت إليه امرأتان وقالت له إحداهما أنَّ ولد المرأة الثانية قد مات، والولد الحيُّ هو ابنها، وأخذتا تتعاركان على الولد الحي، وكلُّ منهما تدَّعي أن الولد ابنها. ماذا فعل سليمان وكيف حسم الأمر؟ لقد قال: "اشطُّروا الولد الحي اثنين، وأعطوا نصفاً للواحدة ونصفاً للأخرى" (١ مل ٣: ٢٥). فهذا هو أسلوب شجر الوعر. بينما المسيح عندما التقى امرأة نابيين ورأها تبكي وحيدها الميت، لم يقل اشطروه، بل أقام الولد ودفعه إلى أمِّه (لو ٧: ١٢-١٦).

فالمسيح متفرَّد وليس له مثيلٌ، وهذا ما تكتشفه النفس عندما تدخل في حياة الشركة مع المسيح، وتبدأ تتعرَّف عليه، فهناك فرق بين أن تسمع عن المسيح وبين أن

تختبر المسيح، والذي يختبر المسيح هو الإنسان المتضع، فيكشف له المسيح ذاته، ويتيح له تذوق ثمرة شجرة التفاح.

والنفس عندما أدركت أن المسيح كشجرة التفاح قالت له: "تَحْتَ ظِلِّهِ اسْتَهَيْتُ أَنْ أَجْلِسَ": فبعد أن تعرّفت النفس على المسيح الحلو، تمنّت أن تمضي حياتها معه، وكما قال بطرس: "يارب، جيّد أن تكون ههنا" (متى ١٧: ٤)، فبطرس اكتفى بالمسيح ولا يريد سواه. وكما فعلت مريم عندما تركت كل شيء وجلست عند قدميه، لكي تسمع كلمات النعمة الخارجة من فمه، عوض أن تتلهى بما يقوله أو يفعله الآخرون، فقد اختارت أن تجلس عند قدميه لأنّها أدركت أنّه أفضل من الجميع. فثمرة الاتضاع هي دخول النفس في حياة الشركة مع المسيح حيث تبدأ تعيش معه خبرة أو معرفة خاصة، وهذه الخبرة تجعلها تقول عنه كالتفاح بين شجر الوعر كذلك حبيبي بين البنين، ولأنّه كالتفاح اشتهدت أن تجلس النفس تحت ظله، ولم تكتفِ النفس بالتلذذ في الجلوس عند قدميه، إنما تابعت القول:

"وَمَرَّتُهُ خُلُوءٌ لِحَلْقِي" فالنفس تجلس عند قدمي الرب حيث تسمع وتأكل، وبعد أن تأكل تتعرّف على حلاوة ثمرته وتكتشف ما اكتشفه المرتل الذي قال: "ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب!" (مز ٣٤: ٨)، فهناك فرق شاسع بين أن تسمع النفس عن المسيح وبين أن تتذوّق المسيح. فمنّ يقدر أن يصف طعم العسل! فمهما حاول لن يستطيع أن يعبر عن حقيقة مذاقه، ولكن الذي يتذوّق العسل يعرف تماماً طعم العسل.

فالنفس تقول أن المسيح كالتفاح فهو لا يقارن بأحد، لا بأب ولا بأم، لا بأخ ولا بأخت، ولا بكاهن. والإنسان قد يعاتب أباه أو أمه أو أب اعترافه لأنّه قصّر معه، فهم جميعهم في النهاية شجر وعر، ولكن لن يكون لأي إنسان مأخذ على الرب يسوع لأنّه "ماذا يُصنّع أيضاً لكومي وأنا لم أصنعه له؟" (إش ٥: ٤)، فالمسيح لم يقصّر مع إنسان ولم يتهاون في أي شيء.

وهذه الخبرة الشخصية عاشتها السامريّة وتذوّقت المسيح ووجدت ثمرته حلوة وطاب لها المكوث معه، لذلك فكّرت في إختوتها وتمنّت أن يتذوّقوا هم أيضاً هذه الثمرة، فذهبت إلى أهل السامرة وقالت لهم: تعالوا انظروا كم هي الحياة مفرحة معه، فهو لطيف في معاملته، وحتى مع الخاطي رقيق جداً، ولا أعرف أن أصفه لكم لأنّه لا يوصف، فتعالوا تذوّقوا واختبروا الحياة معه.

وفيلبس عندما التقى نثنائيل قال له: وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء. فسأله نثنائيل: مَنْ هو. فأجابه فيلبس: يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة. فقال له نثنائيل: "أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح؟ قال له فيلبس: تعال وانظر (يو: ٤٥ - ٤٦)، تعال تذوّق المسيح لكي تختبر هذه الخبرة وتخرج مع العروس تقول: كالتفاح بين شجر الوعر.

وليس هذا فقط لكن عندما دخلت النفس في حياة الشركة حصلت على ثمرة أخرى، فما هي؟ قالت:

(٤: ٢) "أَدْخَلَنِي إِلَى بَيْتِ الْخَمْرِ، وَعَلَّمَهُ فَوْقِي مَحَبَّةً".

فكون المسيح غنياً في شخصه فهذا أمر لا يدعو إلى العجب، لأنّه المسيح. ولكنّ ماذا أخذت النفس من غناه؟ في الحقيقة كل غنى المسيح هو للنفس. فالعروس تقول أدخلني إلى بيت الخمر، وبيت الخمر في ترجمات أخرى هو بيت الوليمة، فالمسيح الغني قد أعدّ وليمة، وكما قال في أحد الأمثال في إنجيل القديس لوقا: "إنسانٌ صنع عشاءً عظيماً ودعا كثيرين" (لو ١٤: ١٦)، والرائع أنّه طلب من العبد أن يقول للمدعوين: "تعالوا لأنّ كل شيء قد أُعدّ"، فالمسيح غني وكل هذا الغنى هو من نصيب أولاده، لذا يقول لكل واحد منا: هوذا كل شيء قد أُعدّ فتعال إلى عشاءي، وسوف تتنازل كل احتياجاتك. فماذا تريد؟ هل تريد سلاماً؟ تعال وأنا أعطيك "سلاماً أترك لكم. سلامي أُعطيكم" (يو ١٤: ٢٧)، هل تريد فرحاً؟ تعال وأنت تفرح بي "ففرح التلاميذ إذ رأوا الرب" (يو ٢٠: ٢٠)، هل أنت في حيرة؟ تعال فأنا مصدر الحكمة "صار لنا حكمة من الله" (١كو ٣: ١٠)، هل أنت خائف من الموت؟ تعال أنا هو القيامة والحياة (يو ١١: ٢٥).

فكل شيء قد أعدّ، والمسيح يسدّد كل احتياجات النفس البشريّة، ولا يوجد شيء تحتاجه النفس إلّا وتجده في شخص المسيح، فهذه هي الوليمة التي أعدّها المسيح للنفوس المؤمنة به، وهذا ما تحصل عليه النفس التي تدخل في شركة مع المسيح. وهذا ما لمسّه المتضعون بالاختبار بعد أن وفى المسيح كل احتياجاتهم. وهذا ما يجاوب على تساؤلاتنا ويجعلنا ندرك لماذا هربوا من كرامة العالم عندما جاء العالم ليكرّم هذه النفوس المتضعة، ومنهم البابا كيرلس. فيوم افتتاح الكاتدرائيّة في مصر كان يوماً غير عادي فقد حضر مندوب عن بطريك روسيا ومندوب عن الإمبراطور هيلاسلاسي بالإضافة إلى العديد من وكالات الأنباء التي غطّت الحدث، وكان احتفالاً كبيراً. وبعد نهاية الاحتفال قال تلميذ البابا كيرلس: "يا للمجد الذي كانت فيه الكنيسة اليوم!"، فردّ البابا كيرلس وقال له: "يا بني كل هذا لا يساوي يوماً في الطاحونة".

ولماذا هذه الأفضليّة للطاحونة؟ ماذا يوجد فيها؟ ففيها كان البابا كيرلس يلتقي الملائكة ورؤساء الملائكة والمسيح بذاته. فماذا يكون مجد العالم أمام مجد الطاحونة؟ من هنا ندرك لماذا يهرب المتضعون من مجد العالم، ونفهم لماذا تركوا كل شيء واتحدوا بالمسيح ولسان حالهم يقول: في المسيح كل الكفاية ولا نريد شيئاً معه. فإن أراد المتضع سلاماً أو محبة، دفناً أو راحة فسوف يجدها جميعها فيه. فالمسيح قد أعدّ كل شيء للإنسان، وليس مطلوباً منه سوى أن يأتي إليه.

وقد نقول: طوبى لمن يذهب إلى هذه الوليمة، فهل لنا نحن أيضاً نصيب فيها؟ سوف نعرف الجواب عندما نتابع مع المسيح بقية المثل. فالمسيح قال للعبد: "أدخل إلى هنا المساكين"، لكي يأتوا ويتمتعوا بهذا العشاء، فهم لهم الأفضليّة عن سواهم في الدخول لأنّهم متضعون، وغنى المسيح ينسكب في المتضع الذي يكتفي بالشبع بالمسيح. وهذا ما يحملنا على القول: طوبى للقديسين! إلّا أنّ المسيح يختم المثل بقول العبد: "قد صار كما أمرت ويوجد أيضاً مكان". مما يعني أنّ عدد المدعوين لم يكتمل بعد في هذه الوليمة المُشبعة، فما زال يوجد مكان، وهذا المكان لي ولك ولكل واحد يقبل الدعوة، فالمسيح لم يغلق الباب حتى هذه اللحظة، وما دام يوجد في داخل

الإنسان قلب ينبض بالحياة على هذه الأرض، فهذا يعني أنه ما زال له مكان فوق، وليس عليه سوى قبول الدعوة والمجيء إلى الوليمة والتمتع بالعشاء العظيم، لأنه هوذا كل شيء قد أعدّ.

وهذه النفس ارتقت ونمت في الطريق الروحي بعد أن دخلت في شركة أعمق مع المسيح، ففي الدرجة الأولى تعرّفت إلى غنى شخص المسيح، وهى الفقيرة، فقال لها المسيح: سوف أهبك هذا الغنى، وكانت هذه الدرجة الثانية، وأصبح غنى المسيح للنفس يسد به كل احتياجاتها. وقد تقول لي أين هى هذه الوليمة التي تتمتع بها النفس؟ فأقول لك هى الكنيسة، فبيت الخمر كما هو بيت الوليمة كذلك هو الكنيسة، والذي يريد أن يتمتع بغنى المسيح فليأت إلى الكنيسة، لأن كل غناه موجود في الكنيسة وشاول - بولس عندما كان يبحث عن المسيح تلبية لرغبة في قلبه للتعرف عليه، ظنّ أوّل الأمر أن الطريق لتحقيق هذه الرغبة هو في اضطهاد المسيحيين، ومع أنّه كان يشتهي أن يجلس عند قدمي المسيح، لكنّه لم يكن يعرف الطريق، إلى أن أرشده المسيح عندما التقاه على طريق دمشق وقال له: "ادخل إلى المدينة فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل" (أع ٩: ٦)، وبعد أن دخل إلى المدينة ذهب إلى حنانيا الذي أدخله إلى الكنيسة من خلال منحه سر العماد، الكنيسة التي هى بيت الخمر وهى المكان الذي نتمتع فيه بخيرات المسيح.

"أَدْخَلْنِي إِلَى بَيْتِ الْخَمْرِ، وَعَلِّمَهُ فَوْقِي مَحَبَّةً".

والكنيسة تعلوها منارة عالية نُصِبَ عليها علم المسيح، وعلم المسيح هو الصليب. فكل ممالك العالم لها أعلام تعبّر عن سياساتها، وعلم مملكة المسيح هو الصليب. والمسيح لا يقهر أحداً فهو قد أعدّ كل شيء ويشتهي مجيء الجميع، ولا يغصب على أحد، بل يترك لكل واحد حرية الاختيار، فهو يعرض محبته فقط "هأنذا أجعل أمامكم طريق الحياة وطريق الموت" (إر ٢١: ٨)، والذي يختار طريق الحياة يحيا.

(٥:٢) "أَسْنِدُونِي بِأَقْرَاصِ الزَّيْبِيبِ. أُنْعِشُونِي بِالتَّفَاحِ، فَإِنِّي مَرِيضَةٌ حُبًّا".

عندما دخلت النفس إلى بيت الخمر الذي هو الكنيسة، قالت: فَإِنِّي مَرِيضَةٌ حُبًّا. وعبارة "مريضة حباً" قد ترجمت في السبعينية "إني مجروحة"، فعندما دخلت النفس إلى بيت الخمر انجرحت، فما الذي جرحها؟ ففي الكنيسة سمعت كلمة المسيح وكلمته حياة وفعالة كالسيف، وهذا السيف جرح النفس، لأنها بالرغم من وصولها إلى درجات عالية في الاتضاع وفي حياة الشركة فهي بحاجة إلى مزيد من التنقية، فما الذي ينقّيها سوى كلمة الله، ففي داخل بيت الخمر تسمع الكلمة فتجرح قلبها كالمنخس، لأن كلمة الإنجيل كما هي للتغذية فهي أيضاً للتوبيخ، والإنسان يفرح عندما يتعرّى بكلمة الإنجيل التي تخبره عن عطايا الله ومحبتة وخيراته، ولكن كلمة الإنجيل لا تقتصر على هذا الجانب فقط، إنما هي أيضاً للتوبيخ.

فعندما سمعت النفس كلمة المسيح، شعرت أن الكلمة موجّهة إليها شخصياً، توبخها على أفعالها، وتفتح عينيها على ضعفاتها، وبها ومعها اكتشفت أنها في الموازين لفوق، لذا صرخت وقالت: "أَسْنِدُونِي بِأَقْرَاصِ الزَّيْبِيبِ"، الذين هم القديسون، "وَأُنْعِشُونِي بِالتَّفَاحِ"، الذي هو المسيح. فالنفس عندما دخلت الكنيسة سمعت وصايا الرب، وعلى سبيل المثال سمعت وصية تقول: "صَلُّوا كُلَّ حِينٍ"، ففكرت في نفسها ووجدت أنها لا تسلك بموجب هذه الوصية، ولا تصلي كل حين، فانجرحت وتألّمت لذا صرخت: أَسْنِدُونِي بِأَقْرَاصِ الزَّيْبِيبِ، أي أخبروني كيف نَقْذُ القديسون هذه الوصية وكيف سلّكوا فيها؟

والسائح الروسي هو عروس حلوة للمسيح دخل في شركة مع المسيح وسمع كلمة الله، فإذا بالكلمة: "صَلُّوا كُلَّ حِينٍ وَلَا تَمَلُّوا"، كالسهم أصابت قلبه، فجرح الرجل بالكلمة واحتار في أمره كيف ينقذ هذه الوصية، هل يترك عمله ويتفرغ للصلاة! وبدأ الرجل يَجُولُ على القديسين "أَقْرَاصِ الزَّيْبِيبِ"، ويسألهم النصيح والإرشاد، إلى أن قاده الرب إلى قرص زيبب حلو، قديس يحيا في شركة عميقة مع المسيح، فأشار عليه أن يردد صلاة يسوع طوال الوقت أينما ذهب ومهما فعل، فيقول: "يا ربي يسوع المسيح ارحمني أنا الخاطي"، ويكررها باستمرار. وهو تدريب حلو متاح لكل إنسان أن يمارسه، فإذا كنت

تمشي في الشارع وتنتظر إلى السيارات فمع كل سيارة تمر بك حدّق إليها وقلّ في قلبك: "يا ربي يسوع المسيح ارحمني أنا الخاطي"، على أن تردّها بتركيز. وأيضاً إذا ما دخلت إلى بيت يمكنك أن تنقل نظرك من كرسي إلى آخر وكلما يقع نظرك على واحدة، ردد صلاة يسوع وهكذا دواليك، فهو تدريب لطيف نتعلمه من أقراص الزبيب.

ثمّ دخل الرجل إلى الكنيسة وسمع وصيّة أخرى تقول: "اذهب وبع كل ما لك وتعال اتبعني"، فخرج من الكلمة وتساءل كيف أبيع كل ما لي! واستغاث بأقراص الزبيب وقال لهم: أخبروني كيف نفذتم هذه الوصيّة؟ لأنّ القديسين هم الإنجيل العملي لحياتنا، ولهذا السبب نحبّهم، وهذا ما جعلنا نحزن على إختنا البروتستانت الذين يعترضون على محبتنا وإكرامنا للقديسين لا سيما السيدة العذراء فيما هي بالنسبة إلينا نموذج حي للإنجيل، وأيضاً القديس مارجرس هو نموذج لنا وكذلك الأنبا أبرام وسواهم. فالبروتستانت رفضوا الشهادة الحيّة واكتفوا بالنظريات، فإذا ما أرادوا أن يفسّروا وصيّة الإنجيل: "اذهب وبع كل ما لك"، تراهم يدخلون في تأويلات وتفسيرات تبدأ ولا تنتهي، في حين يوجد في كنيستنا رجل بسيط وعظيم هو الأنبا أنطونيوس، أذهب إليه وأقول له: هذه الوصيّة لمست قلبي، فاسندني وارشدني ماذا أفعل؟ فيقول لي، بكل بساطة وواقعيّة: "أنا بعت كل ما لي وتبعت الرب يسوع". فعندما تحرك الوصيّة اهرع إلى القديسين وتعرّف منهم على التطبيق العملي للوصيّة وسوف تجد في جعبة كل قديس سنداً لوصيّة، لأنهم فردوس من الفضائل والثمار، وكل واحد منهم متميّز في أمر.

ويُحكى عن رجل كان عنده ابنة فيها روح شرير، وقيل له: يوجد في أحد الأديرة راهب قديس، قد أنعم الله عليه بموهبة طرد الأرواح الشريرة، فادعوه إلى بيتك كي يشفي ابنتك ولكن إيّاك أن تقول له: "تعال واخرج الشيطان من ابنتي". لأنّه راهب متضع يحب أن يعيش في الخفاء، ولا يسعى إلى نيل كرامة أو مجد من الناس، وكما قال الرب يسوع: "مجداً من الناس لست أقبل" (يوه: ٤١). فسأل والد الفتاة: ما هو السبيل لكي آتي به إلى بيتي؟ فقالوا له: أطلب إليه أن يوصل لك القفف إلى البيت. فقصد الرجل الراهب، وقال له: سوف أشترى منك القفف ولكن بشرط أن توصلها

بنفسك إلى البيت. فتذكّر الراهب الآية: "مَنْ سَخَّرَكَ مَيْلًا وَاحِدًا فَادْهَبْ مَعَهُ اثْنَيْنِ" (متى ٥: ٤١)، ووافق على طلبه، وحمل القفف إلى بيت الرجل، وعندما وصل إلى باب البيت فتحت له الفتاة التي فيها روح شرير، فلمّا رأى الشيطان الراهب اغتاض منه وقال له: كان يكفي أن تبيع القفف من دون أن توصّلها إلى البيت، فهل أنت خادم عنده؟ فقال له الراهب: هذه وصيّة المسيح. فصفعه الشيطان على خدّه، فحوّل له الراهب الخد الثاني بكل هدوء وبساطة. فخرج الشيطان في الحال، بينما نحن نفلسف الآية بتفسير وافتراضات مع أنّها واضحة ولا تحتل تأويلات "مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الْآخَرَ أَيْضًا" (متى ٥: ٣٩)، وينتهي الأمر عند هذا الحد.

ثمّ فكّرت النفس ووجدت أنّها لا تستطيع أن تجاري القديسين في التطبيق العملي للكلمة، فهي عاجزة عن تنفيذ الوصيّة بمعزل عن نعمة المسيح، لذلك قالت: "أنعشوني بالتفاح" لأنّ القديسين تمكنوا من تنفيذ الوصيّة بعد أن أعطاهم المسيح هذه النعمة، وإلّا كيف تخلّى الأنبا أنطونيوس عن ثلاثمائة فدان من أخصب أراضي مصر، في بني سويف التي تعتبر من أفضل الأراضي الزراعية، إن لم يكن قراره نابعاً من ثمرة التفاح، لأنّ الإنسان بطبيعته لا يفرط في أصغر شيء مما له بل يتمسك به باعتباره حقاً من حقوقه.

وبعد أن ارتقت النفس في الطريق الروحي، وتعمّقت الشركة أكثر فأكثر مع المسيح، وصلت إلى مكانة خاصة ومميّزة، فقالت:

(٦: ٢) "شِمَالُهُ تَحْتَ رَأْسِي وَيَمِينُهُ تُعَانِقُنِي".

شِمَالُهُ تَحْتَ رَأْسِهَا وَيَمِينُهُ تَعَانِقُهَا، مما يعني أنّ النفس دخلت في حضن المسيح، وهذا المشهد هو حالة يعجز اللسان عن وصفها، فمن أين لي أن أتكلّم عما لم تسمع به أذن، أو أن أصف ما لم تره عين (١كو ٢: ٩)، أو ماذا يمكنني القول عن نفس ضمّها المسيح إلى صدره، فالمسيح يحتضن النفس وهذا عمق أكثر في الشركة مع المسيح.

وكما قال الشيخ الروحاني: "أردت أن أكتب عن محبة الله وأن أكتب عن حضن الرب، بعد أن اختبرت ماذا تعني العروس بقولها: "شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني"، ولكنني لم أعرف أن أكتب كلمة واحدة، فاحتد قلبي على القلم، لأنه لا توجد كلمات تعبر عما في داخلي". فماذا يعني أن تدخل النفس في حضن الرب، فهل يقدر الطفل أن يصف مشاعره عندما تحتضنه أمه؟ فعندما يكون الطفل مضطرباً وتضمه الأم الى صدرها يتملكه إحساس تعجز اللغة عن وصفه! فإذا كان الحال هكذا في حضن الأم! فكيف به في حضن المسيح! حيث الطمأنينة والسلام والراحة، إنها حالة لا توصف ولا يستطيع أحد أن يعبر عنها.

"شِمالُهُ تَحْتَ رَأْسِي وَيَمِينُهُ تُعَانِقُنِي"، فالشمال قريب من القلب والقلب هو المحبة، فشماله تحت رأسي تعني أنني أتمتع بمحبته، فعندما يمرر المسيح يده الشمال تحت رأسها ويطوقها بذراعه يصبح رأسها إلى جانب صدره وملصقاً لقلبه منبع المحبة. أما اليمين فتشير إلى القوة، "يميناك يارب معتزة بالقدرة" (خره ١: ٦) فأصبحت شمال المسيح هي للنفس تعبر عن محبته ويمينه أيضاً هي للنفس وتعبر عن قوته، والنفس بحاجة للالتين معاً، فهي بحاجة إلى قوة المسيح، وباجة إلى محبته. ويقول القديس لوقا: "وكانت قوة الرب لشفائهم" (لوقا ١٧)، فقوة الرب تشير إلى يمينه، وشفائهم تشير إلى محبته.

وعندما ننظر في حياة القديسين نجد أن يمين المسيح وشماله قد عانقتا الكثير منهم، ومن بينهم النبي إيليا، ففي وقت من الأوقات حدثت مجاعة، فتمتع إيليا بيمين الرب أي بقوته، وذلك عندما جعل الله الغراب الذي بطبيعته يخطف الطعام، أن يحضر بقوة إلهية الخبز واللحم إلى إيليا. وأيضاً تمتع إيليا بشمال الرب وبمحبته وذلك عندما هرب من الملكة إيزابل وهو مكتئب وحزين بعد أن هددته بالقتل، وجلس تحت الرتبة وطلب الموت لنفسه. والمفارقة أنه فيما هو حزين ويطالب الموت لنفسه! عوض أن يقف أمام إيزابل ويتركها تقتله؟ وقف أمام الرب طالباً الموت لأن إيليا لا يمانع أن يضع حياته بين يدي الرب، ولكنه يرفض أن تقضي عليه إيزابل.

والرب عندما رأى إيليا مضطرباً ومنزعجاً قال له: "يا إيليا هذا هو الوقت المناسب الذي أمتّعك فيه بشمالي، بمحبتتي". وقد ظهرت محبة الرب له عندما كان إيليا نائماً تحت الرتمة، وجاء إليه ملاك ولمسه. في حين أنّ بطرس عندما كان نائماً في السجن جاء إليه الملاك ونخسه في جنبه، لأنّ النائم نوماً عميقاً يحتمل النخسة، ولكنّ إيليا لم يكن في حالة تسمح له باحتمال النخسة، وعلى الأرجح كانت سوف تتسبب بموته من شدة الخوف، لذلك اكتفى الملاك بلمسه، فهو حزين ومكتئب وقد رأى الرب أنّ هذا هو الوقت المناسب لكي يحنو عليه، لذلك لمسه الملاك وقال له: "قم وكُلْ" (مل ١٩: ٥)، فقام وأكل ومن الحزن والضيق نام ثانية، فرجع الملاك وقال له مرة أخرى: "قم وكُلْ، لأنّ المسافة كثيرة عليك"، وهذا دليل آخر على أنّ المسيح يعامله بمحبة ولطف.

فالإنسان بحاجة إلى الاثنين، ومع ذلك فإنّ البعض يكتفي بيمين الله وقوته، والبعض الآخر يكتفي بمحبة الله، في حين أن الإنسان بحاجة إلى يمين الله وشماله، إلى محبته وإلى قوّته. وقد أعطى للإنسان أن يختبرهما في حياته، ففي موقف معيّن يلمس الإنسان يمين الله تعمل في حياته، ويختبر قوّة الله واقداره، ويشعر أنّ المسيح بيد رفيعة يرفعه. وفي موقف آخر لاسيما في وقت الضعف يرتعب من يمينه وأنذاك يحنو الرب عليه بشماله بمحبته.

وعندما أقول شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني، تعني أن المسيح يحتضنني بكليتي، وسفر التثنية قال: "الأذرع الأبدية من تحت" (ث ٣٣: ٢٧)، ويخبرنا القديس لوقا في إنجيله، أن المسيح قبيل صعوده إلى السماء بارك التلاميذ، واصفاً إيّاه بالقول: "رَفَعَ يديه وباركهم" (لوقا ٢٤: ٥٠)، ومع هذين الآيتين يكتمل المشهد فنرى يدي المسيح تحتضن الإنسان من فوق ومن تحت، ومن هنا ندرك لماذا قال الشيطان للرب عن أيوب: "أليس أنك سيّجت حوله" (أي ١: ١٠)، مما يعني أنّ يدي الرب محيطة به من كل ناحية، تحيط به من اليمين ومن الشمال.

وهذه خبرة جديدة يختبرها كل إنسان ويدرك أنّه ليس وحيداً ومتروكاً في وسط العالم، لا، إنما هو بين الأذرع الإلهية تحميه وتحتضنه، وحتى إنّ سمحت حكمة الله أن يتشوّك فليكن على ثقة أنّه في حماية إلهية.

(٢: ٧) "أَحْلَفُكُنَّ يَا بَنَات أورشليم بالطَّباء وبأَيائل الحُقُول، أَلَّا تُقَيِّظُنَّ وَلَا تُنْبِهِنَّ الحبيبَ حَتَّى يَشَاءَ".

فالعروس في خلوة مع الرب وترجو بنات أورشليم أن يتركنها في حضن المسيح، فهي مكتفية به، ومعه لا تريد شيئاً في الأرض، بعد أن استسلمت لعنايته، فيعاملها مرةً باليمين، ومرةً بالشمال. وهذا ما نلاحظه مع الإنسان الذي يكتفي بالمسيح فيدعونه أصدقاءه لمسررات أرضية، فيرفض صحبتهم ولسان حاله يقول: أتركوني وشأني فأنا سعيد وفرح في حضن الحبيب.

"أَحْلَفُكُنَّ يَا بَنَات أورشليم بالطَّباء وبأَيائل الحُقُول، أَلَّا تُقَيِّظُنَّ وَلَا تُنْبِهِنَّ الحبيبَ حَتَّى يَشَاءَ": والطبي هو ذكر الغزال، والأيل هي أنثى الغزال. والعروس تعرف أن بنات أورشليم يحبن الطباء والأَيائل، لذا فهي تحلفهنَّ بأعلى ما عندهن أن يتركنها داخل حضن المسيح. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، هذه الحيوانات حساسة جداً لأي حركة، فالغزال عندما يسمع أي همسة أو يشعر بأي حركة ولو بسيطة يجري بسرعة، مما يعني ضرورة انتباه العروس وحرصها على أن لا تقترب شراً ولا شبه شر قد ينبّه الحبيب، وأن تحذر من أي تصرّف لا يرضي الله، فإن تهاونت في شبه شر سوف ينتبه الحبيب، فالعروس تسعى لكي تحافظ على مكانتها، ولا تريد أن تخسر حضنه بعد أن تذوّقت يمينه وشماله، فإن تفوّهت بكلمة مسيئة أو لا لزوم لها سوف ينتبه الحبيب وتفترق النفس عنه.

"أَحْلَفُكُنَّ يَا بَنَات أورشليم بالطَّباء وبأَيائل الحُقُول، أَلَّا تُقَيِّظُنَّ وَلَا تُنْبِهِنَّ الحبيبَ حَتَّى يَشَاءَ": وأيضاً يمكننا القول أنَّ هذه كلمات الكنيسة وصوت الكنيسة إلى جموع اليهود الذين وقفوا تحت الصليب يصرخون: "إِنْ كُنْتَ ابْنُ اللَّهِ فَانْزِلْ عَنِ الصَّليبِ" (متى ٢٧: ٤٠)، ويستهزئون بالمسيح ويقولون: "خَلِّصْ آخَرِينَ وَأَمَّا نَفْسُكَ فَمَا يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَهَا" (متى ٢٧: ٤٢)، فالكنيسة ترد على هتافات الجموع وتحلفهم قائلة لهم: أَحْلَفُكُنَّ يَا بَنَات أورشليم أن تتركنه على الصليب، ولا توقظن ولا تنبهن الحبيب الذي نام على

الصليب وأسلم الروح، حتى يشاء. لأنَّ المسيح ارتفع على الصليب بإرادته لكي يخلص الإنسان وهو قد قال: "لي سُلطان أن أَضَعَهَا، ولي سلطان أن آخذها أيضاً" (يو: ١٠: ١٨)، فلا تقفوا تحت الصليب وتطلبوا إليه أن ينزل لأنَّه سوف ينزل متى شاء "لا توقظن الحبيب حتى يشاء"، وقد شاء في اليوم الثالث وقام.

والكنيسة تقول لبنات أورشليم: دعوه ينام على الصليب لأنَّه وهو نائم على الصليب، يشبه أبانا آدم عندما نام في الفردوس، وأخذ الرب واحدة من أضلاعه وخلق منها حواء (تك ٢: ٢١)، وهكذا المسيح نام على الصليب، وسال من جنبه المطعون دمَّ وماء، فولدت الكنيسة (يو ١٩: ٣٤)، فالكنيسة تصرخ لا توقظن الحبيب حتى يتم الخلاص.

(٨: ٢) "صَوْتُ حَبِيبِي. هُوَذَا آتٍ طَافِراً عَلَى الْجِبَالِ، قَافِزاً عَلَى التَّلَالِ".

فالعريس لم يأت بعد ولكنَّ العروس تسمع صوته، وكما قال السيّد المسيح: "خرافي تسمع صوتي، وأنا أعرفُها فتتبعني" (يو: ١٠: ٢٧)، والبعض من الناس يشنكي من عدم سماعه لصوت الرب، لا سيما في خيارات أساسية أو عند مفترق طرق في حياته، ويبدأ يتساءل هل أتزوَّج أو أترهب؟ هل أسافر أم أبقى في وطني وبين أهلي؟ ولن يلقي جواباً ولن يسمع صوت المسيح حتى يدخل في شركة معه، فالبعيد عن المسيح كيف له أن يسمع صوته أو يعرف مشيئته؟ فالولد الصغير يعرف صوت أمّه لأنَّ صوتها في أذنه دائماً، فهو يأكل ويشرب وينام على صوت أمّه لذلك يستطيع أن يميّزه عن بقيّة الأصوات، أمّا الولد الذي يتربى بعيداً عن أمّه فإن بكى وسمع صوتاً يقول له: لا تخف يا حبيبي أنا هنا"، فسوف يستغرب صوتها ولن يعرفها.

والمسيح يتكلّم والإنسان يسمع صوتاً في داخله يرشده ويقول له: "هذا هو الطريق". ولا أغالي في القول إنَّ قلت إنَّ هذا ما يحدث فعلاً. وإذا لم يسمع الإنسان صوت المسيح فهذا يعود لعدم وجود شركة مع الله.

فالعروس سمعت صوت العريس بعد رحلة طويلة وشاقة، ارتقت فيها من درجة إلى درجة، إلى أن دخلت أخيراً في حضنه وهذا هو الكمال. ومما لا شك فيه أن كل

مؤمن مسيحي وصل إلى درجة من الشركة مع المسيح مختلفة عن سواه، ولكن في النهاية هذا هو السبيل لكي يعرف صوت الرب، فالمؤمن الذي يلهج بناموس الرب، ويتلذذ بثمرته، وصوت المسيح لا يفارق أذنه، أينما ذهب ومهما فعل، إن أكل أو شرب، إن نام أو قام، بالتأكيد سوف يعرف صوت الرب وبالتالي مشيئته. والنفس التي تصل إلى القمة في حياتها الروحية تنحصر اشتياقاتها في مجيء حبيبها ويغدو هو مطلبها الوحيد في هذه الدنيا "منتظرين وطالبيين سرعة مجيء يوم الرب" (٢بط ٣: ١٢)، ولكنَّ النفوس البعيدة عن الرب فإنَّ لسان حالها يقول: منتظرين وطالبيين المال، أو ترقية في العمل، أو تغيير الأمر الفلاني، أو شراء الغرض الفلاني... وسواها من الاهتمامات الدنيوية. أمَّا النفس التي تدخل في حياة الشركة فإنَّها تطلب وتترقب سرعة مجيء الرب، وتصبح شهوتها الوحيدة مجيء المسيح، وهذا ما بدا واضحاً في الكنيسة الأولى التي عاش ابناءؤها حياة الشركة مع المسيح، فكانوا عندما يتلاقون ويتبادلون التحية يقولون: "ماران آثا"، أي الرب آتٍ، وكانوا ينامون ويحلمون بسماع صوت بوق الملائكة وصوت بوق الله، على رجاء أن يفتحوا عيونهم فيرون المسيح آتياً على السحاب.

"هؤذا آتٍ طافراً على الجبال، قافزاً على التلال"، يتميز مجيء المسيح بثلاثة أمور: فهو مجيء مفرح، مجيء سريع، ومجيء مُمَجَّد.

مجيء مفرح: "هؤذا آتٍ طافراً على الجبال"، والذي يطفر هو الفرح جداً، لدرجة أنه يقفز من شدة الفرح، وهكذا المسيح يأتي إلينا وهو فرح، لأنَّ غاية مجيئه لقاء عروسه، وقد وصفه القديس بولس بالقول: "لأنَّ الرب نفسه بهتاف - أي بفرح - بصوت رئيس ملائكة وبوق الله، سوف ينزل من السماء" (١ تس ٤: ١٦)، هذا بالنسبة للمجيء الثاني، ولكنَّ المسيح يلبي بفرح دعوة النفوس التي تطلبه، فما إن تصرخ إليه النفس حتى يأتي إليها فرحاً، وهو القائل: "وادعُني في يوم الضيق أنقذك فتمجّدني" (مز ٥٠: ١٥)، إلاَّ أنَّ البعض يقول: "أنا أصلي والله لا يكثرث". وهذا غير صحيح، فما إن يطلبه الإنسان حتى يأتيه بكل فرح وسرور، ويكفي أن يقول له: تعال. فيأتي.

مجيء سريع: "قافزاً على التلال"، وعندما يأتي المسيح لن يسير أو ينتقل ببطئ، إنما يجري ويقفز قاطعاً المسافات بسرعة، وهذه تعبّر عن مدى محبته واشتياقه للنفس، لذلك قال: "ها أنا آتي سريعاً" (رؤ ٣: ١١)، ولكنّ المهم أن تطلبه النفس.

مجيء ممجّد: يأتي المسيح في مجد في نصره وفي غلبة. فهو يتخطى الجبال والتلال، ومهما ارتفعت جبال خطايانا، ومهما عظمت تلال المشاكل، ومهما تنوّعت العوائق التي تعطلنا، فمجرّد أن نناديه يلبي النداء ويأتي متخطياً كل الحواجز، ويكفي أن نقول له: تعال. فلن تنتبه أي عقبة عن المجيء.

لذلك صرخوا إليه في القديم، وقالوا له: "ليتك تشقّ السموات وتنزل" (إش ٦٤: ١)، وما أن سمع الرب صراخهم حتى نزل بسرعة، بالرغم من العقبات الكثيرة التي كانت تحول دون مجيء المسيح، ومنها لعنة الناموس التي وقعت على الإنسان، لكنّ المسيح قال: هذه ليست بذي أهميّة فسوف أرفع عنكم اللعنة. وأيضاً عقبة ثانية في طريق خلاصنا هي معضلة الموت، ولكنّ المسيح اجتاز فيه حباً بنا ورفع الموت عنا. هذا بالإضافة إلى الهزء والبصق والتعيير الذي لحق به، لكنّ المسيح احتمل كل هذه التلال والجبال من أجل السرور الموضوع أمامه.

أمّا أكبر جبل واجهه المسيح هو قول الرب: "إذا ما جئت بلاهوتي فلا يمكن للإنسان أن يراني ويعيش"، فالمسيح يريد أن يأتي إلينا، ولكن كيف؟ فقال المسيح: "أخفي لاهوتي في داخل جسد"، وبهذا تغلّب على هذا الجبل أيضاً. فما من مستحيل عند الرب، يكفي أن نناديه، ولن يدع شيئاً يعترض سبيله.

"هُؤذَا آتٍ طَافِراً عَلَى الْجِبَالِ، قَافِزاً عَلَى التَّلَالِ"، في مجيئه الأوّل حين تجسّد، كان مجيئاً مفرحاً، ومجيئاً سريعاً، مجيئاً أظهر مجد يسوع وقوّته، وأيضاً في مجيئه الثاني سوف يكون مجيئاً مفرحاً لأنّه آتٍ لكي يأخذ عروسه التي هي الكنيسة، وفي مجيئه الثاني سوف يأتي بسرعة ليتم ما قال في سفر الرؤيا: "ها أنا آتي سريعاً"، وربّ قائل يقول: قد مرّ ألفا سنة ونيف ولم يأت بعد. وله أقول: ألف سنة عند الرب كيوم

واحد (٢بط ٣: ٨)، وأيضاً في مجيئه الثاني سوف يتجلى مجده وذلك عندما يُبِيد ضد المسيح بنفخة فمه، ويلقي بالوحش والنبي الكذاب في البحيرة المتقدة بالنار والكبريت (رؤ ١٩: ٢٠).

"صَوْتُ حَبِيبِي. هَذَا آتٍ طَافِراً عَلَى الْجِبَالِ، قَافِراً عَلَى التَّلَالِ" لن نسمع صوت حبيبنا وعريس نفوسنا إلاَّ على الجبال، وهذه الجبال هي أسفار الكتاب المقدس. فإنَّ صعدنا إلى جبل الموعظة وجلسنا في وسط الجمع، نسمعه يقول: "طوبى للمساكين...، طوبى للحراني ... طوبى للودعاء..." (متى ٥: ٣-٥). ثُمَّ نَصْعِدُ مَعَ بطرس ويوحنا ويعقوب إلى جبل التجلي، ونسمع صوته يتكلم مع موسى وإيليا عن خروجه العتيد أن يكمله في أورشليم (لو ٩: ٣١). ونصعد إلى جبل التجربة ونسمع صوته ينتهر الشيطان ويقول له: "مكتوب... مكتوب... مكتوب..." (متى ٤: ٤-٧). ثُمَّ نَصْعِدُ إِلَى جبل الزيتون ونسمع صوته يصلّي طوال الليل ويناجي الآب السماوي. ونصعد معه إلى جبل الجلجثة، ونسمع صوته المفعم بالحب يقول: "يا أبتاه، اغفر لهم..." (لو ٢٣: ٣٤). لذلك نصح الملاك لوط: "اهرب لحياتك... إلى الجبل لتلا تهلك" (تك ١٩: ١٧). وكل واحد منا فليرجع إلى نفسه ويرى هل هو واقف على جبل أو في عمق الوادي.

(٩: ٢) "حَبِيبِي هُوَ شَبِيهُ بِالظُّبِيِّ أَوْ بَغْفَرِ الْإِيَائِلِ".

تُشَبِّهُ العروس حبيبها بالظبي ذكر الغزال وبالغفر صغار الغزال. فهي في الأرض والمسيح في السماء فما أن صرخت إليه وقالت له تعال، حتى جاء إليها مسرعاً كالغزال.

والقدّيس يوحنا الذهبي الفم قال تأملاً لطيفاً، فقال: الرب في السماء والنفس البشريّة كامرأة زانية مطروحة في الأرض، فنزل إليها مسرعاً كالغزال وأمسك بيدي الزانية أي الطبيعة البشريّة وصعد بها إلى السماء، ولم يستتكمف من أن يمسك بيدي الزانية - الطبيعة البشريّة - لذلك قالت له العروس: حبيبي شبيه بالظبي أو بغفر الإيائل، فالمسيح سمع صراخ البشريّة: "يارب أسرع وأعني"، فأسرع وجاء إليها.

وبطرس عندما مشى على الماء، رأى الريح شديدة خاف وبدأ يغرق، فصرخ إلى الرب وقال له: "يا رب، نجّني" (متى ١٤: ٣٠)، ففي الحال مدَّ يسوع يده وأمسك به، فقال بطرس: حبيبي شبيه بالطبي لم يتأخر عندما ناديت به بل جاء إليّ مسرعاً كالغزال.

والمسيح سوف يأتي بفرح طافراً على الجبال، وسوف يأتي مسرعاً قافزاً على التلال، وسوف يأتي في نصرّة متخطياً كل العوائق والمعطلات، وسوف يأتي إلينا بسرعة ويحب لأنّ الطبي وغفر الأيائل يشيرون إلى الحب، فالطبي معروف بمحبّته الشديدة للماء، فعندما يرى بركة ماء، لا يقف على حافتها، ويلعق القليل من الماء، كما يفعل الثعلب، إنما يجري بسرعة ويقفز إلى داخل البركة.

وداود الملك عندما كان في البريّة شاهد كيف يلقي الغزال بنفسه في الماء وأدرك شدّة محبّته للماء، ووجد في شوق الغزال للمياه صدقاً لاشتياقاته للرب فرثم: "كما يشاقق الإيل إلى جداول المياه، هكذا تشاق نفسي إليك يا الله" (مز ٤٢: ١)، والنفس أيضاً يفرحها مجيء العريس كفرح الغزالة بالماء.

نصلّي إلى الله أن تكون لنا هذه الشركة فنطلب من كل قلوبنا سرعة مجيء الرب. آمين. تعال أيّها الرب يسوع.

الفصل الخامس

(الأصحاح ٢: ٩ - ٣: ٤):

نتابع رحلتنا مع عروس النشيد وهى ترتقي درجات سلّم العشق الإلهي، وقد وصلت فيها إلى درجة توطدت فيها الشركة مع المسيح، بعد أن تزيّنت بثمار الروح، وغدت في حالة انتظار وترقّب لمجيء المسيح الثاني. ولكن، هل انتهت رحلتها عند هذا الحد؟ بالطبع لا، لأنّ طبيعة الطريق الروحي تفترض أن لا تستقر النفس على ما هى عليه. فالاشتياقات الروحية القويّة والتهاب القلب بمحبّة المسيح، والإحساس باقتراب مجيء المسيح سوف يعتريه الفتور بمرور الوقت، وتتسرّب البرودة إلى حياتها الروحية، وتخبو حرارة المحبة في قلبها، وتبدأ تتخلى عن بعض الممارسات الروحية، وكما قال الرب في سفر الرؤيا: "عندي عليك أنك تركت محبّتك الأولى" (رؤ٥: ٤)، وقد عبّر عنها أيضاً المسيح في مثل العذارى عندما قال: "وفيما أبطأ العريس نَعَسَ جميعهنّ ونمنّ" (متى ٢٥: ٥).

فبعد أن بدأت النفس الطريق الروحي بحماس واندفاع وقوّة، فإذا بها تمرّ في مرحلة فتور وتراخي، وكلنا قد اختبرنا هذه المراوحة في الطريق الروحي بلا استثناء، فتبدأ النفس تتلامس مع نعمة المسيح وتنتفتح بصيرتها الروحية، وتبدأ تفرح بالقداس وتشعر بفيض كلما قرأت في الإنجيل لدرجة أنّ النوم يفارق عينيها لشدة فرحها به، فهى لا تريد أن تضيق الوقت في النوم، وحتى إن نامت "أنا نائمة ولكنّ قلبي مستيقظ"، فتراها ترتاح ساعة أو ساعتين ومن ثمّ تقوم وتهرع إلى الإنجيل لأنّها وجدت فيه لذة ما بعدها لذة.

ولكن بعد فترة من الزمن تتغيّر أحوالها، وتبدأ تفقد التعزية في الصلاة، ولا تعود تشعر بالفرح والبهجة كما كانت في الماضي، وحتى إن قرأت الإنجيل فلا تشعر بقوة روحية، ولا تجد بهجة في كلام الله بعد أن كانت فيما مضى تقرأ في ناموسه نهاراً وليلاً. وتقع النفس في حيرة وينتابها القلق وتبدأ تتساءل: ما الذي حدث؟ وهل أحزنت

الله؟ وماذا فعلت حتى تركني المسيح؟ ولكن الذي لا تعرفه هذه النفس أن ما هي فيه ليس سوى تمهيد من أجل ارتقائها درجة أعلى وأعمق في الحياة الروحية، وما يحدث لها هو علامة على النضج الروحي الذي بلغته.

وما تجتازه النفس في هذه المرحلة، يشبه حالة الولد الصغير الذي يرفض الذهاب إلى المدرسة، فتعرض أمه عليه قطعة من الشيكولاتة كي تولد في نفسه الرغبة في التعلم، فيذهب الولد إلى المدرسة ليس حباً بالعلم إنما للحصول على قطعة الشيكولاتة، وهكذا تفعل أمه صباح كل يوم لكي تشجعه على المذاكرة، فيأخذ الولد قطعة الشيكولاتة ويذهب إلى المدرسة، وبعد عدة سنوات يكبر الولد ويقول لأمه: "اعطني قطعة شيكولاتة لكي أذهب إلى الكلية". فتقول له أمه: "لم يعد هناك من لزوم للشيكولاتة، فأنت قد كبرت وتعرف صالحك، فإن كنت تريد أن تذهب إلى الكلية ليكن، وإن لم تكن تريد فهذا الأمر يعود إليك". لأنه قد آن الأوان لكي يعي الولد الذي كبر ونضج وأصبح شاباً أن عليه متابعة تحصيله العلمي ليس محبةً بالشيكولاتة ولا بهدف الحصول عليها، بل لأهمية الدراسة في نمو شخصيته وتحقيق مستقبله.

وهكذا النفس تحرم من "قطعة الشيكولاتة"، فلا تعزية في الممارسات الروحية، دون أن تدرك أن ما يحدث لها هو ارتقاء درجة من النضج والنمو، ومعه سوف تتعلم النفس أن تصلي لأن الصلاة وصية المسيح، وأن تستمر في الصلاة حتى ولو لم تشعر بتعزية، فلا يمكن للنفس أن تستمر في الطريق الروحي في ذات الدفعة التي بدأت بها. وقد شبهتها الأم سارة وهي إحدى قديسات الكنيسة بالنار المستعرة فقالت: عندما نوقد حطباً تستعر النار وترتفع ألسنة اللهب، وأي شيء نضعه على النار سوف تأكله وتقضي عليه، لذلك لا يمكننا أن نطهو الطعام في هذه المرحلة لأن الطعام ينضج على نار هادئة، فالنار المستعرة مفيدة وضرورية في بداية الطريق، ولكن لا يمكن للنفس أن تنضج بهذه الطريقة، إنما على نار هادئة، فالنار لا زالت موجودة ولكنها هدأت، وهذا الهدوء على المدى الطويل سوف يتيح للنفس أن تنضج في الطريق الروحي.

وما يحصل للعروس في هذه المرحلة من انزعاج وقلق يحدث مع كل نفس عندما يحجب الله عنها التعزيات، لاسيما في المرة الأولى فتزعج النفس جداً وتدور في دوامة من التساؤلات وهى تعبر إلى مرحلة النضج الروحي، دون أن تدري أن الله سوف يفيض عليها لاحقاً الكثير من البركات، وأكثر بكثير من ذي قبل. وقد جاء في تعاليم آباء الكنيسة مبدأ يقول: عندما تجتاز النفس في هذه المرحلة لتكن على ثقة أنه سوف يتبعها مرحلة جني الكثير من الثمار. ونحن لا نتكلم عن نفس تركت الرب وسلكت في طريق الخطيئة، أو عن نفس انحرفت عن الطريق الروحي إنما نتكلم عن نفس ما زالت تسير مع الله بذات الجدّة وبذات الاستقامة وما زالت تجاهد كما كانت في السابق ولكنها فجأة حرمت من التعزيات.

وهذه هي المرحلة التي تجتازها العروس الآن:

(٢: ٩) "هُوَذَا واقف وراء حائطنا، يتطلع من الكوى، يوصّص من الشّبابيك".

العثرة هنا أن ندرة التعزيات تصيب النفس بالفتور أو بالبرودة الروحية فهي مرحلة تمرّ فيها النفس كردّة فعل على فقدانها للتعزية، فتتراخى وتجتاز العديد من الاختبارات وقد عبرت عنها بالقول: هُوَذَا واقف وراء حائطنا، وقولها هذا يدعو للعجب، هي التي سبق لها وقالت: "صوت حبيبي، هوذا آتٍ طافراً على الجبال، قافراً على التلال". فحبيبها الذي يخطو بخطوات واسعة وسريعة على الجبال ويقفز فوق التلال التي تصادفه، آتياً في اندفاع وقوة ولا شيء يعوقه، والذي يعدو بهذه السرعة متخطياً الجبال والتلال، هل يعقل أن يصل ويقف خلف الحائط! فمن البديهي الذي تخطى الجبال أن يتخطى الحائط، والذي قفز على التلال أن يتخطى الحائط! إذًا، لماذا توقف المسيح عريس النفس وراء الحائط؟ وما الذي منعه؟ فهل السبب عدم قدرته؟ بالطبع لا، لكن المشكلة هي إنّ هذا الحائط يخص النفس - حائطنا - وهي التي بنته أمام المسيح فيما هي سالكة في الطريق الروحي، وذلك عندما بدأ الفتور يتسرّب إلى حياتها الروحية بسبب طول الطريق، ففقدت قوة الاندفاع الأولى.

والمسيح احتراماً منه لإرادتها ولحريتها يقف عند الحائط لا يفتححه ولا يتخطاه، ولكنه في نفس الوقت لا يترك النفس ولا يتخلّى عنها لأنه كما قال في سفر الرؤيا: "هأنذا واقف على الباب وأقرع"، فالمسيح يحاول بشتى الطرق تحريك إرادة الإنسان وتشجيعه على هدم الحائط الذي يفصلها عنه، ولكنه لا يدخل عنوة ما دام الإنسان متمسكاً بهذا الحائط الذي بناه حجراً على حجرٍ وذلك بتوقفه عن الصلاة بعد أن صلّى ولم يتعرّ، وعندما توقف عن قراءة الإنجيل بعد أن تأمل في كلماته ولم يجد تعزية كما في السابق، وعندما بات يتغيّب عن المشاركة في القداس مراراً لأنه لم يعد يشعر بالفرح كما كان قبلاً، ولم يعد يواظب على الذهاب إلى اجتماعات الكنيسة كما هي عادته وبهذا كله يبني الإنسان حائطاً بينه وبين المسيح، فيأتي المسيح ويقف وراءه ويحاول أن يحرك إرادة الإنسان ويشوّقه لكي يطلب الخلاص بنفسه، ويبدأ يستميل النفس البشرية ويتملقها كما يقول في سفر هوشع: "أتملقك"، لكي تتحرّك إرادتها وتبادر إلى طلب الخلاص، فتعمل على إزاحة الحائط بنفسها، أو على الأقل تطلب من المسيح أن يزيحه.

ولكي يحرك المسيح إرادة الإنسان ماذا يفعل؟ يقول الكتاب: "يتطلع من الكوى يُوصوص من الشَّبَابِيك"، ففي القديم كان الناس يعمدون إلى فتح كوى أو طاقات صغيرة في أعالي جدران البيت كالتي نشاهدها اليوم في الأديرة. ولها أكثر من فائدة، فهي أولاً: تسمح بدخول النور، وثانياً: تساهم في خروج الهواء الساخن الذي كما هو معروف أقل كثافة من الهواء البارد فيرتفع إلى أعلى ويتسرب منها إلى الخارج. وكون المسيح واقفاً يتطلع من الكوى يوصوص من الشبَابِيك، لكي يقول للنفس: أنا واقف انظر إليك خلال فترات البرودة الروحية ولم اتخلّ عنك، وكما يقول المزمور: "تيهاني راقبت"، فمع أنّ الإنسان وضع حائطاً أمام الرب ورغم ذلك فعين المسيح عليه ينتظر منه أن يزيح الحائط، أيضاً يقول له: هذه الكوى تدخل النور وأنا سوف أثبت النور في حياتك، وهذه الكوى تخرج الهواء الساخن فتعال إليّ وأنا سوف أريحك من الهواء الساخن، من رياح الضيقات والتجارب، ولكنّ ارجع صلّ ثانية، واذكر محبتك الأولى،

واذكر من أين سقطت وتب، ارجع اعمل الأعمال الأولى. فالمسيح واقف ينظر بانتباه إلى النفس ويراقبها وينتظر أن تتحرك.

والمسيح قال في مثل المرأة التي كانت تملك عشرة دراهم وأضاعته درهماً: "أنها أضاعت مصباحاً وكنست البيت وفتشت باجتهاد حتى تجده". وفي القديم كانت أرضية البيوت من تراب، فعندما وقع الدرهم على الأرض أنطمر بالتراب فلم تعد المرأة تراه، ومن المحتمل أنها بدأت تحرك المكنسة يميناً وشمالاً على غير هدى، فإذا بالدرهم يتطوح يميناً وشمالاً مع ذرات التراب ويرتطم بجدار البيت، وينتقل من جهة إلى أخرى على غفلة منها، فهي لا تراه لكنها تبحث عنه. والمسيح يتصرف مع النفس على ذات النحو. فتسمع البعض يقول: "جميع الأبواب قد سُدت في وجهي فأنتى ذهبت ومهما فعلت لا أجد طريقي" ويشعر أن كل باب يطرقه يوصد في وجهه. ولا يشعر بحماية الماضي ويتساءل: "ما الذي حدث .. لما كل هذا؟" الحقيقة أن المسيح يبحث عنك.

(٢ : ١٠) "أجاب حبيبي وقال لي: قومي يا حبيتي، يا جميلتي وتعالى".

وبالرغم من الفتور الروحي الذي تمر به النفس يظل صوت الله يرن في داخلها بما يشبه القرع على الباب، فالنفس تدخل إلى الكنيسة وتسمع صوت الرب وتشعر أن ما تسمعه هو رسالة خاصة لها من الله، فالمسيح يقول لها: ارجعي. فهي تسمع صوته وتذكر إن ما تسمعه هو صوت الله. والبعض يختبر هذا الصوت في حياته ويعبر عن هذا الاختبار بالقول: "أنا اليوم شعرت أن الإنجيل الذي تلي في الكنيسة والعظة التي ألقيت لي أنا والكلام الذي قيل ينطبق على حالتي". فما الذي يجري؟ الذي يحدث أنه يسمع صوت الحبيب، صوت المسيح.

"أجاب حبيبي وقال" والرب يريد من خلال هذا الأسلوب أن ترجع النفس إليه، والملاحظ في الجزء الذي سبق من الآيات أن النفس لم تخاطب العريس ولم تسأله حتى يجيب، إذ لماذا يقول الوحي "أجاب حبيبي"، لأن المسيح يجاوب على الصرخات الداخلية للنفس، فالمرحلة التي تجتازها النفس قد ولدت في داخلها الحيرة والكثير

من الشكوك والتساؤلات عن أسباب ترك الله لها أو عن خطيئة ما اقترفتها، لذا يتدخل المسيح ليجاوب على تساؤلاتها وبالتالي يهدئ من روعها، فهو يحرص كل الحرص لئلا تخاف النفس، وبذات الوقت يهيمه أن تفهم أنها تجتاز مرحلة سوف ترتقي فيها إلى نضج روحي، ولا يخفى على أحد أنها مرحلة صعبة، تشبه مرحلة فطام الطفل عن لبن أمه، لكن عين المسيح عليها ويستخدم كل الأحداث التي حولها لكي يرجعها إليه ثانية، فهو يُسمِعُها صوته لكي تطمئن وتستمر في الطريق الروحي.

"قومي يا حبيبتي، يا جميلتي وتعالى"، حيث أن الإحساس الغالب على النفس أنها أغضبت الرب في أمر ما، دون أن تعرف ما هو، ويتولد في داخلها هذا الإحساس جراء احتجاب التعزيات عنها، فتعتقد أنها أخطأت في مكان ما، وأحزنت الرب منها، لذا فالرب يطمئنها ويقول لها: "قومي يا حبيبتي"، مما يكشف استمرار محبة الرب للنفس ويؤكد لها عدم اقترافها أي خطيئة، لكنه يهدف من وراء حجب تعزياته عنها نموها في الحياة الروحية.

"قومي يا حبيبتي"، أكثر ما يفرح الإنسان شعوره أنه محبوب، وأكثر ما يتعسه إحساسه أنه مرفوض من الجميع، ولا أحد يحبه. والمؤسف في حالته هذه أنه يبدأ يلهث وراء أي شيء في الأرض من أجل أن يسمع كلمة حلوة تشعره بأهميته. ويبقى السؤال: ألا تكفي كلمة المسيح: "قومي يا حبيبتي"، لكل نفس منا؟ ألا تكفي محبته؟ فمحبة المسيح عندما تلمس القلب تغني الإنسان عن العالم كله، ولنا مثال بولس الرسول عندما وقف الجميع ضده، قال: "وأما أنا فأقلُّ شيء عندي أن يُحكَمَ فيَّ منكم، أو من يوم بشر"، فلو أجمع البشر على ملامة بولس واتهامه، فلن يهتم لرأيهم، ليس لأن بولس متبلد المشاعر بل لأنه مغمور بمحبة إلهية تخوله أن يقدم حبا لكل الناس دون أن ينتظر محبة من أحد، فعندما تغمر محبة المسيح إنساناً ما تجعل منه ينبوع حب يفيض على كل من حوله.

وداود الملك لم يكن يتمتع بالحب داخل عائلته، إنما كان محتقراً من أقرب الناس إليه، إذ كان أبوه ينظر إليه بازدراء ويعتبره مجرد ولد صغير، وعندما أرسل الرب صموئيل لاختار أحد أولاد يسى، عَبَّرَ يسى بنيه السبعة أمام صموئيل، فقال له صموئيل: الرب لم يختَر واحداً منهم، فهل هؤلاء جميع أولادك؟ فقال يسى: "بقي بعدُ الصغير وهوذا يرعى الغنم"، فلا أحد يقدِّر داود أو يهتم لأمره حتى في بيته. وقد يُرْفَض الإنسان عادة من خارج أهل بيته، ولكن يبقى له محبة والديه وإخوته، ولكنَّ داود حتى هذه حُرَمَ منها، لذلك كتب في المزمور الذي نصلِّيه في ليلة أبوغالميس: "أنا الصغير في إخوتي"، فلا أحد يكثرث له.

وأيضاً خارج البيت أبغض داود أشدَّ البغضاء من شاول لدرجة لم يكن يحتمل ذكر اسمه، وكان كلما أراد ذكره يقول: "ابن يسى"، فقد وصلت به الكراهية إلى هذا الحد. وقد نتوقع بعد هذا الحرمان العاطفي الذي عاش فيه داود أن يعاني من اضطرابات نفسية كالإكتئاب أو سواه، ولكن لا. لأنَّ داود اكتفى بمحبة المسيح.

"قومي يا حبيبتي يا جميلتي وتعالى": لم يكتفِ المسيح أن يبنيها محبة قلبه، إنما شجَّعها أيضاً بكلام المديح "قومي يا جميلتي"، وكأنَّه يقول لها: "قومي يا نفس يكفيكِ كسل وتراخي ارجعي كما عهدتك سابقاً نشيطة عودي إلى ممارساتك الروحية، فأنتِ ما زلتِ حبيبتي، ولا زلتِ جميلتي". ورب قائل يقول: هذا كلام تملِّق، فهل يتملِّق الله النفس؟ لا، فكلام الله كلام الحق، إذْ أين يكمن جمال النفس؟ فالمسيح لم يقل لها يا جميلة، بل قال: "يا جميلتي". فهو يراها جميلة ولو الجميع رأوها قبيحة! وهو يراها حلوة لأنَّ عيني المسيح ترى الجمال، وهذا كلام بالروح القدس وليس كلام مجاملة، فعندما يخاطب النفس ويقول لها: قومي يا حبيبتي، فهي حبيبته بالحق، ويحبُّها بصدق، وعندما يقول لها: قومي يا جميلتي، فهو يرى ما تعجز الناس عن رؤيته.

ويحكى عن شاب كان يسكن في إحدى القرى، ودأب يبحث عن عروس له، ولم تتلَّ أية واحدة من بنات القرية استحسانه. وشاعت الظروف أن يترك القرية للعمل في بلدٍ آخر، وهناك تعرَّف إلى فتاة وتزوَّجها ثمَّ عاد إلى القرية برفقة عروسه، فاجتمع كل

أهل القرية ليروا مَنْ هى تلك الفتاة التي اختارها وكيف هو شكلها، هو الذي لم يكن يعجبه أحد، وعندما رأوها دهشوا! فلم تكن سوى فتاة عادية، ولا تتمتع بجمال باهر كما توقعوا. وقالوا له: يوجد في القرية أجمل منها بكثير، فما هو سرّ اختيارك لها؟ فقال لهم: "لأنكم لا ترونها بعيني". فعيناه تراها جميلة حتى ولو رأها الجميع غير هذا.

وهكذا عينا المسيح ترى ما لا يراه الآخرون، ونظرة المسيح هذه تشجع للنفس. ومنها نتعلّم عدم الاهتمام بالجمال الخارجي وخصوصاً السيدات، ويكفي الإنسان أنّه جميل في عيني المسيح وهذا لا يعني أن لا يعتني الإنسان بمظهره الخارجي ولكن محبة المسيح له وقبوله إيّاه كما هو، هى التي تشبع نفسه.

فبعد أن شجّع المسيح النفس بنظرته إليها وأسمعها صوته وأعلن لها حبّه، لا سيما خلال فترات الفتور حين بدأت تتراخى وتتكاسل وتمتنع عن الممارسات الروحيّة كردة فعل لحرمانها من التعزيات، ها هو يتابع تشجيعه لها فيقول:

(١١: ٢) "لأنّ الشّتاء قد مَضَى، والمَطَرُ مَرَّ وَزَالَ".

فالمسيح يطمئن النفس ويقول لها: لا تخافي فالشتاء قد مرّ فاخرجي. والشتاء والمطر يرمزان للبرودة الروحيّة، ففي فصل الشتاء تحجب الغيوم السوداء نور الشمس وتعم الظلمة، والمسيح يقول للنفس: "قومي لقد انتهى فصل الشتاء وانتهى معه زمن البرودة الروحيّة، فالشتاء قد مضى وتوقف المطر وانقشع الظلام وزمن الفطام قد شارف على النهاية ومرحلة فقدان التعزية انتهت". فالمسيح يحثها على متابعة مسيرتها الروحيّة لأنّه بعد الشتاء والمطر سوف يحل الربيع حاملاً معه الثمر الروحي.

(١٢: ٢) "الرُّهُورُ ظَهَرَتْ فِي الْأَرْضِ. بَلَغَ أَوَانُ الْقَصَبِ، وَصَوْتُ الْيِمَامَةِ سُمِعَ

فِي أَرْضِنَا".

ولمزيد من التشجيع يقول المسيح للنفس: لقد ظهرت الزهور في الأرض، وأيضاً للتأكيد على انقضاء فترة البرودة الروحيّة وانتهاء فترة التخلّي وعودة ظهور الثمر الروحي، لكي تطمئن وتعود إلى ما كانت عليه. وقد نتساءل لماذا لا تستمر الحياة

الروحية على نفس الوتيرة؟ وما الغاية من عبور النفس بفترات التخلي والحرمان من التعزية؟ أليس الأجدى للنفس استمرار حالها على ما هي عليه متعزّة وفرحانة؟ لكنّ الله بحكمته رأى ما دام الإنسان يحيا على هذه الأرض لا بد من تعاقب الصيف والشتاء، لأنّ الصيف وتعزياته نافع للنمو الروحي، وأيضاً الشتاء وبرودته الروحية نافع للنمو الروحي، ولكل منهما دوره ومساهمة في تنمية النفس، لأنّ الصيف الدائم والحرارة الروحية المستمرة لا تناسب طبيعة الإنسان لأنّها سوف تغذي فيه الإحساس بالزهو والكبرياء، لأنّه إذا ما أعطى الإنسان أن يصلّي في كل حين بحرارة وبقلب ملتهب ويحصل على التعزية والفرح باستمرار فإنّه مع مرور الوقت سوف يعتقد أن التعزية هي ثمرة ممارساته ومجهوده الخاص. لذا يعتمد المسيح بين الحين والآخر إلى سحب فترات الصيف ويحرمه من الحرارة الروحية، ويسمح له أن يمر بفترات شتاء فيصلي ولا يتعزى، فيذهب المؤمن إلى نفس الكنيسة ويشارك في نفس القداس ويجلس في نفس المكان كما هي عادته في كل مرّة، ولكنّه لا يشعر بالفرح! فما الذي يجري؟ لكي يدرك أن التعزية ليست نتيجة ممارساته الروحية إنما هي نعمة من المسيح يغدقها متى شاء ويحببها متى شاء.

فالمسيح يسمح أن يجتاز المؤمن هذه المرحلة لكي يدرك أنّ التعزية التي نالها أمس ليست نابعة منه إنما أعطيت له من المسيح. وعمل المسيح هذا مع النفس لا يتعلّمه الإنسان بالوعظ لكنّه يتعرّف عليه، حتى إذا ما اجتاز في هذه الحالة لا يضطرب ولا يقلق، بل يفهم أنّه من الضروري لحياته الروحية ولمزيد من النمو أن يجتاز مرحلة الصيف وما تتضمن من حرارة روحية عالية تارة، وأن يجتاز مرحلة الشتاء وما تتضمن من إحساس بالترك تارة أخرى.

فالمسيح يقول للنفس قومي واستعيدي ما خسرت فموسم الشتاء شارف على النهاية، والثمر سوف يعود مجدداً، وتعود معه حياتك الروحية إلى طبيعتها. ثمّ يشجعها ويقول لها: قد "بلغ أوأنّ القضب". وهذا سرّ عجيب من أسرار الحياة الروحية في أدق تفاصيلها، فما هو القضب؟ هو إحدى الطرق التي يستخدمها الكرام للاعتناء بشجرة الكرمة، فيقوم في بداية فصل الربيع بقطع أطراف الأغصان اليابسة أو الذابلة

من الشجرة لكي لا تمتص عصارة الشجرة بل تستفيد منها الأغصان النضرة فتغذي الثمر لكي ينضج. وهذا ما عبّر عنه الرب يسوع في إنجيل القديس يوحنا، فقال: "كل غصن فيّ لا يأتي بثمر ينزعه، وكل ما يأتي بثمر ينقيّه ليأتي بثمر أكثر"، فغاية القضب هو المزيد من الثمر وليس لأنّ الغصن غير نافع.

فالنفس وصلت إلى مرحلة اعتبرها المسيح أوان القضب أو وقت التفتية، والذين عندهم خبرة في زراعة الكرمة يعرفون أن المزارع عندما يرى شجرة جيدة وقويّة فإنّه يعمد إلى تجريح الجذع لكي ينبت في الموسم التالي مكان كل جرح فرع جديد، "كل غصن يأتي بثمر ينقيّه ليأتي بثمر أكثر". مما يعني أنّ ما تجتاز فيه النفس ليس بسبب خطيّة اقترفتها بل على العكس لأنّها كرمة حلوة أراد الرب أن يقضبها وبعد أن تتقضي فترة الشتاء سوف تثمر من جديد وأكثر مما كانت بكثير، لكنّ عليها أن تثبت وتستمر في الحياة الروحيّة.

ولكي يؤكد المسيح للنفس أن ما تمر به هو أوان القضب وهو أمر نافع لها يتابع فيقول: "صوت اليمامة سمع في أرضنا". والمعنى المباشر المقصود من الآية هو عودة المناخ الدافئ، لأنه من المعروف أن الطيور تختبئ في الأشجار في فصل الشتاء، وحين يتحسن المناخ وتبدأ الحرارة ترتفع، تخرج الطيور والعصافير من مخابئها فنراها تتنقل من شجرة إلى شجرة ومن غصن إلى غصن، ونسمع صوت زقزقاتها. مما يعني أنّ سماع صوت اليمامة هو تأكيد آخر على زوال فترة البرودة وأيضاً لكي يعطي النفس درساً يفيدّها في الطريق الروحي، فصوت اليمامة هو صوت الترنيمة، صوت الفرح، فهو يحثّها على الفرح فيما هي تجتاز في هذه المرحلة، ليس لأنّ المرحلة مفرحة بحد ذاتها فهي غير متعزيّة فلا يمكنها أن تفرح ولكن معرفتها بما سوف تؤول إليه الأمور سوف يخفف من حزنها ويبعث فيها الرجاء والفرح لأنّ هذه المرحلة تبشر باقتراب مرحلة الثمر المتكاثر.

(١٣:٢) "الْتِيَّةُ أخرجَتْ فِجَّهَا، وَقَعَالُ الْكُرومِ تُفِجُّ رَائِحَتَهَا. قُومي

يا حَبِيبَتِي، يا جَمِيلَتِي وتعالِي."

الفج هو ثمرة التينة قَبِيل النضوج وهو يرمز إلى اقتراب مجيء الثمر، وما على النفس سوى أن تنتظر القليل من الوقت حتى يكتمل النضوج، والمسيح بقوله هذا يطمئن النفس بأن الثمر آتٍ لا محالة، لأنَّ فترة البرودة الروحيَّة التي اجتازت فيها لم تكن نتيجة خطيَّة مباشرة اقترفتها لأنَّها ما زالت مستمرة في ذات الممارسات ولكن دون أن تشعر بتعزية. أمَّا قعال الكروم فهو زهر العنب أو البراعم الصغيرة في بداية نفتحها، فالمسيح يحث النفس على المثابرة في الطريق الروحي والاستمرار في الصلاة والعبادة بعد أن أوضح لها حقيقة ما يحصل معها.

فالتينة بدأ يظهر ثمرها وزهر العنب يفوح برائحته الطيبة، والتين والكرم يرمزان إلى أولاد الله، والرب يسوع قال: "كل غرس لم يغرسه أبي السماوي يُقْلَعُ"، والتينة نرى ثمرتها من بعيد أمَّا الكروم فنشتم رائحتها وكذلك أولاد الله، فمنهم من هو تين ومنهم من هو كرم. فالبعض من أولاد الله تجلس معه فتجده تينة مفرحة يكلمك عن الرب فتشبع بكلامه وتفرح، والبعض الآخر يشبهون الكروم لا حاجة بهم للكلام يكفي حضورهم المفرح ورائحتهم العطرة كرائحة الكروم. وكل واحد يرجع إلى نفسه ليرى هل هو تينة مشبعة أو كرمة مفرحة.

وكما أسلفنا القول فإنَّ قعال الكروم تنتشر رائحة حلوة، وأولاد الله شجرة كرم تفوح منهم رائحة المسيح الذكيَّة، والعجيب في الأمر أنَّه يقال أنَّ الحيَّة ما إن تشتم رائحة الكرم حتى تزحف مسرعة إلى خارج الكرم فهي لا تحتمل رائحة العنب وتهرب منها. وكل إنسان يسأل نفسه، عندما يراه الشيطان هل يهرب منه أو يأتي ويجلس معه ويحادثه؟! لأنَّ الإنسان الذي يحمل رائحة العنب، رائحة المسيح الذكيَّة، سوف يهرب منه الشيطان بالتأكيد.

وبالعودة إلى العدد العاشر من الإصحاح الثاني نلاحظ أنَّ المسيح قال للعروس: "قومي يا حبيبتي يا جميلتي وتعالِي"، ثمَّ تابع الكلام وقال: الشتاء قد مرَّ والزهور ظهرت وبلغ أوان القضب وبدأت التينة تثمر وفاحت رائحة الكروم الحلوة. ليعود ويقول

لها مجدداً: "قومي يا حبيبتي يا جميلتي وتعالى"، وبذلك يكون قد كرر الدعوة للنفس مرتين. ورقم اثنين يحمل في رمزيته دعوة للمحبة، لأنَّ المحبة تقوم بين شخصين. وأيضاً كررها مرتين لأنَّ أليهو قال في سفر أيوب: "الله يتكلم مرّةً وبأثنتين لا يلاحظ الإنسان"، فإن لم يصنع الإنسان أو لم ينتبه لكلام الله، فالله يكرر الكلام ثانيةً علَّ الإنسان يصغي لكلمة الخلاص.

وللقديس غريغوريوس تأمل لطيف جداً، قال فيه: أنَّ المسيح قال للنفس في المرّة الأولى: قومي، فقامت. وبدأت تتمتع بالثمر، ولكنَّ الأمر لم ينتهِ عند هذا الحد، فقال لها ثانيةً: قومي. فإذا بالنفس تنتقل من قيامة إلى قيامة ومن مجد إلى مجد، ويظل يقولها مراراً وتكراراً حتى تصل النفس إلى ملء قامة المسيح.

ففي العدد العاشر يقول المسيح للنفس: قومي. وتعني: قومي تمتعي بالقيامة الأولى أي التوبة، هي التي تجلس وراء الحائط حيث الخطيئة وإن كانت خطيئة ليست للموت، فيقول لها: قومي من خطيئتك وتوبي، وثمره التوبة هي التمتع بثمار الروح القدس. والتي عبّر عنها المسيح بالقول: الزهور ظهرت في الأرض والثينة أخرجت فجّها وفاحت قعال الكروم. لذلك قال سفر الرؤيا: "مبارك ومقدس مَنْ له نصيب في القيامة الأولى"، ثم قال المسيح للنفس في العدد ١٣ ثانيةً: قومي. وهذه تشير إلى القيامة الثانية في يوم الدينونة. لذا فالدعوة الأولى "قومي" لكي تتمتع النفس بثمار الروح القدس، والدعوة الثانية قومي إلى محاجي الصخر، قومي إلى الحصون الأبدية الغير منظورة، قومي لنصعد إلى ملكوت السموات.

(١٤: ٢) "يا حَمَامَتِي فِي مَحَاجِي الصَّخَرِ، فِي سِتْرِ الْمَعَاوِلِ، أُرِينِي وَجْهَكَ، أَسْمِعِينِي صَوْتَكَ، لِأَنَّ صَوْتَكَ لَطِيفٌ وَوَجْهَكَ جَمِيلٌ".

ومما يزيد صعوبة هذه الفترة أنَّ النفس لا تعود تشعر بالحماية الإلهية، فندرة التعزيات تحرمها من الفرح وبالمقابل تشعر أنَّها معرضة لأي سهم من سهام العدو، فتخاف وتفقد إحساسها بالمنعة الأولى التي كانت تشعر بها عندما كانت يد المسيح تحوِّطها، لأنَّ النفس حينما تمرّ بفترة الجفاف الروحي تصبح عرضة لأي ضيقة

أو تجربة وتشعر أنَّ المسيح تخلى عنها، ويبدو لها أنَّها مجرّدة من أي سند وغدت هدفاً لسهام عدو الخير، لذلك يطمئنّها المسيح بأنَّ الحماية لا زالت مستمرة وما زال يحوِّط عليها حتى لا تخاف. لأنَّه فيما بعد سوف تأتي مرحلة يسمح فيها المسيح أن تجرح النفس. وهذا أحد أسرار الطريق الروحي يكشفه لنا سفر النشيد. ولكنَّ المسيح يطمئن النفس في المرحلة التي تجتازها الآن.

وكما سبق وأشرنا أنَّ النفس ما زالت مستمرة كما كانت في الطريق الروحي لم تدخل حياتها أي خطيئة وما زالت تجاهد ولم يتغيَّر سلوكها فهي ليست معصومة ولكنها ما زالت تسير كما بدأت ولكن فجأة بدأت تفقد الفرح والتعزية وتشعر أنَّها متروكة لذا يطمئنّها المسيح أنَّها بأمان ويقول لها:

"يا حَمَامَتِي فِي مَحَاجِي الصَّخْرِ..."، فالمسيح يخاطب عروسه ويقول لها: يا حمامتي، والحمام يرمز إلى البساطة "كونوا بسطاء كالحمّام"، والحمامة وديعة لا تؤذي أحداً حتى وإن تعرّضت للأذى فلا ترد الإساءة، وهكذا أولاد الله مسالمون. ويقول لها: يا حمامتي، فهي حمامته ومن خاصته، وهي ملكه "أنتم لستم لأنفسكم"، بل كما قال بولس "وأما أنتم فللمسيح". وأيضاً يقول لها: يا حمامتي، لأنَّ الروح القدس حلَّ على شكل حمامة، فالنفس التي تتمتع بعمل الروح القدس تصير كحمامة وتقول مع داود: "ليت لي جناحاً كالحمامة فأطير وأستريح"، فأولاد الله راحتهم في أن يطيروا عالياً تاركين الأرضيات محلّقين في السماويات.

يا حَمَامَتِي فِي مَحَاجِي الصَّخْرِ: والمحاجي تعني الشقوق، فالحمامة ضعيفة جداً ولا تستطيع أن تحمي نفسها بنفسها فحمايتها وقوتها أن تدخل في الصخرة، والصخرة هي المسيح، والشقوق ترمز إلى جراحات المسيح، فالصخرة واحدة ولكن يوجد فيها محاجي كثيرة، نقوب كثيرة، في اليدين والرجلين بالإضافة إلى جنبه المطعون، وأيضاً الجراحات التي خلفها إكليل الشوك الذي عُرز في رأسه، فالمسيح مليء بالمحاجي.

وموسى عندما قال للرب: "أرني مجدك"، قال له الرب: "لا تقدر أن ترى وجهي لأنَّ الإنسان لا يراني ويعيش، لكن سوف أضعك في **نقرة من الصخرة**، وأسترك بيدي حتى أجتاز". وهذه الصخرة كانت المسيح، لذلك فإنَّ المسيح فتح جنبه بالحربة لكي نحتمي في جنبه، عندما يهيج علينا العدو.

"في سِتْرِ المَعَاقل"، هو عبارة عن مكان محصَّن يحيط به سور وخلفه سور آخر يلتف حول السور الأول. والمسيح بقوله هذا يؤكد للنفس أنَّها في حماية شديدة. لكن في الحقيقة هذه الحماية لها جانبان، حماية من جهة غضب الله ودينونته للنفس، وحماية من جهة المشاكل التي يتسبب بها الناس للنفس. فمن جهة غضب الله تظن النفس أنَّ الله غاضب عليها، كما تظن أنَّها مقصَّرة وليست كما يريدُها المسيح، لكنَّ المسيح يطمئنُّها ويقول لها: "لا تخافي، فأنتِ حمّامة في محاجئ الصخر، رغم الفتور الذي أنتِ فيه ورغم فقدانك للتعزيزية، فالله ليس ضداً لكِ لأنَّك محميّة في صخرة الدهور". أمّا من جهة الناس فقال لها: أنتِ في ستر المعازل، فالمسيح يؤمّن لها الحماية ويستحيل أن يسمح لأحد أن يؤذيها لأنَّ النفس في فترات التخلّي تكون مضطربة فإن اعترضتها مشكلة أو ألمّت بها ضيقة سوف تضيع، فالمسيح يشجّع النفس بكل هذه الأمور لكي تجتاز فترة البرودة الروحيّة هذه بأقل ضرر ممكن.

"أرني وجهك، أسمعيني صوتك"، ثم قال المسيح للنفس: أريد أن أقول لك أمرين انتبهي لهما فيما أنتِ تجتازين هذه المرحلة، الأمر الأول: أرني وجهك، ويقصد بها القول: "ارفعي رأسك، ولا تخجلي من حالتك ولا من أفعالك، فما أنتِ فيه ليس خطيّة وأنا لست ضداً لكِ، فلا تخجلي من الوقوف أمامي، فأنا مدرك لما أفعله معك والغاية منه هو أن أطمك". والأمر الثاني: أسمعيني صوتك، أي صلّ كما كنتِ تفعلين سابقاً. أحياناً نسمع البعض يقول: "لقد توقفت عن ممارسة الصلاة لأنني أصلي ولا أتعزّي". فهو يظن أن التعزية هي نتيجة لصلاته، ولكنَّ الحقيقة غير ذلك. فقد تذهب مرّة إلى الكنيسة وما أن تطأ رجلك عتبة باب الكنيسة حتى تشعر وكأنَّه باب

مفتوح في السماء، ويرافقك هذا الشعور حتى نهاية القداس، ويخيّل إليك وكأنك في عالم آخر. ولكن في يوم آخر تأتي إلى الكنيسة وتدخل وتقف لتصلي، ولكن يتعدّر عليك أن تصلي كما يجب ففكرك سارح في هموم ومشاكل، وتحاول جاهداً أن تستجمع فكرك لتصلي دون جدوى، فإذا بك شارد الذهن تفكر في البيت حيناً وفي الأولاد حيناً آخر، وترجع للمخدع غاصباً على نفسك علّك تركّز في الصلاة فتفشل، وينتهي القداس وتنتهي الخلوة وأنت على هذه الحال، فتخرج وتقول في نفسك: "اليوم لم أصل كما يجب على عكس البارحة فصلاتي كانت أفضل بكثير".

هذا تقييمك أنت، وتقييماً نحن، أمّا تقييم المسيح فله معيار آخر. فهو يعتبر الصلاة الثانية هي التي لها إكليل أكبر، فحين يدخل المؤمن إلى الكنيسة لكي يصلي ورفعه الروح فاي فضل له! فالمسيح هو الذي يجذبه بالروح القدس ويجعله في ملكوت آخر، فإذا دخلت إلى الكنيسة وتشعر أن دموعك بدأت تتساب على خديك بدون سبب محدد وفقط لأنك دخلت إلى الكنيسة، فما الذي جعل دموعك تنهمر سوى نعمة المسيح من دون أن تتعب أو تجتهد في أي أمر، وهذه لها إكليل صغير، أمّا الإكليل الكبير فهو للجهد في الصلاة، حينما يقف المؤمن ليصلي ويسرح فكره أو يشرد ذهنه ويجاهد كي يستعيد تركيزه في الصلاة، لا سيما عندما يتدخل الشيطان ويشغل تفكيره بأمور واهتمامات وقضايا تبعده عن الصلاة، وهو يحاول بصعوبة أن يحصر فكره في القداس أو في صلاة الأجبية، فالقداس الذي يصلّيه المؤمن وهو بهذه الحالة أو صلاة الأجبية لها إكليل أكبر من الصلاة التي يمارسها بسهولة دون عوائق أو محاربة، لأنّه جاهد لكي يصلي، وكل إنسان سوف يأخذ أجرته بمقدار تعب.

فالمسيح يقول للنفس: استمري في الصلاة وأسمعيني صوتك، وهذه مشكلة الكثيرين لأنهم يتوقفون عن الصلاة حين يفقدون التعزية في حين يشدّد المسيح على الاستمرار في الصلاة حتى وإن خلت من التعزية. وهذه النصيحة الأولى التي ينصح بها النفس. أمّا النصيحة الثانية، فهي:

(١٥: ٢) "خذوا لنا الثعالب، الثعالب الصغار المُفسدة الكروم، لأنَّ كُرومنا قد أَقَلَّتْ".

عندما يقول الرب: "خذوا لنا..."، فإنَّه يربط نفسه بالكرمة، أو ليقول بتعبير آخر إنَّ الأمر يخصُّه، لذا يسألهم أن يلقوا القبض على الثعالب، لأنَّ كرمه بدأ يثمر. فالمسيح يعتبر الكرم كرمه يعتني به ويهتم بتنقيته كي يعطي المزيد من الثمر. ويقول أيضاً: "... كرومنا..."، فهو يربط نفسه بكنيسته، وقد عبّر عن هذا الرباط عندما ظهر لشاؤل وقال له: "شاؤل، شاؤل! لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟"، فالمسيح يقول لبولس: "أنا وهُم واحد، وهذه الكروم كرومي، فحين تضطهد الكنيسة تضطهدين أنا"، لذلك قال: "من يمسِّكم يمسِّ حدقة عينه".

"خُذُوا لَنَا الثَّعَالِبَ الصَّغَارَ"، يحذّر المسيح النفس من الثعلب الماكر الذي يسعى لكي يفسد مرحلة النضج التي هي مُقبلة عليها، والثعلب هو الشيطان. وأخطر ما يهدد النفس في فترات الفتور أو البرودة الروحيّة أو بالمفهوم البسيط الفترة التي تخلو من التعزية في الحياة الروحيّة وفي الممارسات الروحيّة هو التساهل، وقد يتساهل البعض بحجة أنّه في فترة ما من حياته الروحيّة قد عمل بتدقيق وبحذر ولكنه لم يحصد سوى الحزن لذا يعزم على تغيير أسلوب حياته فيبتعد عن الله الذي في وقتٍ ما حجب عنه التعزية والفرح، ويبحث عن وسائل أخرى ترفّقه عنه كما يفعل أهل العالم، وهذا هو عمل الثعلب الماكر.

والمسيح يحذّر النفس ويقول لها: احترسي من دخول الثعالب الصغيرة، لأنَّ الكتاب قال: "إن ارتخيت في يوم الضيق ضاقت قوّتك"، فإذا ما بدأت النفس تتراخي في يوم الضيق أو في يوم التخلي بحجة أن الحرص والتدقيق لم يأتيا بالنتيجة المرجوة فإنَّ القوّة الروحيّة سوف تضعف، بينما المطلوب في هذه الفترة تحديداً المزيد من الحرص والحذر لئلا يدخل الشيطان بثعلب صغير فيحتال على النفس ويقنعها أن تبتعد عن الكنيسة وتبحث عن الفرح والتعزية بأساليب أخرى قد تعود عليها بنتائج كارثيّة فتدمر حياتها الروحيّة.

والقديس مرقس الناسك قال كلمة لطيفة جداً، فقال: "الشيطان ماهر، فعندما يريد أن يتدخل في حياة أولاد الله يدخل بشكل ثعلب صغير، أي من خلال كلمة أو فكرة ليست لطيفة يشغل فيها فكر المؤمن، أو من خلال نظرة لا لزوم لها ويهدف الثعلب الصغير من وراء هذا كله أن يقود النفس للوقوع في الخطايا الكبيرة. وأقوال الآباء لا حصر لها عن الثعالب الصغيرة هذه وعن أفعالها وشروها.

فالمسيح يحذر النفس منها ويحثها على المزيد من الحرص لا سيما في فترات التخلي بالذات من أي ثعلب صغير، ويشجعها على الاستمرار بالتدقيق كما كانت تفعل في مستهل حياتها الروحية فلا تتساهل وتسمح لثعلب صغير من أن يدخل حياتها ويفسدها.

(٢: ١٦) "حبيبي لي وأنا له. الراعي بين السَّوسَن."

بعد أن نصح المسيح النفس الاستمرار في الصلاة والاحتراس من الثعالب الصغار ردت عليه وقالت له: حبيبي لي وأنا له. وإذا ما تابعنا السلسلة اللطيفة من الأحاديث التي دارت بينهما نلاحظ أنَّ العريس قال لعروسه: يا حبيبتى يا جميلتي تعالي. فقالت له: ماذا تريد؟ فقال لها: أريني وجهك أسمعيني صوتك، ولأنَّ صوتك لطيف ووجهك جميل، فأنا خائف عليك، لذلك أحذرك من الثعالب الصغيرة. وعندما رأت العروس اهتمام حبيبها البالغ بها، قالت له: حبيبي لي.

إنَّه لأمر رائع أن يشعر الإنسان أنَّ الله حبيب، وهو له. وبولس قال: ابن الله الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي"، وهو بهذا يقول: "حبيبي لي". وكما قال بطرس للرجل المقعد: "الذي لي فيأيه أعطيك"، فما هو الذي لبطرس؟ هو يسوع المسيح. والعروس من شدة اهتمام حبيبها بها شعرت أنَّ حبيبها لها.

"حبيبي لي" في الحاضر، و"حبيبي لي" في الأبدية. ففي الحاضر يغسلني من الخطية ويمتحنني بيزه، يرشدني ويوجهني وينهضني عندما أسقط، فهذه هي أعماله مع النفس في الزمن الحاضر. أمَّا في الأبدية فحبيب النفس سوف يأخذها لتحيا معه في السماء "حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً"، فمن الطبيعي عندما تشعر النفس أن الرب يبدى لها كل هذا الاهتمام أن تقول: أنا ملك للرب، حبيبي لي وأنا أيضاً له.

لذلك شبّه المسيح العلاقة ما بينه وبين الكنيسة بالعلاقة ما بين العريس وعروسه، فهو ملك عروسه وهى ملك له، والمسيح أسلم نفسه من أجل الكنيسة فأصبحت الكنيسة في ملكيّته لذلك عندما نزوّج اثنين نقول: عقد أملاك وزواج. وقد يتصوّر البعض أنّ المقصود هو مشاركة العروسين بالأملاك المادية التي لبعضهما البعض، وهذا غير صحيح لأنّ المقصود أنّ العروس أصبحت ملكاً للعريس والعريس أصبح ملكاً للعروس "حبيبي لي وأنا له" هذا هو الزواج بعمقه وهذه هى العلاقة ما بين المسيح والكنيسة.

"الراعي بين السوسن"، لقد سبق للعريس وقال للنفس: كالسوسن بين الشوك كذلك حبيبتى بين البنات، وهى الآن تقول له: أنت الراعي بين السوسن. فهى تردد كلامه، وكلما نردد كلام الرب نزداد محبة له وارتباط به. وعندما يقول الرب للإنسان: "صرت عزيزاً في عينيّ مكرماً وأنا قد أحببتك"، فيقف الإنسان ويقول بثقة: "أنا عزيزٌ عندك، وأنا مكرّم عندك، وأنت تحبّني"، وقوله هذا ليس كبرياءً إنما ثقة بقول الرب وتصديق كلمته.

(١٧:٢) "إلى أن يفيح النهار وتنهزم الظلال، ارجع وأشبه يا حبيبي الظبي أو غفر الأيائل على الجبال المشعبة".

فالنفس تنتظر على رجاء كلمة المسيح عبور هذه الفترة، وتعلل نفسها بالقول: لا بد لهذا الليل من أن ينقضي وينهزم الظلام. وتتخطى هذه المرحلة. وأيضاً تحيا النفس في هذه المرحلة على ذكريات الماضي، فتقول: ارجع وأشبه يا حبيبي الظبي أو غفر الأيائل على الجبال المشعبة، فهى تقول للرب: "متى تعود كما كنت في الماضي؟ عندما كنت تعزيني في القدا، وعندما كانت نعمتك تغمرني". فالتدبير الإلهي جعل هذه الفترة خالية من أي تعزية فلا يبقى أمام النفس سوى تذكر معاملات الله السابقة معها لتتشدّد وتتقوّى. وقد تظل النفس في هذه المرحلة متمسكة بالمبادئ التي ذكرناها والتي كشفها المسيح حتى تتمكن من اجتياز هذه المرحلة والوصول إلى أوان الثمر، مع العلم أن هذه المرحلة لا تجتازها النفس لمرة واحدة في حياتها بل تتكرر

كلما تقدّمت في الطريق الروحي، وفي كل مرّة تكون صعوبتها على قدر الثمر الذي يليها، وكلما كان الثمر الآتي أثمن كلما ازدادت قسوة المراحل، فالمسيح يطم النفس رويداً رويداً ويتصرّف كأب يربي أولاده.

ولكن أحياناً تضطرب النفس وتحبط في هذه الفترة الصعبة كما حصل مع عروس النشيد بعد أن كانت منتظرة وصابرة، ثم رأت أن مدّة المرحلة تجاوزت توقعاتها وطالت وهى التي كانت تظن أن مرحلة الجفاف مجرد أيام قليلة وتنتهي ويعود كل شيء إلى سابق عهده. وهكذا يحصل مع البعض فيأتي ويشتكى من أنّه يصلّي كما هى عادته ومنتظم في صلاة الأجيبة ومواظب على المشاركة في القداس، ويتململ من أن مرحلة الجفاف الروحي قد طالت "ولما أبطأ العريس نعسن جميعهن". فهو يعتقد أنها أيام عصيبة قليلة وسوف تمر. ولكن لا أحد يعرف التدبير الإلهي لكل نفس منا، فالله عنده ميزان. ولكن للأسف أحياناً وفيما النفس سالكة في الطريق الروحي تنهاون بسبب طول مدّة هذه المرحلة:

(٣ : ١) "في اللَّيْلِ عَلَى فِرَاشِي طَلَبْتُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي. طَلَبْتُهُ فَمَا وَجَدْتُهُ".

وفي فترة الجفاف بدأت النفس تتكاسل وتستسلم في حين أن الضيقة تشد خناقها على النفس أكثر فأكثر. وقد قال الآباء مبدأ وهو: عندما تشد الضيقة وتزداد إلى حد تشعر أنها وصلت إلى الذروة، حينذاك تأكد أن الخلاص قريب. فعندما يدخل الإنسان في مشكلة وينتظر أن يأتي الحل من مكان ما، ولكنها ما تلبث أن تزداد وتتفاقم إلى حد يرى معه أن جميع المنافذ قد سدّت في وجهه، حينئذٍ فليعرف أن الخلاص اقترب جداً. ومن المعروف أن أحلك ساعة في الليل هى الساعة التي تسبق بزوغ الفجر، وهكذا الحياة الروحية. وكل الآباء قد اجتازوا هذا النفق المظلم وقد عبّر داود في أكثر من موضع في سفر المزامير عن مدى صعوبة ومرارة هذه الخبرة، وكذلك أيوب وقد صرخ إلى الرب وقال له: "هأنذا أذهب شرقاً فليس هو هناك، وغرباً فلا أشعر به، شمالاً حيث عمله فلا أنظره، ينعطف الجنوب فلا أراه"، وكأنّ أيوب يقول للرب: بحثت عنك في كل الأماكن فلم أجذك، "طلبتّه فَمَا وَجَدْتُهُ".

ولكن الرب قال: "ادعني في يوم الضيق أنقذك"، وها إنَّ النفس تدعوه، فكيف تطلبه ولا تجده! لأنَّها طلبته في الليل وهى على فراشها لذا فلن تجده، لأنَّ الفراش هو مكان راحة الجسد وشهوات الجسد لا سيما وأنَّ هذه النفس كما سبق وأوضحنا هى نفس ناضجة روحياً وسالكة في الطريق. ولو كانت نفساً مبتدئة وما زالت في بداية الطريق فسوف تجده حين تطلبه، كما حصل مع زكا العشار حين طلب أن يرى من هو يسوع، فقال له الرب: ينبغي اليوم أن أمكث في بيتك. لأنَّ زكا لم يزل مبتدئاً ولو عامله الرب معاملة النفس الناضجة لما أحتمل الأمر وعزف عن متابعة السير في الطريق الروحي من الخطوة الأولى. وكذلك متى العشار، حتى أنَّه لم يطلب يسوع مطلقاً ولكنَّ يسوع هو مَنْ جاء إليه وقال له: "اتبعني" فقام وتبعه. وهذه حالات مختلفة عن حالة عروس النشيد وسواها من النفوس التي بدأت في الطريق وما زالت مستمرة وترتقي من درجة إلى درجة في الحياة الروحية.

فالنفس لم تطلبه في بداية الطريق إنما في مرحلة متقدِّمة ولم تجده لأنَّها تطلبه في الليل وهى على الفراش وهذه ترمز إلى النفس التي تطلب من يسوع أن يشبع لها رغبات الجسد ومتطلبات العالم، فهى تسأله أن يسهل لها تبوء المركز الفلاني أو اقتناء الغرض الفلاني وسواها من طلبات العالم لذا لن تلقَّ جواباً أو استجابة. "طلبته فما وجدته".

وفي هذه الحالة ماذا يفعل المسيح؟ فإنَّه سوف يترك النفس تتلوى في فراشها لبعض الوقت لكي يصل إلى غايته وهى أن تنفض عنها الكسل وتنهض من كبوتها:

(٢: ٣) "إني أقوم وأطوف في المدينة، في الأسواق وفي الشوارع، أطلب من تُحبُّه نفسي. طلبته فما وجدته".

وهذا ما يحصل عادة مع الإنسان الذي ينتابه الأرق في الليل ويعجز عن النوم فيتقلب يميناً ويتقلب شمالاً على فراشه دون جدوى وعوض أن يكون الفراش مكاناً للراحة يصبح وكأنَّه شعلة نار تلسع جسده فلا يعود يحتمله فيقوم ويترك السرير. والمسيح ترك النفس بهذه الحالة حتى ضجرت من الفراش وقالت: "إني أقوم"،

فبعد التراخي والكسل استيقظت وحزمت أمرها وعزمت على البحث عن المسيح، ولكن أين؟ في المدينة وفي الأسواق وفي الشوارع، تطلب من تحبه نفسها، ولكن هل وجدته في هذه الأمكنة؟ لا لم تجده "فما وجدته". لماذا؟ هذا يتوقف على ما ترمز إليه كل من المدينة والأسواق والشوارع.

أول مدينة نسمع عنها في الكتاب المقدس بناها قايين وسماها على اسم ابنه حنوك "مدينة حنوك"، وسكن في هذه المدينة ثلاثة رجال، الأول اسمه "يابال" الذي كان أباً لساكني الخيام ورعاة المواشي، وكان إنساناً رخالة يحمل خيمته وينتقل من مكان إلى مكان. والثاني يدعى "يوبال" الذي كان أباً لكل ضارب بالعود والمزمار. والثالث يدعى "توبال"، ضارب على كل آلة نحاس وحديد، وهو الذي بدأ يستخرج النحاس والحديد من الأرض وله بعض الاختراعات كالسكين، بعد أن كانوا في ذلك العصر يستعملون الصوان كأداة للتقطيع.

إذاً، ما هي هذه المدينة التي تبحث فيها العروس أو النفس عن المسيح؟ هذه المدينة هي العالم. والنفس التي تقتفر إلى الفرح والسلام، ولا تشعر بتعزية ولا تجد راحة تقصد المدينة باحثاً علها تجد ضالتها، وهناك في العالم سوف تجد يابال الذي معه سوف تجول في بلاد مختلفة وتتنزه في أماكن متنوعة، ومعه سوف تشاهد مناظر الطبيعة وجمالها، كل هذا قد تلجأ إليه بحجة الحصول ولو على القليل من الفرح والسعادة، لكنها لن تجد الفرح في المدينة لأن معطي الفرح ليس هناك.

وأيضاً تذهب إلى يوبال حيث المغنى والطرب لكي تشرح نفسها بعد أن عانت من الملل وغاب عنها الفرح فتذهب لكي ترى كيف يتعزى سائر الناس، وتفنش في المدينة لعلها تجد الأمور التي فقدتها، ولكنها لم توفق في بحثها "طلبته فما وجدته"، فالمسيح ليس هناك.

ثم تذهب إلى توبال صاحب الاختراعات، والكثيرون من الناس يلهثون وراء كل شيء جديد بغض النظر إذا ما كانوا بحاجة إليه أو لا، فما يشغل فكرهم كيف يحصلون عليه، لأنه بحسب اعتقادهم قد يدخل بعض الفرح والبهجة إلى حياتهم،

ولكنَّ الإنسان عندما يشتري شيئاً جديداً يفرح به في الحال ويجده جميلاً ولا يلبث أن يضجر منه بعد أيام قليلة.

فالنفس ملَّت الانتظار عندما رأت أنَّ وقت التخلّي والجفاف قد طال. فبدأت تجري وراء العالم وما في العالم ولكن "طلبتَه فما وجدته"، لماذا؟ ليس لأنَّ هذه الأمور سيئة بحد ذاتها "لقد وهب لكم كل شيء بغنى للتمتع"، فالمسيح يعطي الإنسان وهو بدوره يأخذها من يد الرب شاكرًا له، إنَّه لأمر رائع، ولكن ليست هذه الأمور هي مصدر الفرح ولا هي التي سوف تعطيه سلام أو تؤمِّن له الراحة، لأنَّ الكتاب قال صراحةً: "العالم كُلُّه قد وُضع في الشَّرِّير"، فالشيطان يسيطر على العالم لذا لن نجد فيه شيئاً يفرحنا.

وبعد أن بحثت عنه في المدينة ولم تجده ذهبت إلى الأسواق، حيث البيع والشراء والمال، التي هي إغراءات الشيطان للنفس. وهذه تقودنا للكلام عن سياسة الإعلانات التي هي فن من فنون الشيطان، فيعرض الإعلان على الإنسان سلعة هو أساساً ليس بحاجة إليها ويعيش بدونها، لا سيما وأنَّه يعرضها بأسلوب يصوِّر فيه للإنسان أن حياته لن تستمر إلّا مع هذه السلعة، حينئذٍ لا يهدأ له بال ولا يهنأ له عيش إلّا إذا ما حصل عليها.

ومعروف عن بطاقة الائتمان التي تخول للشخص أن يشتري ما يريد ولكن بالمقابل عليه أن يعمل ليلاً ونهاراً لكي يغطي المبالغ المسحوبة لئلا يتأخر ويضطر لدفع فوائد إضافية، فهذه طريقة الشيطان لكي يبقى الإنسان تائهاً في دوامة السوق، فيذهب كل يوم لبحث وينظر ما هو الجديد لكي يشتريه، ودائماً يشعر إنه في احتياج ولا يعرف الاكتفاء وفي اعتقاده أنَّ هذا التهافت على المشتريات سواء بحاجة أو بغير حاجة سوف يؤمِّن له السعادة والراحة، ولكنَّه في النهاية سوف يقول مع عروس النشيد "طلبتَه فما وجدته".

وأخيراً ذهبت العروس تبحث عن المسيح في الشوارع، وماذا يوجد في الشوارع؟ فهناك نشاهد الكثير من الناس يسيرون ويلقون التحيّات على بعضهم البعض "يحَبُّون التحيات في الأسواق"، كما يقول الكتاب. أو بتعبير آخر التواصل الاجتماعي وكل

ما يمت إليه بصلة كالصدقات والصحة، فهذه العلاقات واللقاءات قد تجلب للإنسان بعض السعادة والتعزية ولكن الحقيقة هي أبعد ما يكون عن الفرح الحقيقي. فالعروس فيما هي تبحث عن سلامها الضائع قد ضلّت الطريق، لأن المسيح وفرح المسيح وسلام المسيح وطمأنينة المسيح ليست في المدينة ولا في السوق ولا حتى في الشارع، فقد نسيت الطريق ونسيت أنها لن تلتقي به سوى في المخدع، وبينما هي تجول وتبحث ماذا حدث لها، تقول:

(٣ : ٣) وَجَدَنِي الْحَرَسُ الطَّائِفُ فِي الْمَدِينَةِ، فَقُلْتُ: أَرَأَيْتُمْ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي؟
والحرس الطائف هم العساكر، فعندما يتوه الإنسان يتوجّه إلى أي عسكري يقف في الشارع، ويسأله: أين الشارع الفلاني أو المبنى الفلاني؟ وهم أيضاً مسئولون عن حفظ الأمن والنظام، ولكن هل باستطاعة حرس الطائف أن يرشد هذه النفس الحائرة؟ بالطبع لا، فهذا أمر مستحيل. والحرس الطائف يمثل القوانين والأنظمة والمبادئ في العالم، فهل ممكن أن تشبع هذه الإنسان؟ إطلاقاً لا. فالإنسان يعيش دوماً في قلق واضطراب، وقد سعت المؤسسات المدنية إلى خلق مظلات تأمينات اجتماعية تغطي كافة أعضاء المجتمع، والهدف من وراء هذه الشركات أن يعيش الإنسان في راحة ورفاهية. ولكن إن سألنا إنساناً يعيش في بلد متمسك بالمبادئ والمثل والقيم ويطبقها على أفضل وجه، وحيث الدولة تعني بالمواطن وبحاجاته الأساسية، بالإضافة إلى وجود تأمينات صحية واجتماعية، هل أنت مطمئن؟ هل أنت مرتاح؟ فسوف يجيب: "لا لست مرتاحاً" لأن هذه هي حدود قدرات تقديرات الحرس الطائف، ويستحيل عليه أن يقدم راحة للإنسان! فلن يريح الإنسان إلا من قال: "تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والتّقيلي الأحمال، وأنا أريحكم".

والحرس الطائف لا يمثل فقط القوانين والمبادئ في العالم إنما المسئولون عن الأمن أيضاً لكي يعيش الناس في أمان، ولكن إن ذهبنا إلى عسكري الأمن تشكو له حالتك وتقول له: "أنا مضطرب ونفسي منزعة في داخلي، وأنت الرجل المسئول عن الأمن والسلام فهل بإمكانك أن تهنيئني أمناً وسلاماً؟" فسوف يقول لك: حالي مثل

حالك، فإننا أحافظ على الأمن الخارجي ولكن داخلياً أنا أيضاً مضطرب ومنزعج، فكيف ومن أين أقدم لك السلام! فمهمتي محصورة أن أحافظ على السلام الخارجي". ولكن الذي يهب النفس السلام الداخلي هو ملك السلام ومعطي السلام. فإن أحطت منزلك بمئة عسكري، وأقفلت الأبواب بعشرات الأقفال فلن تحصل على السلام الداخلي، لأن السلام الداخلي مصدره المسيح.

ويقال عن أبينا عبد المسيح الحبشي الذي كان يعيش في مغارة في وسط الصحراء، أنه كان يضع على باب المغارة عودين من الخشب على شكل صليب، ويدخل وينام في منتهى السلام، مع أنه لم يكن يحتاج أسداً لكي يفترسه فيكفي عقرباً صغيراً أن يلسعه ليقضي عليه، ومع ذلك كان ينام ملء جفونه والسلام يملأ قلبه. في حين نرى إنساناً آخر يسكن في شقة يغلق النوافذ ويقفل الأبواب قبل أن ينام وأي صوت يسمعه يولد في نفسه الذعر والاضطراب، فحرس الطائف لا يهب النفس السلام والطمأنينة.

وكذلك سعي الإنسان للحصول على الفرح والسعادة بأساليب متنوعة، وأهل العالم ابتكروا أموراً غريبة عجيبة لكيما يدخلوا الفرح والبهجة إلى قلب الإنسان، ولكن هل نجحوا! أما اذا سألنا الأنبا أنطونيوس ما الذي يفرحه، وهو ما كشفه شخصياً للبعض من الفلاسفة اليونانيين الذين سمعوا عنه وعن أخباره وكيف أنه قابع في مغارة مدة عشرين سنة لا يرى إنساناً، وخيل إليهم أنه قد فقد عقله. فعزموا على الذهاب إليه ومقابلته وعندما وصلوا استقبلهم بابتسامة لافتة والنور يشع من وجهه. فارتبكوا ثم راحوا ينظرون إلى بعضهم البعض في حيرة وتعجب فسألهم عما يجري، فقالوا له: "بصراحة، كنا متوقعين أن نرى رجلاً هزلياً كئيباً، فأنت تعيش في صحراء قاحلة تخلو من أي منظر جميل وليس عندك أنيس أو صديق تتسلى معه ولا حتى عندك كتب تقرأ فيها، فماذا تفعل في هذه الصحراء وما الذي يفرحك فيها؟ فقال لهم: إن لي إلهاً يملأ لي هذه المغارة، فسلامي ليس في هذه الأمور التي ذكرتموها، بل سلامي فيه هو، وهو فرحتي وراحتي.

والحرس الطائف وجدوا العروس فسألتهن: هل رأيتم من تحبه نفسي؟ ولكنهم لم يردوا عليها لأنهم لا يفهموا هذا السؤال، ولا يدركوا ما معنى سلام وراحة داخلية، فسألها لهم يشبه إنسان يكلم إنساناً آخر بلغة لا يعرفها فكيف يفهم كلامه، فهي تسألهم سؤالاً لا يملكون جواباً عليه ولا حتى عندهم أدنى فكرة عن ماهيته. وعندما لم يجيبوا على سؤالها تركتهن العروس وتابعت سيرها:

(٤: ٣) "فَمَا جَاوَزْتَهُمْ إِلَّا قَلِيلاً حَتَّى وَجَدْتُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي."

"فما جاوزتهم إلا قليلاً"، فبالكاد تخطت الحراس خطوة أو خطوتين، وهناك وجدت من تحبه نفسها، مما يعني أنها خرجت خارج المدينة، فهي ما أن تخطتهم حتى رآته، فإذا به أقرب إليها أكثر مما كانت تظن، فكان يقف إلى جانبها "مَعَ أَنَّهُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِّنَّا لَيْسَ بَعِيداً"، ولكنه كان ينتظر بفارغ الصبر لحظة خروجها خارج المدينة بكل ما تعنيه وما ترمز إليه من ملذات العالم وإغراءاته، "فما تجاوزتهم حتى وجدت من تحبه نفسي"، فلنتصور روعة هذا اللقاء وجماله وهو ما سوف نتطرق إليه بالتفصيل في الفصل التالي.

الفصل السادس

(الأصاح ٣: ٤ - ١١):

لقد تابعنا إلى الآن إرتقاء النفس البشريّة خمس درجات في سلّم الحب الإلهي. ففي الدرجة الأولى بادر الله إلى تقديم الحب للنفس "حبّك أطيّب من الخمر"، وفي الدرجة الثانية استجابت النفس لحب الله لها وقالت له: "اجذبني وراءك فنجري"، ثمّ ارتقت النفس إلى الدرجة الثالثة حيث التفتة لإقتناء الفضائل، ومن على هذه الدرجة قالت: "شمس التجارب قد لوحتني"، ثمّ وصلت إلى الدرجة الرابعة لكي تتلقن درس الاتضاع، لأنّ الاتضاع كما قال الآباء هو الوعاء الذي يحمل كل الفضائل، فأى فضيلة تقتنيها النفس بدون الاتضاع قد تؤدي إلى ضياعها، فهذا هو الدرس الأوّل الذي يحرص الرب على تعليمه للنفس، لذلك جعلها "سوسنة بين الشوك".

أمّا الدرجة الخامسة فهي مرحلة الفطام الروحي، وقد عبّر عنها السيّد المسيح بالقول: قد "بلغ أوان القضب"، لأنّ كل غصن يأتي بثمر ينفقه ليأتي بثمر أكثر، ولكنّ المؤسف أنّ النفس لم تحتمل الظلمة التي اكتفتت هذه المرحلة، فبدأت تتكاسل في الطريق "في الليل على فراشي طلبت منّ تحبّه نفسي، طلبته فما وجدته"، لذا تركها الرب في هذه الفترة حتى ضجرت من الفراش، ومن حالة التراخي والفتور الروحي، وقامت وخرجت تبحث عن عريسها، واللافت قولها: "طلبت منّ تحبّه نفسي"، وهي رغبة جميلة في داخل هذه النفس، فهي لا تطلب عطايا المسيح، إنما تطلب المسيح ذاته، فهي لا تريد منه شيئاً، بل تريده هو، "طلبت وجهك، وجهك يارب أُنتمس" (مز ٢٧: ٨).

والجدير بالذكر أنّ النفس طلبت الحبيب في الأصاح الثالث ثلاث مرات على التوالي، ففي الآية الأولى قالت: "في الليل على فراشي طلبت منّ تحبّه نفسي"، وفي الآية الثانية قالت: "إني أقوم وأطوف في المدينة، في الأسواق وفي الشوارع، أطلب

مَنْ تحبّه نفسي"، وفي الآية الثالثة قالت: "وجدني الحرس الطائف في المدينة، فقلت: "أرأيتم مَنْ تحبّه نفسي؟". وهذه الطلبات الثلاثة هي مثال لأيام الثلاثة الممتدة من الصليب إلى القيامة. فالنفس في حالة موت، في حالة تخلي، وكأنّها تجتاز - إن أمكننا القول مجازاً - الذي اجتازه السيّد المسيح "إلهي إلهي لماذا تركتني"، فتركت النفس تعاني ما تعانيه ثلاثة أيام إلى أن تمتعت بفجر القيامة في اليوم الثالث.

وكانّ الطلبة الأولى: "في الليل على فراشي"، ثمّثل الجمعة العظيمة حين صارت "ظلمة على الأرض كلّها"، واليوم الثاني يمثّل أباعنا الرسل الذين اجتمعوا في العليّة يوم السبت مرتعبين وخائفين من اليهود، إلى أن جاء اليوم الثالث وخرجن النسوة يبحثن عن مَنْ تحببن نفوسهن، فتقابلن مع الحرس الطائف المتمثلين بالملائكة، فالنسوة عندما وصلن إلى القبر تقابلن مع الملائكة، وبعد ذلك مباشرةً رأين السيّد المسيح، وما إن رأينه حتى تعلقن به.

وهذا يعني لكي نتقابل مع السيّد المسيح ولكي نجد مَنْ تحبّه نفوسنا لا بد أن نجتاز في هذه الثلاثية المقدّسة لأننا لن نجد المسيح خارج الأيام الثلاثة الممتدة من الصليب إلى القيامة. فالبعض قد يبحث عن المسيح من أجل عطاياه، فلن يتقابل معه، والبعض الآخر قد يبحث عن المسيح رجل المثل والمبادئ والتعاليم السامية كي يقتدي بها في حياته، ولكن لن نتقابل مع المسيح إلّا عندما نجتاز ثلاثة أيام الصليب والقيامة، مما يعني لن نرى المسيح ولن نعرف المسيح إلّا من خلال الصليب. فالمسيح ليس معلماً فقط وليس نبياً فقط، ولم يأت لكي يؤسس ديناً من ضمن أديان كثيرة موجودة في الأرض، فالذي يرغب بالتعرّف إلى المسيح سوف يعرفه حق المعرفة من خلال الصليب والقيامة.

وأيضاً هناك رابط قوي ما بين هذه الطلبات الثلاثة وما علّمنا إيّاه السيّد المسيح حين قال: أولاً، اسألوا تعطوا. وثانياً، اطلبوا تجدوا. وثالثاً، اقرعوا يفتح لكم. وهذا ما حصل مع هذه النفس. وفي النهاية تقابلت مع السيّد المسيح، وقد تحقّق هذا اللقاء في الدرجة الخامسة.

أمّا في الدرجة السادسة فسوف تبدأ النفس تجني ثمار "أوان القضب"، وتجني ثمار الظلمة التي اجتازت فيها خلال مرحلة التقية، ولا ننسى أنّ هذه النفس كانت سالكة في الطريق الروحي وفجأة وبدون سبب مباشر منها لم تعد تشعر بحضور الله ولا بتعزياته، وغاية الرب من هذا الحرمان هو الفطام الروحي الذي سوف يساهم في ارتقاء النفس إلى مرحلة النضوج الروحي. وفي هذه الدرجة سوف تصل النفس إلى القمة وهو أعلى مستوى روحي سوف نراه في سفر النشيد، وهذا ما أعطى أهمية خاصة للمرحلة التي سبقت هذه الدرجة لأنها هي التي هيأت النفس للبلوغ إلى هذا المستوى الفريد. لأنّ النفس عندما تجتاز هذا الاختبار الصعب خصوصاً في المرّة الأولى فإنّها تقع في حيرة وتشعر بمرارة كبيرة، ولكن بعد أن تعبر هذه المرحلة تبدأ تجني ثمرة التقية التي خضعت لها وقد يصحّ فيها مجازاً - وإلى حدٍ ما - ما قيل عن السيّد المسيح "مَنْ تَعَبَ نَفْسِهِ يَرَى وَيَشْبَع" (إش ٥٣: ١١).

وبحثنا هذا سوف يتناول جمال العروس أو الثمار الروحية أو الصورة البهيّة التي خرجت بها النفس من التجربة المرّة التي اجتازت فيها. فمن جهة، سوف نرى جمال العروس في عيون بنات أورشليم، ومن جهة ثانية سوف نرى جمال العروس في عيني العريس نفسه، وكيف ينظر السيّد المسيح إلى هذه النفس، وكأنّ الكلمة التي قالها الرب في سفر التثنية: "يُذَلِّكَ وَيُجَرِّبُكَ، لِكَيْ يُحَسِّنَ إِلَيْكَ فِي آخِرَتِكَ" (ث ٨: ١٦)، تنطبق عليها. فهي تعبّر أصدق تعبير عن التجربة التي اجتازتها النفس وبالتالي عن الثمر الذي سوف تحوّل عليه لاحقاً، فهي قد دلّت حينما كانت تصلي بدون أن تشعر بالفرح بل أكثر من ذلك فكانت تشعر أنّ الرب تركها وتخلّى عنها، ففي داخلها جوع روحي تصلي ولا تشعر بالشبع، فالرب قد أدلّها، لماذا؟ لكي يحسن إليها فيما بعد.

(٤ : ٣) "فَأَمْسَكْتُهُ وَلَمْ أَرْخِهِ، حَتَّى أَدْخَلْتُهُ بَيْتَ أُمِّي وَحُجْرَةَ مَنْ حَبَلْتُ بِي". والآيات التي سوف نتطرّق إليها في هذا الفصل تشكّل زمن الإحسان لهذه النفس النفس التي بحثت جاهدة عن المسيح إلى أن وجدته، وعندما وجدته قالت: "فَأَمْسَكْتُهُ وَلَمْ أَرْخِهِ". لا نقدر أن نتصور مقدار فرح هذه النفس، فإن فكرنا على مستوى القصة

فهي كانت محرومة من المسيح ثم وجدته وتعلقت به، أمّا على المستوى الروحي فمن المؤكد أنّها في حالة تفوق الوصف، ولن يدرك حالتها بالعمق سوى الذي اجتاز ما اجتازته ووصل إلى ما وصلت إليه، فبعد أن اجتازت في هذا النفق المظلم خلوة من الفرح والتعزية، تنقّر إلى حضور الله، فإذا بها فجأة وبدون تمهيد تعود إليها الحرارة الروحية.

فحالها يشبه ما جرى مع الرجل المُقعد الذي كانوا يضعونه كل يوم عند باب الهيكل الجميل، وكان كل يوم يمر عليه يشبه الذي سبقه، إلى أن جاء اليوم الذي كان فيه على موعد مع أعظم عطية تلقاها هذا الرجل في حياته من قِبَل القديسين بطرس ويوحنا (أع ٣: ٦). وهكذا هذه النفس كانت كل يوم تأتي تترجى نعمة الرب "طلبت وجهك"، ولا تدري هل سوف يتحنن عليها اليوم؟ هل ستفتح لها كوى السماء؟ وهل ستعود إليها التعزيات القديمة؟ وفجأة وبدون مقدمات تدب في داخلها حرارة روحية أقوى من ذي قبل، وإذا بها أمسكتة ولم ترخه، وتجتاحتها فرحة يعجز اللسان عن وصفها، فعلى قدر ما حزنّت وتألّمت، وعلى قدر تعب البحث عنه، بهذا القدر عينه تعلّقت به لحظة ما رآته.

ولنا مع المجدية ذات المثال، فبعد أن وقفت تبكي يوم الجمعة عند أقدام الصليب، وبعد أن انتظرت بفارغ الصبر إنقضاء يوم السبت، قامت فجر الأحد باكراً جداً والظلام باقٍ وخرجت قاصدة القبر، ترافقها مريم الأخرى، وفي ذلك العصر كانت القبور خارج المدينة، فوقفت قرب باب أورشليم بانتظار بزوغ أول ضوء في الفجر لكي يفتحوا الأبواب لتخرج، ولم يثنها أي رادع عن الخروج والبحث عن الرب، فذهبت إلى القبر ورأت هناك الملائكة ولم تعرهم أي اهتمام، فكل ما كان يستحوذ على تفكيرها هو المسيح، ويقول الكتاب عندما رأتا الرب تقدمتا "وأمسكتا بقدَمَيْهِ" (مت ٢٨: ٩). والأمر نفسه تكرر مع أبينا يعقوب عندما اجتاز في هذه التجربة، وحين تقابل مع الرب قال له: "لا أطلقك إن لم تُباركني" (تك ٣٢: ٢٦)، وهو ما يتوافق تماماً مع قول العروس: أمسكتة ولم أرخه.

فالدرس الذي يريد المسيح أن يعلمه للإنسان من هذا الإختبار هو المثابرة، لأنَّ الإنسان بطبيعته قليل الصبر ويميل بسرعة، فتري إنساناً يعاني من خطيئة ويجاهد ويصلي لكي يقلع عنها ويعترف بها ويمر شهر أو سنة وحتى عشر سنوات وحاله على ما هي عليه، مما يفقده صبره ويؤدي به إلى الإعتقاد أنَّه لا يستطيع أن يتخلَّص منها، ولكنَّ طبعه لن ينصلح ولن يفتني الفضيلة التي يطلبها ويتمناها من كل قلبه إلا متى شاء المسيح أن يتحنن عليه ويهبه إيَّاهَا، لذا يتوجَّب عليه أن يثابر حتى تتحقق غايته.

وهذا ما فعلته عروس النشيد، فمع أنَّها اجتازت في ضعف إلى منتصف الطريق لكنَّها لم تكلَّ ولم تهدأ حتى أمسكت به. ويهدف المسيح من التمهّل في تلبية رغبة النفس جعلها تدرك أن الفضائل شيء ثمين وغالٍ ولا يمكنها أن تحصل عليها بسهولة.

لذا على الإنسان أن يثابر ويظل يطلب بدون ملل أو كلال، لأنَّ الإنسان بطبيعته يريد ويرغب ولكَّنه لا يطلب ولا يسأل المسيح أن يعطيه، مع أنَّ المسيح يحثُّه لكي يطلب وقد قال: "اسألُوا تُعْطَوْا" (مت ٧: ٧)، وحتى إن تَأْنَى ولم يستجب على الفور، فعلى الإنسان أن يَلح عليه، كما فعل يعقوب "لا أطلقك إن لم تباركني". أمَّا الإنسان الذي يضجر بسرعة في الطريق الروحي فلن يحصل على ما يصبو إليه، وقد قال الرب يسوع: "بصبركم اقتنوا أنفسكم" (لو ٢١: ١٩)، فالتحلّي بالصبر هو من مقوّمات الحياة الروحيّة والإنسان الذي يضجر بسرعة لا يستطيع الإستمرار والتقدّم في الطريق الروحي، لذا من المهم جداً أن يجاهد وأن يلتزم بالقانون الروحي وأن يطيع أب اعترافه حتى وإن لم يتغيّر أو لم يتبدّل طبعه، وتعدّر عليه الإقلاع عن الخطيئة، لأنَّ العلاج مما يعانيه هو الصبر إلى أن يتحنن المسيح عليه، وقد يكون اليوم أو غداً هو موعد انفتاح كوى السماء له. فما دام عازم وكله رجاء فلا بد أن يتقابل مع المسيح عاجلاً أم آجلاً. وهذا هو الدرس الأوّل الذي يريد المسيح أن يعلمه لنا مما اجتازته النفس في هذه المرحلة.

وتروي لنا إحدى قصص البستان عن أب لم يمض على دخوله إلى الدير سوى سنوات قليلة، فقص الأب الشيخ وقال له: "يا أبى، منذ فترة أجاهد لكي أقتني السلام الداخلي لأنني أتوتر بسرعة إزاء أي أمر"، فسأله الأب الشيخ: يا بني، كم مضى على دخولك الدير؟، فقال له: "إثنتا عشرة سنة"، فنظر إليه الأب الشيخ وقال له: "يا بني، لقد مضى على دخولي الرهبنة أربعون سنة، ولم أقتني كمال السلام الداخلي! وأنت تريد أن تحصل على السلام بعد اثنتي عشرة سنة!".

ولا أورد هذه القصة لكي أصوّر للبعض أنَّ الحصول على الفضائل هو أمر في غاية الصعوبة، ولكن هذا هو واقع الحال، فأني هدف على مستوى العالم يتطلب من الإنسان كدّاً وتعباً، إن كان من أجل شهادة أو مركز أو سواهما، فإنّه لا يستطيع أن يحصل عليه بسهولة، فلكي يحصل على الشهادة فإنّه يُذاكر ليلاً ونهاراً ولأيام متواصلة لا يعرف فيها النوم أو الراحة حتى يتمكّن من اجتياز الإمتحان بنجاح، فإذا كانت العطايا الماديّة التافهة، مقارنة مع العطايا الروحيّة تستحق منه كل هذا الجهد والمثابرة والتعب، فكيف به لا يريد أن يجاهد من أجل الحصول على الفضيلة! إذاً وكما قال القديس بولس: "تأبروا".

ولكن لماذا يولي المسيح هذا الإهتمام البالغ لهذه الناحية من الحياة الروحيّة؟ لأنّه بصراحة الذي نحصل عليه بسهولة سوف يذهب أدراج الرياح بسهولة، والمسيح ليس عاجزاً عن أن يهب الجميع وهو الذي بلحظة بطرفة عين يغيّر كل مَنْ يسأله. فالمشكلة ليست في مقدرة المسيح على التغيير إنما المشكلة في الإنسان الذي حين يأخذ بسهولة سوف يفرط بالعطيّة بسهولة أيضاً. فالإنسان الذي لا يتعب في اقتناء الطهارة فإنّه سوف يقترب الخطايا بسهولة، معللاً النفس بأنه ما إن يقول للمسيح سامحني حتى تعود إليه الطهارة مجدداً، وهذا منطق مرفوض لأنّ الطهارة ليست شيئاً رخيصاً، والحصول عليها يتطلب جهاداً وصبراً وميطانيات وتضرّعاً وقرع صدر وانكساراً وانسكاباً أمام الله، وبعد هذا كلّه ينعم الله على الإنسان بفضيلة الطهارة، فالله لا ينعم إلا على الذي يجاهد، أمّا الذي ينام ويسترخي ويطلب اقتناء الطهارة فلن يحصل عليها لأنّه لا يستحقها، فإن وهبه المسيح النعمة سوف يفرط بها.

ولكنَّ الإنسان الذي يجاهد لإقتنائها فإنَّه يفترط في عينيه ولا يفترط بالطهارة، كما فعل سمعان الخراز الرجل النقي الذي كان يعمل في إصلاح الأحذية، فجاءت إليه امرأة جميلة الصورة لتصلح حذاءها، وبينما كانت تقوم بخلعه وقعت عينا سمعان على ما حرك فيه الشهوة وللوقت قام بقلع عينه بالمخراز. مع أن الأمر اقتصر على مجرد نظرة عابرة ولم يتطور إلى فعل، وكان بإمكانه أن يرفع قلبه إلى الله في الحال ويقدم توبة ولكنَّ لأنَّه لم يقتنِ الطهارة بسهولة أثر أن يقلع عينه ويصبح أعوراً على أن يفقد طهارته. مع أنَّ هناك الكثير من الناس الذين يطوفون بأنظارهم شمالاً ويميناً ولم يفكروا يوماً أن يقلعوا عيونهم ولم يخطر في بالهم أن يفعلوا ما فعله سمعان الخراز (حتى وإن لم يكن هذا هو المطلوب حرفياً)، والسبب أن سمعان لم يحصل على طهارته بسهولة من هنا ندرك أهميَّة المثابرة في الطريق الروحي فهي تساعد الإنسان الذي يقتني الفضيلة أن يحافظ عليها.

والقديس لا يكثر لفقدان أي شيء سوى طهارته، كما فعلت القديسة العفيفة خلال أيام الإضطهاد، عندما هاجمها مجموعة من الرجال بعد أن أزمعوا على ممارسة الخطيَّة معها رغماً عنها، فقالت لهم: أستم تحاربون؟ وأنا عندي زيت إذا ما دهن به أي مكان في الجسم لا يستطيع السيف أن يقطعه. فقالوا لها: أنتِ تسخرين منا! فقالت لهم: سوف أبرهن لكم صدق كلامي، فأدهن عنقي بالزيت وأنتم اضربوه بالسيف فلن أصاب بسوء. فوافقوا على اقتراحها، ودهنت عنقها بالزيت، ورفع أحد الرجال السيف وضرب عنقها فانفصلت رأسها عن جسمها. فاخترت العفيفة الموت على ألا تفقد طهارتها، فهي أغلى ما تملك، وقد توصَّلت إلى هذا الفكر وهذه القناعة لأنَّها جاهدت وتعبت.

والعروس قد اختبرت الأسى والمرارة بعيداً عن المسيح، لذلك عندما أمسكته ماذا فعلت؟ تقول العروس: "أَدْخَلْتُهُ بَيْتَ أُمِّي وَحُجْرَةَ مَنْ حَبَلْتُ بِي"، فالعريس سبق له وأدخل العروس إلى حباله وعرفها أسرارها، وهي أيضاً عندما أمسكته أدخلته بيت أمها، فماذا تعني بقولها "بيت أمي"؟ فهي عندما تقابلت مع المسيح كشف لها أسرارها: سر الخلاص، والتدبير الإلهي، وتدبير ملء الأزمنة. لذلك لا يجوز بعد أن كشف لها

أسراره الإلهية أن تخفي هي عنه أسرارها، مما حثَّ عليها دعوته إلى الدخول إلى "بيت أمي وحجرة من حبلت بي"، مما يعني أنَّها وضعت أمامه حياتها بكل ما فيها، أصدقاءها، أوقات فراغها، تسليتها، شغلها، فأصبح كل ما يخصها مكشوفاً أمام عينيه، وبالتالي أصبحت حياتها بين يديه وله ملء الحرية أن يفعل بها ما يشاء. وهذا التسليم لمشيئته جاء نتيجة لإختبارها السابق وفيه تعلَّمت أن لا تهتم لفقدان أي شيء ما عدا المسيح، لأنَّه غداً أغلى من كل شيء. وقد توصَّلت إلى هذه القناعة بعد أن تعبت لكي تجده، لذلك أعطته كامل الحرية أن يلغي وينهي أي شيء لا يعجبه في حياتها.

ولكنَّ المؤسف أنَّ البعض يستقبل المسيح في بيته، ويجلسه كما في حجرة الصالون، بمعنى يحدد له مكاناً ومساحة ولا يسمح له أن يتعداها أو يتخطاها، ويغلق باقي الحبرات أمامه ولا يسمح له بالدخول إليها باعتبارها أسراراً خاصة، وطبعاً المسيح لن يفتحها عنوة. لكنَّ العروس أو النفس لم تخف عنه شيئاً بل وضعت كل شيء أمامه في النور، وأعطته ملء الحرية أن يحكم فيها كما يشاء، فتتخذ ما يعجبه وتتخلَّى عما لا يرضيه.

(٦:٣) "مَنْ هَذِهِ الطَّالِعَةُ مِنَ الْبَرِّيَّةِ كَأَعْمَدَةٍ مِنْ دُخَانٍ، مُعْطَرَّةً بِالْمُرِّ وَاللَّبَانِ وَبِكُلِّ أَذْرَةٍ التَّاجِرِ؟".

ونتابع مع سفر النشيد لنرى جمال النفس في هذه الدرجة التي بلغتها، ومن المعروف أنَّ شولميث الحبيبة فقيرة حافية القدمين، فنظرن إليها بنات أورشليم ولاحظن التغيّر الذي كان بادياً عليها، وتساءلن ما الذي جرى لها، مَنْ هَذِهِ؟ هل يُعْقَل أن تكون هذه شولميث، النفس التي كانت غضوبة وحقودة؟ مَنْ هَذِهِ الطالعة من البرية؟ فعندما نظرن بنات أورشليم إلى النفس التي اكتست بالنعمة لم يستطعن أن يخفين دهشتن.

والنفس في حالتها هذه وفي موقفها هذا، تشبه ما مرّت به السامرية إلى حد بعيد، فالسامرية كانت امرأة زانية سيرتها على كل لسان وكل مَنْ ينظر إليها يحقرها وينتقد تصرفاتها، ولكن عندما تقابلت مع المسيح إكتست بالنعمة ثم ذهبت وقالت للناس: "هَلُمُّوا انظروا إنساناً قال لي كل ما فعلت" (يو ٤: ٢٩)، ولكنَّ السؤال المطروح هل هذه

الكلمات تجذب المدينة كلها للقاء يسوع؟ الحقيقة أنهم لاحظوا تغييراً جذرياً في مظهر المرأة، في نظراتها، في كلماتها، في حركاتها، وفي تصرفاتها. فتساءلوا ما الذي جرى لها؟ وكأنَّ أهل السامرة يرددون كلمات التعجب التي قالتها بنات أورشليم: "مَنْ هذه الطالعة من البرية؟".

وإذا كان العجب يتملّكنا من خلفة الله للجسد! هذا الجسد المصنوع من تراب! وكيف أنَّ الله شكَّله بألوان مختلفة وزينه بشعر من أنواع وألوان شتى، لدرجة عندما نتأمل في تكوين جسم الإنسان ننبر، فكم بالحري عندما يجدد المسيح خلقه الروح، فتكتسي النفس بجمال يعجز اللسان عن وصفه، وتبدو في حالة تدهش كل الناظرين إليها: "مَنْ هذه الطالعة؟"، ولا يصدّقون ما تراه عيونهم، وتتوالى الأسئلة: ما هي حكايتها؟ ما الذي غيّر وبدّل أحوالها؟

وهذا ما حدث أيضاً مع بولس - شاول، الذي كان ينفث تهديداً وقتلاً لتلاميذ الرب (أع ٩: ١)، فكان كالثعبان ينفث السم في الكنيسة، مع أنَّه في قرارة نفسه يحب الرب ولكنّه يجهل الطريق التي تؤدي إليه، فكان يعتقد أنَّ الطريق إلى الرب تمر باضطهاد المسيحيين فسار به بإفراط وهو على يقين تام بأنَّ ما يفعله محبّه بالله، فبولس كان يحمل في صدره قلباً نقياً ولكن ما زرع في فكره أضلّه، إلى أن تقابل مع المسيح على طريق دمشق. فماذا فعل له! حتى أنَّه قال: "يارب، ماذا تريد أن أفعل؟" (أع ٩: ٦)، ويقول هذا أبدى كل استعداد لطاعة الرب، بعد أن بحث عنه طويلاً، فهو لا يريد شيئاً إنما يريد المسيح فقط.

فقال له المسيح: "قم وادخل المدينة، وهناك يقال لك ماذا ينبغي أن تفعل"، ودخل بولس المدينة وتقابل مع حنايا واعتمد على يديه، وتجددت خلقته. ثمَّ انطلق إلى صحراء العريّة الواقعة شرق دمشق، وأقام فيها ثلاثة سنوات، وخرج بولس من هذه الصحراء وبدأ يدخل إلى مجامع دمشق ويكرز أن يسوع هو ابن الله، وجميع الذين كانوا يسمعون بهتوا، وتساءلوا هل يعقل أنَّ هذا هو شاول! هذا الذي كان يضطهدنا قبلاً، يُبشر الآن بالإيمان الذي كان قبلاً يتلفه! (غل ١: ٢٣)، وكأنهم يقولون: "مَنْ هذه

الطالعة من البرية". فمهما قلنا ووصفنا فلا يمكننا أن نسبر مقدار التغير الذي يجريه الله في النفس.

وأيضاً معلّمنا موسى النبي خرج ذات يوم ورأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً، وحملته حميته على قتل المصري، مع أنّ الأمر لم يكن يستلزم القتل، فكان يكفيه أن يفرق بينهما أو بالأكثر يضربه وينتهي الأمر عند هذا الحد، ولكنّ موسى أخذته حدّة الغضب فقتل الرجل. وفيما بعد دخل موسى البرية وأقام فيها أربعين سنة، وخرج منها رجلاً آخر وقد شهد له الكتاب، فقال: "وأما الرجل موسى فكان حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض" (عد ١٢: ٣). فماذا حصل لموسى؟ وما الذي غيّر طباعه إلى هذا الحد؟ ذلك لأن السنوات التي قضاها في البرية تشبه بمفاعيلها ثلاثة أيام الصليب، فاجتاز الاختبار الذي اجتازته النفس بكل ما تضمن من أوان قضب وتخلّى وجفاف روحي، حتى استحق أن ينال الثمر الذي يليه. فرؤية موسى الحليم جداً يحملنا على القول: "مَنْ هذه الطالعة من البرية".

وبما أننا أتينا على ذكر موسى النبي فأيضاً نذكر سميّه موسى الأسود الذي لم يكن أحد يجرو أن يقف في وجهه أو يعانده، ولكن بعد أن دخل البرية وحمل الصليب فأصبح إنساناً جديداً، إذ لمست يد الله موسى الأسود واكتسى بالنعمة فتغيّرت طباعه إذ في أحد الأيام عندما كان ذاهباً إلى القلاية وشاهد جماعة من اللصوص يحاولون أن يسرقوا قلايته، فأمسك بهم وأوثقهم ببعضهم البعض ثم اقتادهم إلى رئيس الدير الأنبا مقار. فسأله مَنْ هؤلاء الرجال؟ فأجابه موسى: هؤلاء كانوا يسرقون القلاية، ولم أشأ أن أمتهم بسوء بل آثرت أن آتي بهم إليك. فتعجّب رئيس الدير من ترفّقه ولطفه في معاملة اللصوص، وطلب منه إطلاق سراحهم.

فحقاً كما قال الشيخ الروحاني: "أخبار القديسين شهية للنفس كالماء للغرس الجديد". فسيرتهم عطرة وبهية ومفرحة، وحين نتأمل في حياتهم ونرى عمل الله فيهم، لا نتردد في القول: مَنْ هذه الطالعة من البرية؟

"كَأَعْمِدَةٍ مِنْ دُخَانٍ، مُعْطَرَّةٌ بِالْمُرِّ وَاللُّبَانِ"، عندما دخلت النفس إلى البرية واجتازت الاختبار الصعب احترقت الشوائب التي فيها، واحترقت الطباع السيئة التي كانت تتحكم في تصرفاتها فاحترقت الخطيئة وصارت كأعمدة الدخان. ولكنها اجتازت هذه التجربة وهى معطرة بالمرّ واللّبان، والمرّ هو الألم واللّبان هو الصلاة. والرب يسوع في ميلاده قدّموا له الذهب لأنّه ملك، واللّبان لأنّه كاهن، والمرّ لأنّه سيّئاً على خشبة الصليب.

وهذه النفس عندما دخلت إلى البرية تعطّرت وتغيّرت بكل من المر واللّبان، بالصليب والصلاة. وهذه هى طبيعة الطريق لأنّه ليس من علاج للذرائع والطباع السيئة التي تملك الإنسان سوى الدخول إلى البرية التي هى مكان فقر حيث يشعر بالوحدة فيحمل الصليب، ولكن الذي يعينه في حمل الصليب في هذه المرحلة هو اللّبان الذي هو الصلاة التي تحرق الشوائب.

"وَبِكُلِّ أَذْرَةٍ التَّاجِرِ"، فالنفس التي دخلت إلى البرية واجتازت الاختبار الصعب وحملت الصليب بمعونة الصلاة تمكّنت من أن تتعطر بكل أذرة التاجر، أو بكل مساحيق التاجر، أي بكل الفضائل الروحية. وقد يرمز التاجر إلى السيّد المسيح لأنّ المسيح قد شبّه ملكوت السموات بإنسان تاجر يطلب لآلئ حسنة، والتاجر يسافر من بلد إلى آخر لكي يجمع العطارة، والسيّد المسيح قد سافر من السماء إلى الأرض لكي يقتني نفوسنا، فأصبح التاجر رمزاً للسيّد المسيح. فالنفس التي في البرية تحمل الصليب وتصلّي فإنّها تتعطر بكل فضائل المسيح إذ أعطانا كل ما له لذا كل ما نراه في المسيح من طهارة ووداعة، من محبة وتسامح، سوف يُنعم بها على النفس، فتصير معطرة بكل أذرة التاجر.

وقد يرمز التاجر إلى الروح القدس، والروح القدس يعرف ما الذي يُعطّر النفس، فإن كانت النفس غضوبة فيقول لها: أنت بحاجة إلى أن تتعطري بطول الأناة، وإن كانت النفس قليلة الخبرة وتفتقد إلى حسن التصرف، فيقول لها: أنت بحاجة إلى أن تتعطري بالحكمة. وليس من سبيل أمام الروح القدس لكي يعطر النفس سوى أن يدخلها

في ضيقة، أى يدخلها إلى البرية، بمعنى تحمل الصليب، وليس على النفس في هذه الحالة سوى أن تستسلم لعمل الروح فيها لتخرج بعد ذلك من التجربة معطرة بثمار الروح القدس.

(٧: ٣) "هُودَا تَخْتُ سَلِيمَانَ حَوْلَهُ سِتُّونَ جَبَّاراً مِنْ جَبَابَرَةِ إِسْرَائِيلَ".

فعندما رأت بنات أورشليم العروس بهذا المنظر البديع وتساءلن هذا السؤال: مَنْ هذه الطالعة من البرية كأعمدة من دخان، معطرة بالمُرّ واللُّبَانِ وبكل أذرة التاجر؟ نظرت إليهن عروس النشيد بوداعة واتضاع وأعطت الفضل لكل ما هى فيه من فضائل إلى السيد المسيح، فبنات أورشليم يمتدحونها بالقول لها: ما هذا الجمال الذي أنت فيه؟ وما هذه النعم التي أنت حاصلة عليها؟ وما سرّ هذا التغيّر الذي حدث في حياتك؟ يا ليتك تخبريننا. فقالت لهنّ: ماذا بوسعي أن أقول لكنّ! فمن أنا أمام المسيح؟ ومن أين لي أن أصل إلى مصاف القديسين الذين يحيطون به؟ فأنتنّ تنتظرن إليّ بينما أنا لست سوى صورة باهتة للجمال الحقيقي وإن أردتنّ فعلاً أن ترين عمل المسيح فانظرن سوف أريكن موكبين للمسيح موكباً على هذه الأرض وموكباً في السماء. ففي الموكب الأرضي سوف ترين قديسين محيطين به وهم أجمل وأفضل مني بكثير.

وهى بكلامها هذا تحوّل الكرامة والمجد عن نفسها وتنسبهما إلى المسيح. أمّا في الموكب السماوي فسوف يشاهدن كيف أن المسيح قد زيّن قديسيه بهذه الفضائل. ولكنها عن الموكب الذي في الأرض قالت: "هُودَا تَخْتُ سَلِيمَانَ"، وقد عرفنا أنّه الموكب الأرضي لأنّها ختمت الآية التي تليها بالقول: "من هول الليل"، والليل هو ليل العالم، ونحن في ليل العالم ننتظر فجر القيامة. وفيما بعد سوف تتكلّم عن الموكب السماوي، وهو أيضاً تخت لسليمان الملك، "فسليمان عمل لنفسه تختاً"، وفيه إشارة إلى التخت السماوي.

والملاحظ من كلام النفس أنّها تحوّل كل كرامة وكل مديح للسيد المسيح، وهذا ما تعلّمته من درس الإِتضاع، لأنّها لو لم تدخل إلى البرية وسمعت بنات أورشليم يقلن لها مَنْ هذه الطالعة؟ وما هذا العطر الطيب الذي يفوح منك؟ لكانت بالتأكيد قالت

لهن: هذا كله ثمرة صومي وجهادي لذلك أنعم الله عليّ! وهذا هو الكبرياء بعينه. لكن بما أنّها دخلت في الاختبار الصعب استطاعت أن تقول بكل يقين: مَنْ أنا؟ فأنا لست بشيء، ولو كان الأمر يعود لجهادي لما كان هناك من داعي لتجربة الفترة السابقة. لذا فإنّ اجتيازها في الإختبار الصعب جعلها تحوّل المجد كله ليسوع.

"هكذا تخت سليمان"، فهي عمّدت إلى تحويل نظر بنات أورشليم عنها فلا تريدن أن ينظرن إليها بل إلى تخته، إلى القديسين المحيطين به، وإليه هو. والمعنى الحرفي للآية هو أن سليمان عندما كان يريد أن ينام في الليل ويرتاح كان يستلقي على السرير، ومن البديهي ألا ينام الملك والأبواب مفتوحة من حوله دون رقيب، فكان يحيط بسريره ستون جباراً وكل واحد منهم يمسك بسيفه لحماية الملك.

فالسريّر مكان راحة سليمان، وسليمان يرمز إلى السيّد المسيح، ولكن أين ارتاح المسيح؟ فالمسيح في حياته على الأرض قال: "لِلثَّعَالِبِ أُوجِرَةٌ، وَلِطُيُورِ السَّمَاءِ أُوكَارٌ، وَأَمَّا ابْنُ الْإِنْسَانِ فَلَيْسَ لَهُ أَيْنَ يُسْنِدُ رَأْسَهُ" (لو ٩: ٥٨)، فالمسيح ليس له مكان يرتاح فيه، ولكن عندما علّق على الصليب أسند رأسه على الصليب، فكلمة أمال رأسه تعني أسند رأسه، وهو الذي طيلة حياته على الأرض لم يجد مقرّاً راحة لرأسه فارتاح على الصليب. لذا فتخت المسيح ومكان راحته هو الصليب.

فعندما تقول: انظرن إلى تخت سليمان، تعني بالمفهوم الروحي: انظرن إلى صليب المسيح. ومن حوله؟ إذ يوجد حوله ستون جباراً، يمثلون كل القديسين الذين النفوا حول صليب المسيح، فالنفس تنظر إليهم وإلى كل المؤمنين بالمسيح وتقول: أين أنا منهم؟ فأنا لست بشيء مقارنة بهم! فأنتم تقولون لي من هذه الطالعة من البرية؟ بينما الأولى أن تنظروا إلى السيدة العذراء التي وقفت تحت أقدام الصليب، فانظروا إلى جمالها، فهل يجوز أن أقارن بها! وانظروا إلى يوحنا الحبيب وإلى كافة القديسين الذين حملوا الصليب، انظروا حوله ستين جباراً وأنا لا شيء مقارنة بهم.

والمقصود من تحديد العدد: ستون جباراً، أنّ قديسي المسيح معروفون واحداً واحداً، بالاسم والعدد. فبعد أن هُدم الهيكل وأخذ نبوخذ نصر كل ما في الهيكل إلى بابل،

عاد كورش الملك وسلّم عزرا أدوات الهيكل، وقد ذكر لنا سفر عزرا الأصحاح الأول، أنّهم استلموا كل أنواع الأنية بالعدد، وهذه تمثّل المؤمنين فهم معروفون لله واحداً واحداً، "دعوتك باسمك، أنت لي" (إش ٤٣: ١).

وأيضاً ستون جباراً حول تخت سليمان تذكّرنا بخيمة الاجتماع التي ذكر عدد أعمدتها في سفر الخروج أصحاح ٢٧، فمن جهة الجنوب عشرين عموداً وعشرين من جهة الشمال وعشرة من جهة الغرب، أما من جهة الشرق فيوجد ثلاثة أعمدة في الجانب الأول وثلاثة أعمدة في الجانب الثاني وأربعة أعمدة لباب الدار، فمجموع عدد أعمدتها ستون عموداً. وعمل الأعمدة أنّها تصد الرياح عن التابوت الموجود داخل الخيمة الذي هو سكنى الرب. فهم يحوطون بسليمان الحقيقي. ويمكننا أن نتعرّف إلى حالة هؤلاء الجبابرة عندما ننظر إلى كل عمود من هذه الأعمدة الستين، فكل عمود له قاعدتين من فضة، والفضة في الكتاب المقدّس تشير إلى كلمة الله، فكل واحد من هؤلاء القديسين مبني على كلمة الإنجيل بعهديه القديم والجديد.

ولكي يثبت العمود ولا يسقط يتوجّب دفن قسم منه تحت التراب، فكل واحد من هؤلاء الستين جباراً له علاقة قويّة بالمسيح في المخدع، وفي الخفاء، هي سرّ ثباته. فإذا بنى العمود على سطح الأرض فسوف يهوي لا محالة، ولكن عندما يدفن قسم منه في عمق الأرض فسوف يثبت. فكل واحد من الجبابرة المحيطين بصليب المسيح مبني على أساس كلمة الله وله عمق وبُعد خفي في المخدع في علاقته بالمسيح. ومما يزيد في ثباته أنّ كل واحد مربوط بأخيه فلا يعمل بصورة منفردة هذا من جهة، ومن جهة ثانية كل عمود مربوط بوتد في الأرض، وقد قيل عن المسيح في سفر إشعياء: "وأثبتته وتداً في موضع أمين" (إش ٢٢: ٢٣). مما يعني أن كل واحد منهم مربوط بالمسيح، لذلك قالت العروس: لا تنظروا إليّ بل انظروا إلى القديسين الذين يحيطون به، فأنا لست بشيء أمامهم. انظروا وتعلموا منهم.

وقد علّمتنا كنيسة ألا نبوح باختباراتنا الروحيّة، فالذي دخل إلى البريّة وتعطّر بالمُرّ واللّبان وبكل أو بعض من أدرة التاجر لا ينكر نعمة المسيح ولكنه لا يفصح عنها لأنّه مهما كان اختباره فماذا يكون أمام اختبار القديسين، فالذي يريد أن يتكلّم

فالأجدى به أن يتكلم عن القديسين، وإذا كان يريد أن يظهر عمل المسيح فليتكلم عن موسى الأسود فصار مثلاً لعمل النعمة، فعوض أن يبحث عن المجد لنفسه فليحوّله إلى القديسين. كما فعلت العروس حين قالت: لا تنظروا إليّ بل انظروا إلى القديسين. هوذا تحت سليمان فتعالوا انظروا إلى المسيح وانظروا إلى الذين حوله، وانظروا إلى القديسين الذين يحيطون بالصليب.

هوذا تحت سليمان حوله كثيرون ليس لهم أوّل ولا آخر، ولا يمكننا أن نحصيهم، ستون جباراً: ورقم ستون هو حصيلة: $(3 \times 4 \times 5)$ ، والثلاثة ترمز إلى الثالوث، والأربعة هي أربع جهات الأرض، والخمسة هي الحواس الخمسة. مما يعني هم المؤمنون بالثالوث، في كل أرجاء المسكونة، الذين عاشوا بحواس مقدّسة للمسيح. فعددهم الوف الوف وربوات ربوات.

(٨:٣) "كُلُّهُمْ قَابِضُونَ سِيُوفاً وَمَتَعَلِّمُونَ الْحَرْبَ. كُلُّ رَجُلٍ سَيِّفُهُ عَلَى فَخْذِهِ مِنْ هَوْلِ اللَّيْلِ".

مع أعدادهم الكثيرة إنما كلهم مشتركون في أنهم قابضون سيوفاً، فكل واحد منهم ممسك بعدة سيوف ومتعلّم الحرب، فحين يأتي الشيطان ليحاربه بالكبرياء يُشهر في وجهه سيف الاتضاع، وحين يحاربه بالنجاسة يُشهر في وجهه سيف الطهارة. كلهم قابضون سيوفاً ومتعلّمون الحرب، فهم أناس لهم خبرات في الحياة الروحية، وليست مجرد نفس دخلت إلى البرية ثلاثة أيام وخرجت، بل هي خبرة حياة طويلة فالأنبا أنطونيوس الذي عاش في البرية منذ ريعان شبابه حتى بلوغه المئة وخمس سنوات. فكم تكون خبراته الروحية وحتى على المستوى البشري العادي عندما نرى رجلاً كبيراً في السن ندرك فوراً أن له خبرات كثيرة واسعة في الحياة، فهو عاش ورأى، فكلما ازدادت خبرات الإنسان كلما يصقل، وأيضاً عندما يطلبون أشخاصاً لوظيفة شاغرة في مؤسسة ما، فإنهم يفضلون الأشخاص الذين يتمتعون بخبرات اكتسبوها من العمل على مدى سنوات عديدة، وكلما ازداد عدد السنين ارتفع المرتب لأنهم أصبحوا أصحاب كفاءة، وهكذا على مستوى الروح، فالأنبا أنطونيوس قضى معظم حياته في البرية،

فما هي خبراتك يا أنطونيوس؟ لا تسأل، فهي لا تعد ولا تحصى "متعلمون حرب" فهو أستاذ في فنون الحروب الروحية، لماذا؟ لأنه اجتاز وعاش ورأى.

ويا ليتنا نكون من هذه النفوس المتعلمة لفنون الحرب الروحية، فالحياة الروحية فن، فحين يأتي الشيطان ويقول لك: "أنت لا فائدة منك! أليست هذه الخطية التي تقتربها اليوم اعترفت بها أمس! أليس لك أكثر من سنة تعترف بها دون جدوى؟" فنقول له: "فعلاً أنا لا فائدة مني". للأسف لست خبيراً ولم تتعلم فن الحرب، ولكنك عندما تتقن فن الحرب فسوف تقول له: "لأن الصديق يسقط سبع مرات ويقوم" (أم ٢٤: ١٦)، وتردد قول الكتاب: "إن قلنا: إننا لم نخطئ نجعله كاذباً، وكلمته ليست فينا" (يوا: ١٠)، أو تردد قول الرب: "إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج" (إش: ١: ١٨). هذا لسان حال المتعلم فن الحرب.

أو قد يأتي الشيطان ويقول لك: "عش مع الرب فيغدق عليك المال ويؤمن لك سبل النجاح ويسهل لك أمور الحياة". فأيضاً هذا فكر من ليس خبيراً في فنون الحروب الروحية، فما نفع المال والنجاح إن كان هو غاية الروحانيات فنحن نحيا مع المسيح لكي يعطينا طباعه ولكي يزيننا بكل أذرة التاجر. فالحياة الروحية بحاجة إلى متعلمين في فنون الحرب لاسيما حين يأتي الشيطان ويهمس في أذنك: "أنت رجل قديس، فانظر أنت تواظب على الحضور كل يوم إلى الكنيسة، وتشارك في القداسات وفي التناول باستمرار". فنقول في نفسك: "نعم، طبعاً، أنا كذلك". وقولك هذا ما هو إلا دليل على سقوطك لأنك لست متعلماً فن الحرب. أمّا المتعلم فنون الحرب فيردد حتى وإن تقدم كثيراً في الصلاة، أين أنا من الأنبا أرسانيوس، وإن خدم فأين خدمتي من خدمة وتفاني بولس". هذه هي ردود المتعلم فن الحرب.

كلهم قابضون سيوفاً ومتعلمون الحرب، واحداً واحداً، كل رجل سيفه على فخذيه من هول الليل، فبينما نحن في ليل العالم نعاني من الهول لأن هجمات الشيطان صعبة وقاسية، فعندما يتسلط على نفس فهو أمر في غاية المرارة وهذا ما عبّر عنه

سفر أيوب. وعندما غرَبَ الشيطان التلاميذ لم يسلم أحد من شرّه وبالكاد نجا منه التلميذ الذي كان ملتصقاً بالمسيح يوحنا الحبيب، فقد أوقع الكل في شركه، ففي الغريلة الأولى سقط يهوذا وذهب ولم يعد، وفي الغريلة الثانية سقط تسعة تلاميذ في هزة واحدة، وبالكاد التصق بالمسيح اثنان هما يوحنا وبطرس، فقال الشيطان وهل سيعصيان عليّ؟ وفي هزة قوية سقط بطرس معلّماً الحبيب ولم يسلم من شرّه سوى يوحنا الذي كان يتكئ على صدر المسيح. فالشيطان عندما يتسلط فهو كهول الليل.

فكل واحد منهم تعلّم فن الحرب ويمسك بالسيف، والسيف هو كلمة الله، ولكنّ البعض يضعون الإنجيل للزينة، وهذا لن يعود عليهم بالنفع لأنّ مكان السيف هو على الفخذ، والفخذ يرمز إلى الجسد، مما يعني أنّ كلمة الله يجب أن تكون ساكنة في داخل الإنسان، في قلبه وفي عقله. أمّا الذي يضع كلمة الله للزينة فلن يستفيد منها بشيء. وأيضاً يضع البعض الإنجيل تحت الوسادة لكي ينعم بنوم هادئ ولكن ليس هذا مكان السيف بل مكانه على الفخذ، وكما قال الكتاب: "تسكن فيكم كلمة المسيح بغنى" (كو ٣: ١٦)، وعندما يأتي الشيطان ليحارب المؤمن يشهر السيف في وجهه، لأنّ الشيطان لن ينتظره لكي يستيقظ ويأتي بالسيف من المخبأ، فالإنسان الغير مستعد والغير متسلّح بكلمة الله سوف يهزم، أمّا الذي تسكن كلمة الله في داخله، فما أن يشن الشيطان الحرب عليه حتى يستل سيفه وينتصر عليه.

وهذا ما فعله الرب يسوع في التجربة، فعندما قال له الشيطان: حوّل الحجارة خبزاً. قال له يسوع: "مكتوب...". وعندما قال له الشيطان: ارم نفسك. قال له يسوع: "مكتوب...". وعندما قال له الشيطان: أسجد لي. قال له يسوع: "مكتوب...". (مت ٤ : ٤). لأنّ سيفه على فخذه. لذا تقول العروس: لا تنظروا إليّ، بل انظروا إلى الذين يحملون سيوفاً متعددة، فأين أنا من القديسين الذين كانوا يجهرّون بكلمة الله ليلاً ونهاراً، وأين أنا من القديسين المتعلمين فنون الحرب الروحية. وكما قال بولس الرسول: "لأننا لا نجهل أفكاره" (٢كو ١١: ١١). إذّا فالعروس تقول: لا تنظروا إليّ بل انظروا إلى تخته وإلى القديسين المحيطين به. وهذا هو الموكب الأوّل. فماذا عن الثاني؟

(٩: ٣) "الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ عَمِلَ لِنَفْسِهِ تَخْتًا مِنْ خَشَبِ لُبْنَانَ".

أمّا عن الموكب الثاني فتقول لهم: تعالوا سأريكم موكباً سماوياً. فالملك سليمان عمل لنفسه تختاً من خشب لبنان، فالتخت الأول في الآية ٧ هو السرير، أمّا التخت الثاني في الآية ٩، فالمقصود به الهودج، فعندما كان سليمان ينام، كان يقف حوله ستون جباراً يمسكون السيوف، ولكن عندما كان يريد أن ينتقل من مكان إلى آخر، فلم يكن يسير على قدميه بل كان يركب في الهودج ويحمله الرجال على أكتافهم، وهذا الهودج مصنوع من خشب الأرز. والخشب يرمز إلى الصليب الذي هو أساس عمل المسيح في قديسيه المتعلمين فنون الحرب الذين يحملون السيوف وكل واحد منهم سيفه على فخذه. ولو لم يكن الأساس هو خشبة الصليب، لما سمعنا عن ينتهر الشيطان! أو يغلبه فبدون الصليب لا يمكن ان ننجو منه! فالمسيح قد أسس ملكوته بخشبة الصليب.

(١٠: ٣) "عَمِلَ أَعْمِدَتَهُ فِضَّةً، وَرَوَافِدَهُ ذَهَبًا، وَمَقْعَدَهُ أَرْجَوَانًا، وَوَسَطَهُ مَرْصُوفًا مَحَبَّةً مِنْ بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ".

عندما يصف الكتاب تخت سليمان فهو يقصد المعنى الحرفي أي عرش سليمان الذي هو كرسيه، فالإطار الخارجي للكرسي مصنوع من خشب، والأرجل مصنوعة من فضة، أمّا الروافد والتي تشمل مسندي الذراع والألواح التي تشكل القعدة فمصنوعة من ذهب، والأريكة التي يجلس عليها سليمان مصنوعة من الأرجوان. فالكرسي الخشب يرمز إلى الصليب أعمدته الفضية تشير إلى الفداء، لأنّ الرب في القديم قال في احصاء الشعب فكل من بلغ سن العشرين سنة وما فوق يدفع ثلاثين شاقل فضة، وتدعى فضة الكفارة، فصليب المسيح هو أساس عرشه لأنّه يحمل تكفيراً عن خطايا البشرية، ولو لم يكفر المسيح عن خطايانا لما عرفنا كل هؤلاء القديسين. وأيضاً روافده ذهب، إشارة إلى الحياة السماوية، ثمرة فداء المسيح وصلبيه هو تذوق الحياة السماوية هنا ونحن في الجسد، "سِيرَتْنَا نَحْنُ هِيَ فِي السَّمَوَاتِ" (في ٣: ٢٠). ومقعه أرجواناً، والأرجوان هو لباس الملوك مما يعني أنّ الجلسة مع المسيح هي جلسة ملوكية. فنحن

ننظر إلى القديسين ونتساءل عن سبب جمالهم وعن العذوبة التي ظهرت في حياتهم، وإن سألنا أي واحد منهم عن سبب ما وصل إليه فسيقول لنا: هذه ثمرة المقعد الأرجواني، ثمرة الجلوس مع المسيح كل يوم.

ففي الجلسة معه والتأمل في حياته فسوف ننهر من تعاليمه ومن فكره ومن أعماله، فما الذي يدفعنا للجلوس معه سوى أننا كلما تأملنا فيه نرى العجب، وكلما نظرنا إليه نغتنى منه، ولا تسأل كيف. فأكثر ما يثير العجب في الرب يسوع هو أن كل ما أراه فيه أحصل عليه، بينما حين أنظر إلى فيلسوف أرى الهوة التي بيني وبينه وأندesh وأقول في نفسي أين أنا؟ وأين هو؟ بينما الأمر مع المسيح مختلف، وهذه هي روعة الحياة الروحية، لأن الذي تراه تأخذه، والفضيلة التي تراها في قديس تأخذها، فهذا هو منطق ملكوت الله، بينما ملكوت العالم يتسم بالأنانية، فكل إنسان يأخذ ويكدس لنفسه، لكن في ملكوت الله فإن الذي يرى فضيلة يحصل عليها.

هكذا عندما نجلس عند قدمي المسيح ونتأمل فيه، وكل ما نرى فيه فضيلة فإننا نشخص إليها ونتأمل فيها وفكرنا يسرح معها، وإذا بنا نكتشف أنها بدأت تتساب في داخلنا دون أن نعرف كيف، فهذا سر اسمه سر المسيح. فموسى جلس معه على الجبل ثم نزل والنور يشع من وجهه، فماذا فعل موسى! لا شيء، سوى الجلوس معه، وإذا بنور المسيح ينضح على موسى، "بنورك تُعاين النور" (مز ٣٦: ٩). فالقديسين قد حصلوا على كل ما حصلوا عليه من خشبة الصليب ومن الفداء ومن الكفارة، ومن الروافد الذهبية، فأصبحوا يعيشون في حياة سماوية بعد أن حصلوا عليها من الجلسة الأرجوانية الملوكية معه.

إنما أجمل ما في عرش سليمان ليس كل ما سبق وذكرنا بل إن وسط العرش مرصوف محبة من بنات أورشليم، وطبعاً بنات أورشليم هنّ النفوس العذاري اللواتي عندما رأين تحت الملك سليمان أي صليب المسيح، انجذبن لمحبته، وأصبحن جميعهنّ تحيين في عشق لسليمان، أي لسليماننا الحقيقي الذي هو المسيح "وسطه مرصوف محبة"، فكيف ملك علينا المسيح! مع أنه قد قامت ممالك كثيرة في العالم ولكنها بعد

زمان يسير إندثرت ولم يثبت سوى مملكة المسيح، لماذا؟ لأنَّ المسيح مَلَكٌ بالمحبة،
 "وأنا إن ارتفعت عن الأرض أُجذب إليَّ الجَمِيع" (يو١٢: ٣٢).

وبإعادة موجزة لتسلسل الأحداث نجد أنَّ النفس بعد أن اجتازت التجربة بدأت
 تتزيَّن بالفضائل، فرأتها بنات أورشليم فانبهرن بها وبجمالها، فقالت لهن: لا تنتظرن إليَّ
 بل انظرنَّ إلى القديسين المحيطين به، فأنا لست بشيء مقارنة بهم، وانظرن إلى العمل
 الذي عمله سليماننا من أجل أن يجمل نفوسنا بالفضيلة.

(١١: ٣) "أُخْرِجَنَّ يَا بَنَات صِهْيُونَ، وَاَنْظُرْنَ الْمَلِكَ سُلَيْمَانَ بِالتَّاجِ الَّذِي تُوَجَّهَتْ
 بِهِ أُمُّهُ فِي يَوْمِ عُرْسِهِ، وَفِي يَوْمِ فَرَحِ قَلْبِهِ".

ثم ختمت قائلةً لهن: ألم تستقن لسليمان؟ ألم تستقن أن تتزيَّن بالفضائل التي
 يمنحها؟ إذاً فاخرجن يا بنات صهيون، ها أنا قد عرفتكن الطريق فاجتهدن واخرجن كما
 خرجت أنا من المدينة، خارج ذواتكن، خارج اهتمامات العالم. وانظرنَّ الملك سليمان،
 فالذي يريد أن ينال منه فلينظر إليه ويكفي أن تنظر إليه، لكن لا تنظر إليه وأنت في
 زحام العالم بل اختلي به واقطع الروابط واجلس معه في هدوء وانظر إليه. كما كان
 يحلو لأبينا ببشوى كامل هذا التدريب، فيقول: "ضع صورة الصليب وانظر إليه"، وقد
 تتساءل وتقول: وماذا بعد؟ والجواب افعلي، وسوف ترى وتعرف وتختبر.

اخرجن يا بنات صهيون انظرن الملك سليمان بالتاج الذي توجهته به أُمُّهُ، فمن هي
 أُمُّهُ؟ هي الأمة اليهودية التي أعطته التاج، تاج الشوك الذي كلل رأسه. ولكن هل هذا
 الأمر أحزنه؟ وهل تدمر من الشوك ومن الذين وضعوه على رأسه؟ لا، بل كان يوم
 عرسه ويوم فرح قلبه، لأنَّه بهذا التاج قد أسس ملكوته.

الفصل السابع

(الأصاحاح ٤ : ١ - ٥ : ١):

بعد أن وجَّهت العروس الدعوة إلى بنات أورشليم كي يخرجن ويقتتين ما اقتناه كل المحيطين بتخت سليمان، سمع المسيح أقوالها وبدأ يمتدح في العروس الصفات التي تفرَّح قلبه وتأمَّلنا فيها لنعرف ما يفرحه فنقتدي بالعروس.

(٤ : ١) "ها أنتِ جَمِيلَةٌ يا حَبِيبَتِي، ها أنتِ جَمِيلَةٌ! عَيْنَاكِ حَمَامَتَانِ مِنْ تَحْتَ نَقَابِكَ. شَعْرُكِ كَقَطِيعٍ مَعْزٍ رَابِضٍ عَلَى جَبَلٍ جَلْعَادٍ".

ها أنتِ جميلة يا حبيبتي، ها أنتِ جميلة. جميلة لأنها احتملتِ الصليب فتأهلتِ بنعمته لكي تنالي الفضائل، وجميلة لأنها لم تتكبر ولم تطلب المجد لذاتها، بل حوَّلتَه إلى المسيح مصدر كل عطية، جميلة لأنها أرشدت الآخرين. وهكذا بدأ المسيح يتغنَّى بصفات النفس البشرية فامتدح سبعة أعضاء في جسدها: عينيها، شعرها، أسنانها، شفثيها، خدها، عنقها، ثدييها. ورقم سبعة رقم كمال، مما يعني كمال الجمال. ولكن لا يمكن أن ينطبق هذا الكلام على جمال الجسد، كما سنرى في معرض تأملنا إنما هو يقصد من ورائه جمالها الروحي.

فقال المسيح للنفس: ها أنتِ جميلة يا حبيبتي، ها أنتِ جميلة. فقالت له: ما الذي يعجبك فيَّ يا ربي؟ وما هو الجميل فيَّ؟ فقال لها: ما يعجبني فيكِ عيناك، "عيناكِ حَمَامَتَانِ مِنْ تَحْتَ نَقَابِكَ"، فشبَّه عينيها بالحمامتين، ولكن هل يُعَقَّلُ أن يقول حبيب لحبيبته: عيناكِ حَمَامَتَانِ! فليس لها معنى جسدي، إنما لها معنى روحي، لأنَّ العين تشير للاستتارة والفضيلة الحكمة والفضيلة الإفراز. فالمسيح يقول للنفس: إنَّ أجمل ما فيكِ هي الاستتارة التي هي تاج الفضائل وقد استتارت بالحمامتين أي بالروح القدس. وقد أجمع القديسون على أن أجمل فضيلة تتزين بها النفس هي الإفراز، أو التمييز، أو الحكمة.

ومرة سأل الأنبا أنطونيوس تلاميذه، قائلاً لهم: يا أولادي، ما هي أحسن فضيلة؟ فأجابه واحد منهم: الصوم. وقال آخر: الميطانيات. وآخر: الاتضاع. وآخر: التجرد... فقال لهم: كل هذه الفضائل حلوة لكن إن مورست بدون حكمة وإفراز فسوف تأتي بنتيجة عكسية. لذا فإن تاج الفضائل هو الحكمة أو الاستتارة.

فالمسيح يقول للنفس إن أجمل ما فيك هو عيناك المستبترتان بالروح القدس، وعيناك حمامتان تريان ما يعجز عن رؤيته سائر الناس، "أما الرُّوحِي فيحكم في كل شيء" (١كو ٢: ١٥). ويوحنا المعمدان عيناه حمامتان، لأن المسيح كان في وسط إسرائيل ولم يعرفه أحد سوى يوحنا، الذي قال لهم: "في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه" (يو ١: ٢٦)، فالجميع لم يعرفوه. وأيضاً بطرس عيناه حمامتان، وقد ظهر جمالهما حين اجتمع يسوع بالتلاميذ في قيصرية فيلبس وسألهم قائلاً: "من يقول الناس إنني أنا"، فأجابه: إن فئة من الناس تقول: أنك إيليا. وفئة أخرى تقول: واحد من الأنبياء. فقال لهم يسوع: وأنتم ماذا ترون؟ فقال له بطرس: "أنت هو المسيح ابن الله الحي" (مت ١٦: ١٦). فقال له يسوع: طوبى لك يا سمعان بن يونا، إن لحمًا ودمًا لم يعلننا لك ذلك، لكن روح الأب، فعيناك يا بطرس حمامتان بالروح القدس.

وأيضاً قد تشير العين إلى معنى آخر، فالمسيح يمتدح في هذه النفس العين التي ترى بواسطتها، ويقول لها: إن أجمل ما فيك نظرتك للأمور فلك نفس رؤيتي، فأنت ترين الأمور كما أراها أنا. وهذا ما دفعه لكي يمتدح ملاك كنيسة أفسس في سفر الرؤيا، وقال له: "أنت تُبغِضُ أعمالَ الثَّقُولَاوِيِّينَ التي أَبغِضُها أنا أيضاً" (رؤ ٢: ٦)، وكان الرب يسوع يقول إن كنت تقيم الأشياء كما أقيمها أنا، فإنني أمتدح عينيك.

وبالعودة للإنجيل ماذا قال عن العالم؟ فقد قال: "العالم كله قد وُضِعَ في الشرير" (١يو ٥: ١٩)، هذه هي نظرة المسيح للعالم. ولكن ما هي نظرتي أنا للعالم، وكيف أراه؟ فإن رأيتُه عالماً مبهرًا فهذا دليل أنني لا أمتلك عيني حمامة. فيوسف جاءت إليه امرأة سيده، تطلب منه أن يمارس معها الخطيئة، ومع أنه عبد ذليل ويعاني من العبودية، رفض طلبها. فالناس قد ترى في موقف يوسف هذا أنه قد أضاع فرصة العمر، فرصة

التمتّع والمجد، عوض الذل الذي فيه. ولكن ما هى نظرة يوسف لهذا الأمر؟ فالذي يراه سائر الناس لذّة، والذي يراه أهل العالم فرصة، يراه يوسف بنظرة مختلفة، فقال لها: "فكيف أصنّع هذا الشر العظيم وأخطئى إلى الله؟" (تك ٣٩: ٩) فماذا ترى يا يوسف؟ هو يرى شر، ولكن مَنْ من الناس يرى أن هذا الأمر شراً؟ ففي هذه الأيام أصبحت هذه الممارسات هى الشيء الطبيعي، التي تعبّر عن التقدّم والتمتّدن، والذي يعترض عليه يُعتبَر إنساناً يعيش في الكبت والحرمان، وسواهما من التصنيفات الذي نسمعها اليوم من أهل العالم، مما يشير إلى أنّ العيون قد أصيبت بالعمى. من هنا فكل واحد يرجع إلى نفسه ويسأل بصدق هل نظرته إلى الأمور هى نفس نظرة المسيح، فإن كان لك نفس نظرة المسيح فسوف يقول لك: عيناك حمامتان.

ثمّ انتقل المسيح إلى وصف شعرها شعرك كقطيع ماعز رابضة على جبل جلعاد. ولكن قبل الدخول في شرح المعنى الروحي لا بد من الإشارة إلى أنّه يستحيل أن يقول حبيب لحبيبتة: شعرك كقطيع ماعز، مما يحتم نفي المعنى الحرفي للكلام. أمّا جبل جلعاد فهو جبل في إسرائيل دائم الخضرة وقد امتاز بوفرة العشب. وترجمة عملية للمشهد فإنّ قطعان الماعز تتسلّق الجبل حتى تصل إلى قمته حيث تريض متراسة ومتلاصقة لكي ترعى، حتى يخيل للناظر إلى الجبل من بعيد وكأنّ الجبل ك رأس امرأة وتبدو قطعان الماعز كشعرها المتدلي على ظهرها. فما هو نوع الجمال الذي يريد المسيح أن يبرزه من وراء هذا التشبيه؟

أولاً: يذكرنا الشعر الطويل بشريعة النذير في العهد القديم، وقد ذكرها سفر العدد الإصحاح السادس، فعندما ينذر الرجل نفسه للهيكّل مدّة من الزمن قد تكون أسبوعاً أو شهراً أو سنة يطيل شعره إلى كمال الأيام التي انتذر فيها للرب وبعدها يحلق شعره ويعود إلى ممارسة حياته العاديّة. فالمسيح يمتدح شعرها الطويل لأنّه علامة على التكريس. وقديماً كان المكرّسون يطيلون شعور رؤوسهم، أمّا اليوم فقد استعاضوا عنها بإطالة لحاهم كعلامة على التكريس.

فالمسيح يعبر عن فرحته بالنفس كونها مكرسة له، ومفرزة ومخصصة له، هي التي تركت العالم وحياة العالم ومغرياته وعاشت للمسيح. ومفهوم التكريس هنا يشمل الجميع ولا يقتصر على الذين يدخلون الدير، أو أي صورة من صور التكريس، بل يطال أيضاً المتزوجين، فهم وإن كانوا متزوجين ولهم أولاد ويحيون في العالم لكنهم مكرسين للمسيح، هذا هو معنى الشعر الطويل.

أيضاً تلزم شريعة النذير المكرس التوقف عن شرب الخمر بالرغم من أن الوصية في القديم كانت تجيز للرجل العبراني شرب الخمر ولكن على شرط الا يسكر، فشرب الخمر ليس خطيئة، وهي غير محرمة، ولكن النذير كان يمتنع عن شرب الخمر في فترة انتدازه ومن أجل النذر. فماذا يريد أن يقول المسيح على ضوء كل ما تقدم؟ فهو يقول: أنا فرح بك يا نفس لأنك امتنعت عن ممارسة أمور ليست خطيئة، ومن حقا أن تفعلها ولكنك امتنعت عنها محبة في فقط. وهذا تصرف غال جداً ومقدر عند المسيح.

وأيضاً لبولس موقف مشابه قد ظهر عندما أثيرت مشكلة في الكنيسة الأولى بخصوص ما ذبح من أكل للأصنام، وتساءلوا هل يأكلون أم لا يأكلون؟ فقال لهم بولس: "فمن جهة أكل ما ذبح للأوثان: نعلم أن ليس وثن في العالم، وأن ليس إله آخر إلا واحداً" (١كو٨: ٤)، فإن أكلوا من لحم ما ذبح للأصنام أو لم يأكلوا فلا يوجد خطيئة. ولكن بولس حرص على ألا يعثر أكل اللحم بقية الإخوة، فقال: مع أنه من حقا أن تأكل ولكن تمتنع عن أكل اللحم لئلا تعثر أخيك. لدرجة أن بولس تساءل بينه وبين نفسه في نفس الرسالة، فقال: "لماذا يحكم في حرّيتي من ضمير آخر؟" (١كو١٠: ٢٩). فمع أن أكل اللحم يحل له وإن أكل فهو لا يقترب خطيئة ومع ذلك سوف يمتنع عن الأكل لأجل ألا يعثر أخاه. هذا هو معنى شريعة النذير الذي يمتنع عن شرب الخمر رغم أن الخمر بذاتها ليست محرمة.

وكتطبيق عملي لا أنكر أن هذا قد يفوق طاقة البعض، ولكن حتى لو كانت "كل الأشياء تحل لي" (١كو٦: ١٢)، فإن تصرفت بشكل معين قد يتعب أخي فالأفضل أن امتنع عن هذا التصرف. وعلى سبيل المثال، قد أرتدي لباساً معيناً أو أتصرف بطريقة

معينة، وأنا لا أضمر أي شر في قلبي واللّه يعلم بأن قلبي نقي وطاهر، هذا أمر طيب، ولكن لو كان ما أفعله سوف يعثر الناس فالأفضل ألا أفعله.

فبولس يعلمنا: ارخ شعرك وعش شريعة النذير وامتنع عن أكل اللحم رغم أنّه ليس خطيئة ولكن فقط من أجل أخيك، وقد ظهر حرصه الشديد هذا في قوله: "إن كان طعامٌ يعثرُ أخي فلنْ أَكُلْ لِحِمَاءٍ إِلَى الأبد، لئلا أُعْثِرَ أَخِي" (١كو ٨: ١٣). فالمسيح يمتدح فضيلة أخرى في النفس من خلال وصفه لشعر العروس.

ثانياً: الشَّعر هو علامة الخضوع، وقد قال مُعلِّمنا بولس الرسول: إن رأس المرأة هو الرجل، وعندما تطيل المرأة شعرها فهو علامة على خضوعها لرجلها، لأن جمال المرأة يكمن في شعرها، فكون المرأة تغطّي شعرها فهي تغطّي مجدها وتعلن خضوعها لرجلها. فعلى المرأة أن تغطّي شعرها في الكنيسة، والرجل لا يغطّي رأسه لأن رأس الرجل هو المسيح، ولكن الكاهن يغطّي رأسه لأن الكاهن يمثل الكنيسة، وتغطية رأسه يعلن خضوع الكنيسة كلها لشخص المسيح. إذا الشعر الطويل رمز وعلامة على الخضوع، والمسيح يمتدح في هذه النفس خضوعها. والجدير بالذكر أن جميع هذه الفضائل تتحلّى بها السيدة العذراء، لذا نعتبر أن شعر العذراء طويل جداً بالمفهوم الروحي، لا سيما وأنّها قد عبّرت عن خضوعها حين قالت للملاك: "هُوَذَا أَنَا أَمَةٌ الرب. لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ" (لوا: ٣٨).

يبقى أن نتكلّم عن نقطة أخيرة بما يخصّ الشعر، فالمسيح يقول للنفس: "شعرك كقطيع ماعزٍ"، وشعر الماعز لونه أسود. مما يعني لون شعرها أسمر علامة الشباب، بينما وكما هو معروف فالشعر الأبيض علامة الشيخوخة. فما يمدح المسيح فيه العروس إنها في شباب دائم، "يجدّد كالنسر شبابك" (مز ١٠٣: ٥)، فطاقة الإنسان الروحية ليست مرتبطة بعدد سنوات عمره، فقد ترى شاباً صغيراً لكنّه عجوز لا يتجدّد فيبقى كما هو ولو جئت إليه بعد عشرات السنين، فسوف تراه كما هو. في حين ترى إنساناً آخر متجدداً كل يوم، وكل يوم له اختبارات جديدة مع الرب، وكل يوم يتلقّى إعلانات جديدة من اللّه، وكل يوم تتكشف لعينيه أسرار جديدة في الكتاب المقدّس، ومهما تقدّم في

السن فالرب يقول له: شعرك كقطيع ماعزٍ رابض على جبل جلعاد، الذي يتَّسم بالخضرة الدائمة كرمز للكتاب المقدَّس الذي يجدد شبابك الروحي باللهج فيه نهاراً وليلاً.

ونختم مع كالب الذي تجسَّس على أرض كنعان وهو في عمر الأربعين أيام موسى النبي، وبعد مرور خمس وأربعين سنة، حين دخلوا وامتلكوا كنعان صار عمره خمس وثمانين سنة وحينها قال ليشوع: "فلم أزل اليوم متشددّاً كما في يوم أرسلني موسى" (يش ١٤: ١١)، وهو كما هو، بنشاطه وحماسه وقوّته، لم يشخ. فالمسيح ينظر إليه ويقول له: شعرك كقطيع معزٍ رابض على جبل جلعاد.

(٤ : ٢) "أَسْنَانُكَ كَقَطِيعِ الْجَزَائِرِ الصَّادِرَةِ مِنَ الْغَسْلِ، اللَّوَاتِي كُلُّ وَاحِدَةٍ مُتِيهٌ،
وَلَيْسَ فِيهِنَّ عَقِيمٌ".

فبعد أن وصف عينيها وشعرها بدأ يصف أسنانها، فقال لها: ها أنت جميلة يا حبيبتي وجمالك في أسنانك. ولكن ما هو المميّز في أسنانها؟ حتى قال لها: أسنانك كقطيع الجزائر الصادرة من الغسل. فما حكاية قطيع الجزائر؟ عندما يحل فصل الصيف وترتفع درجات الحرارة، يعتمد الراعي إلى جز صوف الغنم لكي لا يتأذى من الحر، فيمسك الراعي الخروف ويثبت بين رجليه ويبدأ يقص صوفه على شكل خطوط مستقيمة، ثم يغسله لكي يزيل عنه بقايا الشعر المقصوص. وحين ننظر إلى الخروف نلاحظ أنّ شعر الخروف عبارة عن صفوف متراصة وراء بعضها البعض، وتبدو وكأنّها صف أسنان منتظمة. فعندما يقول لها: "أسنانك كقطيع الجزائر الصادرة من الغسل"، يقصد بها خروفاً جَزَّ صوفه وغسل وخرج لتوّه من المياه. وهذا هو المعنى الحرفي للكلام. ولكن ماذا يقصد به المسيح؟ فالأسنان هي علامة النضج، وكما هو معروف فالطفل يولد بدون أسنان، لذلك يتناول أكلاً بسيطاً سهل المضغ كاللبن، كأطفال في المسيح "سَقَيْتُكُمْ لَبَنًا لَا طَعَامًا" (١كو ٣: ١-٢) فلا نستطيع أن نطعم الطفل قطعة من اللحم. ولكن عندما تنبت أسنانه يبدأ يأكل الطعام الدسم، من هنا أصبحت الأسنان رمزاً للنضوج. إذأ ما هو طعام أولاد الله؟ هل هو اللبن واللحم! بالطبع لا،

إنما "ليس بالخبز وحدَه يحيا الإنسان، بل بكل كلمةٍ تخرج من فم الله" (مت ٤ : ٤)، فأكل أولاد الله هو في كلمة الله.

وقول المسيح: "أسنانك كقطيع الجرائز الصادرة من الغسل"، تعني أن هذه النفس قد بلغت درجة من النضج أصبحت معها تمتلك أسناناً روحيةً وبدأت تدرك أسرار كلمة الله، فتجلس مع الإنجيل وتأكل. والقديس بولس الرسول يُوخِّع كنيسة العبرانيين قائلاً لهم: "كان ينبغي أن تكونوا مُعلِّمين لسبب طول الزَّمان" (عب ٥ : ١٢)، أي أنكم أناس مضى على ارتباطكم بالكنيسة سنوات طويلة، ومن المفروض أن تكونوا قد نضجتم، حتى أن بولس كان يريد أن يتكلَّم عن أمور كثيرة في الكنيسة ولكن عندما رأى أن حالتهم غير مناسبة اضطر أن يصمت والسبب كما قال لأهل كورنثوس: "سقيتكم لبناً لا طعاماً، لأنكم لم تكونوا بعد تستطيعون" (١كو ٣ : ٢).

وما قاله بولس يصح على أبناء كنيستنا اليوم، ففي مرات كثيرة في سماع عظات لتفسير الكتاب المقدَّس البعض يتذمَّرون ويقولون: وهل نحن في مدرسة؟ ما هذا الكلام الصعب! لماذا لا تبسطون الكلام! ألا يكفي كلمات بسيطة للتعزية وينتهي الأمر عند هذا الحد، ولكن الدراسة المتعمَّقة ومحاولة ربط الآيات ببعضها في سبيل شرح المعاني قد تشكِّل صعوبة وتقل على بعض النفوس.

أمَّا النفس التي تمتلك "أسناناً"، النفس الناضجة، فإنَّها تدخل وتغوص في كلمة الله، وترتبط القديم بالجديد، فينقوديموس رغم أنَّه كان شيخاً كبيراً لم يكن له "أسنان" لأنَّه عندما كلَّمه السيد المسيح عن الولادة من فوق، فغر فاه متعجباً من كلام السيد، وقال له: كيف يمكن للإنسان أن يولد وهو شيخ؟ فكيف يكون هذا؟ فهل سأدخل بطن أمي مجدداً؟ فقال له السيد المسيح: ماذا تقول يا نيقوديموس، لا علاقة لأمك ولا للبطن بكلامي، فأنت لست ناضجاً، "إِنْ كُنْتَ قُلْتَ لَكُمْ الْأَرْضِيَّاتِ وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ، فَكَيْفَ تُؤْمِنُونَ إِنْ قُلْتَ لَكُمْ السَّمَوِّيَّاتِ؟" (يو ٣ : ١٢)، فأنت يا نيقوديموس بحاجة إلى أن تثبت لك "أسنان" لكي تقدر أن تفهم أسرار كلمة الله. لذا فالمسيح يمتدح هذه النفس لأنَّها نفس ناضجة،

تتأمل في كلام الرب فتدرك العمق الذي فيه، "وُجِدَ كَلَامُكَ فَأَكَلْتُهُ" (إر ١٥: ١٦)، فتأكل في كلمة الله، وتربط القديم بالجديد، "قارنين الرُّوحِيَّاتِ بِالرُّوحِيَّاتِ" (كو ٢: ١٣). تصور منظر رجل قد بلغ الثلاثين من العمر تنظر في فمه فلا تجد أسناناً، مع أنّه "كان ينبغي بسبب طول الزمان" أن يكون عنده أسنان! وقد يسأل البعض: كيف نمتلكها؟ الجواب في بَقِيَّةِ الآيَةِ "أسنانك كقطيع الجرائز الصادرة من الغسل"، والغسيل هو غسيل واستحمام الميلاد الثاني الذي هو المعموديّة. والإنسان المسيحي عندما يولد في المعموديّة، يولد فيه إنسان روحاني، وهذا الإنسان يكون طفلاً حديث الولادة، ولكن عليه أن يعمل طوال حياته لكي يُنَضَّجَ الطفل الروحي. لأنّه من الممكن أن يبلغ الإنسان ستين سنة ولكن الإنسان الذي بداخله لا يزال طفلاً صغيراً، فبالتالي عندما تكلمه في الأمور الروحيّة يقول لك: لست أفهم شيئاً. مع إنه في مجالات أخرى يفهم ويلمّ بكل شيء، وإن كلمته في أي موضوع تجده محيطاً بكل تفاصيله، ولكن عندما تفتح معه الإنجيل يقول لك: لم أفهم!...، فتتساءل في حزن: كيف لا يفهم؟!

"أسنانك كقطيع الجرائز الصادرة من الغسل"، فعندما يُجَزَّ الغنم، فإنّ في جَزَّ الغنم فائدة للآخرين، لأنهم يصنعون من فراء الغنم الصوف. والنفس التي لها أسنان كقطيع الجرائز تصير سبب بركة للآخرين، على مثال السيدة العذراء التي من المؤكد أنّها تمتلك أسناناً كقطيع الجرائز، وقد ظهر هذا الأمر جلياً حين جاء إليها الملاك وقال لها: "هَآ أَنتِ سَتَحْبِلِينَ وتلدِينَ ابناً" (لو ١: ٣١)، فتبادر إلى ذهنها فوراً ما جاء في سفر إشعياء "هَآ الْعِذْرَاءُ تَحْبِلُ وتلدُ ابناً" (إش ٧: ١٤)، فالعذراء ناضجة وكمال النعمة فيها، كما قال لها الملاك: "سَلَامٌ لَكَ أَيَّتْهَا الْمَمْتَلِئَةُ نِعْمَةً" تحية فريدة ومميزة لم تُلقَ على أي إنسان آخر، لا في القديم ولا في الجديد.

لذلك عندما قال لها الملاك هذه الكلمات فهمت كلامه على الفور وقالت له: "هوذا أنا أمة الربّ. ليكن لي كقولك" (لو ١: ٣٨)، مما يؤكد نضج العذراء الروحي، فهي قادرة على فهم كلام الله حتى لو اقتصر على التلميح. وعندما قال لها الملاك: "وهوذا أليصاباتُ نسيبتُك هي أيضاً حبلى بابنٍ في شيخوختها، وهذا هو الشهر السادس

لَتِلْكَ المَدْعُوَّة عاقراً" فالمفهوم البسيط للكلام أن الملاك يقول لها أن أليصابات حامل. وهذا ما قد يفهمه أي إنسان. ولكن العذراء مريم بما لها من نضج روحي وبما لها من "أسنان" أدركت دعوتها للخدمة، لذلك ما إن رحل الملاك حتى قامت وذهبت بسرعة إلى الجبال إلى مدينة يهوذا ودخلت بيت زكريا وسلّمت على أليصابات ومكثت عندها نحو ثلاثة أشهر. فهي قد فهمت الغاية من كلام الملاك فهو لا يقول لها مجرد خبر ولا يحكي لها قصة بل ينقل إليها إرادة الرب، واللّه يريد أن يقول لها أن أليصابات بحاجة إلى خدمة لا سيما وأنها امرأة عجوز وحامل في الشهر السادس، وهذا ما فهمته العذراء على الفور، فهذا هو النضج وهذه هي "الأسنان" أن يفهم الإنسان رسالة اللّه له. فأحياناً كثيرة يكون صوت اللّه واضحاً، ومع ذلك يقول الإنسان: لا أفهم ماذا يريد الرب مني. أمّا الناضجون فيكفيمهم إشارة صغيرة أو تلميح بسيط حتى يفهموا الرسالة. والعذراء فهمت وذهبت إلى أليصابات وخدمتها نحو ثلاثة أشهر.

وأيضاً ما فعلته العذراء في عرس قانا الجليل كشف عن إنسانة لها خبرات روحية عميقة وأفادت منها الآخرين، فذهبت إلى الخدام بنصيحة فقالت لهم: "مهّمّا قال لكم فافعلوه" (يو: ٢: ٥)، فالإنسان الناضج روحياً يُفيد الآخرين ويرشدهم ويوجههم بكلمات بسيطة، وخبرة العذراء جعلتها تكفي بقول كلمات قليلة للخدام ولكن لها فعاليتها. فقالت لهم: اسمعوا كلامه. فسمعوا وأطاعوا.

"اللّوآتي كلّ واحدةٍ مُتَمِّمٌ، وليس فيهنّ عقيمٌ".

فالغنم تلد توائم، والمولود حين تنبت أسنانه فإنها تبدأ تنبت اثنين اثنين تباعاً، هذا ما يحصل عادة في الحالات الطبيعية. وهكذا مفترض في أولاد اللّه أن يكون كل واحد منهم متتماً وليس فيهم عقيم، أي كل واحد يأتي إلى الرب يحضر معه شخصين على الأقل، ولا يأتي بمفرده، وعلى سبيل المثال لو أنّ كل واحد من المؤمنين الذين يأتون إلى الكنيسة عادةً يحضر معه في اليوم التالي شخصين إلى الكنيسة ومن ثم نكرر ذات الأمر في اليوم الذي يليه وكل واحد يصطحب معه اثنين وهكذا دواليك، فتصوروا المشهد، "أمّا شعبك فليكن بالبركة ألوف ألوف وربوات ربوات"، وهذه الألوف لن تجتمع

بالصدفة، لكن عندما يكون كل مؤمن متماً ويصطحب معه اثنين، هكذا يجتمع شعب الله.

وهذا ما فعله القديس أندراوس، فلو تتبعنا حياته في الكتاب المقدس لاكتشفنا أنه كان متماً، فقد أخبرنا القديس يوحنا في بداية إنجيله: أن أندراوس أحضر معه بطرس "كان أندراوس أخو سمعان بطرس ... هذا وجد أولاً أخاه سمعان...، فجاء به إلى يسوع" (يو: ٤٠-٤٢). وفيما بعد جمع سمعان بدوره ثلاثة آلاف في يوم الخمسين. وكذلك ذكر لنا القديس يوحنا في إنجيله الفصل السادس أن أندراوس أحضر شخصاً آخر بمفرده إلى يسوع، في أعجوبة إشباع الجمع، بعد أن سألهم الرب يسوع: "من أين تبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء؟ ... فقال أندراوس: "هنا غلام مع خمسة أرغفة شعير وسمكتان" (يو: ٦: ٥-٩)، وكأن عمل أندراوس أن يحضر الناس إلى المسيح فأتى بالطفل الذي سوف يكون سبب بركة لخمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأولاد.

وكذلك القديس برنابا خال أبينا مارمرقس، كان متماً، ولكن من أحضر؟ لقد جاء في سفر الأعمال: "ثم خرج برنابا إلى طرسوس ليطلب شاول" (أع: ١١: ٢٥)، فأحضر شاول، الذي كان قد استقر في طرسوس بعد أن هاجوا عليه في دمشق فذهب إلى اورشليم، فهاجوا عليه أيضاً فالتجأ إلى طرسوس، مفضلاً المكوث في بيته، بعد أن اعترضته المشاكل والضيقات في كل الأمكنة التي ذهب إليها، فاكتفى بالنعمة التي حصل عليها وانعزل في بيته، شاكراً الله بأنه قد قبل الإيمان بالمسيح. إلى أن جاء إليه برنابا، ولولا برنابا لم نكن لنسمع عن شاول. لكن برنابا ذهب ليقدم في أنطاكية فخرج إلى طرسوس ليطلب شاول الذي هو بولس الذي كان سبب بركات لا تحصى في الكنيسة. وبرنابا هو صاحب الفضل في كل هذا. لذا فكل واحد منا مدعو لكي يحضر على الأقل شخصاً واحداً إلى الكنيسة، فمن يدري؟ لعله يكون سبب بركة للكنيسة فيما بعد.

ولكن ماذا نقول عن السيدة العذراء، هل هي متمة؟ بالتأكيد وأكثر مما نتوقع، فيكفي أنها بعد حادثة المقطم ونقل الجبل الذي تم بشفاعتها قد حافظت على حياة الأقباط في مصر، فوجود الأقباط من أيام المعز والدولة الفاطمية إلى هذا اليوم

في مصر هو ثمره شفاعة العذراء مريم، وكل هؤلاء ينظرون إلى العذراء ويقولون لها: لو لم تنقلي لنا الجبل لقضي علينا ذبحاً. فهي متئمة إلى حد يمكنها ترديد كلمات الإنجيل وبفرح عظيم: "ها أنا والأولاد الذين أعطانيهم الله" (عب ٢: ١٣). فهذه هي النفس التي تفرح المسيح، لذا فهو يمتدح النفس المتئمة لشدة إعجابه بما تفعله، ومن يريد أن يفرح قلب المسيح، فليجتهد لكي يكون إنساناً متئماً.

إنما لا ننسى أن الإنسان بحاجة للغسل باستمرار، وإلا نخر السوس أسنانه، والغسل يتم بالماء أي الكلمة، فالمؤمن يقرأ ويدرس في الإنجيل ولكن حذار من الاكتفاء والاجترار في القديم مما تعلمه، لأنه بحاجة مستمرة إلى أن يغسل، وكما قال السيد المسيح: "أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلمتكم به" (يو ١٥: ٣)، فكلمة الإنجيل تغسل وتنقي الإنسان، لذلك فهو بحاجة ملحة لغسل أسنانه باستمرار في كلمة الله، واللهج في ناموسه نهاراً وليلاً، وكلما يلهج الإنسان كلما يكتشف أعماقاً جديدة. وأحياناً نقرر دراسة سفر سيق لنا ودرسناه، ونسأله ماذا يمكن أن يقال بعد! سوى أننا سوف نكرر نفس الكلام ونفس الأفكار، ولكن نفاجأ بأعماق جديدة وبمعاني جديدة، "كُلُّ كمال رأيتُ حدّاً، أمّا وصيّتك فواسعة جداً" (مز ١١٩: ٩٦)، ليس لها نهاية، فكلمنا نقرأ في الإنجيل كلما نكتشف أبعاداً جديدة في كلمة الله.

"أسنانك كقطيع الجرائز الصادرة من الغسل، اللواتي كُل واحدةٍ متنيمة، وليس فيهنَّ عقيمٌ".

أيضاً هناك معنى آخر للأسنان لا يمكننا أن نتجاهله، فمعلمنا بولس الرسول في رسالته إلى غلاطية عاتب أهل كنيسة غلاطية وقال لهم: أنتم عندكم أسنان ولكن ماذا تفعلون بها سوى أنكم تهشون بعضكم بعضاً، فتمضون الوقت في أكل بعضكم البعض. فتساءلوا كيف ذلك؟ فقال لهم: في الإدانة، فالإدانة ما هي إلا إنسان يأكل في لحم أخيه، فأسناننا ليست من أجل أن نأكل في إخواننا، بل من أجل أن نأكل في كلمة الله.

ويحكى عن أحد الآباء أنه قال لأحدهم: "كيف تقول أنك صائم وتأكل لحماً!" فرد عليه: "كيف آكل لحماً! فإنني حتى لا أشتم رائحتها!"، فقال الأب: "فيما أنت تدين أخاك فأنت تأكل لحم أخيك". فأصبحت الأسنان لكي نهش فيها بعضنا البعض. لذلك قال بولس: "إِذَا كُنْتُمْ تَنْهَشُونَ وَتَأْكُلُونَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، فَانظُرُوا لئَلَّا تُفْنُوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا" (غل ٥: ١٥)، فبولس خائف عليهم من الإدانة.

وأيضاً في معرض حديثنا يحلو لنا أن نتكلم عن رجل مثل يوسف العفيف، فعندما كان في السجن فسّر الحلم لرئيس السقاة وطمأنه بأنه سوف ينجو، ثم قال له: اذكرني أمام فرعون، "لأنني قد سُرقتُ من أرضِ العبرانيين، وهنا أيضاً لم أفعل شيئاً حتّى وضعوني في السّجن" (تك ٤٠: ١٥)، مع أنّه كان بإمكانه أن يخبره عن إخوته وعما فعلوه به، وافتراء امرأة السيد وإن تكلم فهو صادق ويقول الحق، لكنّه فضّل مسامحتهم وتركهم لمشية الله، لأنّه لا يريد أن ينهش في الآخرين، واكتفى بالقول أنّه قد سُرِق من أرض العبرانيين. وحتى وجوده في السجن يوحى بأنّه قد اقترب جرمًا ما، ومع ذلك أبى أن يخبر ما صنعت به امرأة فوطيفار ولم يتكلم عنها بالسوء، إنّما قال: لم أفعل شيئاً حتّى وضعوني في السجن. فلم ينهش في لحم إخوته، ولم ينهش في لحم زوجة فوطيفار. من هنا كل واحد منا يسأل نفسه فيما أستعمل أسناني؟ هل آكل فيها في كلمة الله، أو آكل بها في لحم أخي وأشوّه سمعته.

(٤ : ٣) "شَفَتَاكَ كَسَلَكَةٍ مِنَ الْقِرْمَزِ، وَفَمُكَ حُلُوٌّ. خَدُكَ كَفَلَقَةٍ رُمَانَةٍ تَحْتَ نَقَابِكَ"

ثمّ ينتقل السيد المسيح إلى وصف شفثيها، فيقول لها: "شفثاك كسلكة من القرمز"، ولون القرمز هو اللون الأحمر، فتبدو شفثاها كخطين من لون الحمر. وأيضاً يقول لها: "فمك حلو". واللافت في كلام المسيح، هذا الترابط بين الآية السابقة وهذه الآية، فالأسنان تكلمنا عما يدخل إلى داخل الإنسان لكن الشفثين تكلمنا عما يخرج من باطن الإنسان، والاثنتان مرتبطتان ببعضهما ارتباطاً وثيقاً، لأنّ الذي يدخل هو الذي يخرج، لذلك قال الكتاب: "من فضلة القلب يتكلم الفم" (مت ١٢: ٣٤)، فما هو في الداخل يظهر في الخارج، فما نأكل منه طوال اليوم هو ما يخرج من أفواهنا.

الشعب اليهودي عندما كان في البرية أعطاهم الرب المَن ليأكلوا ولكنهم تدمروا ورفضوه وطالبوا أطعمة أرض مصر كالبصل، رغم أنه يجعل رائحة أفواههم كريهة. المفهوم الروحي لذلك هو أن مصر تشير إلى العالم. فطوال الوقت يأكل الإنسان من أكل العالم فتغدو رائحة فمه كريهة، وحتى الفم يفقد جماله. وهذا يعني أنَّ الأمر الذي ينشغل به الإنسان ويسيطر على تفكيره والذي يمضي وقته فيه، هو نفس الأمر الذي يتكلَّم فيه لكن الإنسان الذي يمضي نهاره يأكل في كلمة الله، عندما يقابل أخاه سوف يكلمه عن كلمة الله، لذلك ربط المسيح الأسنان بالشفاه.

وشفتا هذه العروس قد نالت إعجاب المسيح، فما الذي أعجبه في شفتيها حتى قال لها شفتاك كسلكة من القرمز فهي بالتأكيد لا تضع أحمر الشفاه حتى تبرز جمالها لأنَّ "الحُسْنُ غِشٌّ والجَمَالُ باطل" (أم ٣١ : ٣٠)، لكن القرمز هو لون الدَم، فهو يقول لها على شفتيك آثار الدم، مما يعني أنه يثني على النفس التي تتناول باستمرار من جسد الرب ودمه. وإن كانت الأسنان كلَّمتنا عن كلمة الله المنطوقة، فالشفتان كلَّمنا عن كلمة الله بشكلها (الافخارستي) وكما قال العلامة أوريجانوس: "نحن نأكل الكلمة في شكلين: شكل اللوغوس، الكلمة المكتوبة - السيّد المسيح. وأيضاً بشكل افخارستي، جسد الرب ودمه على المذبح. فالمسيح يقول للنفس: سر فرحي بك أنك تتأملين في الإنجيل وأيضاً لأنَّ شفتيك ملونتان بدم الحَمَل"، فبالنَّسبة حديث النفس باستمرار عن القرمز أي دم المسيح.

والقرمز يحملنا على الكلام عن صورة بهيَّة من الكتاب المقدَّس هي راحاب، وعن الأمور التي فعلتها هذه المرأة النقيَّة، وذلك عندما خبأت الرجلين اللذين آتيا ليتجسسا الأرض لأنَّها آمنت بإلههما القادر على كل شيء. وقالت لهما: أعطاني علامة أمانة، لأنني قد عملت معكما معروفاً، بأن تعملأ أنتما أيضاً معي معروفاً (يش ٢ : ١٢)، وطلبت منهما أن يستحيوها هي وأهل بيتها. فوافقا على طلبها وقالا لها: اربطي حبلأ قرمزيأ في الكوة، وادعِ أهلكِ إلى بيتك، وجميع من في داخل البيت سوف نستحييه.

ولو حاولنا أن نحسب المدة التي تفصل ما بين إخفاء الرجلين وسقوط أريحا نقدرها كالآتي، أولاً قالت راحاب لهما: اذهبا إلى الجبل واختبئأ هناك ثلاثة أيام،

يضاف إليها مسيرة يوم على الأقل لكي يصلا إلى يشوع لأنهما عبرا الأردن، ويشوع احتاج إلى أربعة أو خمسة أيام لكي يعد الجيش، وبعدها رجعا مسيرة يوم ثم جاءوا إلى أريحا وداروا حول أريحا سبعة أيام. فإن احتسبنا المدة فهي حوالي الشهر. مما يعني أن راحاب طوال هذه المدة كانت تجول على أقبائها وتبشرهم بالحبس القرمزي في الكوة ومن يأتي لبيتي ليحتمي فيه سوف ينجو من الغضب الآتي. أيام طوال ليس لها حديث سوى عن الحبس القرمزي الذي هو طريق النجاة لأنه حقاً لا سبيل للخلاص إلا بالاحتماء بصليب المسيح. فالمسيح ينظر إلى راحاب ويقول لها: شفتاك كسلوك من القرمز.

حَدِّكَ كَفَلَقَةٍ رُمَانَةٍ تَحْتَ نَقَابِكَ: فبعد أن وصف السيد المسيح عينيها وشعرها وأسنانها وشفتيها ها هو ينتقل إلى وصف خدّها، ويقول لها: "حَدِّكَ كَفَلَقَةٍ رُمَانَةٍ تَحْتَ نَقَابِكَ"، فعندما نشق الرمانة إلى فلتتين يظهر في داخلها حبيبات حمراء مرصوصة مغلفة بخطوط بيضاء، مما يعني أن لون خديها أحمر كحمرة الرمانة، فماذا يقصد المسيح بهذا التشبيه؟ معروف عند خجل الفتاة لسبب ما، تلعو الحمرة وجنتيها بسبب حيائها، فالحياء أو الخجل هو ما يميّز هذه النفس، فماذا يعني الحياء؟

في أحيان كثيرة ترى البعض من الناس يقترب الخطيئة دون حياء، وإن نبهته إلى أن ما يفعله خطأ أو خطيئة، يقول لك باستخفاف: "هكذا يفعل كل الناس، دلني على إنسان لا يفعل ما أنا فاعله". وقوله هذا هو في منتهى عدم اللياقة. ولكنك ترى إنساناً آخر يخطئ وفي نفس الوقت يشعر بالخجل. وأكثر ما يثير العجب في هذه الأيام كقول الكتاب: "مجدُّهم في خزيهم" (في ٣: ١٩)، فأصبح الإنسان يفتخر بمخازيه، ويتباهى في أمور ويصرح عنها للعلن مع أن ما يفعله أمر يدعو للخجل، فلم يعد عنده أدنى إحساس بالحياء. ولا أقصد بكلامي هذا، القول أن أولاد الله معصومون من الخطيئة ولكن عندما يخطئ أحدهم يخجل مما فعله وينتابه إحساس بالندم ويدخل الكنيسة في انكسار قارعا صدره.

فالإنسان المتكبر يفتقد للحياء فينسى نفسه ويغضض عينيّه عن خطاياّه وسقطاته وعن كل ما يفعله، ولكن لماذا يستكبر؟ فلولا أن الرب يستر على الإنسان لتعذّر عليه

أن يرفع رأسه ويمشي بين الناس بل كان ينزوي في بيته هرباً من نظرات الناس لأنَّ لا قدرة عنده على احتمالها، ولو أن خطاياها كُشِفَتْ أمام الناس لبدأ "يقول للجبال اسقطي علينا! وللاكام غطيّنا" (لو ٢٣: ٣٠)، ولكن للأسف بسبب ستر الله ينسى نفسه ويتصرّف كأنَّ شيئاً لم يكن متغاضياً عن أفعاله وخطاياها. ولكن الإنسان المتضع يتصرّف بحياء وخجل لأنَّه مُدرك أنَّ خطاياها مستورة أمام الناس ولكن عيني الرب تخترق أستار الظلام ويعرف جلوسه وقيامه وكل طريقه، فكيف يرتفع ويتعالى أمامه بل على العكس يتضع ويشكره ويحمده لأنَّه يستر عليه. فالمسيح ينظر إلى هذه النفس ويقول لها: خذك كفلقة رمانة تحت نقابك.

السيدة العذراء خذها كفلقة رمانة؟ فحين جاء إليها الملاك وقال لها كلمات لم يسمعها أحد من قبل لم تُقلْ لأحد سواها، فقال: "سلام لك أيتها الممتلئة نعمة"، وهذه الكلمات هي الترجمة الدقيقة لكلام الملاك كما جاءت في اليوناني والقبطي وليس كما جاء في الترجمة البيروتية: "المُنْعَم عليها". وبالعودة إلى موقف العذراء، فهل اضطربت عندما رأت الملاك؟ لا، بعكس ما حدث مع زكريا، "فلَمَّا رآه زكريّا اضطربَ ووقع عليه خَوْفٌ" (لو ١: ١٢). إنما العذراء عندما رأتها اضطربت من كلامه (لو ١: ٢٩)، وهل كلامه يُخيف! فهو يقول لها أنتِ ممتلئة نعمة؟ لا، لكنَّ اضطرابها ما هو إلا تعبير عن خجلها، كما يحصل عادةً عندما تمدح فتاة تتحلى بحياء العذاري فتخجل من الكلام ويتورّد خذاها، فما بال العذراء التي تُمدّح ليس من إنسان بل من غبريال رئيس الملائكة، فليس بالكثير أن تضطرب حياءً. فردود أفعال الناس على المديح مختلفة، فقد ترى إنساناً يخجل من المديح ويحوّل المجد إلى الله ثمَّ يغيّر مجرى الحديث، وترى إنساناً آخر يريد ويسعى لكي يتكلّم الناس عنه.

وهناك أيضاً ترابط ما بين الشفتين، "شفتاكِ كسلكة من القرمز" وبين الخدين "خذك كفلقة رمانة"، فالمسيح تكلم عن الشفتين وبعدها مباشرة تكلم عن الخد، مما يعني لكي يقول المسيح للنفس شفتاكِ كسلكة من القرمز، وفمك حلو يفترض أن يكون خذها كفلقة رمانة.

وهذا الترابط يحملنا على الكلام عن الرمز في العهد القديم، عن ثياب هارون رئيس الكهنة، حيث أمره الرب أن يضع جلاجل أي أجراس صغيرة على أذيال الجبة وبين الجلاجل والآخر يضع رمانة، (خر ٢٨: ٣٤)، حتى مع كل حركة تتحرك الجلاجل وتصدر أصواتاً، والجلاجل مصنوعة من ذهب، والذهب يشير إلى الحياة السماوية التي نفتقها بسماع كلمة الله، وكأن الرب يقول لهارون: أينما ذهبت تعلن كلمة الله هذا هو عملك، وحين تتكلم بكلمة الله تستحق أن أقول لك: شفتاك كسلكة قرمز وفمك حلو، أي كلامك حلو، لكن لكي يثمر كلامك ويأتي بنتيجة يفترض أن يوجد إلى جانب الجلاجل ثمرة الرمان، أي أن يكون خدك كفلقة الرمانة، وهذا يعني أن الكلام الذي نقوله تحيا به ويظهر كثمر في حياتك، فيصير علامة على اقتنائك الحياة السماوية، ولكن إذا اقتصر الأمر على أجراس تحدث صوتاً حينئذٍ تنطبق علينا كلمة بولس الرسول: "فقد صيرت نحاساً يطن أو صنجاً يرن" (١كو ١٣: ١).

فعندما يتكلم المؤمن بكلمة المسيح يجب أن تظهر مفاعيل الكلمة في حياته، وإن تعدر عليه إظهارها كما يجب فعلى الأقل يجعلها موضوع صلاته، ويقول للرب: "يا ربي اجعلني أعيش ما أقوله"، ويسعى ويجتهد لكي يعيش بها. فقبل أن يذهب لكي يكلم إخوته عن المحبة، يصلي ويطلب إلى الرب أن يضع المحبة في قلبه، وقبل أن يذهب لكي يكلمهم عن الفرح، يصلي ويطلب إلى الرب أن يملأ قلبه بالفرح، فتصور إنساناً مقطب الجبين ومتجهماً الوجه يجول بين الناس يدعوهم إلى فرح المسيح! فكيف يلبون دعوته! فسوف يقولون له: "إذا كان مسيحك يُفرح فمن باب أولى أن تشع أنت بالفرح أولاً، لكي نرى الفرح فيك". فإذا لم يروا خدّه كفلقة رمانة، فلن يؤثر فيهم، حتى لو أمضى الساعات والأيام يكلمهم عن فرح المسيح.

(٤: ٤) "عُنُقُكَ كَبَرْجِ دَاوُدَ الْمُبْنِيِّ لِلْأَسْلِحَةِ. أَلِفَ مَجَنٍّ عُلِقَ عَلَيْهِ، كُلُّهَا أَتْرَاسُ

الْجَبَابِرَةِ".

وما يفرح المسيح أيضاً في عروسه أو في كنيسة أو في النفس البشرية؟ هو العنق. لذا يبدأ المسيح يصفه ويمتدحه أيضاً، فيقول لها: عنقك كبرج داود. وكما أسلفنا

القول في أكثر من موضع لآيات مشابهة، فإنه يستحيل أن يقول حبيب لحبيته عنقك كبرج داود، أو أن يقول إنسان اليوم لحبيته على سبيل المثال: عنقك كحصن بابلون في مصر. فهذا كلام أبعد ما يكون عن الرقة واللفظ في منطق الحب لذلك فالمعنى الحرفي للكلام غير مقصود. إذاً ما هو المعنى الذي يقصده المسيح من هذا التشبيه؟ أولاً، المعنى البسيط هو أن الرقبة منتصبه والرأس مرفوع، عنقك كبرج داود، أي عنقك جعل رأسك مرفوعاً.

وهذا يعني أن المسيح يفرح جداً بالنفس التي ترفع رأسها ولا تنهزم تحت الخطيئة. وقد يعترض البعض ويقول: هذا أمر يفوق طاقتنا، لأن المسيح قال: "مَنْ مِنْكُمْ بِلَا خَطِيئَةٍ"، لكن الأمر ليس مطروحاً من هذه الزاوية، إنما السؤال: "هل رأسك مرفوع أو منكسر؟ بمعنى إنه "لا أحد منا بلا خطيئة، لأنه "إِنْ قُلْنَا: إِنَّا لَمْ نُخْطِئْ نَجْعَلُهُ كَاذِباً، وَكَلِمَتُهُ لَيْسَتْ فِينَا" (١ يوا: ١٠)، لكن السؤال: هل أنت مغلوب من خطيئة؟ أو بمعنى آخر، هل استسلمت لعمل الشيطان في ناحية معينة وتركت يدوس عليك؟ فإن كان الجواب نعم، فهذه هي الرقبة المنكسرة والرأس المنكسرة، لأنها رقبة قد وضع الشيطان عليها نير. لذا فالمفروض بأولاد الله أن يحاولوا باستمرار ألا يخطئوا ولا يدعوا الخطيئة تتملك فيهم حتى لا يصيروا عبيداً للخطيئة أو يرزحوا تحت نير الخطيئة. لكننا لا ننكر أننا معرضون فيما نحن سائرون في الطريق الروحي أن نزل أقدامنا، ولكن ما إن يقع أحدهم حتى يقوم ويرفع رأسه من جديد ويتابع المسيرة، "لا تَشْمَتِي بِي يَا عِدَوْتِي، إِذَا سَقَطْتُ أَقُومُ" (مي: ٧: ٨).

وأقرب صورة تساعدنا على فهم هذا الوضع هي حالة الرجل المُقْعَد عند باب الجميل، (أع ٣: ١ - ١٠)، فهذا الرجل قد أمضى حياته مُقْعِداً ولم يسبق له أن وقف على رجليه أو مشى بتاتاً، فهو رجل كسره الشيطان فلا يقدر أن يرفع رأسه. ولكن بعد أن عملت نعمة المسيح فيه من خلال القديسين بطرس ويوحنا، وثَبَّ ووقف وصَارَ يَمْشِي، ودَخَلَ مَعَهُمَا إِلَى الْهَيْكَلِ وَهُوَ يَمْشِي وَيَطْفُرُ وَيُسَبِّحُ اللَّهَ. وهنا يأتي سؤال: بعد أن بدأ يمشي، هل هو معرض أن يقع ثانية؟ نعم، بالتأكيد. ولكن بعد هذا اليوم حتى

إن وقع فسوف يقوم من جديد، فقبل أن تلمسه النعمة كان مقعد دائماً، وهذا هو الفرق. فأولاد الله ليسوا بلا خطيئة لكنهم ليسوا مذلولين تحت نير خطايا، وحتى ولو سقطوا، فالبار يسقط سبع مرات ويقوم لكن الإنسان الذي يسقط ويلتصق بالأرض فهذا يعني أن الشيطان قد كسره وأذله.

وأيضاً يذكرنا العنق بالخضوع، فعندما عاتب الرب شعب إسرائيل، قال عنه أنه شعب صُلِبَ الرِّقْبَةِ (خر ٣٣: ٥)، لأنه رفض أن يحني رقبته للوصية ولا يريد أن يحمل النير. أما هذه النفس فجمال عنقها يكمن في تسليمها لمشئة الله، لذلك شبهها ببرج داود، وقد قال الرب عن داود: "عَبْدِي دَاوُدَ الَّذِي حَفِظَ وَصَايَايَ وَالَّذِي سَارَ وَرَائِي بِكُلِّ قَلْبِهِ لِيَفْعَلَ مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ فَقَطْ فِي عَيْنِي" (١ مل ١٤: ٨)، فهو يفعل كل مشيئة الرب، والمسيح يقول للنفس: إنَّ سر جمال عنقك يظهر عندما تتصاعي لإرادتي، وعندما أطلب منك أن تحملي النير، تحمليه دون تذمُّر، "احْمِلُوا نِيرِي عَلَيْكُمْ ... لِأَنَّ نِيرِي هَيْنٌ وَحِمْلِي خَفِيفٌ" (مت ١١: ٢٩ - ٣٠).

والنفس التي تخضع لله تصير كأنها مسلحة بألف مجن، لأنها تستمد قوتها من خضوعها لله، وكلما تخضع للرب كلما يصنع بها المسيح عظام، على مثال أمنا العذراء التي عاشت طيلة حياتها في خضوع كلي للرب، فحين كانت لا تزال صغيرة شاء الله أن يتيتح والداها وتعيش يتيمة بلا أب وبلا أم، فقالت: هُوَذَا أَنَا أُمَةُ الرَّبِّ. ثُمَّ نمت في داخلها اشتياقات للبتولية فنذرت نفسها للهيكَل، ولكن إرادة الله رسمت لها طريقاً مغايراً، فأخرجت من الهيكل لكي تتزوج، فقالت: هُوَذَا أَنَا أُمَةُ الرَّبِّ. فرتب لها الرب شيخاً ليصير خطيباً لها. ثُمَّ قَالَ لَهَا: سوف تلدين الله الكلمة المتجسد، ورغم أنها رأت في عيني يوسف نظرات الشك أحنت رأسها وقالت: هُوَذَا أَنَا أُمَةُ الرَّبِّ. فما يريد الرب أن يفعله فليفعله. ثُمَّ كَانَتْ إِرَادَةُ الرَّبِّ أَنْ تَلِدَ فِي مَذود، ثُمَّ تَهْرَبَ إِلَى مِصْرَ، وَهَنَّاكَ كَانَتْ تَحْمِلُ الطِّفْلَ يَسُوعَ وَتَنْتَقِلُ بِهِ مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى أُخْرَى هَرَباً مِنْ هِيرُودُسَ الشَّرِيرِ، وَعِنْدَمَا بَدَأَ السَّيِّدُ الْمَسِيحُ خِدْمَتَهُ رَاحَتْ تَتَّبِعُهُ مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ، وَفِي النِّهَايَةِ رَأَتْهُ مَعْلَقاً عَلَى الصَّلِيبِ، فَقَالَتْ تَحْتَ خَشْبَةِ الصَّلِيبِ "إِنَّ الْعَالَمَ يَفْرَحُ لِقَبُولِهِ الْخَلَاصَ أَمَّا أَحْشَائِي فَتَلْتَهَبُ عِنْدَ نَظَرِي إِلَى صَلِيبُوتِكَ" (الأجبية)، مع ذلك أحنت رأسها وقالت:

هُوَذَا أَنَا أَمَةُ الرَّبِّ، لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ، أَيِ افْعَلْ بِي مَا تَرِيدُ. والعجيب مع كل هذا تعلن أمام أليصابات فقالت: "لأنَّ الْقَدِيرَ صَنَعَ بِي عَظَائِمَ" (يو: ١٠: ٤٩). فالعذراء لم ترفض للرب أي أمر، فكل ما يقوله تتفذه. والمسيح ينظر إليها ويقول لها: عنقك كبرج داود المبني للأسلحة ألف مجن، فأنتِ محصنة وقوتك ليست في ذاتك، بل قوتك في خضوعك لي.

ولكنَّ العنق ليس فقط هامة مرفوعة، غير منكسرة تحت نير الخطيئة، وليس فقط خضوع لله، بل هو أيضاً علامة الثبات. فالرب يفرح بالإنسان الروحي الثابت، فالبعض يبدأ يمشي في طريق الرب وما أن تشتد عليه الريح حتى ينحرف، وبولس يقول: هناك الكثيرون من الذين بدأوا يسلكون في الطريق الروحي "وكنت أذكُرهم لكم مراراً، والآن أذكُرهم أيضاً باكياً، وهم أعداء صليب المسيح" (في ٣: ١٨)، ولكن لماذا يا بولس؟ فيقول: "لأنهم أناس بدأوا يسيرون في الطريق الروحي وحين اشتدت عليهم التيارات انكسروا". فهل هؤلاء أعناقهم كبرج داود؟ لا، أبداً. لكن أولاد الله ثابتين، لأنهم على ثقة، أنه لا يدعمهم يجربون فوق ما يحتملون.

ولنا مثال على هذا الثبات في شخص يوسف العفيف عندما جاءت إليه امرأة سيده، ويقول الكتاب: "إذ كَلَّمْتُ يَوْسُفَ يَوْمًا فَيَوْمًا" (تك ٣٩: ١٠)، بينما الاعتقاد السائد، أنَّها طلبت إلى يوسف مرةً واحدة أن يضع بجانبها ليكون معها، ويوسف رفض طلبها وانتهى الأمر عند هذا الحد، لكنَّ الواقع أنَّها كانت تلح على يوسف كل يوم، ويوسف ليس على لسانه سوى كلمة واحدة يقولها لها: "لا". إلى أن أتت إليه في يوم بعد أن هيات كل الظروف، وقالت له: "لا يوجد أحد في البيت سواي". وفي هذا اليوم بالذات هرب يوسف من البيت وخرج مسرعاً. مع أنَّه كان بمقدوره أن يقول: "ليس في اليد حيلة، فأنا رفضت مرات كثيرة وقاومت مرات كثيرة، وفي النهاية تعبت ولم يعد لي قدرة على الاحتمال، فمنذ أن بدأت أخطو في طريق الرب والتجارب تطاردني وتحاصرني من كل ناحية". لكنَّ يوسف لم يفكر بكلمة واحدة من كل هذه، إنما كان عنقه كبرج داود.

والمسيح يدعو النفس أن تثبت ويبقى عنقها منتصباً كبرج داود، فكل ما يحدث هو بسماح مني، فلا تخافي بل اخضعي لي وأنا أمدك بالقوة على الثبات.

وإذا كان يوسف مثلاً للثبات أمام الإلحاح، ففي الكتاب المقدس أيضاً مثال للانكسار أمام الإلحاح وهو شمشون، ويقول الكتاب أن دليلاً "كانت تضايقه بكلامها كل يوم وألحّت عليه" (قض ١٦: ١٦)، فالمرأتان قد اعتمدتا الأسلوب نفسه، ولكنّ المفارقة العجيبة أن شمشون الجبار انكسر ويوسف العبد الذليل ثبت! فكيف نفسر هذا الأمر سوى أن عنق يوسف ثابت ومنتصب كبرج داود. ونحن في مرات كثيرة نرفض الخطيئة ولكننا نعود وننكسر أمام الإلحاح. فصلّ إلى الرب وقل له: "أليس العنق الذي يعجبك هو العنق الذي كبرج داود؟ تثبت عنقي كبرج داود"، وحينئذ تقول مع داود النبي: "إن قام عليّ قتال" لن أترجع. وتقول كقول أثناسيوس: "حتى وإن كان العالم ضدي، فأنا ضد العالم"، لن أنكسر. فكل ما يحدث هو بسماح من الله فلا تخف فهو سوف يعطيك القوة للثبات.

وبالعودة إلى الثنائيات التي في الوصف السباعي الجميل نلاحظ أيضاً ارتباط الخد بالعنق. فالخد يكلمنا عن الحياء، والعنق يكلمنا عن الإصرار والثبات، والإنسان بحاجة إلى كليهما. ففي مواقف معينة هو بحاجة إلى الحياء، وفي مواقف أخرى هو بحاجة إلى الثبات. فعلى سبيل المثال ما حدث مع أليشع النبي، فيعد أن عبر الأردن مع إيليا، وفيما هما يسيران ويتكلمان وإذا بمركبة من نار تحمل إيليا على متنها وتصعد به إلى السماء، فرجع أليشع وجاء إليه بنو الأنبياء وقالوا له: دعنا نذهب ونفتش عن معلمنا إيليا. فأخبرهم أن إيليا قد صعد إلى السماء. فقالوا له: لعل روح الرب حمّله وطرحه على أحد الجبال أو في أحد الأودية، فدعنا نذهب فقد نجد جثمانه. فقال لهم أليشع: لا، لا تذهبوا. ويقول الكتاب: "فألحّو عليه حتى خجل" (مل ٢: ١٧)، فأمام إصرارهم إنصاع لمطلبهم وقال لهم: "اذهبوا". فذهبوا وفتشوا ثلاثة أيام ولم يجدوه، فرجعوا إلى أليشع، فقال لهم: "أما قلت لكم لا تذهبوا". فأليشع رأى أن ما يطلبونه هؤلاء لا يشكل خطورة أو ضرر، فوافقهم الرأي.

فليس من الحكمة أن يتمسك الإنسان برأيه في مواقف ليست خطيرة، أو في أمور لا تعود عليه أو على غيره بالضرر، فمثلاً في تربية الأولاد، والكلام هنا موجه للأهل: فليس من الجيد أن تقولوا: لا، أمام كل مطلب سواء كان كبيراً أو صغيراً، فكلمة "لا" المستمرة لن يحتملها الابن وسوف تأتي بنتيجة عكسية لأنه سوف يأتي يوم ويضجر من الرفض المستمر لطلباته وبالتالي يعصي الأوامر، لذلك فالأفضل أن نغض الطرف في الأمور التي لا تشكل خطراً، حتى إذا ما طرأ أمر خطير فعليه أن يحترم الكلمة. ففي الحياة هناك مواقف بحاجة إلى اللين، فلا بأس من التراجع أمام إلحاح الأولاد والخضوع لرغبتهم، ولكن هناك مواقف أخرى بحاجة إلى الشدة والحزم، حينئذ لا بد أن تكون الرقاب كبرج داود.

وأيضاً أليشع النبي بعد أن شفى نعمان السرياني، حاول نعمان أن يكافئه ببعض الوزنات من الفضة والذهب، فرفض. ولكن نعمان ألح عليه لكي يأخذها، فماذا فعل أليشع؟ فهل خجل هذه المرة أيضاً؟ لا، بل قال: هذه المرة لا تحتمل الخجل، ويقول الكتاب: "والح عليه أن يأخذ فأبى" (٢مل ٥: ١٦)، وأبى تعني وكأني أليشع يقول له: يستحيل أن أخذ مالك، وهل اقتنيت موهبة الله بدراهم، وهل شفيتك بقوة من البرص لكي تدفع لي الثمن، فعرضك هذا إهانة لاسم الله، لذلك لن أقبله، فمجاناً أخذتم مجاناً أعطوا.

فهناك مواقف تتطلب من الإنسان شيئاً من التساهل ما دامت لا تشكل خطورة، ولكن هناك مواقف أخرى تتطلب منه العناد والإصرار، وهنا يبرز دور الذهن الذي له الحكمة في تقييم الأمور، أمّا الذي تعوزه الحكمة فليصل إلى الرب ويقول: يارب علمني ما هو الأمر الذي أتساهل فيه ولا أغضبك، وما هو الأمر الذي يتطلب مني الإصرار فلا أترجع.

(٤ : ٥) "ثدياك كخشفتي طيبة، توأمين يريان بين السوسن".

فبعد أن وصف السيد المسيح عنقها انتقل إلى وصف ثدييها، والجدير بالذكر أن هذا الجزء من وصف العروس، يشكّل القمّة التي وصلت إليها عروس النشيد، لذلك

يمتدحها المسيح، ونحن بدورنا نتأمل في الصفات البديعة التي نالت اعجاب الرب يسوع في النفس البشرية.

إذاً يصف المسيح ثديي العروس ويقول لها: **تُدْيَاكِ كَخِشْفَتِي ظُبِيَّةٍ**، فهو يشبههما بغزالين صغيرين. والثدي يذكرنا بالتغذية، فالطفل يتغذى من صدر أمه، ولكن ما هي تغذية أولاد الله؟ إنَّ تغذيتهم في الثديين أي كلمة الله في العهد القديم والعهد الجديد، فهذا هو طعامهم، "**اَسْتَهُوا اللَّبَنَ الْعَلْيَ الْعَدِيمَ الْغِشَّ لَكِي تَنْمُوا بِهِ**" (١ بط ٢: ٢)، وكلنا يلاحظ كيف أنَّ الطفل الذي يرضع من ثدي أمه يرفض أن يتركه، لأنه بالنسبة إليه هو مصدر الشبع والإحساس بالأمان والفرح، لذلك قال داود: أنه "مثل الفطيم من اللبن على أمّه" مزمو ١٠٧، تعبيراً منه عن مدى اشتياقه لله. من هنا يجوز السؤال: هل لنا هذا الاشتياق لكلمة الله؟ كالطفل الذي تمنع أمه عنه اللبن فينزعج ويبداً بالبكاء والصراخ ولا يعود يهدأ حتى تطعمه! لأنَّ المؤسف، ولا أغالي القول: أنَّ الكثير من الناس تمر عليهم أيام بل شهور، دون أن يرضعوا من كلمة الله. وهذا تصرف يحزن قلب الله لأن الذي يفرحه هو الله في كلامه.

تُدْيَاكِ كَخِشْفَتِي ظُبِيَّةٍ، تَوَامِينَ ...، والرائع في الكتاب المقدس أنَّه يكتنز الكثير من التوأمة والتناغم ما بين العهد القديم والعهد الجديد، مما يساهم في خلق فرحة شديدة تجتاح القلب عندما ندرس في العهد القديم ونكتشف كيف أنَّه يتطابق بصورة مذهلة مع العهد الجديد. "قارنين الرُّوحيات بالرُّوحيات" (١ كو ١٣: ٢) فإن أخذنا رمزاً في العهد القديم أو حتى رقماً، وعلى سبيل المثال رقم ثلاثة ودرسناه وتأملنا في رمزيته في الكتاب المقدس بعهديه لاكتشفنا كيف أنَّه يرمز إلى الصليب والقيامة في كل الكتاب! هو أمر مبهر، فلا يمكن أن تكون هذه أفكار إنسان، لأنَّه يستحيل على إنسان أن يكتب كل هذه التطابقات، فهو عمل يفوق قدرته، لأنَّه تطابق عجيب ومذهل، لا بل سيمفونية بديعة تتلاقى فيها نغمات العهد القديم مع العهد الجديد، مما يجعل منهما بحق ثديين تَوَامِينَ.

وأيضاً عندما نقارن ما بين التسبحة التي قالتها حنة أم صموئيل في (اصم ٢: ١٠-١)، وبين التسبحة التي قالتها أمنا العذراء مريم في (لو ١: ٤٦ - ٥٥)، نلاحظ مدى التقارب في الآيات والمعاني، فندرك كم كانت العذراء متشربة من كلمة الله، فعندما أرادت أن تسبح الله سبحانه بروح الكتاب.

"تَذْيَاكِ كَخِشْفَتِي ظُبِيَّةٍ، تَوَامِنِ يَرَعِيَانِ بَيْنَ السَّوْسَنِ"، رأينا الراعي وسط السوسن يطعم أولاده، والنفس التي تستقي من كلمة الله في القديم والجديد، يصبح عملها الرعي وسط السوسن أي وسط إخوتها وأخواتها. ومعلمنا بولس الرسول يقول: "كُنَّا مُتَرْفِّقِينَ فِي وَسْطِكُمْ كَمَا تُرَبِّي الْمَرْضِعَةُ أَوْلَادَهَا" (١ تس ٢: ٧)، أي كان يرضعهم كلمة الله. فالنفس التي تشبع بكلمة الإنجيل تصير مصدر لشبع للآخرين.

وعندما سمعت النفس هذا الكلام من فم المسيح لم تصدق ما سمعته أذناها، مع أنَّ المسيح لا يجامل، فلا يقول كلاماً لمجرد الكلام إنما يعني ما يقول وهو صادق. لكن السبب في عدم تصديقنا للكلام يعود إلى طريقة تربيتنا، ففي الصغر يحذر الأب ويهدد بعقاب معين وعند المخالفة لا يعاقب أو يعاقب ولكن ليس بنص التحذير، الأمر نفسه في المدرسة وهكذا في كل تعاملات الحياة. فالناس تقول دائماً كلاماً أكبر بكثير من الحقيقة، فرسخ في أذهاننا منذ الصغر إن الإنسان عندما يقول كلاماً فلا يعنيه بالفعل إنما يقوله فقط من باب التشجيع أو الترهيب، فلا يقصد الكلام بالضبط كما هو.

والمؤسف أننا نطبق ما اخترناه من تعاملات أهل العالم على كلمة الله، ونعتقد ذات الفكر ويخيّل إلينا أن الرب أيضاً لا يقصد تماماً ما يقول، وهذا كلام منافٍ للحقيقة لأنَّ المسيح لا يجامل ولا يلاطف إنما يقول كلام الحق بلا رياء، مما يعني أنَّ هذه الصفات التي مدحها الرب في النفس هي فعلاً نالت إعجابه. وإي نفس يرى فيها المسيح هذه الصفات يفرح بها، ويقول لها: هَا أَنْتِ جَمِيلَةٌ يَا حَبِيبَتِي هَا أَنْتِ جَمِيلَةٌ.

(٤ : ٦) "إِلَى أَنْ يَفِيحَ النَّهَارُ وَتَنْهَزِمَ الظَّلَالُ، أَذْهَبُ إِلَى جَبَلِ الْمَرْوِ إِلَى تَلِّ اللَّبَانِ".

فالنفس بدأت تتساءل كيف ومن أين حصلت على هذه الصفات! فتذكرت أنها حصلت عليها من الدرجة الخامسة، من التجربة التي اجتازت فيها. وهنا وعت أهمية الصليب في حياتها، وبدأت تشاق إلى حمل الصليب طوال حياتها، مادام الصليب سوف يجعلها بهذه المسحة من الجمال، ويجعلها في هذه الصورة. وهذا ما يجعلنا ندرك لماذا قال القديس يعقوب في رسالته: "احسبوه كل فرح يا إخوتي حينما تقعون في تجارب متنوعة" (يع ١ : ٢). فلن نتجمل في عيني المسيح، ولن نسمع كلمات المديح من فمه الطاهر، إلا عندما نحمل الصليب.

لذلك عندما سمعت العروس مديح المسيح لها، قالت: إلى أن يفيح النهار وتتهزم الظلال. أي إلى أن ينتهي ليل هذا العالم وتستيقظ في فجر القيامة، أي طوال العمر كله. ثم تابعت الكلام وقالت: أذهب إلى جبل المر وإلى تَلِّ اللَّبَانِ. فهي سوف تظل تصلي ملتصقة بالصليب.

وأبونا بيشوى كامل كان يعشق الصليب، ويحث الآخرين على حمل الصليب، فيصغي إلى مشاكلهم ويمد يد العون لهم، لأنه فهم معنى حمل الصليب، حتى أنه قال: "أن أحمل صليب، يعني أن أتجمل في عيني المسيح"، وكان يحمل صليباً مع صليب، لدرجة أن جسده لم يعد يحتمل، لذلك لم يعيش طويلاً، بعد أن حمل صليباً كثيرة وحملها بحب وفرح، لأنه أدرك أن الصليب سر جماله، لذلك قال: نفس بلا صليب كعروس بلا عريس، وكلامه هذا نابع من اختبار عميق في حمل الصليب.

فالعروسة أدركت ما سوف تجنيه من حمل الصليب لذلك قالت سوف أمضي عمري كله أحمل الصليب ومتحصنة بتلِّ اللَّبَانِ. وموقف العروسة هذا، يحمل إلى كل واحد منا دعوة إلى عدم التذمر من الضيق التي في حياته، وعدم التفكير أنها قد فاقت قدرته على الاحتمال، لأنه "لَا يَدْعُكُمْ تَجْرِبُونَ فَوْقَ مَا تَسْتَطِيعُونَ" (١ كو ١٠ : ١٣)، إنما يتمسك بالصليب لأنه هو الذي سوف يجمله في عيني المسيح.

(٤ : ٧) "كُلُّكَ جَمِيلٌ يَا حَبِيبَتِي لَيْسَ فَيْكَ عَيْبَةٌ".

فبعد أن اختبرت النفس ثمرة الصليب وأحبته، ردَّ عليها وقال لها: كُلُّكَ جَمِيلَةٌ يَا حَبِيبَتِي لَيْسَ فَيْكَ عَيْبٌ، فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى قَالَ لَهَا: هَا أَنْتِ جَمِيلَةٌ يَا حَبِيبَتِي هَا أَنْتِ جَمِيلَةٌ، ثُمَّ وَصَفَ وَمَدَحَ فِيهَا سَبْعَةَ مِنْ أَعْضَائِهَا، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ عَشَقْتَ الصَّلِيبَ وَاحْتَضَنْتِ الصَّلِيبَ، قَالَ لَهَا: كُلُّكَ جَمِيلَةٌ لَيْسَ فَيْكَ عَيْبٌ. فَمَا دَامَتْ تَحْمِلُ الصَّلِيبَ فَالصَّلِيبُ سَوْفَ يَطْهَرُهَا مِنْ كُلِّ الْعُيُوبِ، وَلَنْ يَتْرَكَ فِيهَا عَيْبًا وَاحِدًا. لِذَا رَأَاهَا الْمَسِيحُ كُلَّهَا حُلُوةً وَجَمِيلَةً. وَلَكِنْ السُّؤَالُ، هَلْ يَقْتَصِرُ الصَّلِيبُ عَلَى بَعْضِ الضِّيقَاتِ وَبَعْضِ الْأَلَامِ وَالتَّجَارِبِ؟ لَا، فَجِهَادُ الْإِنْسَانِ الرُّوحِيِّ فِي الصَّلَاةِ وَالْعِبَادَةِ وَالْقَانُونِ الرُّوحِيِّ هُمْ أَيْضًا حَمْلٌ لِلصَّلِيبِ.

(٤ : ٨) "هَلُمَّنِي مَعِي مِنْ لُبْنَانٍ يَا عَرُوسُ، مَعِي مِنْ لُبْنَانٍ! انْظُرِي مِنْ رَأْسِ أَمَانَةٍ، مِنْ رَأْسِ شَنِيرٍ وَحَرْمُونٍ، مِنْ خُدُورِ الْأَسْوَدِ، مِنْ جِبَالِ الثُّمُورِ".
فالنفس وَقَدْ أَحَبَّتِ الصَّلِيبَ، وَلِأَنَّهَا لَا تَحْتَمِلُ التَّجَارِبَ وَالْمَشَاكِلَ طَوَالَ حَيَاتِهَا، فَلَا بَدَّ أَنْ تَمُرَ بِفِتْرَاتٍ رَاحَةٍ، وَلَكِنْ مَا هُوَ السَّبِيلُ إِذَا لَحِمَ الصَّلِيبُ كَقَوْلِ الْمَسِيحِ: "إِنْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي، فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ كُلَّ يَوْمٍ..." (بُو ٩ : ٢٣)، لِذَا قَالَ لَهَا الْمَسِيحُ: "هَلُمَّنِي مَعِي مِنْ لُبْنَانٍ". وَلِبْنَانٌ يَرْمِزُ إِلَى حَيَاةِ التَّرَفِّ وَالرَّخَاوَةِ وَالْكَسَلِ، وَيَشِيرُ إِلَى مِلْدَاتِ الْعَالَمِ، لِذَا يَدْعُوهَا الْمَسِيحُ لِلخُرُوجِ مِنْ لُبْنَانٍ وَالانْطِلَاقِ فِي طَرِيقِ الْجِهَادِ الرُّوحِيِّ.

انْظُرِي مِنْ رَأْسِ أَمَانَةٍ، وَأَمَانَةٌ هِيَ الْإِيمَانُ، مِنْ رَأْسِ شَنِيرٍ وَحَرْمُونٍ، وَهُمَا جِبَلَانِ مِنْ جِبَالِ لُبْنَانٍ، مَشْرِفَانِ عَلَى أَرْضِ كَنْعَانَ، وَبِمَكَانِ الْوَاقِفِ عَلَى أَحَدِ هَذَيْنِ الْجِبَلَيْنِ أَنْ يَرَى أَرْضَ كَنْعَانَ. مِمَّا يَعْنِي أَنَّ بَاسْطَاعَةَ الْعُرُوسِ الْوَاقِفَةِ عَلَى جَبَلِ شَنِيرٍ أَوْ حَرْمُونٍ أَنْ تَرَى بَعِينَ الْإِيمَانَ أَرْضِ كَنْعَانَ الَّتِي تَشِيرُ لِلْحَيَاةِ السَّمَاوِيَّةِ. وَعِنْدَمَا تَشَاهِدُ أَرْضَ كَنْعَانَ سَوْفَ تَخْرُجُ مِنْ لُبْنَانٍ لِمُقَابَلَةِ الْأَسْوَدِ وَالنَّمُورِ فِي حَيَاةٍ رُوحِيَّةٍ جَادَّةٍ، فَالَّذِي يَشْجَعُ النَّفْسَ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ لُبْنَانٍ أَيْ مِنَ الْعَالَمِ، وَمِنْ لِدَاتِ الْعَالَمِ،

ومن مباهج العالم، هو رؤية أرض كنعان، وأورشليم السماوية، من أعالي جبلي شنير وحرمون.

لأنه يصعب على الإنسان أن يترك العالم المبهر وما فيه من ملذات ومسرات، ولكن حين يصعد إلى جبل شنير وجبل حرمون ويرى من هناك بعين الإيمان أورشليم السماوية ويتذوق الحياة الروحية يسهل عليه ترك العالم وازدراء كل ما فيه. بعكس السكن في لبنان، إذ تستهويه حياة الرفاهية ولكن عندما يصعد إلى الجبل وينظر من أعلى إلى أمور العالم فيراها صغيرة تافهة لا قيمة لها مقارنةً مع الحياة السماوية. فهو يشبه رجلاً على متن طائرة ينظر من النافذة إلى أسفل فيرى المباني الضخمة والمرتفعة بحجم علبة كبريت، وتبدو له الشوارع الواسعة كأنها جبل رفيع. مع أنه كان يراها وهو على الأرض كبيرة وعظيمة، لأنه كان يقف بقربها، ولكن عندما صعد إلى فوق بدأت تصغر شيئاً فشيئاً في عينيه، فكلما نرتقي ونرتفع في الروحانيات، كلما يفقد العالم بريقه في عيوننا.

(٩ : ٤) "قَدْ سَبَّيْتُ قَلْبِي يَا أُخْتِي الْعُرُوسُ. قَدْ سَبَّيْتُ قَلْبِي بِأَحَدِي عَيْنَيْكَ، بِقِلَادَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ عُنُقِكَ".

لَبَّيْتُ النَفْسَ دَعْوَةَ الْمَسِيحِ وَخَرَجْتُ مِنْ لُبْنَانَ وَتَرَكْتُ الْعَالَمَ وَتَعَلَّقْتُ بِالرُّوحِيَّاتِ وَبَدَأْتُ تَجَاهِدُ فِي صَلَاةٍ وَعِبَادَةٍ وَشُرْكَه. حِينَئِذٍ قَالَ لَهَا الْمَسِيحُ: قَدْ سَبَّيْتُ قَلْبِي يَا أُخْتِي الْعُرُوسُ. فَالْعُرُوسُ قَبِلَتْ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الرَّاحَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ تَعِيشُ حَيَاةَ رَغْدَةٍ فِي الْعَالَمِ، وَتَتَمَتَّعَ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ مِلْذَاتٍ وَأَفْرَاحٍ، وَقَبِلَتْ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ لُبْنَانَ مُحَبَّةً فِي الْمَسِيحِ، فَهَذَا الْخُرُوجُ سَبَى قَلْبِ الْمَسِيحِ. فَكُلَّمَا نَتَرَكُ شَيْئاً مِنْ أَجْلِهِ نَسَبِي قَلْبَهُ.

قَدْ سَبَّيْتُ قَلْبِي بِأَحَدِي عَيْنَيْكَ، فَالْعَيُونَ الَّتِي تَرَى السَّمَاوِيَّاتِ، تَفْرَحُ قَلْبَ الْمَسِيحِ. قَدْ سَبَّيْتُ قَلْبِي بِقِلَادَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ عُنُقِكَ، وَالرَّقَبَةُ الَّتِي تَخْضَعُ لِنِيرِ الْمَسِيحِ، تَفْرَحُ قَلْبَ الْمَسِيحِ.

قَدْ سَبَّيْتُ قَلْبِي بِإِحْدَى عَيْنَيْكَ، وهل يوجد شيء يَغْلِبُ الرب؟ وهل يُغْلَبُ الرب؟ نعم، فالرب يُغْلَبُ، وكيف ذلك؟ هو سوف يقول لها فيما بعد: "حَوِّلِي عَنِّي عَيْنَيْكَ فَإِنَّهُمَا قَدْ غَلَبَتَانِي" (نش ٦: ٥)، فالمسيح لا يحتمل العينين المنكسرتين.

ويحكى عن أب كاهن كان يخدم في كنيسة على اسم السيدة العذراء، وكان يعاني من مشكلة صعبة أثرت عليه جداً لدرجة أنه كلما كان يقف أمام صورة العذراء، كان يبكي بدموع كثيرة، وفي إحدى المرات بينما كان يطوف بالبخور جاء ووقف أمامها وبدأت دموعه تتساب على وجنتيه، فقالت له: "لا تخجلني أمام الناس، اذهب وأنا سوف أحل المشكلة". فالمسيح يتحنن على العين الدامعة، وأيضاً العذراء هي صورة لحنو المسيح، وتؤثر فيها الدموع، فهي أم لم تحتمل أن ترى ابنها يبكي.

ولا ننسى يعقوب الذي جاهد مع الله وغلب، مع أننا نسمع بعض الناس يقولون بتهكم غير مصدقين: "هل يقدر إنسان أن يغلب الله؟"، ولكن لنرى كيف غلبه! فيعقوب صارع مع الله حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه، مس الرب حُقَ فخذَه فانكسر حُقَ فخذ يعقوب وصار يجمع على فخذَه (تك ٣٢: ٢٤ - ٣٢)، ولكن سفر هوشع أوضح لنا حقيقة ما جرى، فقال: أن يعقوب بكى واسترحم الله (هو ١٢: ٤)، فعندما بكى يعقوب باركه الرب، إذاً كيف غلب يعقوب الله؟ لقد غلبه بالدموع.

(١٠: ٤) "مَا أَحْسَنَ حُبِّكَ يَا أُخْتِي الْعَرُوسُ! كَمْ مَحَبَّتِكَ أَطِيبُ مِنَ الْخَمْرِ! وَكَمْ رَائِحَةُ أَدَهَانِكَ أَطِيبُ مِنْ كُلِّ الْأَطْيَابِ!".

المحبة ليست بالكلام واللسان بل بالعمل والحق، ومحبة العروس ظهرت في جهادها، فخرجت من لبنان وحملت الصليب وتألّمت من أجل المسيح وخضعت له ولم ترفض أن تحمل النير، لذلك قال لها المسيح: ما أحسن حبك يا أختي العروس! ثم يتابع المسيح كلامه ويقول للعروس: محبتك أطيب من الخمر، وهي في الأصحاب الأولى قالت له: حبك أطيب من الخمر، فالمسيح يردد كلامها، علامة محبة، ونحن عندما نردد كلام المسيح نعلن محبتنا له، فالذي يحب شخصاً يحلو له أن يردد كلامه،

كما فعل أليشع الذي أحبَّ إيليا جداً فردّد كلماته نفسها وقال: "حيُّ هو الرب" (٢مل ٢: ٢) وهى ذات كلمة إيليا، ثمَّ سمعت كلامه الشونميّة فرددته أيضاً (٢مل ٤: ٣٠). والعجيب أنَّ المسيح يردد كلمات النفس البشريّة: "محبّتك أطيب من الخمر"، فما هى المحبّة التي أظهرتها نحوه حتى يقول لها هذ الكلام! فمهما فعلت فلن توازيه في محبّته لها! فإن قَدّم الإنسان نفسه للموت حباً بالمسيح فهو في نهاية الأمر إنسان خاطئ ومصيره الموت، فما قيمة تقدمته أمام الله الذي قدّم نفسه للموت من أجله وهو القدوس. وإن احتمل الإنسان إهانة من أجل المسيح، فماذا قدّم أمام تقدمة الحب الإلهي الذي قَبِلَ أن يهان من الناس، فما هى مقدار هذه المحبّة وما هو الذي نقدر أن نقدّمه ويفرّح قلب المسيح مقابلها؟ فيرد المسيح ويقول: أي عمل يقدّمه الإنسان ولو كوب ماء محبّة بي، أفرح به، وأقول له: محبتك أطيب من الخمر.

فبعد أن قال المسيح للنفس: محبتك أطيب من الخمر، الذي هو علامة الفرح، لأنَّ المسيح يفرح بمحبة النفس له، أضاف قائلاً: رائحة أدهانك أطيب من كل الأطياب، فهذا ما يقوله المسيح للطبيعة البشريّة الفاسدة، والتي جعلت داود يقول: "بالآثم حُبِلَ بي" (مز ٥: ٥)، ولكنَّ إن فاحت من الإنسان رائحة طيبة فهى رائحة المسيح الزكيّة، ولن نشتمها سوى في الإنسان الذي يدخل في شركة مع المسيح، وكما تفوح رائحة الزهور والرياحين من إنسان مكث فترة ليست بقليلة في وسط حقّ ريحان، هكذا تفوح الرائحة الزكيّة من إنسان وطّد علاقته بالمسيح، فيشتم الناس رائحته الحلوة، لا سيما عندما يروا أعماله الحسنة، فيقولون له: رائحة أدهانك طيبة، فيشهد أنها رائحة المسيح.

(١١: ٤) "شَفَتَاكِ يَا عَرُوسُ تَقْطُرَانِ شَهِدًا. تَحْتَ لِسَانِكَ عَسَلٌ وَلَبَنٌ، وَرَائِحَةُ ثِيَابِكَ كَرَائِحَةِ لُبْنَانٍ".

الشفتان والفم هما أكثر عضوين يسببان المتاعب للإنسان، فالكثير من المشاكل تحدث بسبب الفم الثرثار، لأنَّ "كثرة الكلام لا تخلو من معصية" (أم ١٠: ١٩)، والقديس أرسانيوس الحكيم كان حذراً جداً من الكلام، وعندما سُئِلَ عن السبب، قال: "كثيراً ما تكلمت وندمت، أمّا عن الصمت فلم أندم قط".

والمسيح يقول للعروس: شفتاكِ تقطران شهداً، لأنَّ اللسان نفسه قد يجلب الشر أو الخير، وقد قال المسيح: "لأنك بكلامك تتبرَّر، وبكلامك تُدان" (مت ١٢: ٣٧)، فاللسان يبرِّر الإنسان كما مع اللص اليمين حين قال: "أذكرني يارب متى جيئت في ملكوتك" (لو ٢٣: ٤٢)، فقال له المسيح: بكلامك تتبرَّر، اليوم تكون معي في الفردوس.

لكنَّ المشكلة الحقيقيَّة ليست في الشفتين أو الفم، إنما المشكلة في القلب الذي من فضله يتكلَّم الفم، فلا السكوت في حد ذاته مطلوب دائماً، ولا الكلام في حد ذاته مطلوب دائماً، فللكلام وقت وللسكوت وقت، فأحياناً يتوجب على الإنسان أن يتكلَّم وإن سكت يكون سكوته خطيئة، فليست القضية أن يلوذ الإنسان بالصمت إنما هي، ماذا يخرج من فم الإنسان! ومتى يخرج.

فالرب يسوع كان يتكلم في مناسبات كثيرة، ومرة أرسل الفريسيّين ورؤساء الكهنة خداماً ليمسكوه، وبعد أن سمع الخدام كلامه، رجعوا إليهم وقالوا لهم: "لم يتكلَّم قطُّ إنسانٌ هكذا مثل هذا الإنسان!" (يو ٧: ٤٦)، وأيضاً عندما تكلم الرب يسوع في الموعظة على الجبل يقول القديس متى: "فلما أكملَ يَسُوعُ هذه الأقوالَ، بهتَ الجموع من تعليمه" (مت ٧: ٢٨). لأنَّ شفتيه كانتا تقطران شهداً.

وأيضاً عرف تاريخ الكنيسة قديسين تصح فيهم هذه الآية: "شَفَتَاكِ يَا عَرُوسُ تَقْطُرَانِ شَهْدًا"، أمثال القديس يوحنا الذهبي الفم، الذي لكثرة جمال كلامه وقوة تأثير عظاته لُقِّبَ بذهبي الفم أي صاحب الفم الذهب. وأيضاً القديس أنثاسيوس الرسولي الذي عُرف عنه دفاعه القوي عن لاهوت المسيح حتى أن القديس جيروم قال عنه: "إن سمعت قولاً لأنثاسيوس ولم يكن معك قرطاس - أي ورقة - فاكتبه على قميصك".

ولكن قبل التأمل في شفتي العروس لا بد من التأمل في شفتي العريس السماوي، الرب يسوع، لأنَّ شفتيه بالحق تقطران شهداً، وقد رأينا قطرة من هذه القطرات عندما أتوه بالمرأة الزانية والجميع أدانوها وحكموا عليها، ولكن ماذا قالت لها شفتا المسيح؟ قال: "أما دانكِ أحدٌ؟ فقالت: لا أحد، يَا سَيِّدُ! فَقَالَ لَهَا يَسُوعُ: وَلَا أَنَا أَدِينُكَ. اذْهَبِي

ولا تُخْطِئِي أَيْضاً" (يو ٨: ١١)، ففطرة من شهد المسيح حررتها من دائرة الموت ومنحتها فرصة جديدة للحياة.

وأيضاً رأينا قطرة أخرى من هذه القطرات عندما التقى المرأة السامرية عند بئر يعقوب وتحدّث معها، فلم يوجّه لها أي إهانة ولم يقل لها أي كلمة تجرح مشاعرها، لأنّ شفّتيه تقطران شهداً، إنما قال لها: "حَسَنًا قُلْتُ: لَيْسَ لِي زَوْجٌ، لِأَنَّهُ كَانَ لَكَ خَمْسَةُ أَزْوَاجٍ، وَالَّذِي لَكَ الْآنَ لَيْسَ هُوَ زَوْجَكَ. هَذَا قُلْتُ بِالصِّدْقِ" (يو ٤: ١٨)، ففطرة من شهد المسيح غيّرت حياتها وحولتها من زانية إلى مبشرة.

"شَفَاتِكَ يَا عُرُوسُ تَقْطُرَانُ شَهْدًا"، فشفتا العروس تقطران عسلاً، والعسل تخرجه النحلة من بطنها، فالرب يُشَبِّه العروس بالنحلة، وكما أن النحلة تنتقل من زهرة إلى زهرة، فتجاهد وتتعب وتثابر لكي تجمع الرحيق وتحوله إلى عسل لكي تغذي وتُشبع وتفرّج به الآخرين، هكذا يريد الرب أن يكون كل واحد من أولاده على مثال النحلة فيجاهد ويتعب ويجول ما بين زهور الكتاب المقدّس المختلفة وينتقل من سفر إلى سفر لكي يجمع الرحيق، فيتأمل في كلام الرب ويعجنه في داخله ويخرجه عسلاً. ولكنّ البعض يريد العسل جاهزاً من دون تعب فيجلس وينتظر من الآخرين لكي يقدّموا له العسل، دون أن يدري أنّ هذا التراخي سوف يعيق مسيرته الروحية.

فالنحلة لكي تصنع العسل تجتهد وتتعب وتثابر، كما فعل أبونا إبراهيم الذي كان كمن يجلس بقرب البئر الذي هو كلام الله ومعاملاته يدليّ دلوّه من وقت لآخر لينتشل الماء ليشرب، هكذا النفس التي تجلس إلى أسفار الكتاب المقدّس وتدليّ قلبها في سفر بعد سفر، فمرة في سفر النشيد فتنتشل القليل من الماء وترتوي به، ومرة أخرى في سفر الرؤيا، وهكذا دواليك. فهذا ما يجب أن نتعلّمه من النحلة لكي نفتتي العسل، أمّا الثمرة التي سوف تجنيها النفس من التعب والمثابرة والتجوال على أسفار الكتاب المقدّس فهي، كلاماً كالعسل يقطر في صلاتها، في كرازتها، وفي شهادتها للمسيح، فثمرة الخلوة مع الرب يظهر في كلامها، فالنفس التي تختلى بالمسيح كثيراً تُعرّف من لسانها، فعندما تتكلّم فكل كلامها من الإنجيل، حتى في الأحاديث العادية تتلفظ بآيات

من الكتاب المقدس، لأنَّ معظم وقتها تصرفه في التأمل والقراءة في الإنجيل فيخرج من فمها الذي تأكل فيه طوال الوقت، فهذه النفس ينظر إليها المسيح ويقول لها: شفتاكِ يا عروس تقطران شهداً.

"تَحْتِ لِسَانِكَ عَسَلٌ وَلَبَنٌ"، العسل طعام البالغين، أمَّا اللبن فطعام الأطفال الرُّضع. فالنفس التي أصبحت كالنحلة تنتقل ما بين مروج التعاليم المختلفة، يتكوّن تحت لسانها قوى متنوعة لكلمة الله فتعرف كيف تكلم كل إنسان عن المسيح، وتعرف أن تقدّم لكل إنسان ما يناسبه من التعليم "يعطيها العلوفة في حينها" (لو ١٢ : ٤٢) فتقدّم للناضجين العسل، وتعرف أن تقدّم للصغار اللبن.

والعسل واللبن يذكرنا بأرض كنعان، التي تفيض لبناً وعسلاً، وعندما يقول المسيح للعروس: شفتاكِ تقطران شهداً، تحت لسانك عسل ولبن، فهو يشبهها بأرض كنعان، الأرض المقدسة، وقد سمّاها الرب أرض الراحة، فالنفس التي تحت لسانها عسل ولبن تصير مصدر راحة للآخرين، والنفس التي تسكن فيها كلمة المسيح بغنى، تصير أرض راحة للآخر فتفرحه وتشبعه، ويصح فيها قول إشعياء النبي: "أَعْطَانِي السَّيِّدُ الرَّبُّ لِسَانَ الْمُتَعَلِّمِينَ لِأَعْرِفَ أَنْ أُغِيثَ الْمُعْيِيَ بِكَلِمَةٍ" (إش ٥٠ : ٤).

"ورائحةُ ثيابكِ كرائحةِ لبنان"، فالرب شبّه رائحة ثياب العروس برائحة لبنان، واسم لبنان مشتق من كلمة لبان التي تعني البخور. فرائحة ثياب العروس كرائحة البخور، وقد قال داود: "تستقم صلاتي كالبخور قدامك" (مز ١٤١: ٢)، وبما أنَّ الثياب تشير إلى المظهر الخارجي للإنسان، فهذا يعني أنَّ العريس يرى عروسه في حالة عبادة وصلاة دائمة، تفوح منها رائحة البخور وتنتشر حولها عطر القداسة.

(٤ : ١٢) "أختي العروسُ جنةٌ مُغلقةٌ، عَيْنٌ مُقفلةٌ، يَنْبُوعٌ مَخْتُومٌ".

بعد أن وصف المسيح جمال العروس الخارجي، بدأ يصف جمالها الداخلي، فقال لها: أختي العروس جنة، والجنة مكان رائع الجمال يحتوي على الكثير من الثمار

الشهية، وجنة العروس مليئة بالثمار الروحية، أي الفضائل. ولكن لماذا يقول عنها جنة مغلقة؟ فكما هو معروف الحقائق العامة مفتوحة للجميع ويسمح لأي شخص أن يدخل إليها، ولكن أختي العروس جنة مغلقة، يحظر على العامة الدخول إليها، والوحيد الذي يحق له الدخول هو المسيح، لذلك سوف تقول له بعد قليل: "ليأت حبيبي إلى جنته" (نش: ٤: ١٦)، فهذه النفس جنة ولكنها موصدة أمام العالم، ومفتوحة فقط أمام المسيح، لذلك عندما يراها العالم لا يدرك أنها جنة إنما يلاحظ أنها مختلفة عن أهل العالم في لباسها في تصرفاتها، فهذا مظهرها من الخارج، ولكن المسيح يدخل فيرى جنة في الداخل، فهي في عيون أهل العالم مغلقة لا يعرفون عنها شيئاً، إنما مفتاح هذه النفس في يد المسيح، الذي له مفتاح داود "يفتح ولا أحد يُغلق، ويُغلق ولا أحد يفتح" (رؤ: ٣: ٧). ولكن، ما هي هذه الجنة؟ هي القلب، هذه هي الجنة التي يقصدها المسيح، لأنه قال: "يا بني أعطني قلبك"، لماذا؟ لكي يحل المسيح بالإيمان في قلوبكم، في الجنات المقفلة، فالله لا يريد أموال الإنسان ولا وقته، ولا أعماله، إنما يريد شيئاً واحداً وهو القلب. فعندما تهب النفس قلبها للرب فقد أعطته كل شيء، لأن الإنسان إن أعطى كل ثروته عوضاً عن قلبه وبدلاً عن محبته، فإنها تحتقر احتقاراً. كما تفعل الزوجة التي تقوم بكل واجباتها المنزلية على أكمل وجه، لكن عندما يعود زوجها من العمل تستقبله بكلام فظ، فكل ما عملته وتعبت فيه لا يهم زوجها بقدر ما يهمه القلب المحب. وهكذا يفعل البعض فيعمل ويتعب من أجل الله ولكن بدون محبة، فإن أعطى الإنسان كل شيء للرب ولم يعطه قلبه، فإنه لم يعطه شيئاً.

ولكن لماذا جنة مغلقة؟ فالقلب لكي يغدو جنة للرب يجب أن ينغلق وأن ينفصل عن العالم أو بتعبير آخر أن ينظم عن العالم، فيصبح القلب قدسا للرب. والإغلاق نوعان، أحدهما سلبي والآخر إيجابي، فالإغلاق السلبي حين ينغلق القلب أمام هموم العالم ومشاكله، وأمام أفكار العالم وشهواته، وحتى إذا ما اقتربت من القلب الكراهية والبغضة وبشاعات العالم وحاولت أن تدخل إليه فسوف تجده مغلقاً، مثل قلب ليديا الذي كان مقفلاً أمام العالم، وأماً مفتاحه فكان مع الرب يسوع "فتحت الرب قلبها لتصغي إلى ما كان يقوله بولس"، فكل قلب مفتاح، إنما السؤال مفتاح قلبي وقلبك في يد من؟ فقد

تجد شخصاً مفتاح قلبه في كلام المديح والاستلطاف فأَي إنسان يقول له كلمة حلوة، فحالاً يفتح له القلب على مصراعيه، وقد تجد شخصاً آخر مفتاح قلبه في يد المسيح فقط. أمّا الإغلاق الإيجابي فيتمثل بالقلب المنغلق بسور الوصايا، فتحوطه وصية المسيح، وأي شيء يريد أن يدخل سواء كان عاطفة أو فكرة أو نزعة، فيراجع على الوصية فإن سمحت له بالدخول، يدخل، وإن لم تسمح له يبقى خارجاً. فالجئة المفتوحة لن تحافظ على ما هي عليه، لأنّ الكثيرين سوف يدخلون ويقطفون ثمارها. ولكنّ الجئة لكي تستمر جئة، يجب أن تغلق، لذلك غالباً ما نرى سياجاً شائكاً يحيط بالحدائق لئلا يدخل ثعلب فيفسد الموضع.

ثمّ تابع المسيح وقال للنفس: **عَيْنٌ مُقْفَلَةٌ، يَنْبُوعٌ مَخْتُومٌ**، وكلاهما يرمزان للروح القدس، ففي داخلنا عين مقفلة وينبوع مختوم، أي عمل الروح القدس القادر على بث الفرح في داخل النفس، فأهل العالم مصادر أفراحهم خارجية لذلك أفراحهم متقلبة تتحكم بها الظروف. أمّا أولاد الله فمصدر أفراحهم في النبع الذي في داخلهم، ينبوع الروح القدس. فالروح القدس عين ماء لا تنتضب ويروي كل عطش، وكل احتياج عند الإنسان. في أيام يهوشافاط ملك يهوذا، نزل الجيش في منطقة لا يوجد فيها ماء، فلجأوا إلى أليشع لأنّ عنده كلام الرب، فقال أليشع النبي: "هكذا قال الرب: اجعلوا هذا الوادي جباً جباً" (٢مل ٣: ١٦)، فعلى قدر ما يحفرون جباً، يحصلون على مياه، لأنّ الرب سوف يملأها كلها. والوادي يشير إلى الطبيعة البشرية، وأوديتنا ملىء بالحباب الفارغة، وعمل الروح القدس ينبوع المياه الذي لا ينضب أن يملأ هذه الجباب في حياتنا، فأَي جوع أو عطش أو احتياج داخل نفس الإنسان سوف يملأه الروح القدس.

ولا يقتصر عمل الروح القدس على إشباع وري نفس الإنسان وتسديد احتياجاته، بل يعمل أيضاً على ربط الإنسان بمصدر ينبوع الذي هو السماء ويجعل منها هدفه الأسمى فينشغل بها ليلاً ونهاراً. فعندما صعد الرب يسوع إلى السماء، استمرّت عيون الرسل شاخصة إلى السماء، فأرسل لهم الرب ملاكين فقالا لهم: "أيّها الرجال الجليليون، ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء؟ إنّ يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي

هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء" (أع: ١١)، ومنذ تلك اللحظة ظلت عيون الرسل تتطلع إلى السماء منتظرين مجي المسيح، فعمل الروح القدس فيهم هو أن يربطهم بالسماء ويشغلهم بالسماء على الدوام. فكلما أنشغل الإنسان بالسماء، كلما فقدت أمور الأرض قيمتها في عينيه.

ولكنَّ الروح القدس نفسه "عين مقفلة وينبوع مختوم" عن أهل العالم، فالروح القدس مغلق تماماً بالنسبة لغير المؤمنين. وهذا ما أعلنه الرب يسوع بقوله: "روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه" (يو: ١٤: ١٧)، وهو ما أكد عليه بولس الرسول فيما بعد فقال: "لكنَّ الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة" (١كو ٢: ١٤). فالروح وعمله مجهولان تماماً للعالم.

(٤: ١٣-١٤) "أَغْرَأْسُكَ فِرْدَوْسُ رَمَّانٍ مَعَ أَثْمَارِ نَفِيسَةٍ، فَاغِيَّةٍ وَنَارِدِينَ، نَارِدِينَ وَكُرْكُمٍ. قَصَبِ الذَّرِيرَةِ وَقَرْفَةٍ، مَعَ كُلِّ عُودِ اللَّبَّانِ. مُرٌّ وَعُودٌ مَعَ كُلِّ أَنْفَسِ الْأَطْيَابِ". سوف نلقي نظرة داخل هذه الجئة لنرى عمل العين والينبوع عندما يرويان أرض الجئة، ونرى كيف يثمر الروح داخل النفس، ونكتشف الثمار المتنوعة والأشجار المختلفة، ففيها أشجار غنيّة بالثمار المغذية، وأشجار تفوح منها روائح عطرة، وأشجار تستخدم في صناعة الأدوية وشتى العلاجات. والوحي قد ذكر لنا كل هذه الأنواع. فالنوع الأوّل الذي ذكره هو فردوس رمان: والقديس اغريغوريوس أسقف نيصص قال تأملاً لطيفاً عن شجر الرمان، إنها شجرة تدفع باللص الذي يحاول أن يسطو عليها إلى اليأس لأنّ الشوك ينبت على أغصانها ويحيط بثمره الرمان، وعندما يحاول اللص أن يسرقها تجرح يده من الأشواك، وحتى لو نجح في تحاشي الشوك وحصل على الثمرة فسوف تواجهه صعوبة أخرى عندما يحاول أن ينزع قشرتها الخارجية لأنّها جافة ومرة جداً، ولكن عندما يشقها إلى قسمين سيرى لونها الجميل ويتذوّق طعمها اللذيذ.

وحالة الإنسان الروحيّة تشبه حالة شجرة الرمان مع اللص، فيجب عليه أن يجاهد ويتعب في حياته، فالجهاد والتعب يمثلان الشوك، وعلى قدر ما يجاهد، يبتعد عنه

عدو الخير المتمثل باللص، ولكن إن تراخى الإنسان وتكاسل فيدخل عدو الخير ويقطف الثمرة، فجهاد الإنسان هو الشوك الذي يخز الشيطان.

أمّا الفاغية فهي الحناء، نبات ورقه كورق الرمان، يطحن ويخلط بالماء وتدهن به كفا العروس وقدهاها للزينة ... الناردين نبات طيب الرائحة له فوائد طبية ويستخرج منه نوع من العطور. الكركم ويسمى أيضاً الزعفران، نوع من التوابل ويستخدم كدواء. قصب الذريرة والقرفة هي نباتات عطرية تستخدم كأدوية. فكل هذه النباتات التي ذكرت ترمز إلى ثمار الروح القدس في داخل النفس، لكن الإنسان الذي لا يمتلك هذه الثمار قال عنه القديس بطرس: "لأنّ الذي ليس عنده هذه - أي ثمار الروح: فرح، محبة، سلام - هو أعمى قصير البصر، قد نسيّ تطهير خطاياها السالفة" (٢بط ١: ٩)، أي قد نسيّ معموديته، لأنّ الإنسان نال الروح القدس بالمعمودية، وكل هذه هي من نبع المعمودية وعمل روح الرب في الإنسان.

وقد يقول البعض في لحظة صدق مع نفسه: "إنّ الواقع غير ذلك فليس في هذه الثمار!" لذا قال القديس اغريغوريوس: "عندما نزرع شجرة لا نقطف ثمارها في السنة الأولى لأنّ ثمرتها تكون مرّة إنّما ننتظر سنة أو سنتين بحسب نوع الشجرة، حتى تتحسن نوعيّة الثمار فتتضح بشكل أفضل ويصبح مذاقها حلوًا". وهذا ما تستشعره النفس السالكة في طريق الفضيلة، فمع أنّها ترغب في أن تثمر ولكّنها تشعر بالمرارة في بداية الطريق، لأنّ الثمر لا ينضج بسرعة، فما عليها سوى أن تتحلّى بالصبر، ومع الوقت تبدأ تتذوّق الثمر الحلو. فمشكلة النفس وكل نفس هي العجلة، فتأتي في الصباح إلى الكنيسة فتصلي وتتناول وتعتقد أنّها مع حلول المساء سوف تكون مريم العذراء الثانية، ثم تفاجأ أنّها ثارت وغضبت لأنّقه الأسباب، فالطريق الروحي لا يحكمه جهاز تحكّم عن بعد (ريموت كونترول) فنضغط على الزر فترتقي النفس في السلم الروحي، لا أبداً، فالنمو الروحي بحاجة إلى وقت وصبر ومن ثمّ يأتي أوان قطاف الثمر الحلو.

(١٥:٤) "يَبُوعُ جَنَاتٍ، بَرُّ مِيَاهٍ حَيَّةٍ، وَسُيُولٌ مِنْ لُبْنَانَ".

فالإلى جانب جنة مغلقة وجنة رية وجنة مثمرة، فالنفس من الداخل جنة منعشة أيضاً، وقد شبهها الرب يسوع بسيول لبنان، فقمم جبال لبنان تتكلم بالثلوج في فصل الشتاء ومع حلول فصل الربيع ترتفع درجات الحرارة فتبدأ الثلوج بالذوبان وتتشكل السيول وتندفع المياه بقوة نحو المنحدرات ثم تجري في أنهار متفرقة فتروي الأرض العطشى. والرب يريد أن يكون أولاده منتعشين وفرحين في العالم مثل سيول لبنان، فتجري من داخلهم أنهار ماء حية تروي الآخرين، فعلى قدر ما تتمتع النفس بعمل الروح القدس تصير سيول مشبعة، منعشة، ومفرحة لمن حولها.

ومن هؤلاء إيليا النبي فهو سيل من لبنان، فأينما ذهب يبارك المكان الذي يحل فيه، ويباركه بفيض، كما حصل عندما ذهب إلى امرأة أرملة في صرفة صيدون، فحلت البركة على بيتها، فكوار الدقيق لم يفرغ، وكوز الزيت لم ينقص (١مل ١٧: ١٤)، وعندما مات ابنها صرخ إيليا إلى الرب فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش (١مل ١٧: ٢٢). وأيضاً يوسف العفيف سيل من سيول لبنان، دخل إلى بيت فوطيفار فأصبح سبب بركة لكل البيت، "وبارك الرب بيت المصري بسبب يوسف" (تك ٣٩: ٥)، وعندما دخل السجن لم يتوقف السيل بل تابع جريانه، مياه ليس لها حدود، فكان سبب بركة لمن في السجن.

وإذا كانت السيول قادرة أن تنعش كل من حولها، لكن الأهم عندما يتفرع السيل إلى مجاري أن نعمل ونحرص على عدم رمي الحجارة في المجرى لكي لا نعيق تدفق المياه، فالرب قادر أن ينعم على الإنسان بالسيول، ويبقى على الإنسان أن ينظف المجرى لكي يحافظ على انسياب المياه، فهناك بركات كثيرة يرغب الرب أن يوصلها للآخرين عن طريقنا، فإذا ما وضعت حجراً تلو الآخر فسوف تشكل حاجزاً يعيق وصول المياه، أو وصول البركات للآخرين.

(١٦: ٤) "اسْتَيْقِظِي يَا رِيحَ الشَّمَالِ، وتعالِي يا رِيحَ الْجَنُوبِ! هَبِّي عَلَى جَنَّتِي فَتَقَطِّرْ أَطْيَابُهَا. لِيَأْتِ حَبِيبِي إِلَى جَنَّتِهِ وَيَأْكُلْ ثَمَرَهُ النَّفِيسَ".

بدايةً لا بد من الإشارة إلى أن الريح تعني الروح القدس في الكتاب المقدس. فالنفس عندما أدركت أن انفصالها عن العالم بما فيه من شرور أو مباحج كاذبة سوف يمتنعها بينابيع الروح القدس الذي سوف يثمر فيها وبالتالي تصبح سبب بركة للآخرين! تشوّقت لعمله في داخلها وهتفت: استيقظي يا ريح الشمال، وتعالِي يا ريح الجنوب!...، فهي تدعو الروح القدس لكي يأتي ويهب على الجنة ويكثر ثمارها فتحصل على نعم كثيرة. والروح القدس يعمل على مستويين، يجرح ويعصب. فرياح الشمال تحمل الهواء الشديد البرودة، وترمز إلى عمل الروح القدس الأول الذي هو التوبيخ والتبكي، ثم تتبعها ريح الجنوب، التي تحمل الهواء الدافئ، فبعد أن تخضع النفس للتوبيخ والتبكي، يهبّ الروح القدس كريح جنوبية فيلاطف النفس ويعزيها. ويقول الكتاب: "الروح الذي حلّ فينا يشاق إلى الحسد" (يع ٤: ٥)، وهذا توبيخه. ولكن بعد الاستجابة له "يعطي نعمة أعظم" وهذه هي التعزية المتمثلة بريح الجنوب.

"اسْتَيْقِظِي يَا رِيحَ الشَّمَالِ، وتعالِي يا رِيحَ الْجَنُوبِ"، وأيضاً تحمل معنى آخر، فريح الشمال تشير إلى التجارب والضيق التي تدخل فيها النفس، كما فعل الروح القدس مع الرب يسوع، ويقول الكتاب: "ثُمَّ أُصْعِدَ يَسُوعُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ مِنَ الرُّوحِ لِيُجَرَّبَ مِنْ إِبْلِيسَ" (مت ٤: ١)، ولكن بعد ريح الشمال لفحته ريح الجنوب، الريح الدافئة الهادئة، فبعد التجربة في البرية يقول الإنجيلي متى: "وَإِذَا مَلَائِكَةُ قَدْ جَاءَتْ فَصَارَتْ تَخْدُمُهُ".

والاثنتان ضروريان لنمو النفس، فعندما تتوالى ريح الشمال وريح الجنوب على جنة النفس، ماذا يحصل للنفس؟ تقول العروس: "فَتَقَطَّرْ أَطْيَابُهَا"، فتفوح الروائح الطيبة من جنتها. كما حصل مع بولس عندما ذهب إلى مدينة فيلبي، فهبت عليه ريح الشمال، فقبضوا عليه وضربوه ثم ألغوه في السجن. فقال له الرب: لا تخف يا بولس فسوف يعقبها ريح الجنوب فتدفي قلبك، وهكذا كان، فأمن سجان فيلبي مع كل أهل بيته (أع ١٦: ٢٢ - ٣٤).

وبعد أن تمتعت النفس بعمل الروح القدس في حياتها، وخضعت لتوبيخه وقبلت حمل الصليب برضى، فبدأت تثمر، قالت: "لِيَأْتِ حَبِيبِي إِلَى جَنَّتِهِ وَيَأْكُلْ ثَمَرَهُ النَّفِيسَ"، فبعد نضوج الثمر، وجَّهت الدعوة للمسيح لكي يأتي ويرى الثمار النفيسة التي في داخل الجَنَّة. واللذيذ في كلامها الكلمة الرائعة التي قالتها "ليأت حبيبي"، فهذه الكلمة تفرّح قلب المسيح، فالجَنَّة جَنَّتُهُ هو، والثمر ثمره هو، ولكن هو حبيبها هي. والجَنَّة التي كانت مغلقة أمام الجميع فتحت أبوابها اليوم لمسيحها، وإن كان الروح القدس قد أنعم عليها بثمار، كاللطف والمحبة والفرح، ليس لكي تدخل الغرباء لكي يتمتعوا بهذه الثمار، فاللطف الذي يهبني إياه المسيح هو من أجل أن أتعامل به مع أولاد المسيح، وأيضاً المحبة والفرح والسلام تهئ النفس لكي يأتي الحبيب إلى جَنَّتِهِ وإلاّ فإنها تكرر ما فعله الابن الضال عندما أخذ أموال أبيه وبذرها بعيش مسرف على الزواني والخطاة والغرباء. فهذه الثمار هي للرب وحده.

(٥: ١) "قد دخلتُ جَنَّتِي يا أختي العروسُ. قَطَفْتُ مُرِّي مع طيبي. أَكَلْتُ شَهْدِي مع عَسَلِي. شَرَبْتُ حَمْرِي مع لَبَنِي. كلوا أيّها الأصحاب اشربوا واسكروا أيّها الأحياء".

الرب يسوع واقف على الباب يقرع، والإنسان لا يفتح له إلاّ بعد أن تعصف بحياته الرياح، ريح الشمال تارة وريح الجنوب تارة أخرى، فيجتاز التجارب والضيقات تارة، وينعم بالسلام والتعزية تارة أخرى، وهذا ما اختبرته العروس، لذلك دعتّه للدخول إلى الجنة. وما إن قالت العروس: "ليأت حبيبي إلى جَنَّتِهِ"، حتى لبى المسيح دعوتها على الفور ودخل، فلم يؤجل ولم يماطل، لأنّه متشوّق للقائها بعد أن وقف طويلاً يَنْطَلُعُ مِنَ الْكُؤَى، يُوصِوُصُ مِنَ الشَّبَابِيكِ، منتظراً منها كلمة لكي يهرع إليها "ادْعُوهُ وهو قريب" (إش ٥٥: ٦).

وبالعودة إلى الكلمات التي قالها الرب للعروس يمكننا أن نتصور ماذا فعل في الجَنَّة، فقال أولاً: دخلت، ثُمَّ قَطَفْتُ، ثُمَّ أَكَلْتُ، وأخيراً شربت. فالرب دخل إلى الجَنَّة وبدأ يجول بنظره على أشجار الجَنَّة فرأى ثمارها الناضجة الجميلة فمد يده وقطف

وأكل، وبعد أن شبع، شرب وارتوى. فالرب يفرح جداً عندما يتواجد في وسط أولاده، في وسط شعبه، ووسط كنيسته، لذلك قال: أختي العروس. وفي القديم عندما كان الشعب يخطئ كان يقول الرب لموسى: شعبك، وكأنه ليست له علاقة بهم، وأيضاً كان يقول: أعيادكم ورؤوس شهوركم، فيفصل بينه وبينهم، فالخطيئة تفصل الإنسان عن الله. ولكن عندما كان يفرح بهم، كان يقول: شعبي. فالرب يفرح بنا ويشبع ويرتوي بنفسنا عندما نأتي إليه أو ندعوه إلينا.

"قَدْ دَخَلْتُ جَنَّتِي يَا أُخْتِي الْعُرُوسُ. قَطَفْتُ مَرْيَ مَعَ طِيبِي"، والمرّ يرمز للألم، فالمسيح عندما دخل إلى جنة النفس وجدها متألّمة وتتحمّل الضيقات من أجله "وَتَكُونُونَ مُبْعِضِينَ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ لِأَجْلِ اسْمِي" (مت ٢٤: ٩)، ولأنّها تتحمل المرّ وتتألم من أجله حوّل ألمها إلى فرح، ففي بداية الطريق الروحي تستثقل النفس مرارة الصليب ولكن ما إن تتقبّله برضى حتى يتقرّب منها المسيح ويحوّل المرارة إلى عذوبة.

"أَكَلْتُ شَهْدِي مَعَ عَسَلِي. شَرِبْتُ خَمْرِي مَعَ لَبْنِي"، فقد وجد في داخلها أطيبه وشهده وعسله وخمره ولبنه، لقد وجد في داخلها ثمار الروح القدس، ففرح وتعزى فالذي يفرّح قلب الرب هي النفس المثمرة.

"كُلُوا أَيُّهَا الْأَصْحَابُ اشْرَبُوا وَاسْكُرُوا أَيُّهَا الْأَحْبَاءُ"، فعندما رأى المسيح النفس بهذه الحالة الروحية المتقدّمة بدأ يدعو الآخرين، الملائكة والقدّيسين، لكي يأتوا ويروا جمال هذه النفس.

الفصل الثامن

(الأصحاح ٥ : ٢ - ٩):

لقد عبرنا إلى الآن على ست محطات أساسية، لا بد أن تجتازها كل نفس سالكة في طريق الحب الإلهي، وفي هذا الفصل سوف نبدأ المرحلة السابعة التي هي وللأسف مرحلة ضعف، لا بل تعتبر من أدنى الدرجات التي وصلت إليها النفس في سفر النشيد، وهذه المرحلة طويلة بعض الشيء وتمتد من الآية الثانية في الأصحاح الخامس إلى الآية الثانية عشرة في الأصحاح السادس. وكما كانت مرحلة النمو نافعة لنا وتشتمل على دروس مفيدة لحياتنا الروحية، كذلك مرحلة الضعف نافعة لنا أيضاً، "لأن كل ما سبق فكُتِبَ، كُتِبَ لأجل تعليمنا" (رو٥: ٤).

ومع أنها ليست المرة الأولى التي تجتاز فيها النفس فترة ضعف، إلا أن الأسباب اختلفت، فقد سبق لها ومّرت في مرحلة ضعف في المرحلة الخامسة، وقد عبّرت عنها بالقول: "في الليل على فراشي طلبت من تحبّه نفسي"، واليوم في المرحلة السابعة تقول: "أنا نائمة وقلبي مستيقظ". وإذا كانت الحالتان تتسمان بالضعف لكنّ الفارق ما بين الاثنين كبير.

ففي المرحلة الخامسة ضعفت النفس بعد أن ألزمت بالدخول في مرحلة الفطام الروحي، فهي قد اجتازت فترة تخلّي من الله وليس لعيب فيها بل لأجل التنقية، ولا أقصد بقولي هذا، أنها بلا خطيئة، لا أبداً، ففي حياتها ضعفات ولكنها كانت تعيش وتجاهد دون أدنى تغيير في سلوكها، فكانت منتظمة في القانون الروحي ومواظبة على الصلاة وعلى الحضور إلى الكنيسة ولم تهمل القراءات الروحية، فهي كما هي، ولم يطرأ أي جديد في حياتها، فهي تعي ضعفات وتجاهد لكي تقوى عليها، ولكن فيما هي سالكة بجديّة في الطريق الروحي، وإذ فجأة بدأت تشعر وكأنّ الله بعيد، قد تخلّى عنها وتركها، ففقدت التعزية والفرح، وما حلّ بها ليس جراً خطاً ارتكبته أو ذنب اقترفته، بل لأنّ الله قرر أن يفظمها بعد أن حان أوان القضب، وجاء وقت التنقية،

لأنَّها نفس مثمرة، "وكلُّ ما يأتي بثمرٍ يُنْقِيه ليأتي بثمرٍ أكثر" (يو ١٥: ٢)، فهذه كانت طبيعة الطريق في المرحلة الخامسة.

ولكنَّ الضعف الذي تملَّك النفس في المرحلة السابعة جاء نتيجة تقصيرها وإهمالها في الممارسات الروحيَّة واقترافها الأخطاء، فبعد أن كانت سالكة بأسلوب يرضي الله، وإذا بسلوكها يتغيَّر وحياتها الروحيَّة تتحرف. ولنا من هذه المرحلة درس يستحق أن نقف عنده. فطبيعة الطريق الروحي تفترض ارتقاء النفس بعد كل مرحلة إلى قَمَّة، وإنَّ كانت المراحل تتشابه ولكنَّ القمم تتفاوت، فهي كانت ترتقي من قَمَّة إلى قَمَّة أعلى، إلى أن وصلت إلى أعلى قَمَّة في المرحلة السادسة، ومن بعدها مباشرة كانت مرحلة السقوط المروع. وهنا الدرس: فالصعود إلى القمَّة سهل ولكنَّ الصعب! الثبات على قَمَّة الجبل.

فمن السهل أن يقف الإنسان عند سفح الجبل، ولكن الصعوبة تكمن عندما يبدأ يتسلق الجبل، فكلما يصعد ويرتقي كلما تشدَّت التيارات، مما يعني أنَّ عليه بذل المزيد من الجهد لكي لا ينقهقر إلى الوراء، فالذي يتسلَّق الجبل ويبلغ القمة فليحذر من السقوط، لأنَّ الحروب فوق تكون أشد، ففي كل مرَّة يشعر الإنسان أن يد المسيح بدأت تظهر في حياته، ويتحسس في داخله أنَّه حصل على نعمة، فليحرص جداً كي يثبت ويبقى قائماً، "إِذَا مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ قَائِمٌ، فَلْيَنْظُرْ أَنْ لَا يَسْقُطَ" (١كو ١٠: ١٢). لذلك قيل: "ما أسهل على الإنسان احتمال الصليب بالرغم من كل ما في الصليب من آلام، لكن ما أصعب عليه احتمال قوَّة القيامة". لأنَّه من السهل عليه أن يحتمل في فترات الضعف مقارنة مع وقت القوَّة ووقت القمَّة، وهذا الواقع يجعلنا نفهم ما هو سر اتضاع القديسين.

لهذا لا نقدر إلاَّ أن نثمن سفر نشيد الأنشاد على ما يحتويه من أسرار للحياة الروحيَّة في جميع دقائقها، فيكشف لنا عن طبيعة الطريق التي شهد واختبرها فيما بعد، جميع الآباء الذين سلكوا فيها. فما نوره من حقائق عن معالم الطريق الروحي ليس اجتهداً فكرياً أو تفسيراً للمعاني، بل هو تعبير عن خبرة حياة حقيقيَّة قد عاشها آباؤنا القديسون بدموع وميطانيات فكشفوا لنا السر الذي في هذا السفر.

إذاً، فالنقطة المحوريّة هي الخوف من أن يعقب المرحلة السادسة المرحلة السابعة التي هي مرحلة السقوط إن لم تكن النفس محترسة، من هنا تعلّم القديسون الاتضاع، فعندما كان يحصل القديس على نعمة، كان يحرص كل الحرص كي لا يفقدها، وحتى أن تجلّت هذه النعمة في أبسط الأمور، كأن يشعر بتعزية في صلاة القداس، فكان يخرج والحرص يملأ قلبه، لأنّ طبيعة الطريق تفترض أن يعقب النعمة حسد عدو الخير. وهذا ما استشعرته كنيستنا الحكيمة فنصحت أولادها بعدم البوح بالنعمة التي أفاضها الرب يسوع في حياتهم، بخلاف كنائس أخرى، مع محبتنا الشديدة للجميع، التي تشجّع أبناءها الذين يحصلون على نعمة أن يتكلّموا عن اختباراتهم الروحيّة، ولا أحمل في كلامي هذا إدانة لأحد فالكل أعضاء في جسد المسيح وفي كنيسة المسيح، ولكني أشتي من كل قلبي أن تتيقن كل نفس، من الأسرار الروحيّة هذه، حتى تجنّب نفسها صعباً وآلاماً كثيرة.

وإذا كان بولس الرسول قد تكلم يوماً عن نفسه ليس لشيء إلاّ إزعاناً لإلحاح الروح القدس ومن أجل إيمان الكنيسة، حتى أنّه بعد أن تكلم عن نفسه، أردف قائلاً: "قد صرتُ غيباً وأنا أفتخر، لكن أنتم ألزمتُموني" (٢كو ١٢: ١١)، فبولس يعتبر أنّ الكلام عن نفسه وإن كان بهدف المشاركة بخبراته الروحيّة، فيه ضرب من الغباء. وإذا ما اعترضنا على قول بولس وقلنا له: "لكن يا بولس أنت تتكلم عن عمل المسيح فيك!" فسوف يرد ويقول لنا: "لكن يوجد شيطان لا يحتمل أن يحصل الإنسان على نعمة!".

لذلك لا نشجع من حصل على نعمة أن يخبر الناس عنها "لأنّ على كل مجد غطاء" (١ش ٤: ٥)، إن أردنا أن نتكلم عن نعمة الله فنتكلم عن القديسين فما تعلّمناه من آبائنا ليس كلاماً بل تلمذة حياة. لذا فكل إنسان يداري على نفسه. والإنسان الذي لمس حضور الله في حياته فليدع هذا الأمر سرّاً بينه وبين الله، فالرب لم يعمل في حياته لكي يتكلم.

وينسحب الأمر نفسه على المعجزات التي يجريها الرب مع البعض بصلوات القديسين، فليس الغرض منها نشرها في كتب، بل هي عمل محبة من أجل توبة

وخلص النفس التي حصلت معها المعجزة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالقديس أيضاً لا يسعى وراء مجد أو اكرام، وكما قال المسيح: "مجداً من الناس لست أقبّل" (يو: ٥: ٤١).

ومن الآباء الرائعين الذين نتعلم منهم في كنيستنا، البابا كيرلس، الذي خرج في أحد الأيام وكعادته بعد انتهاء القداس لكي يلتقي الناس، وكلنا يعرف محبة قلبه الكبيرة، وبدأ يوزّع عليهم لقمة البركة، فتقدّمت منه سيدة ترافقها ابنتها الصغيرة لتأخذ البركة، فنظرت الفتاة الصغيرة إلى وجه البابا وصرخت: "يا ماما، يا ماما، وجه البابا منور". "من أفواه الأطفال والرُضع هيأت تسبيحاً" (مت ٢١: ١٦)، فالأطفال يمتلكون حاسة روحية أفضل بكثير من الكبار. فخرج الكلام من فم الطفلة بعفوية، ووصل إلى مسامع البابا كيرلس! وأي إنسان يضع نفسه مكان البطريك سوف يبتهج بالكلام، ويقول في نفسه: "لا عجب، فالرب يرفع المصباح ويضعه على المنارة"، فهذا كلام إي إنسان، ولكن ليس البابا كيرلس! أمّا البابا فما أن سمع كلام الطفلة حتى قال بلهجته المعهودة: "يارب احفظنا، يارب احفظنا". وتوقف حالاً عن توزيع لقمة البركة وتوارى عن الأنظار إلى داخل الهيكل.

فلماذا اضطرب البابا القديس مع أنّ ما حصل أمر طيب ويدعو للافتخار؟ لأنّه يعلم أنّها نعمة، وسوف يعقبها حرب شديدة من الشيطان. لذلك كان القديسون ينسحقون عندما يحصلون على نعمة، لأنّهم كانوا يخافون، بكل ما في كلمة خوف من معنى "تَمَمُوا خَلاصَكُمْ بِخَوْفٍ وَرَعْدَةٍ" (في ٢: ١٢). والإنسان الذي يحصل على نعمة إن كان في صلاة أو في قداس، أو في حياته، أقول له بصدق وبصراحة: "خف على نفسك!"، لأنّ الشيطان لن يقف مكتوف اليدين، ولن يسكت. لذلك أشدد على أنّ ما يحصل مع النفس هو درس صعب، لأنّ الوصول إلى القمّة سهل لكنّ الاحتفاظ بالنفس قائمة على القمّة لهو أمر في غاية الصعوبة.

من هنا ندرك أنّ السبب الذي يجعل الله يرفع النفس بمقدار شحيح هو الضعف الذي هي فيه، فالمسيح يقول لها: "على قدر قوّة اتضاعك سوف أرفعك، وما دمت

ضعيفة لن أرفعك إلى العالي، لأنك إن وقعتِ سوف تتحطمين، فالأفضل أن ترتقي بقدر يتناسب مع ضعفك، لذا سوف أرفعك بالكاد درجة حتى إذا ما سقطت يكون باستطاعتك أن تنهضي من جديد". فالله يرفع الإنسان بمقدار صغير، لأنه لا يملك قوة لاحتمال النعمة، فيعطي كل واحد على قدر قامته، لأن الذي يقع من الطابق الأول سوف يقف ثانية حتى ولو انكسرت رجله، أمّا الذي يقع من الطابق العاشر فسوف يسقط ميتاً. فالمسيح يشتهي أن يرفع الإنسان إلى فوق، إلى الأعالي، إلى ملء قامته "إلى أن ننهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله. إلى إنسان كامل. إلى قياس قامة ملء المسيح" (أف ٤: ١٣)، ولكن الإنسان لا يحتمل.

وإن بحثنا في حياة القديسين نجد أيضاً من الدروس لحياتنا الروحية، أمثال إيليا النبي الذي ترعّ على قمة المجد على جبل الكرمل في أبهى صورة رأيناها في العهد القديم، فوقف لوحده، ووقف كل الشعب مع أنبياء البعل والسواري، وقال لهم: "صلّوا واصرخوا لإلهكم لعله في خلوة أو نائم فينتبه". فصرخوا بصوت عالٍ ولكن دون جدوى، فلم يكن صوت ولا مجيب. ثم بنى إيليا مذبحاً ووضع عليه الذبيحة وصلّى إلى الرب، فنزلت نار وأكلت الذبيحة ولحست المياه. (١مل ١٨ : ٢٧ - ٣٩)، فكانت هذه اللحظة قمة المجد لإيليا. ولكن بعد هذا الحدث مباشرة، وما إن نزل من الجبل، أرسلت له إيزابيل رسولاً تقول: "إن لم أجعل نفسك كنفس واحدٍ منهم في نحو هذا الوقت غداً" (١مل ١٩ : ٢). فخاف إيليا عند سماعه تهديد إيزابيل. وهرب رغم أن تهديدها مجرد كلام ولو كانت تستطيع أن تقتله فعلاً فلماذا تؤجل الأمر إلى الغد! ولا تقتله اليوم! فهي تهدف من وراء كلامها إلى إخافة إيليا.

ولكن الخوف جعل إيليا ينحدر ويتهاوى ويسقط سقوطاً شديداً، فذهب ورمى بنفسه تحت الرتبة وطلب الموت لنفسه، وقال: "خُذْ نَفْسِي لِأَنِّي لَسْتُ خَيْراً مِنْ آبَائِي" (١مل ١٩: ٤)، فقال له الرب: ما لك ههنا يا إيليا؟ فلا زال أماننا عمل كثير كأن يدعو الجميع إلى التوبة، فالله قد تمجّد معه فاعترف للشعب إنّ الرب هو الله، واكتشفوا كذب الأنبياء، فكان المفروض أن يكمل العمل بأن يعلم الشعب الشريعة

والعبادة. ولكنه هرب بحجة قتلوا أنبياءك بالسيف وبقيت أنا وحدي وهم يطلبون نفسي ليأخذوها.

فبعد القمة والمجد انحدر إيليا إلى هذا الدرك، وما حصل مع إيليا هو درس لكل إنسان لكي يحترس ولا يثق في ذاته مطلقاً. لا سيما الأشخاص الذين يعتقدون أنَّ عندهم مناعة ضد الخطايا، فتسمع أحدهم يقول: "هذه الخطيئة لم أعد أقترفها منذ عشرين سنة". وتسمع آخر يقول: "هذه الخطيئة لم أرتكبها حتى في عمر الشباب". والحقيقة أنه: لا أحد في أمان من الحروب الروحية! ولا أحد يثق في ذاته، فليس أحد منزهاً عن فعل أي خطيئة.

وأذكر ما رواه أب كاهن عن رجل جاء إليه ليعترف، وكان هذا الرجل شيخاً كبيراً وجداً له أحفاد. فقال له: "لقد اقترفت خطيئة لم أتجرأ على فعلها حتى وأنا شاب في سن المراهق"، ثم تابع والدموع تنهمر من عينيه: "لقد زني!" وقال أبونا: "لأول وهلة اعتقدت أن الرجل زنى بالفكر، ولكنّه أكّد لي وقال: لقد زني بالفعل، فاركتبت خطيئة وأنا عجز لم أرتكبها وأنا شاب". فانذهل الكاهن وارتبك وذهب إلى أب اعترافه، والتعب يثقل قلبه، فلم يكن ليتصوّر ما فعله هذا الرجل الشيخ، لا سيما وأنّه لم يمض على رسامته كاهناً سوى سنوات قليلة. وبعد أن أخبر القصة لأب اعترافه وكان المنتيح أبانا ميخائيل إبراهيم، قال له: الرب يريد أن يعلمك من اعتراف هذا الرجل درسين، أولاً: أن لا تثق في ذاتك مطلقاً. وثانياً: مهما تقدّمت في العمر لا تستبعد أن تقترف أي خطيئة ولا تقول في نفسك: يستحيل أن أفعل هذه! لأنّ الواقع قد أثبت أن لا أحد معصوم إن لم تحفظه نعمة الرب.

وفي سفر اللاويين ذُكرت خطايا لا تخطر على بال أحد، تدهشك لا بل تشمئز من ذكرها، ومنها نهى الإنسان عن مضاجعة بهيمة، وقد تقول باستغراب: وهل يعقل! لكن هذا ما تفعله الطبيعة البشرية. ومَرّت الأيام والسنون وضاع إنسان غوريلا، وكانت النتيجة ظهور مرض الإيدز. وما دام الكتاب قد ذكر هذا الأمر فهذا يرجح إمكانية حدوثه، وإلا لماذا نهى الرب عن هذه الخطيئة! فهو يعرف الإنسان أكثر مما

يعرف الإنسان ذاته، ولا يعتقد أن أحد أنه منزّه عن اقتراف هذه الخطيئة، ولا يثق أحد في ذاته، فلولا أن النعمة تحفظ الإنسان فليس هناك أمان للطبيعة البشريّة مطلقاً، وهذا درس مهم جداً يريد المسيح أن يعلمه لنا.

فبعد أن رافقنا عروس النشيد أو النفس في الفصلين السابقين تسلفها سلم الحب الإلهي، سوف نتابع معها لكي نتعرّف إلى أسباب اندارها المروع.

(٢ : ٥) "أنا نائمةٌ وقلبي مُسْتَيْقِظٌ. صوت حبيبي قارِعاً: افْتَحِي لي يا أُخْتِي، يا حبيبتي، يا حَمَامَتِي، يا كَامِلَتِي! لَأَنَّ رَأْسِي امْتَلَأَ مِنَ الطَّلِّ، وَقُصَّيِي مِنْ نُدَى اللَّيْلِ".

فالآية بمعناها البسيط تحكي عن فتاة نائمة، جاء إليها ضيف في زيارة مفاجئة وقرع باب بيتها، ومن المعروف أن الزيارات الفجائية مزعجة، لأنّ الإنسان يكون غير مستعد لاستقبال زائريه. أمّا المعنى الروحي فيشير إلى مجيء المسيح لزيارة هذه النفس بصورة فجائية! فيما هي نائمة وغير مستعدة للقائه. ولكن، ماذا عنا نحن؟ فعندما نأتي إلى الكنيسة، ننظر حولنا فنرى كل من حولنا على أفضل ما يكون، فنجدّه مهياً نفسه كما ينبغي للدخول إلى بيت الله، يريد أن يصلّي ويعترف ويسمع كلمة الرب ويتناول جسده، و... و... الخ. ولكن لو جاء المسيح فجأةً إلى بيته أو إلى مكان عمله، فكيف سيجدّه؟ وبأيّة حال؟ فكل واحد يسأل نفسه! أو لنتصوّر أنهم وضعوا لكل واحد منا آلة تسجيل لكل ما يتفوه به، في البيت أو في العمل أو مع الأصحاب ثم يعاد سماعه! أو لنتصور أنهم دسوا خلسة في غرفته كاميرا تصوره وتراقب تحركاته دون علمه، ثمّ يعرض الفيلم أمام الجميع، فماذا ستكون النتيجة؟ لا أعتقد أن أحداً سوف يحتمل النتيجة لأنّها سوف تكون كارثيّة. وعلى ذات المبدأ نفترض لو جاء المسيح فجأةً لزيارة كل نفس منا فكيف يكون حالنا؟ فسوف يكون للأسف مثل حال هذه العروس التي كانت نائمة، غافلة عن كل ما يجري، وغير مستعدة لاستقبال المسيح.

فالنفس مستغرقة في النوم ولم تعد في حالة يقظة روحيّة، والمفترض بأولاد الله أن لا يناموا طالما هم في العالم، بل يكونوا في يقظة دائمة، فالوقت هو وقت استيقاظ،

لأنَّه "قد تناهى الليل وتقارب النهار"، كما يقول القديس بولس (رو١٣: ١٢)، فقد شارف الوقت على النهاية، لذا يجب على كل مؤمن أن يكون مستعداً فلا ينام، وحتى إن نام، فلينم وهو مرتدي ملابسه، فلا يقول "قد خلعت ثوبي"، مما يعني استعداداً كاملاً، فهو لا يخوض حرباً روحية في فترة محددة فيحترس، ثم ينتقل إلى فترة أخرى فيستريح ويتراخي، لأنَّ الشيطان لا يستريح، وحربه مستمرة فلا تتوقف فترة ثم تستمر فترة أخرى، فهو كما يقول الكتاب "لأنَّ إبليس خصمكم كأسدٍ زائر، يجول ملتصقاً مَنْ يبتلعه" (١ بط ٥: ٨)، وبما أنَّ العدو لا ينام، فعلى المؤمن ألا ينام أيضاً، بل يكون في سهر مستمر وعلى استعداد تام في أي وقت، "اسهروا إذْ لأنَّكم لا تعلمون في أيَّة ساعة يأتي ربُّكم" (مت ٢٤: ٤٢). فعلى المؤمن أن يبقى في استعداد تام كما يفعل الجندي في حالة الطوارئ، فيرتدي زيّه كاملاً، وإن أراد أن ينام فلا يخلع ملابسه بل ينام في زيّه العسكري، ويده على الزناد، لأنَّ العدو قد يهاجمه في أيَّة لحظة، ولن ينتظره حتى ينتعل حذاءه ويحضر بنذقيته، فهو في وسط المعركة وعليه أن يكون في استعداد كامل.

ويقول الرب يسوع: اسهروا لئلا تدخلوا في تجربة. ويقول أيضاً: "لوعرف رب البيت في أيَّة ساعة يأتي السارق لسهر" (لو١٢: ٣٩)، فلا أحد يعرف موعد مجيئه، مما يحتم على الإنسان السهر الدائم، لئلا يأتي إبليس السارق ويسرق. لذا على أولاد الله أن يكونوا باستمرار في حالة استعداد، لأنَّه لا أحد يعلم متى يقول له المسيح: "أعط حساب وكالتك" (لو١٦: ٢). .. تعال، فحياتك على هذه الأرض قد انتهت، وأوراقك أصبحت أمامي.. وحينها لن يستطيع أن يقول له: انتظرنني قليلاً حتى أفعل كذا، أو أمهلني حتى أصلح الأمر الفلاني"، لأن الأوان يكون قد فات. وقد تأتي هذه اللحظة وهو في الشارع أو في الكنيسة أو في البيت، فلا أحد يعلم الوقت، لذا فكل واحد يراجع نفسه، هل هو مستعد؟

وسفر القضاة يخبرنا عن جدعون الذي ذهب ليحارب المديانيين (قض٧: ١-٨)، فذهب معه اثنان وثلاثون ألف رجل. فقال الرب لجدعون: "عدد الرجال الذين معك كثير، فقف الآن في وسطهم وقل لهم: مَنْ كان خائفاً ومرتبداً فليرجع وينصرف".

وهذه كانت وصية الرب في سفر التثنية، فالرجل الخائف والضعيف القلب لا يذهب إلى الحرب، لئلا يؤثر على رفيقه (راجع تث ٢٠: ٨)، فوقف جدعون وقال لهم: "مَنْ كان خائفاً فليرجع!". فرجع اثنان وعشرون ألف رجل، وبقي عشرة آلاف. وهؤلاء العشرة آلاف سوف يحاربون مئة وثلاثين ألف رجل، ومع ذلك قال الرب لجدعون: "لم يزل عدد الرجال كثيراً". فقال له الرب: "انزل بهم إلى الماء فَأَنْقِئِهِمْ لَكَ هُنَاكَ". فنزل جدعون بالجنود إلى الماء. وقال الرب لجدعون: "كل الرجال الذين يجثون على ركبهم ليشربوا، لا يذهبون إلى الحرب، بل يرجع كل واحد إلى مكانه. أمّا الرجال الذين يلغون بيدهم إلى فمهم فتأخذهم ليحاربوا معك". وبعد عملية الفرز استقرّ العدد على ثلاث مئة رجل فقط. فالرب قد اختار أناساً تعرف أن تتصرّف في حالة الحرب. وهكذا الحرب الروحية أيضاً بحاجة إلى شجاعة ولا تحتمل الخوف.

وأيضاً رأينا صورة الاستعداد البديعة هذه، مع نحميا، الذي قال: "ولم أكن أنا ولا إخوتي ولا غلماني ... نخلع ثيابنا" (نح ٤: ٢٣)، فلم يكن عندهم وقت لتبديل ملابسهم، فكانوا يعملون ليلاً ونهاراً لمدة اثنين وخمسين يوماً متواصلة لبناء السور، وهذه المدة تشير إلى ليل العالم على المستوى الروحي، فكل ساعة لا بل كل لحظة مكرّسة للرب، بعكس المثل السائد: "ساعة لقلبك وساعة لربك"، فهذه المعادلة ليس لها مكان في حياة الإنسان المسيحي. ولكن كيف وفق نحميا بين بناء السور ومحاربة الأعداء؟ فقال: "بَالِيدِ الْوَاحِدَةِ يَعْمَلُونَ الْعَمَلَ، وَبِالْأُخْرَى يَمْسُكُونَ السَّلَاحَ" (نح ٤: ١٧)، فكانوا على أتم الاستعداد على كافة الأصعدة. وهذا ما يجدر بالإنسان المسيحي أن يفعله، فإن كان في الوظيفة أو كان يعمل في البيت، عليه أن يكون في يقظة دائمة، يعمل بيد ويمسك السلاح باليد الثانية لمحاربة إبليس.

من هنا يمكننا أن ندرك معنى آخَر لقول العروس: "أَنَا نَائِمَةٌ وَقَلْبِي مُسْتَقِظٌ"، فعندما تنظر إليها تخالها نائمة على السرير وتبدو في راحة واسترخاء، ولكن من الداخل يعتريها القلق. وهذه الحالة قد يعاني منها البعض في ليالٍ كثيرة فيضع رأسه على الوسادة ولا يجد إلى النوم سبيلاً، وبدل أن يكون السرير مكان راحة يتحوّل إلى مكان تعب وانزعاج. وهكذا العروس، فتبدو ظاهرياً أنّها مرتاحة، ولكن في الحقيقة هي

مضطربة من الداخل، لماذا؟ لأنَّ المسيح في الخارج واقفا خلف الباب وليس معها في الداخل. وهذا ما يحدث مع البعض في أكثر الأحيان، فيظن أن "سرير راحته" في أمر معين، فيسعى للحصول عليه، ولكنَّه لا يجد راحة، لأنَّ ما سعى وراءه ليس فيه المسيح، أو يظن أن منتهى الراحة في علاقة معينة ولكنَّه لا يجدها، لأنَّ هذه العلاقة ليس فيها المسيح. فالإنسان في عدم يقظة منه يختار لنفسه أموراً يظن أنه سوف يجد فيها راحته ولكنه لا يجدها. فكيف يعرف أن يميِّز؟ فالذي يساعده على التمييز هو السؤال التالي: هل ما ترغب به يرضى به المسيح؟ فإن كان الجواب: نعم. فسوف تجد فيه راحتك. لكن لو كان ما تسعى وراءه سوف يبعدك عن المسيح، فلن تجد الراحة أبداً.

وكثيراً ما لهث الإنسان وراء أمور في العالم ظناً منه أنَّ فيها راحته، فخاب أمله، وظلت نفسه مضطربة. ولنا من الكتاب خير مثال، وهو ما حدث مع لوط، لوط الذي كان يرافق أبانا إبراهيم رجل الله، أينما حلَّ أو ارتحل، وكان الرجلان يتقيان الرب ويعبدانه ويعيشان سوية حياة روحية رائعة، إلى أن حدثت مشاجرة بين رعاة مواشي إبراهيم ورعاة مواشي لوط، فقال إبراهيم للوط: "لا تكن مخاصمة بيني وبينك، لأننا نحن أخوان، فالأرض كلها أمامك فاختر ما تشاء". ويقول الكتاب: "رفع لوط عينيه"، لكي يختار، فوقع نظره على أرض سدوم، "ورأى لوط أرض سدوم كجنة الله، كأرض مصر". فدهش بها فاختر سدوم، ظناً أنه يجد راحته، كأن لسان حالة يردد سريري في سدوم. ولكن غاب عن بال لوط السؤال التالي! هل سيدخل الرب إلى سدوم؟ ومَرَّت الأيام، وظهر الرب لإبراهيم عند بلوطات ممرا، كما أخبرنا سفر التكوين الأصحاح الثامن عشر، ودخل إلى خيمة إبراهيم، مع أنها مجرد خيمة في الصحراء، لكنَّ الرب وجد فيها راحته. ومن ثمَّ أراد الرب أن يبعث برسالة إلى لوط، فهل تدخل يارب إلى سدوم؟ أو إلى بيت لوط، فقال: لا، بل أرسل إليهِ ملاكين، فقط إلى الساحة الخارجية للمنزل.

ولكن هل وجد لوط راحته في سدوم؟ فمع أنَّه حقق كل رغباته وأصبح رجلاً غنياً، وسكن في بيت بعد أن كان يعيش في خيمة، وتبوأ أعلى المناصب، فصار أحد قضاة

المدينة، وعاش عيشة رغبة، لكنّه لم يرتح، فحاله يشبه حال العروس، "أنا نائمة"، هذا ما يبدو في الظاهر، ولكنّ "قلبي مستيقظ". فظلّ قلبه مضطرباً وقلقاً، وهذا بشهادة الكتاب، إذ قال عنه: "كان البارّ، بالنظر والسَّمْع وهو ساكنٌ بينهم، يُعَذَّبُ يوماً فيوماً نفسه البارّة بالأفعال الأثيمة" (٢بط ٢: ٨). فالعالم يعطي الإنسان سريراً وثيراً، سريراً رحباً، ولكن لن يعطيه الراحة.

وعلى ضوء هذا الكلام، سوف يسأل البعض: هل هذا يعني أن نرفض البيوت الفخمة والمراكز والثروات والغنى؟ في الواقع، ليس لي أن أجيب على هذا السؤال: بنعم أو لا، لأنّ الكلمة الفصل في هذه الأمور تعود للمسيح وحده، فأسأله: هل يرضى أن يذهب معك إلى هذا المكان؟ هل يوافق معك أن تشتغل في هذه الوظيفة؟ فكل ما هو من يد المسيح نجد فيه راحتنا.

وهذه الحقيقة تؤكد أنها قصة لا أستطيع أن أنساها أبداً، كان قد رواها المتتبع الأنبا بيمس أسقف ملّوي، عن رجل تلامس مع نعمة الله ومحبته، وكان هذا الرجل مدير تحرير وصاحب صحيفة يومية في أمريكا، وكانت تنشر على صفحاتها إعلانات عن الخمر وسواها من الأشياء التي تتنافى مع مبادئ الإنجيل، إلى أن بدأ يقرأ كلمة الإنجيل، فشعر أن ما يفعله خطأ جسيم فاتخذ قراراً بالتوقف عن نشر هذا النوع من الإعلانات، وفي نفس الوقت كتب جملة وضعها على مكتبه، هذا نصّها: "يا ترى لو كان المسيح مكاني، ماذا كان يفعل؟" وكالعادة كان يأتي إليه كل يوم الموظف المسؤول عن الإعلانات حاملاً إليه بعض الإعلانات لأخذ موافقته عليها، فكان ينظر إلى الإعلان ويقول: "لو كان المسيح مكاني، هل كان يرضى أن يوقع على هذا الإعلان؟" واستمر على هذه الحال فترة طويلة، يرفض إعلاناً تلو الآخر، حتى تدنى دخل الصحيفة، وتدهورت أحواله الماديّة، واضطر أن يصرف الموظفين، وأصبح هو الموظف الوحيد في الصحيفة ويعمل كل شيء بمفرده، ولكنّه كان مرتاحاً بالرغم من الانهيار المادي الذي حدث بسبب قراره هذا.

ولكنّ الله أراد أن يكافئه، وإذا بمؤسسة تضم مجموعة من الشركات كانت تبحث عن صحيفة محط ثقة الناس، لكي تعلن فيها عن منتجاتها، فلم يجدوا سوى صحيفة

هذا الرجل أهلاً للثقة، كونها كانت أمينة وصادقة في كل ما تنشره، فتعاقدوا معها، وعادت الصحيفة إلى نشاطها السابق، وزادت مبيعاتها، لكن مع فارق مهم وأساسي، فكل إعلان كان يوقع عليه صاحب الصحيفة كان يتم بعد استشارة المسيح ونيل رضاه. وليس الهدف من سرد هذه القصة هو الناحية المادية، بل الدرس الذي نتعلمه منها. ويبقى السؤال الأهم، الذي يجب طرحه، قبل القيام بأي عمل: "هل يرضى المسيح بهذا الأمر؟"، فهو الذي سوف يجنب الإنسان متاعب كثيرة وفي نفس الوقت يوفر له الراحة.

إذاً، العروس نائمة، ولكن قلبها مستيقظ، لذا أثر المسيح أن يقف خارجاً، وإن كانت هي مرتاحة ظاهرياً، لكن المسيح ليس مرتاحاً في الخارج. ونحن، في أحيان كثيرة، نريد أن يعطينا المسيح ما نظن أنه راحتنا، دون النظر إلى راحته هو. والحقيقة أن راحته هي راحتنا الحقيقية. ونسمع البعض يقول: "يا ربي أنا راحتي في أن تغدق عليّ المال". فيقول له المسيح: "لكن بهذه العطية أنا لن أرتاح!". فيقول له باستخفاف: "لا عليك، المهم أن أرتاح أنا". ونسمع البعض الآخر يطلب من المسيح أن ينعم عليه بالصحة، أو بوظيفة، أو بمنزل، فهو يريد المسيح فقط من أجل تحقيق راحته، فالمسيح واقف في الخارج منزعج، يقرع على الباب، بينما هو في الداخل لا يكثر له، ولا يهتم سوى راحته، دون أن يدري أنه لن يجد راحته إلا في راحة المسيح. فلنكف عن استخدام المسيح لتحقيق ما نظن أن فيه راحتنا. ومن أراد أن يصلي فليقل له: "يارب، ما هي راحتك؟ وهل هذا الأمر يرضيك؟ وهل هذا العمل يفرحك؟ ولو أنا حصلت على هذه الوظيفة، أو على هذا المسكن، أو على هذه الهجرة، هل هذا يرضيك؟ وإن شعرت أن المسيح يرضى بما ترغب به! فكن على ثقة وتأكد أنه سوف يكون موضع راحة لك، ولكن إن تجاهلت رضى المسيح في خياراتك، فلن تجد راحة.

وبعد أن تركت النفس المسيح وبحثت عن راحتها، لم نسمع المسيح يؤنبها، أو يقول لها: "هذا ما جنته يدك". ولم نسمع المسيح يهددها، أو يقول لها: "سوف

أتركك وشأنك كي تعاني الأمرين، ثم تعودين إليّ منكسرة منسحقة، وحينها سوف أنظر في أمرك". لأنّ المسيح لا يتصرّف بهذا الأسلوب، وهذا ليس من شيمه. بل قال لها برقته المعهودة:

"افتحي لي يا أُختي، يا حبيبتي، يا حمامتي، يا كاملتي! لأنّ رأسي امتلاً من الطّل، وقصصي من ندى اللّيل". تصوّروا عذوبة المسيح! فهي رفضته، وفضّلت راحتها على راحته، ومع ذلك ظلّ واقفاً على الباب يقرع، ويقرع تعني يهمس في داخلها، فلمّا قرع ولم تستجب النفس لندائه، بدأ يقول لها كلمات، لم يسبق له أن قالها لها، حتى وهى في قَمّة المجد، فقال: "يا أُختي، يا حبيبتي، يا حمامتي"، ولن نتوقف عند هذه الصفات رغم الغنى الذي فيها، ولكن العجيب أن يقول لها: "يا كاملتي"، فكيف هى كاملته! مع أنّها في منتهى النقص، ويكفي أنّها بحثت عن راحتها دون أن تهتم لأمره! ورغم ذلك يقول لها يا كاملتي. لماذا؟ لأنّ المسيح ينظر إلى النفس في ضعفها، ويقول لها: "لا بأس عليك! فقد غرّرك بك، وأنا أعلم أن الشيطان هو الذي أغواك للسلوك في هذا الطريق."

"صوت حبيبي قارعاً، افتحي لي،... لأنّ رأسي امتلاً من الطّل، وقصصي من ندى اللّيل"، لم يكن للمسيح في تجسّده مكان يأوى إليه. ففي ميلاده، أضجعت أمّه في مذود، "إذ لم يكن لهما موضع في المنزل" (يو ٢: ٧)، وفي حياته، "لم يكن له أين يسند رأسه" (مت ٨ : ٢٠). وأمّا في خدمته، يقول لنا القديس يوحنا في إنجيله: "فَمَضَى كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى بَيْتِهِ، أَمَّا يَسُوعُ فَمَضَى إِلَى جَبَلِ الزَيْتُونِ" (يو ٧: ٥٣ - ٨ : ١). وهناك بات ليلته، في العراء، مفترشاً الأرض، ملتحفاً السماء، وحين نهض في الصباح الباكر وجد شعر رأسه ولحيته، مبللين من الطل ومن ندى الليل. وهذا الحدث لم يحصل من حوالي ألفي سنة فقط، ولكنّه ما زال مستمراً، لأنّ المسيح يقول لنا في سفر الرؤيا: "هأنذا واقفٌ على الباب وأقرع" (رؤ ٣ : ٢٠). فالقصة تتكرر، والمشهد يتكرّر، فالمسيح سوف يظل يقرع حتى نفتح له، ليدخل ويرتاح. وأين يرتاح المسيح سوى في القلب، "ههنا أسكن لأنّي أردته" (صلاة النوم)، فهدف المسيح قلب الإنسان، "يا ابني أعطني

قلبك" (أم ٢٣ : ٢٦). فالمسيح مرفوض من العالم، لكن راحته في أولاده، وفي الكنيسة، وليس في مكان آخر، وهذا لا يعني أن المسيح بحاجة إلى الحب، ولكنه يرتاح عندما يرى أولاده مرتاحين، وهم لن يجدوا راحة بعيداً عنه.

ويُحكى عن رسام، أنه رسم لوحة بديعة جداً، فرسم المسيح واقفاً أمام الباب، ورسم رجلاً يقف خلف الباب في الناحية المقابلة. ثم رسم لوحة ثانية مطابقة لها تماماً، وكتب تحت اللوحة الأولى: "على الأرض"، وكتب تحت اللوحة الثانية: "في السماء". فقالوا له: "وما هو الفرق بينهما؟". فقال: "في اللوحة الأولى مقبض الباب من جهة الإنسان، وله ملء الحرية أن يفتح للمسيح الباب، أو يرفض". فالمسيح لن يقتحم الباب ويدخل عنوةً، ولكنه سيظل يقرع على الباب. "أما في اللوحة الثانية فمقبض الباب من جهة المسيح". وكما يقول المسيح في مثل العذارى: "وأغلق الباب"، وجاءت بقيّة العذارى وقلن له: "افتح لنا". فأجاب وقال: "الحق أقول لكنّ، إني لا أعرفكن". نصلي، ألا يسمح المسيح أن نسمع في ذلك اليوم هذه الكلمات. ولكن لماذا قال لهم إني لا أعرفكن؟ لأنّه عندما طرق على أبوابهن في الأرض رفضن أن يفتحن له، فاحترم حريتهن. وكانت النتيجة أن باب السماء قد أقفل أمامهن، ولا يقصد المسيح أن يبادلهن بالمثل، فالمسيح لا يقايض، ولكن الذي يفتح للمسيح هو في الحقيقة يفتح لنفسه ليدخل، وفي نهاية المطاف هو الذي سوف يفوز، فحين يدخل المسيح إلى حياته، فسوف يدخله المسيح إلى أبديته.

(٥ : ٣) "قد خلعت ثوبي، فكيف ألبسه؟ قد غسّلت رجلي، فكيف أوسخهم؟".

فالنفس سمعت صوت حبيبها "قارعا"، يهمس في داخلها، مما يعني أنّها أدركت أن أفعالها لا ترضي الرب، وهكذا يفعل المسيح مع كل إنسان يسلك في طريق معوجة، فيسمع صوتاً يتردد في قلبه كالمطرقة يقول له: "ما تفعله خطأ!،" فصوت المسيح واضح وضوح الشمس ولا يترك مجالاً للشك أو الحيرة. وهذا ما شعرت به النفس، ورغم ذلك لم تتراجع، بل قالت له: "قد خلعت ثوبي"، والثوب يشير إلى السلوك. فهي تقول للمسيح بكل صراحة: لم يعد سلوكي كما يجب فقد جنحت، ورجلي داست طريقاً لم أعد

أعرف كيف أرجع منه. فهذه النفس قد تاهت، ورغم ذلك يقول لها المسيح: افتحي لي. فترفض متذرعة بأنها إنسانة سيئة، فالمسيح يعرف الدرك الذي انحدرت إليه، ولهذا جاء إليها يقرع بابها علّها تفتح له، فيكسو عريها بعد أن خلعت ثوبها ويلبسها الحلة الأولى، ويغسل لها رجليها التي سلكت في طرق ملتوية.

وموقف هذه النفس، ينسحب على الكثير من الذين يتمتعون عن المجيء إلى الكنيسة بحجة أنهم خطاة، فلا يوجد أحد بلا خطيئة، وكما نصلي في القداس عن جسد الرب ودمه: "يعطى لمغفرة الخطايا"، وما على الخاطي الذي يأتي إلى القداس سوى أن يحمل في قلبه رغبة صادقة في التوبة. فنحن نأتي إلى المسيح ليس لأننا أنقياء، بل تلبية لدعوة المسيح الذي قال: "لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب، بل المرضى. لم آت لأدعو أبراراً، بل خطاة إلى التوبة" (مر ٢: ١٧)، فيا ليتنا نعي هذا الدرس ونفتح للمسيح لكي ينظفنا وينقينا.

فبعد أن تاهت النفس وتغيّر سلوكها وضعفت، بدأ المسيح يشجعها بالكلمة فأسمعها صوته على مستويين:

أولاً: قال لها: "يا أختي، يا حبيبتي، يا حمامتي، يا كاملتي"، لكي ما يجذبها إليه. وهكذا يفعل مع كل خاطئ لكي يشجعه على التوبة، فالإنسان السالك في طريق الخطية عندما يسمع صوت المسيح يقول له: لم آت لأدعو الأبرار بل الخطاة، يتشجع ويفتح له الباب. وعندما يسمع المسيح يخبره عن إنسان كان له مئة خروف وضلّ واحد منها فترك التسعة والتسعين وذهب يبحث عن الضال حتى يجده، ومتى وجده يضعه على منكبيه فرحاً. أيضاً يتشجع ليكون هو هذا الخروف. وعندما يسمع حوار المسيح مع السامريّة الخاطئة، وكيف احتضنها المسيح ورفعها. أيضاً يتشجع. وعندما يسمع المسيح يكلمه عن زكّا المُحب للمال وكيف حمّله على التوبة. أيضاً يتشجع. فصوت يسوع حبيبي يشجع. وأيضاً لكي يجذب الله الخاطي قال: "إن كانت خطاياكم كالأحمر تبيض كالثلج" (إش ١: ١٨)، فالرب يقول له: فقط تعال، وسوف ألقى في أعماق البحر جميع خطاياك.

ثانياً: حاول أن يستدر حنانها، فقال لها: "رأسي امتلأ من الطل، وقصصي من ندى الليل"، فهو يقول لها: "أنا طوال الليل أقف خارجاً والندى قد بلل رأسي، فافتحي لي". علّها ترق له وتحنو عليه. وهو اليوم أيضاً يحزن قلبي عندما يكلمني عن الصليب. فأنظر إلى صليبه وأسمعه يقول لي: أنا تألمت وجُلدت من أجلك، فافتح لي. ولكن محاولاته هذه مع النفس قد باءت بالفشل، فلم تفتح له. لذا لجأ إلى أسلوب آخر، فماذا فعل؟

(٥: ٤) "حَبِيبِي مَدَّ يَدَهُ مِنَ الْكَوَّةِ، فَأَنْتَ عَلَيْهِ أَحْشَائِي".

أخيراً لم يبقَ أمام المسيح سوى أن يمد يده بعد أن رأى أن الصوت لم يأتِ بنتيجة، ومع أنَّ عمله هذا هو بمنتهى الصعوبة على النفس لكنّه حلو لأنّه يحبها كما يحب كل نفس مثلاً. فهو عندما مَدَّ يده في بداية القصة تألمت النفس جرّاء الضرب والجراحات، وتعرّت، وهذا يعني التأديب! "لأنّ الذي يحبه الرب يؤدّبه، وكأب بابتسامة يسرُّ به" (أم ٣: ١٢)، فالرب لن يترك النفس تضيق وهو مصرّ على عودتها إليه، لأنّها غالية جداً عليه، ولأنّه دفع ثمناً غالياً من أجل خلاصها، فإذا كان الراعي لا يحتمل أن يضيق منه خروف فكيف يرضى الرب أن تضيق منه نفس! فبعد أن حاول أن يجذبها بالكلمات، سواء أكان بكلمات التشجيع أو بكلمات الحب ولم تستجب له، أضطرّ أن يمسك العصا، وعصا شديدة، فألحقت بالنفس الإهانات والجراحات والضرب والعري.

والإنسان الذي تمسّه يد الله، يقف يصرخ للرب ويقول له: لماذا يا ربي تسمح بأن تصيبنني كل هذه الآلام؟ فيقول له الرب: "لقد حاولت مراراً أن أجذبك إليّ باللطف فلم تتجاوب، وأنا أحبّك ولن أتركك تضيق". فالرب يعرض على الإنسان اللطف والصرامة، إمّا أن يستجيب الإنسان باللطف وإلاّ سوف يلزم الله أن يستخدم معه الشدّة.

فاللّه يتعامل مع الإنسان كما يتعامل الأب مع ابنه، فعندما يخطأ الولد يحدق إليه والده تعبيراً عن عدم رضاه عما يفعله، فإن لم يخلج الولد من نظرة والده ويتوقف، ينتقل والده إلى أسلوب آخر، فيتكلم معه موبّخاً فعلته فإن لم يكفّ الولد! يعلو صوت

والده منتهراً إياه بشدة، فإن أصر الولد على متابعة ما يفعله حينئذ يلجأ الأب إلى العقاب. لأنّه حين لا يوجد عقاب فكما يقول الكتاب: "إن كنتم بلا تأديب ... فأنتم تُعول لا بنون" (عب ١٢: ٨). والإنسان بتجاهله لصوت الله، يحمل الله على استخدام الشدة. وهذه الشدة على ما يبدو قد أتت بنتيجة مع عروس النشيد. فبعد أن مدّ حبيبها يده، ماذا فعلت؟ تقول: قمت لأفتح لحبيبي.

(٥ : ٥) "قُمتُ لأَفْتَحَ لِحَبِيبِي وَيَدَايَ تَقْطُرَانِ مِرّاً، وَأَصَابِعِي مُرْقَاطَرٌ عَلَى مَقْبَضِ الْقِفْلِ".

وهكذا وصل المسيح إلى مبتغاه، مع أنّه كان بإمكانها أن تفتح له عندما سمعت صوته وتوفر على نفسها الكثير من الآلام، ولكنّها في النهاية فتحت له. وهذا ما يحدث مع الإنسان، فيشعر أحياناً أنّ كل الأبواب موصدة في وجهه، أو بتعبير آخر "كل ما يصنعه يفشل به"، فكلّما يحاول أن يقوم بأي أمر يكون نصيبه الفشل، وما يحصل معه هو نتيجة لـ "حبيبي مدّ يده"، وهذه اليد التي امتدت عليه هي يد إله يحبه، ولكن الإنسان يعتقد أن الله قد أقفل جميع الأبواب أمامه دون أن يدرك أن هذا عمل الله المحب، لكي يرده عن الطريق الخاطئ الذي يسلكه. لذا أقول لكل إنسان يمرّ في محن مماثلة: اعرف أن الله وصل بك إلى هذه المرحلة بعد أن كلّمك مراراً وبطرق شتى ولم تسمع له ولم تتجاوب مع نداءاته.

وقول العروس: "قمت لأفتح لحبيبي"، يذكرنا بما قاله الابن الضال: "أقوم وأذهب إلى أبي"، ولكن الفرق بينهما أنّ الابن كان في بداية الطريق الروحي، لذلك عندما عاد ضمّه والده إلى صدره وقبله في عنقه، أمّا هذه النفس فلها خبرة وحياة روحية طويلة، لذا فالمعاملة تختلف، فالصغير يعامل بطريقة والكبير يعامل بطريقة مختلفة، ويؤدب الطفل بطريقة ويؤدب الشاب بطريقة أخرى. لذلك عندما فتحت له لم يعانقها، ولكن ماذا فعل؟ تتابع عروس النشيد وتقول:

(٦: ٥) "فَتَحْتُ لِحَبِيبِي، لَكِنْ حَبِيبِي تَحَوَّلَ وَعَبَّرَ. نَفْسِي خَرَجَتْ عِنْدَمَا أَدْبَرَ. طَلَبْتُهُ فَمَا وَجَدْتُهُ. دَعَوْتُهُ فَمَا أَجَابَنِي".

فبعد أن تخلت النفس عن كل ما من شأنه أن يحزن الرب، سواء كان تصرفات أو صداقات أو أعمال، قامت وفتحت له، فإذا به قد رحل! فتفاجأت وتساءلت: "هل تراجع عن محبته؟"، لا، لأن "ليس عنده تغيير ولا ظلّ دوران" (يع ١: ١٧)، فهو لا يتغيّر. إذاً، ماذا يعني: حبيبي تحوّل وعبر! فالمسيح يريد أن يترك هذه النفس في فترة صمت، لكي تبكّ نفسها، وهذه الخبرة مهمة جداً، فهي عندما فتحت له ولم تجده، رجعت إلى نفسها، وتذكّرت كيف كان يتودد إليها وفكرت كم كانت مخطئة في تصرفها معه، فحزنت وندمت لأنها حين سمعت صوته لم تفتح له على الفور. فعندما يقرر الإنسان أن يقوم مما هو فيه ويفتح للمسيح ولا يجده فهذا لا يعني أنّه تحوّل عنه وعبر، أو أنّ محبته له قد تغيّرت، لا. إنما لكي يُترك الإنسان في فترة تأديب بعد أن قضى زمناً نائماً في فترة كسل، فلا بأس عليه إن مكث بعض الوقت في تعب وألم وحزن، وشعر بتخلّي الله عنه، لكي يبدأ ينتبه، فتكون له هذه الفترة، فترة توبة وتعليم.

وهذا ما يحدث عادةً حين يأتي إلى الكنيسة، شخص غريب عن الكنيسة، فترحب به ونحتضنه ونظهر نحوه كل عطف، ونضع أمامه مائدة جسد الرب ودمه. ولكن إذا كان شخص ينتمي إلى الكنيسة ويعيش في الكنيسة، ولسبب ما شرد وتاه وابتعد عن الكنيسة، ففي اليوم الذي يرجع فيه نقول له: يجب أن تقضي فترة تأديب، وتبكيك، لأنك استهترت وتهاونت في حياتك الروحية. كما حصل مع إخوة يوسف حين جاءوا إليه، فتتكرّ لهم وتكلّم معهم بجفاء، لماذا يا يوسف، ألا تحبّهم؟ فقال: بلى أحبّهم، ولكن لكي يتوبوا. وهذا ما حدث فعلاً، فبعد أن عاملهم بجفاء، قالوا: "لقد تذكرنا خطيئتنا، ونحن مذنبون إلى أخينا يوسف". فقد تذكروا خطيئة حدثت منذ واحد وعشرين سنة، مع أنّهم لم يشعروا بالذنب كل هذا الوقت، ولم يتذكروا الخطيئة التي اقترفوها، إلّا بعد أن عاملهم يوسف بجفاء. وهذا ما أراد المسيح أن يوصل النفس إليه، لذلك تحوّل عنها وعبر.

أيضاً يتحوّل المسيح ويعبر لكي يرى مدى جدية الإنسان الذي يطلب المسيح، وهل هو جاد في مطلبه أو إنّه مجرد انفعال عاطفي وشعور عابر وينتهي الأمر عند أوّل صعوبة! أي عندما يطلب المسيح ولا يجده فهل يتراجع! أو يستمر في طلبه؟ فالبعض يتوقف عن البحث، أمّا البعض الآخر فعندما لا يجده يذهب ويبحث عنه، وهكذا يُظهر مدى جدّيته، فبحثه هذا هو امتحان لإرادته وإصراره على المتابعة.

وفي أكثر الأحيان ما إن يبدأ أحدهم يسلك في الطريق الروحي، حتى تسمعه يشكو ويقول لك: "من الساعة التي أتيت فيها إلى الكنيسة والدنيا انقلبت عليّ"، ولا يدري أن هذه هي طبيعة الطريق، لكي يظهر مدى إصراره وقوة إرادته على المثابرة، فلو أن الطريق سهلة لدخل فيها كل الغشاشين. فالحياة المسيحية ليست بساط ريح، إنما طريق صعبة تتطلب جدية. فما إن يفتح الإنسان حتى يتحوّل المسيح ويعبر حتى يرى إن كان هذا الإنسان جاداً في طلبه، ومستعداً أن يذهب ويبحث عن المسيح، وإذا لم يكن جاداً فتراه يبتعد عن كل جهاد أو محاولة، مفضلاً أن يبقى في كورة الخنازير كما كان.

(٥ : ٧) "وَجَدَنِي الْحَرَسُ الطَّائِفُ فِي الْمَدِينَةِ. ضَرَبُونِي. جَرَحُونِي. حَفَظَةُ الْأَسْوَارِ رَفَعُوا إِزَارِي عَنِّي".

فبعد أن تحوّل حبيبها وعبر، خرجت تبحث عنه، فوجدها الحرس الطائف في المدينة فضربوها وجرحوها، وأيضاً نزعوا إزارها عنها، وهو أمر في غاية الإذلال. وهي غافلة عن قول المزمور: "خير لي أني تذلت" (مز ١١٩: ٧١). وهنا تحضرني قصة لأبينا بيشوى عندما أراد أن يشتري قطعة أرض ملاصقة للكنيسة، ولجنة الكنيسة رفضت طلبه، فعاد إلى بيته وراح يردّد كلمات المزمور: "خير لي أنك أذللتني، خير لي أنك أذللتني"، فانظروا إلى الإنسان الروحاني كيف يتصرّف عندما يحصل له تأديب في حياته، فحين ضربه وجرحوه ورفعوا إزاره عنه، تواضع وقال: "أنا أستاذ، كل ما جرى لي". فلا يتدنّر ولم يقف ويصرخ: "أين أنت يا ربي، انظر ما فعلوا بي".

فكم هو جميل أن نحكم على أنفسنا، "لأننا لو كنا حكمنا على أنفسنا لما حُكِمَ علينا" (كو ١١: ٣١).

فهما ضُرب وجرَّح الإنسان الروحاني فإنه يتقبَّل الأمر على أنه تأديب من يد الله، كما فعل داود عندما أخطأ، فخرج رجل اسمه شمعي بن جيرا، وأهان داود كما فعل حرس الطائف مع العروس، فهي تقول: "ضربوني"، وشمعي رشق داود بالحجارة، هي تقول: "جرحوني"، وشمعي شتم داود، هي تقول: "نزعوا عني إزاري"، وشمعي قال لداود: "اخرج! اخرج يا رَجُل الدِّماء" (٢ صم ١٦: ٥ - ١٢). وعندما حاول رئيس الجيش أن يتدخل قائلاً: "دعني أعبّر فأقطع رأس هذا الكلب الذي يشتم سيدي الملك"، منعه داود وقال له: "اسكت فلست تفهم شيئاً، فإنَّ الله قال له: سبَّ داود! وأنا فعلاً سفكت دم أوريا الحثي. وهذا الرجل قد نزع إزاري، والخطيئة التي كنتُ أخفيها انكشفت". فالملك داود شعر أن يد الله هي التي تتحكم في ما يجري، لذا طأطأ رأسه وقال للرب: خير لي إنك أذللتني.

(٥: ٨) "أَحْلَفُكُمْ يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ إِنْ وَجَدْتُنَّ حَبِيبِي أَنْ تُخْبِرْنَهُ بِأَنِّي مَرِيضَةٌ حَبًّا".

وفيما هي تبحث عن حبيبها في المدينة التقت بأخواتها المؤمنات، فلم تقل لهنَّ أحلفكنَّ يا بنات اورشليم إن وجدتني حبيبي أن تخبرنه بأنني قد ضُربت، وأن تخبرنه بأنهم قد نزعوا إزاري عني، بل قالت لهنَّ: اخبرنه بأني مريضة حباً. فالنفس مشتاقة للمسيح لمحبهته، وعلاج مرضها هو المزيد من حبه، هي التي مريضة حباً.

ومع أنَّ السائد عندما تتقابل نفس متألِّمة بهذا القدر مع إخوتها المؤمنين أن تقول لهم: "انظروا ماذا يفعل بي الرب! بماذا أخبركم! وماذا أقول لكم! بعد أن وضع على كاهلي هذا الحمل الثقيل! وبعد أن تركني أعاني كل هذه المشقات!". أليست هذه هي الأحاديث التي يتبادلها الناس عندما يجتمعون مع بعضهم البعض؟ بينما عروس النشيد عندما تقابلت مع أخواتها قالت لهن: اذهبن وقلن للحبيب إنني مريضة حباً.

مرض جديد، ليس معروفاً في قاموس الطب، ويا ليت كل المسيحيين يمرضون بهذا المرض الصحي، فيصير المسيحي مريضاً لمحبة المسيح، والعلاج هو مزيد من حب المسيح. فما رأيكم في هذا المرض الرائع والفريد؟ اعراض هذا المرض: عندما تتشعر النفس بالضجر، فما هو العلاج؟ هو مزيد من حب المسيح، مما يعني أنه بحاجة إلى أن يصلي، وأن يذهب إلى الكنيسة، وأيضاً هو بحاجة إلى أن يقرأ في سير القديسين أكثر فأكثر، كذلك هو بحاجة إلى تناول جسد الرب ودمه، ولا ننسى الحاجة الأهم وهي الجلوس معه في الاعتراف لكي يفرغ كل ما في داخله. وأيضاً عند الشعور بالقلق أو بالاضطراب فالعلاج هو مزيد من حب المسيح. عوض أن يذهب إلى العالم ومسرات العالم التي هي ليست سوى مياه مالحة لا تروي عطشه، فإلى كل واحد يشعر أنه مُتعب أو متضايق فليعرف أنه مصاب بمرض صحي وجميل اسمه "إني مريضة حياً"، وعلاجه المزيد من حب المسيح.

(٥ : ٩) "ما حبيبك من حبيبٍ أيتها الجميلة بين النساء! ما حبيبك من حبيبٍ حتى تُحلفينا هكذا!".

وطبعاً عندما رأيها بنات أورشليم وسمعن كلامها، قلن لها: ما هي حكايتك؟ ومن هو حبيبك هذا الذي صنع بك هكذا؟ فهل هو مختلف عن بقية الأحباء؟ أخبرينا عنه ووصفي لنا كيف هو شكله. وما إن وصل إلى مسامعها طلبهن، حتى اغتامت الفرصة لكي تشهد لحبيبها، وإذا بكلمات النعمة تنساب من شفثتها في وصف هو من أروع ما كُتب في سفر النشيد في وصف الحبيب، وهو ما سوف نتناوله في الفصل القادم.

الفصل التاسع

(الأصحاح ٥ : ١٠ - ١٦):

ما زالت النفس في المرحلة السابعة التي هي مرحلة ضعف وانحدار، بعد أن كانت في المرحلة السادسة التي تعتبر أعلى قمة يمكن للنفس البشرية أن تصل إليها في حياتها الروحية. وليس عجباً، وهذه تظهر مدى روعة الكتاب المقدس، أن تصل هذه النفس إلى القمة في الدرجة السادسة، لأنه وكما هو معلوم أنَّ للأرقام مدلولات ومعاني في الكتاب المقدس، ويشير رقم ستة دائماً للإنسان أو للضعف، لأنَّ الله خلق الإنسان في اليوم السادس، وكون النفس وصلت إلى قمة المجد في الدرجة السادسة فهذا يعني أن الكتاب المقدس يريد أن يقول لنا: مهما وصل الإنسان في مستواه الروحي عليه أن يفهم أمرين، الأول: هو ليس في أمان وقد ينحدر في أي لحظة لأنَّه في الدرجة السادسة، أمَّا الثاني: فمهما وصل الإنسان في تسلُّقه سلم الكمال فهو ما زال على الأرض. لأنَّه وكما قال القديس بولس في رسالته إلى أهل كورنثوس: "الآن أعرفُ بعضَ المعرفة، لكنَّ حينئذٍ سأعرفُ كما عرفتُ" (١كو١٣: ١٢)، فمهما بلغ الإنسان من سمو في الحياة الروحية على هذه الأرض، فهو لا يُقاس بما سوف ينمو فيه في الأبدية، "هذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك" (يو١٧: ٣). فمهما تذوق الإنسان على الأرض، وأينما وصل فهو نسبياً لا يزال في المرحلة السادسة، ولم يصل إلى الكمال الذي ينشده.

وقد قال المسيح: "كونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل" (مت ٥: ٤٨)، وأيضاً كما قال القديس بطرس: "كونوا قديسين لأنني أنا قدوس" (١بط ١: ١٦)، فالله يريد كمال الإنسان وقداسته، ولكن مهما وصل الإنسان على هذه الأرض فلن يتخطى الدرجة السادسة ولن يصل إلى الكمال الذي يريده الله. ولكنَّ الله يطلق النفس إلى الكمال الذي يمكننا أن نسميه الكمال النسبي الذي تبلغه في الدرجة السادسة. ولكنَّها سريعاً ما تبدأ تضعف في الدرجة السابعة، وبما أن النفس ضعفت وأخطأت

في الدرجة السابعة فهذه أيضاً ليست بلا معنى لأن رقم سبعة هو رقم الكمال، فالخطيئة في نظر الله خطيئة أياً كانت، وليس في حسابه خطيئة كبيرة وخطيئة صغيرة، لكن نحن نقيم الخطايا ونقول هذه خطيئة كبيرة وهذه خطيئة صغيرة، لكن الله يقول: "من اخطأ في واحده فقد صار مجرمًا في الكل" (يع ٢: ١٠)، فهذا هو حكم الرب، ولا يظنُّ أحد بأنَّ هناك إمكانية لمحو أي خطيئة لولا صليب المسيح، لذا فلا يستخف أحد بكذبة أو بشتيمة، لأنَّ من أخطأ في واحدة فقد صار "مُجرماً في الكل" (يع ٢: ١٠).

فالنفس بدأت تتكاسل وتتحدر روحياً، وقد ظهر هذا الكسل في قولها: "أنا نائمة"، فاختارت لنفسها الراحة مع أنَّها تعلم تماماً أن حبيبها لا يشاركها هذه الراحة، وهي التي سبق لها أن اختبرت في بداية الطريق الروحي، أنَّ راحتها معه، حين قالت: "سريرنا أخضر"، ولكنَّها في هذه المرحلة نائمة على السرير ومرتاحة بينما حبيبها واقف في الخارج يقرع على الباب.

وأسوأ مراحل الضعف التي يجذب فيها الشيطان النفس البشريَّة حين يجعلها تظن أن راحتها في أمور معينة، وبما أن المسيح ليس مرتاحاً في هذه الأمور، فإذا بالراحة التي تتشدها تحوّل السرير إلى سرير شوك وألم وتعب. ولكنَّ المسيح في محبَّته لم يترك هذه النفس تضيق في الطريق الذي سلكته معتقده أنَّه طريق راحة، فبدأ يشجَّعها لكي تقوم من هذا الكسل، ولكي ترجع من الكورة البعيدة، فقال لها: "افتحي لي يا أختي، يا حبيبتي، يا حمامتي، يا كاملتي". وأيضاً حاول أن يحرك مشاعر الحب في داخلها، فقال لها: "رأسي امتلأ من الطل، وقصصي من ندى الليل". وهكذا يحاول المسيح أن يجذب الإنسان بكلمات التشجيع معبراً عن قبوله للإنسان كما هو في ضعفه وفي خطاياه، حتى لا يبيت فيه الشيطان روح اليأس، هذا من جهة، ومن جهة ثانية يحنن قلب الإنسان بعمل الحب الفائق الذي تجلَّى على الصليب.

لكنَّ المؤسف، أن هذه النفس قد غرقت في نشوة الخطيئة، وفي نشوة العالم، ولم تعد تصغي إلى كلمات التشجيع ولم يعد قلبها يتحرك لهمسات الحب والحنان. وهكذا يفعل البعض، فنسمعه يقول لك: "أنا حساس جداً، فأتأثر عندما أرى أي مشهد، وأي أمر يحرك قلبي ويؤثر في نفسي"، ولكن عندما ينظر إلى المسيح المصلوب لا يبدي

أي تأثر، ولا تتحرك عاطفته، فتتجمّد مشاعره أمام صليبه وأمام محبّته. فأني منطق هذا!

والمسيح بعد أن حاول جاهداً أن يجتذب النفس بالتشجيع والمحبة، دون جدوى، لجأ إلى استخدام أسلوب آخر لا يحب أن يستخدمه، ولكنّ النفس بتعنتها اضطرتّه إلى استخدامه، وهو أسلوب التأديب "حبيبي مدّ يده"، فبعد أن رأى أنّها لم تقتنع بالكلام، مدّ يده، علامة على التأديب، الذي بدأت تحصد ثماره عندما تقابلت النفس مع الحرس الطائف في المدينة فضربوها وجرحوها، ومع حفظة الأسوار الذين رفعوا إزارها عنها.

فهذا هو المؤمن، وهذا هو الإنسان المسيحي، والمسيح قد قال لنا: "أنتم نور العالم، أنتم ملح الأرض، فإن فسد الملح، لا يصلح بعد لشيء، إلّا أن يطرح خارجاً ويداس من الناس" (مت ٥: ١٣)، فالعالم الذي يلهث وراءه الإنسان والأمور التي كان يظن أنّه سوف يجد فيها راحته، والأصدقاء والعلاقات التي كان يظن أنّ فيها مسرّته، فإذا بها هي التي تدوس عليه، وهذا ما عبّرت عنه النفس أصدق تعبير بقولها: "ضربوني، جرحوني نزعوا إزاري عني".

وشمشون كان يحيا حياة مكّسة لله، إلى أن أحبّ دليلة وظنّ أن راحته ولذّته معها، وحاول الرب أن يحذّر شمشون ويكفي أن دليلة كانت تقول له: "أخبرني بماذا توثق لإذلالك؟" (قض ١٦: ٦). فهي أعلنت له بكل صراحة أنّها تريد إذلاله. وهذا ما يدعو للعجب وليس من شمشون فقط، بل من كل إنسان يختار لنفسه طريقاً ويسلك فيه ويسمع صوتاً يحذره فلا يتوقف بل يتابع ويستمر. وهذه المرأة كانت تقول لشمشون نريد أن نذلّك وهو لا يعي شيئاً، فكانت النتيجة "ضربوني جرحوني، نزعوا إزاري عني"، وشمشون القوي هذا، سخرها منه، وقلعوا عينيّه، واشتغل في الطاحونة وهو عمل العبيد. فأين المجد الذي كان فيه شمشون؟ فهذا ما جلبه لنفسه، بعد أن نبّهه الرب وحذّره، فسمع الصوت ولم يكثر له، فاضطرّ الله أن يستخدم معه التأديب.

وإذا بالنفس بعد هذا التأديب، وهى التى كانت متغربة عن الله، قد بدأت تخطو الخطوة الأولى نحوه، وتبتعد عن كورة الخنازير، فهى إلى الآن لم تتقابل مع المسيح، لكنها بدأت تلتقي بجماعة المؤمنين وبالناس الروحيين، وتقول لهم: "إن وجدتني حبيبي أن تجربته بأني مريضة حباً". فقد نسيت كل ما ألم بها من ضرب وتجريح وعري، ولم يعد يشغلها سواه فهى تريده هو. من هنا ندرك أن مشكلة الإنسان الأساسية أنه منشغل في ذاته، فينظر إلى نفسه، ويتأمل في جراحه لذا يتعب ويحزن، ولكن إن خرجت النفس من حزنها وانشغلت بالحبيب وفكرت بالمسيح، فسوف تنسى نفسها وتتذوق حياة الفرح مع المسيح.

وموسى عندما أخرج الشعب من أرض العبودية من أرض مصر، يقول الكتاب أنهم رثموا وسبّحوا الله، وإذا ما عدنا إلى التسبحة في سفر الخروج الإصحاح الخامس عشر نلاحظ أنهم لم يقولوا كلمة واحدة عن أنفسهم إنما كان كل الكلام عن عمل الله لخلصهم، فإذا بهم في قمة التسبيح. ولكن عندما ينشغل الإنسان بذاته يحزن ويبدأ يرثي لنفسه من الألم والتعب الذي يكتنف حياته.

فعروس النشيد أو النفس مشتاقة لحبيبها ولم يعد يهمها أن تبعد عنها الذين يضايقونها بقدر ما يهمها أن تتذوق محبة المسيح، مما أثار استغراب بنات أورشليم فسالنها: "ما حبيبك من حبيب أيتها الجميلة بين النساء!"، فهى مضروبة ومهانة ومجروحة وعارية وكل هذا سقط من حسابها، وفقط تسأل عن حبيبها! فسالنها: من هو حبيبك هذا؟ وماذا فعل لك حتى أنساك الدنيا وما فيها، وأنساك نفسك وكل ما حل بك!

فهذا هو حال أولاد الله عندما ينشغلون بالمسيح، فماذا فعل لهم المسيح حتى يحبه هكذا؟ اسألوا الشهداء، لماذا يا مارمينا؟ لماذا يا مارجرس؟ لماذا يا مارمرقس؟ ماذا فعل المسيح في حياتكم؟ لماذا يا مارمرقس تركت كل الغنى وتبعت المسيح؟ فالقديس مرقس ينتمي إلى عائلة غنية، بدليل أن أمه كانت تستقبل في بيتها المسيح والاثني عشر تلميذاً. فما الذي يجعله يترك هذه الحياة الرغدة ويسير وراء المسيح، فيهان ويتألم من أجله. فماذا فعل له المسيح حتى يبادل هذا الحب!

فعندما يرتبط الإنسان بالمسيح هذا الارتباط القوي يجعل العالم من حوله يتساءل ماذا جرى له؟ ما هو سرّه؟ فإن سألته: إلى أين أنت ذاهب؟ فيقول لك: إلى الكنيسة. وإن سألته: أين تجد راحتك؟ فيقول لك: في القديس. وإن ذهبت لزيارته في البيت، تجده يستمع إلى عظة روحية، أو يستمع إلى ترتيلة. وكل هذه الممارسات هي وليدة قناعة داخلية كاملة، لأنّه وجد فيها شبعه وفرح قلبه.

والناس تتساءل لأنّها ترى الأمور من الخارج، فالحياة المسيحية في ظاهرها تشبه خيمة الاجتماع من الخارج، التي كانت مصنوعة من جلود النخس الخشنة، الداكنة اللون، يتصاعد من حولها دخان الذبائح، ويتجمّع فوقها كسحابة سوداء، مما يجعل منظر الخيمة قبيحاً. وهكذا الحياة الروحية من الخارج، صلاة وعبادة، صوم وميطانيات، قرع صدر وكشف ذات في الاعتراف، ولكن عندما تدخل إلى داخل الخيمة، ترى الجمال الرائع. فالعالم لأنّه يرى الخيمة من الخارج، يتساءل: ما هذه الحياة المسيحية؟ وما الذي يفرّح فيها؟ ولهم نقول: إنّ الذي يفرّحنا إنّنا ندخل إلى الأقداس، "حتى دخلتُ مقدس الله" (مز ٧٣: ١٧)، فالرؤية من الداخل مختلفة تماماً.

فبنات أورشليم سألن العروس من هو حبيبك هذا؟ وما إن سمعت سؤالهن حتى انتهرت الفرصة، لكي تتكلّم عنه وتحقق أمنية قلبها، فهو دواءها والكلام عنه يفرّحها ويشبعها وهي حين تتكلّم عنه سوف تتقابل معه. وهكذا بدأت توصفه في أبهى صورة، وإذا بكلماتها أروع ما قالته العروس في سفر النشيد. وإن كنا نعتبر أن سفر النشيد هو قدس أقداس العهد القديم، فإن وصف العروس للعريس هو قدس، قدس الأقداس، لا بل هو السماء عينها، فما هي السماء سوى رؤيتنا للحبيب. فبدأت العروس تصف المسيح وصفاً بديعاً جداً يسبي الروحيين. ونحن مهما تكلمنا عنه فلا يمكننا أن نحيط به لأنّ جماله ليس له حدود، "فما أجوده وما أجمله" كما قال زكريا (زك ٩: ١٧)، فلا يمكن لأي إنسان أن يصل إلى بهاء المسيح في كمال مجده. وحتى الملائكة يعاينون مجده بحدود، كما قال الذهبي الفم، وليس كل الملائكة على ذات الدرجة، فكم بالحري سكان بيت من طين.

لكن يبقى لنا رجاء لأنَّ المسيح قال: "ذاك يُمَجِّدني" (يو ١٦: ١٤)، أي الروح القدس، فنحن نطلب في خشوع من روح الله أن يلمس ما سوف نقوله فتكون كلمات ممسوحة بالروح تخترق قلوبنا، فوصف المسيح يسبي القلب بمحبة المسيح، ونسأل الروح القدس أن يعطينا لكي نمجد شخص المسيح في عيوننا وفي قلوبنا، فتسبى قلوبنا إلى محبته في هذه الكلمات البديعة، التي هي من أروع ما قيل في الكتاب عن وصف الحبيب.

أولاً: وصفت العروس في المقدمة ثلاث صفات عامة، وبعد ذلك وصفت ثمانية صفات بالتفصيل، ثم ختمت بثلاث صفات عامة للمسيح. فأول ثلاث صفات، قالت: أبيض، أحمر، ومُعَلَّم بين ريوه. وبعد ذلك تكلمت عن ثمانية أعضاء بالتفصيل فوصفت رأسه، شعره، عينيه، خديه، شفثيه، يديه، بطنه، وساقيه. وليس غريباً أنَّ رقم ثمانية هو رقم الأبدية، فمهما وصفنا في المسيح فليس بالكثير بالنسبة لما سوف نراه في السماء، "قالآن أعرف بعض المعرفة"، ورقم سبعة هو كمال أيام الأسبوع، ورقم ثمانية هو اليوم الأول في الأسبوع الجديد. ففي أيام الخلق، يقول الكتاب: وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً، وأمّا في اليوم السابع فلم يقل: وكان مساء وكان صباح، لأننا ما زلنا في مساء اليوم السابع، وصباحه هو صباح القيامة، أي اليوم الثامن. لذلك قام السيّد المسيح في اليوم الثامن، فالأحد هو اليوم الأول في الأسبوع الجديد. فصفات المسيح ثمانية لأننا مهما وصفناه فلن نحيط بكمال صفاته، لكن في الأبدية سوف نراه كما هو. ثم ختمت العروس كلامها بثلاثة صفات عامة، فقالت: طلعت كلبنان، فتى كالأرز، حلقة حلوة وكله مشتهيات.

وأيضاً يعترينا العجب من توافق الأرقام ومعانيها في الكتاب المقدس، فهو كتاب مذهل باستمرار، فأني شيء نراه من بعيد نجده جميلاً، ولكن حين نضعه تحت المجهر نجده حافلاً بالعيوب، فالذي يبدو من بعيد أملساً وناعماً، فإذا بالمجهر يكشف تعرّجه وخشونته. وهذا يشمل كل أعمال الإنسان، فكل ما ندقق فيها نكتشف فيها عيباً ما، بينما الكتاب المقدس على العكس، فكلما ندقق فيه كلما نكتشف تفاصيل مذهلة.

فالعروس بدأت بثلاثة وختمت بثلاثة، لكي يقول الكتاب: لا أحد يعرف من هو الابن إلا الآب، ونحن لم نأخذ روح العالم بل الروح الذي من الله، وروح الله يعرف أمور الله، ولا معرفة حقيقية للثالوث إلا بذاته، فلا أحد يعرف الآب في كمال معرفته إلا الإبن والروح القدس، ولا أحد يعرف الابن في كمال معرفته إلا الآب والروح القدس، وهكذا أيضاً الروح القدس. لذلك وضعت العروس الصفات بين ثلاثيتين.

وقبل أن ندخل في التفاصيل سوف نسلط الضوء على بعض المفردات التي استخدمتها العروس في وصف السيد المسيح، فنلاحظ أنها اختارت أفضل المعادن الذي هو الذهب، واختارت أفضل الأحجار الكريمة الذي هو الزبرجد، واختارت أفضل الأشجار التي هي شجرة الأرز، واختارت أفضل الزهور التي هي الرياحين. لماذا؟ لأنها تصف الذي ليس لجماله حد، فاختارت أجمل شيء من كل شيء، وأردفت قائلة: هو أكثر من هذا. فليس في حوزتها ما تستخدمه في الوصف سوى هذه المواد الضعيفة فتشبهه بها.

وأيضاً نلاحظ في المظهر العام لوصف المسيح أنها بدأت بوصف الرأس وقالت عنه: "ذهب إبريز"، وختمت بوصف رجليه وقالت عنهما: "ساقاه عمودا رخام مؤسسان على قاعدتين من إبريز". فبدأت بالذهب وأنهت بالذهب. وإن عدنا إلى سفر دانيال الإصحاح الثاني الذي يخبرنا عن تمثال رآه نبوخذ نصر في الحلم، نلاحظ التفاوت ما بين الوصفين. وهذا التمثال يمثل الإنسان على مدار التاريخ كله، فبدأ برأس من ذهب، ثم ينحدر قليلاً فإذا بالصدر والذراعين من فضة، ثم ينحدر قليلاً فإذا ببطنه وفخذه من نحاس، وهكذا كلما يتجه نزولاً كلما تتدنى قيمة المواد المستخدمة في صناعته، إلى أن يصل إلى ساقيه اللتين من حديد، ويختم مع قدميه اللتين بعضهما من حديد والبعض من خزف. فهو قد بدأ بالذهب وانتهى بالطين، فهذا هو الإنسان. أمّا السيد المسيح فهو الكمال المطلق، وليس عنده تغيير، فبدأ بالذهب وانتهى بالذهب. وأيضاً ملحوظة أخرى قبل أن نبدأ في التأمل في صفات الحبيب، وهو ما جاء في سفر الرؤيا الإصحاح الأول، فالقديس يوحنا قد رأى المسيح ووصفه لنا كما رآه.

ولو نظرنا نظرة سطحية نجد تضاد ما بين وصف العروس للمسيح ووصف يوحنا له. ففي سفر النشيد تقول عن شعره: "فَصَصُّهُ مُسْتَرْسِلَةٌ خَالِكَةٌ كَالْغُرَابِ"، أي أسود اللون. بينما في سفر الرؤيا فيقول: شعره أبيض كالثلج. وفي النشيد تقول: عيناها كالحمام. أما في الرؤيا فيقول: "وَعَيْنَاهُ كُلَّهِيبٍ نَارٍ". في النشيد تقول: "شَفَتَاهُ سُوسَنٌ تَقْطُرَانِ مِرّاً مَائِعاً"، بينما يقول في الرؤيا: "يُخْرِجُ مِنْ فَمِهِ سَيْفٌ مَاضٍ ذُو حَدِيدٍ". أما عن رجليه فتقول العروس في النشيد: "سَاقَاهُ عَمُودَا رُخَامٍ". بينما في سفر الرؤيا يقول القديس يوحنا: "وَرِجْلَاهُ شَبْهُ النُّحَاسِ النَّقِيِّ، كَأَنَّهُمَا مَحْمِيَّتَانِ فِي أَثْنُونٍ". ويوحنا عندما رآه سقط عند رجليه كميت، أما العروس عندما رآته قالت: هذا حبيبي وهذا خليلي يا بنات أورشليم. وهذا التضاد ما بين النصين، يحملنا على التساؤل: هل يتغير المسيح! لا، إذاً، لماذا هذا الاختلاف؟

يعود سبب هذا الاختلاف إلى أنَّ صورة المسيح في سفر النشيد الأصحاح الخامس هي صورة محبته، والصورة المعلنة في قلوب أولاده، والصورة التي يتعامل بها مع خاصته، وهي الصفات التي يعامل بها قطيعه، لذا عندما رآته العروس في سفر النشيد ارتمت في حضنه وهو هو المسيح نفسه الذي اتكأ يوحنا الحبيب على صدره، ولكن عندما رآه يوحنا في سفر الرؤيا فهو قد رأى المسيح الديان لذا سقط عند رجليه كميت، وهكذا كل الصفات الأخرى في سفر الرؤيا الأصحاح الأول تشير إلى المسيح الديان، فالشعر الأبيض يشير إلى قديم الأيام، الله الديان الأزلي، الرب يسوع. وكذلك عيناها لهيب نار تخترق استار الظلام، لأنه ديان، "فَلَا يَقْضِي بِحَسَبِ نَظَرِ عَيْنَيْهِ، وَلَا يَحْكُمُ بِحَسَبِ سَمْعِ أُذُنَيْهِ" كما يقول الكتاب (إش ١١: ٣)، بل يحكم بحسب الداخل وباطن الإنسان. وفمه في الدينونة سيف، "أَنَا لَا أُدِينُ أَحَدًا، لَكِنِ الْكَلَامُ الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ هُوَ يَدِينُهُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ" (يو ١٢: ٤٧ - ٤٨)، وكلمة الله حيّة وفعالة وأمضى من كل سيف ذي حدين (عب ٤: ١٢)، ورجلاه شبه النحاس، لأنه سيسحق كل الذين رفضوه، "أَمَّا أَعْدَائِي، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِيدُوا أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْهِمْ، فَأَتُوا بِهِمْ إِلَى هُنَا وَادَّبَحُوهُمْ قُدَّامِي" (لو ١٩: ٢٧). فالاختلاف ليس من جهة شخص المسيح إنما من جهة عمله ورسالته،

فالصورة الأولى هي: المسيح في وسط كنيسته، أما الصورة الثانية فهي: المسيح أمام الرافضين والمقاومين في يوم الدينونة.

وأيضاً لا بد من الإشارة إلى نقطة أخيرة قبل أن ندخل في الوصف البديع الذي وصفته العروس بوحى من الروح القدس. فرأسه من ذهب، وفي يده حلقتان من ذهب، وساقاه على قاعدتين من ذهب، فالرأس واليد والرجلين من ذهب. وهذه تذكرنا بسفر اللاويين الأصحاح الثالث عشر، الذي يتكلم عن شريعة الأبرص، والأصحاح الرابع عشر، الذي يتكلم عن الذبيحة التي تقدم عن تطهير الأبرص. فالأبرص بعد أن يطهر من برصه، يؤتى به إلى الكاهن، فيجلب الكاهن عصفورين فيذبح واحداً كرمز إلى المسيح المذبح، وينضح دم العصفور على المتطهر. أما الثاني فيغمسه في الدم والماء ثم يطلقه حياً، رمزاً للمسيح القائم من الموت، ثم يأخذ الكاهن خروفاً وبقره ذبيحة إثم، ويأخذ الكاهن من دم ذبيحة الإثم ويضعه على شحمة أذن المتطهر اليمنى، وعلى إبهام يده اليمنى، وعلى إبهام رجله اليمنى (لا ١٤: ١٤)، لكي يكفر عنه أمام الرب. وهذا يشير إلى طبيعة الإنسان، لأن الإنسان نجس. أما المسيح فهو قدوس، لذلك رأسه ذهب ويده ذهب ورجله ذهب، فهو كامل في قداسه.

وبالعودة إلى آخر مشهد مع العروس، فقد كانت محرومة من الحبيب، فلا تراه، 'فَتَحْتُ لِحَبِيبِي، لَكِنَّ حَبِيبِي تَحَوَّلَ وَعَبَّرَ'، وبالرغم من أنه ليس أمام عينيها، ذاك "الذي وإن لم تروه تحبونه" (١ بطا: ٨)، فهي لا تتفك تسترجع صورته، فلا يفارق مخيلتها، ولا يغيب عن بالها حتى في ضعفها. فبعد أن سألتها بنات أورشليم: من هو حبيبك؟ - فإني أعتقد وهذا بتقديري الخاص - أنها سكنت ... وسرحت في ذكريات الحبيب وفي معاملاته، لثوان معدودات ثم انتهت لوجودهن، فتابعته وصفها وقالت:

(١٠: ٥) "حَبِيبِي أَبْيَضٌ وَأَحْمَرٌ. مُعَلِّمٌ بَيْنَ رَبَوَةٍ".

فاللون الأبيض يشير إلى قداسه، لأن الأبيض لون نقي خالٍ من الشوائب، فهو قدوس بلا عيب، وقد قال عنه الكتاب: "الذي لم يفعل خطيئة، ولا وُجِدَ فِيهِ مَكْرٌ" (١ بطا: ٢٢)، فحبيبها لم يعرف خطيئة، وليس فيه خطيئة. ولكنّه مات لأنّ "الرب وضع

عليه إثم جَمِينَا" (إش ٥٣: ٦)، فهو ليس له مثيل في قداسته، ولا يقارن بأحد مهما حاولنا، فعلى جبل التجلي ظهر إلى جانبه موسى وإيليا، وتلاأت ثيابه بيضاء كالثلج لا يقدر قصار على الأرض أن يبيّض مثلها. وإذا بطرس يقول: "لنصنع ثلاث مظال: لك واحدة، ولموسى واحدة، وإيلياً واحدة" (مت ١٧: ٤)، فنظر إليه الأب وقال له: ماذا تقول يا بطرس! وهل ستساوي ابني الحبيب بموسى وإيليا! فلا تقدر أن تضع بجانبه أحداً. لذلك اختفى موسى وإيليا وبقي يسوع وحده، فليس له مثيل، وموسى مع كل أمجاده، يسجل له الكثير من الأخطاء وهو ليس سوى نور خافت أمام شمس البر، وهذا الأمر ينسحب على إيليا أيضاً.

وقد حاول الكثيرون من المقاومين، وعلى مدار العصور أن يتفحصوا الكتاب المقدس لكي يجدوا في سلوك المسيح أو كلامه عيباً أو نقیصة ففشلوا، لأن حياته كاملة ومعلنة للكل، ليس فيها خطیة، ولم يستطع أحد أن ينتقد المسيح في تصرف أو في عمل أو في موقف، ولا حتى أعداؤه. والمسيح نفسه لم يقم بأي تصرف وندم عليه، ولم يقل أي كلمة في حياته ومن ثم تراجع عنها، وحين كان يخاطب أبيه السماوي، لم يقل له مطلقاً: "يا رب ارحمني". وحتى في مواقفه مع تلاميذه أو مع سائر الناس، لم نسمعه يقول لأحد: أنا متأسف. أو: لم أكن أقصد هذا. أو: أخطأت في تقديري. لم يتفوّه في حياته بمثل هذه الكلمات بتاتاً. ومهما بحثنا لن نجد أحداً على وجه الأرض بهذا البياض سواه.

وحتى القديس بولس فمع كل بهائه، عندما كان يُحاكم، قال: "سيضربك الله أيها الحائط المبيّض" (أع ٢٣: ٣)، فقالوا له: "أتشتم رئيس الكهنة؟" فقال بولس: "لم أكن أعرف أنه رئيس كهنة، لأنّه مكتوب: رئيس شعبك لا تقل فيه سوءاً" فهو أولاً، شتم. وثانياً، تأسف. لأنّه أخطأ وتفوّه بهذا الكلام. وما نقوله عن بولس وعن تصرفاته هو ما فعله بعد الإيمان بالرب يسوع وليس قبله. ومرة أخرى أخذ بولس موقفاً ولاحقاً اضطر أن يتراجع، وذلك عندما ذهب إلى كنيسة فيلبي يرافقه سيلا، فالتقوا القبض عليهما وضربوهما وساقوهما إلى السجن، وفي اليوم التالي صدر أمر بخروجهما،

فاعترض بولس وقال: "ضربونا جَهْرًا غَيْرَ مَقْضِيٍّ عَلَيْنَا، وَنَحْنُ رُجُلَانِ رُومَانِيَّانِ، وَأَلْقُونَا فِي السَّجْنِ. أَفَالَا نَ يَطْرُدُونَا سِرًّا؟ كَلَّا! بَلْ لِيَأْتُوا هُمْ أَنْفُسُهُمْ وَيُخْرِجُونَا" (أع ١٦: ٣٧)، ورفض بولس أن يخرج من السجن إلا بعد أن يسترجع حقه، وتمسك بهذا المطلب لأنه من حقه، حينئذ قال له المؤمنون: أنت جئت إلى هنا ولكنك لن تبقى هنا، وغداً سوف ترحل، ولكن نحن سنبقى هنا ولن يكفوا عن مضايقتنا. فقال بولس لهم: لم أفكر في هذا الأمر، وأنتم مصيبون في هذا. فتراجع عن المطالبة بحقه، وقبل أن يخرج سراً من مدينة فيليبي. فهو قد اتخذ قراراً ثم تراجع عنه.

بينما المسيح لم يسبق له أن أعلن موقفاً في حياته ثم تراجع عنه، لأنه أبيض، وهذا البياض ينسحب على كل صفاته، ولاحقاً عندما تصف العروس عينيه، فسوف تقول: "عيناه مغسولتان باللبن"، واللبن أبيض ويشير إلى النقاء، فعيناه نقيتان. ولا سيما مع أحبائه، فحين أخطأ بطرس نظر إليه المسيح في بياض، فلم ينتهر بطرس، ولم يؤثبه أو يجرح شعوره بكلمة أو بنظرة. وحتى نظرته إلى الأعداء والمسيئين، هي نظرة بيضاء، فقال عنهم مخاطباً أباه السماوي: يا ابتاه اغفر لهم، فرأى بعينه البيضاء أنهم لا يدرون ماذا يفعلون. ولكن كيف لا يدرون يا ربي؟ فهل كانوا سكارى، عندما ضربوك وشتموك وبصقوا عليك وسخروا منك؟ لا، فليس هذا ما يقصده المسيح بكلامه، إنما يقصد أنهم لا يدرون مشيئة الآب بأن المسيا لا بد من أن يصلب. وهذا ما كرره بطرس في عظته، فقال: "أنا أعلم أنكم بجهالة عملتُم، كما رؤساؤكم أيضاً" (أع ٣: ١٧). ولكن كيف يجهلون ما يفعلون يا بطرس! فقال: المسيح قد أفهمنا أنهم لم يكونوا يعرفون أنه لا بد للمسيا من أن يُصلب، إنما سيبقى إلى الأبد، ولا يدركون المخطط الإلهي بأن خلاص البشرية سوف يتحقق في موت المسيا وقيامته.

وأيضاً تقول العروس: "شفثاه سوسن"، والسوسن هي الزنابق البيضاء، فالزنقة زهرة طاهرة جميلة، فلون شفثيه أبيض، فلا يخرج من بين شفثيه كلمة تجريح، وحتى حين وبَّخ بطرس لأنه أنكره، قال له: "أتحبني يا بطرس، أتحبني يا بطرس، وقال له ثالثة: أتحبني يا بطرس" (يو ٢١ : ١٧)، وترك بطرس لكي يفهم لوحده، فلم يهنه

بكلمة، لا، فليس هذا أسلوبه، ولا يجرح أحد بكلامه، لأنَّ شفّيته سوسن. وكذلك رأينا شفّيته السوسن شفاهاً بيضاء نقيّة، عندما التقى بالسامرية عند بئر يعقوب، وقال لها: اذهبي وادع زوجك. فقالت له: ليس لي زوج. فهي لا تريد أن يتدخّل في هذه الناحية التي هي بمثابة الجرح في حياتها. حينئذٍ قال لها: "حسناً قُلتِ، ليس لي زوج، لأنه كان لك خمسة أزواج، والذي لك الآن ليس هو زوجك. هذا قُلتِ بالصدّق (يو ٤: ١٧)، فظهرت رَقَّتة في معاملتها، ونقاء شفّيته في محادثتها.

وأيضاً شبّهت بطنه بالعاج الأبيض، فالبياض يكسو المسيح، من رأسه حتى أخمص قدميه، فقداسته كاملة، وأحشاؤه أحشاء نقيّة، فعندما كان في البستان وقال للتلاميذ: اسهروا وصلّوا لكي لا تدخلوا في تجربة. ابتعد عنهم قليلاً ليصلّي، وعندما عاد وجدهم نياماً، ولكن، لأنَّ أحشائه أحشاء أب، نظر إليهم وقال لهم: أنا أعلم أن الروح نشيط أمّا الجسد فضعيف (مت ٢٦: ٤١)، ثمّ مضى ثانية ليصلّي، ثمّ جاء فوجدهم أيضاً نياماً، ومن فيض الحنان الذي في أحشائه البيضاء التي مثل العاج قال لهم: لا بأس عليكم اليوم فأنتم متعبون ولا تقدرون أن تسهروا معي "أمّا الروح فنشط وأمّا الجسد فضعيف" (مت ٢٦: ٤١) فناموا واستريحوا.

أمّا ساقاه فشبهتهما العروس بعامودي رخام، والرخام لونه أبيض، مما يعني أن مسالكه مسالك بيضاء.

وحبيبتها ليس فقط أبيض إنما "أبيض وأحمر". فعلى جبل التجلي ظهر بياضه، فثيابه ناصعة البياض، وعلى جبل الجلجثة ظهرت حمرة ثيابه، كما جاء في سفر إشعياء: "من ذا الآتي من أودم، بثياب حمُر؟" (إش ٦٣: ١)، فقال له: "مَا بَالُ لِبَاسِكَ مَحْمَرٌ، وَثِيَابُكَ كَدَأْسِ المِعْصَرَةِ؟" فأجابته: "قد دُست المِعْصَرَةُ وحدي، ومن الشعوب لم يكن معي أحدٌ" (إش ٦٣: ٣)، فهو يسير حاملاً صليبه وثيابه ملطخة بالدم الأحمر.

وحبيبي أبيض تشير إلى طبيعته اللاهوتيّة، أمّا حبيبي أحمر فتشير إلى ناسوته، لأنَّ المسيح قد جمع في شخصه، إلهاً كاملاً وإنساناً كاملاً، "عظيم هو سرّ التقوى: الله ظهّر في الجسد" (١ تي ٣: ١٦).

وحبيبي أبيض، تذكرنا بتقدمة الدقيق الأبيض، الذي يرمز إلى جسد المسيح، "هذا هو الخبز النازل من السماء" (يو ٦ : ٥٠)، وأمّا حبيبي أحمر فيشير إلى دم المسيح، "دَم يَسوع المَسِيح ابنه يُطَهِّرنا من كل خطيئة" (١ يوا : ٧).

أيضاً "حبيبي أبيض"، في ترقُّفه بالخطاة، فكان يعاملهم بمنتهى الرِّفق، لا بل كان يعامل كل البشرية برفق. "ولمّا رأى الجُمُوع تحسَّنَ عَلَیْهِمْ، إِذْ كَانُوا مُنْزَعَجِينَ وَسُطَّرِحِينَ كَغَنَمٍ لَا رَاعِيَ لَهَا" (مت ٩ : ٣٦)، لكنَّ المسيح "أحمر" أمام الخطيئة، لذلك وقف كأسد، لأنَّه بالحق هو الأسد الخارج من سبط يهوذا (رؤ ٥ : ٥)، يوبِّخ الكتبة والفريسيين ويقول لهم مجاهرة: "أيُّها الكتبة والفريسيون المراؤون".

أيضاً تصفه العروس صفة عامة، فهو ليس فقط أبيض وأحمر، لكن تقول عنه: "مُعَلِّم بين رِبَوَة". ومُعَلِّم تعني ظاهراً وبائناً وواضحاً، ولا يحتاج إلى أن يشار إليه، فما إن نراه نتعرَّف عليه حتى وإن كان وسط جماعة كبيرة من الناس، وسط رِبَوَة، أي وسط عشرة آلاف شخص. ولكن لماذا اختارت النفس الرِبَوَة؟ لأنَّه الرقم الذي كان يشير إلى أكبر عدد معروف في ذلك الوقت، فلم يكونوا يعرفون المليون والتربليون، فكان أكبر تعريف للأرقام هو الربوة. وحتى الكتاب عندما ذكر عدد الملائكة، قال: "ربوات ربوات وألوف ألوف" (رؤ ٥ : ١١)، ولم يقل مليون. فهذا الرقم لم يكن متداولاً في تلك الفترة الزمنية.

"حبيبي.. مُعَلِّم بين رِبَوَة"، فهو ليس له شبيه أو مثيل، إن في كلامه، أو في أعماله، أو في قداسته، فهو مُعَلِّم، ظاهر، مميَّز، وفريد في شخصه، فإن وُضِعَ وسط الملوك فهو ملك الملوك، وإن وُضِعَ وسط الرؤساء فهو رئيس سلامنا، وإن وُضِعَ وسط الأصدقاء فهو صديق ألزق من الأخ، وإن وُضِعَ وسط الأنبياء فهو روح النبوة، "فإنَّ شهادة يسوع هي روح النبوة" (رؤ ١٩ : ١٠)، فالجسد بدون روح هو جسد ميت، وهكذا النبوات، فإن أخرجنا منها يسوع فتصبح ميتة وليس لها معنى، فهو روح النبوة.

(٥: ١١) "رَأْسُهُ ذَهَبٌ إِبْرِيزٌ. قُصَصُهُ مُسْتَرْسَلَةٌ حَالِكَةٌ كَالْعُرَابِ".

فبعد أن وصفت العروس المسيح في المقدمة، بدأت تتعلّم منه، وكما هو في عينية الحلوة مدح شعرها وأسنانها، سلكت هي ذات المسلك، وبدأت تتكلم عن رأسه، فقالت: "حبيبي رأسه ذهب إبريز"، والرأس مركز الفكر، وأفكار المسيح كلها ذهب، والذهب هو من أسمى المعادن، مما يعني أنّ أفكاره، أفكار سامية وعالية، وأفكار الله من جهة الإنسان كلها أفكار سامية، ولكنّ الإنسان في أحيان كثيرة لا يفهم فكر الله، فإن حُلّت به ضيقة ما، يبدأ يتذمّر ويشتكى، حتى إنّهُ يقف أمام الرب ويكلّمه بأسلوب فظ يخجل حتى أن يكلّم به صاحبه. وتمرّ الأيام ويكتشف كيف أنّ المسيح قد حوّل تلك الضيقة لخير، ويدرك أنّه كان على خطأ. ومن ثمّ تحاصره ضيقة أخرى فيتذمّر ثانية، ولا يتعلّم من معاملات الله السابقة، ولا يفهم طرق الله وعنايته به، بل يروح يتساعل ويقول: "أين هو الرب؟ وما هو هدف الرب من كل ما يحصل لي؟ وهل هذا هو مصير الذي يسير في طريق الرب؟". والرب يقول له: "يا بني، ما أبعد أحكامي عن الفحص! أصبر، فأنت قد صبرت فيما مضى، ورأيت كيف حوّلت ضيقاتك إلى الخير". فمع أنّ الضيقة تتكرر، فالإنسان لا يتعلّم أنّ فكر الله السامي يحوّل كل شيء إلى الخير، كما يقول القديس بولس، فنحن نعلم ومتأكدون وواثقون "أنّ كلّ الأشياء تعملُ معاً للخيرِ للذين يُحِبُّونَ الله" (رو ٨: ٢٨).

أيضاً كما هو معروف، فالذهب معدن غير متغيّر، فجميع المعادن بمرور الوقت يعلوها الصدأ باستثناء الذهب فلا يتغيّر، لذا فالعروس تريد القول أن أفكار المسيح ذهب إبريز مما يعني أنّ أفكاره غير متغيّرة من جهة الإنسان. أرجو أن يضع كل إنسان مسيحي هذه القناعة في قلبه، لأن الإنسان يخيل إليه في غالب الأحيان أنّ الرب يقف إلى جانبه ويسانده ما دام هو ملتزماً وحسن السلوك والأخلاق، ولكن عندما يتعرّ وپرتركب الأخطاء، سوف يسحب الله يده ويتخلّى عنه ويغيّر أفكاره من جهته، وهذا غير صحيح، لأنّ الله ليس عنده تغيير ولا ظل دوران. والمؤسف أنّ بعض المؤمنين ممّن حصل على خيارات وعطايا يصل به الأمر حين يمر في مشكلة

إلى حد الاعتقاد أَنَّ اللَّهَ سوف يسترجع كل ما أنعم به عليه، وكأنَّ اللَّهَ لم يكن يعلم عندما أغدق عليه كل هذا الخير أَنَّهُ سوف يخطئ! لا بل كان يعلم قبل أن يختار هذا الإنسان أَنَّهُ سوف يقف مرَّةً واثنين وعشرة وحتى مئة مرَّةً، متذمراً وشاكياً ومتضجراً من الصليب، ورغم ذلك اختاره، لأنَّ عطاياه وهباته هي بلا ندامة. فرأي المسيح أو نظرتيه للإنسان لا تعود إلى قداسة الإنسان أو إلى أفعاله الصالحة إنما تعود إلى اللَّه نفسه، وهذا ما أوضحه بولس في رسالته إلى أهل رومية، إذ قال: "ولكنَّ اللَّهَ بَيَّنَّ مَحَبَّتَهُ لَنَا، لِأَنَّهُ وَنَحْنُ بَعْدُ خُطَاةٌ مَاتَ الْمَسِيحُ لِأَجْلِنَا. فبالأولى كثيراً وَنَحْنُ مُتَبَرِّرُونَ الْآنَ بِدَمِهِ" (رو٥: ٨). وأيضاً يتابع في الرسالة نفسها فيقول: "الذي لم يُشْفَقْ على ابنه، بل بذلَّهُ لِأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ، كيف لا يَهَبُنَا أَيْضاً مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ؟" (رو٨: ٣٢). فأفكاره من جهة الإنسان كما قال إرميا: "أفكار سلام لا شرٍّ" (إر ٢٩: ١١)، فأفكاره لا تتغيَّر.

وأيضاً يشير الذهب إلى المجد، فالملك يضع على رأسه تاجاً مرصعاً بالذهب ويرتدي ثياباً مطرزة بالذهب لأنَّه مجد، والمرأة تتزيَّن بالحلي الذهبية لأنَّه مجد، فأفكار المسيح ذهب تعني أَنَّ أفكار المسيح من جهة الإنسان لمجده. إذاً، أفكار المسيح في التجارب هي لخير الإنسان، وأفكاره غير متغيِّرة في ضعفات الإنسان، وأيضاً أفكاره تجاه الإنسان هي لمجده. فعندما كان المسيح يناجي الآب، كما ذكر لنا إنجيل يوحنا الفصل السابع عشر، قال: "أَيُّهَا الْآبُ أُرِيدُ أَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي يَكُونُونَ مَعِيَ حَيْثُ أَكُونُ أَنَا، لِيَنْظُرُوا مَجْدِي الَّذِي أَعْطَيْتَنِي" (يو ١٧: ٢٤)، فهو يريد أن يرفع الإنسان كي يرى مجد المسيح.

وأيضاً لها معني آخر، فالرأس مركز الفكر، وإن أردنا أن نتعرَّف إلى إنسان ما، فسوف نتعرَّف إليه من خلال فكره، لأنَّه يستحيل أن نتعرَّف إليه من خلال أفعاله فقط، لأنَّه قد يفكر في أمر ولكنَّه يفعل بخلاف ما يفكر به، أو قد يفكر في فكرة دون أن يظهرها، لذا لا يمكننا أن نتعرَّف إلى إنسان في أعماقه إلَّا من خلال معرفة فكره.

فرأس المسيح ذهب إبريز، لكنَّ الذهب يَغْشَى بالنحاس، فالنحاس هو الذي يعطيه اللون الأصفر، وغاية عملية التتقية هي سحب النحاس منه، لذلك فالذهب النقي تماماً

ولا يحتوي على نحاس، لونه أبيض. فرأس المسيح ذهب إبريز تعني: أنه خالٍ من النحاس، أي لا يحتوي على شوائب، مما يعني أن أفكار المسيح وتعاليمه ليس لها مثيل في الأرض. وإن تفحصنا فكر كل الأنبياء سوف نكتشف كم يحتوي على الكثير من "النحاس". فلن نسمع موسى يقول لك: "أحبب عدوك". لأنه ذهب يتداخله القليل من النحاس، إنما يقول: "لا تبغض عدوك". بينما المسيح رأسه ذهب خالص، لذلك تسمعه يقول: "أحبوا أعداءكم". وحتى عندما كان الأنبياء يتكلمون، كانوا ينقلون كلمة الرب. ويقول الكتاب في مواضع كثيرة: "وكانت كلمة الرب إلى إرميا"، "وكانت كلمة الرب إلى زكريا"، ويقول عن موسى أنه: "كلم الشعب بكلام الرب"، وأيضاً كان الأنبياء يستهلون كلامهم بعبارة: "هكذا قال الرب". لكن يسوع قال: "قد سمعتم أنه قيل...، أما أنا فأقول لكم" (مت ٥: ٢٧-٢٨)، فهل يجوز أن نضع بجانب كلمته كلام أحد؟ بالطبع لا، لأن الكل ذهب ممزوج بالنحاس بسبب ضعف الطبيعة البشرية، أما المسيح فيتكلم كمن له سلطان (مر ١: ٢٢). فكلامه ذهب خالص مع إنه يتحدث للطبيعة البشرية لكنها تجددت فيه.

قُصَصُهُ مُسْتَرْسِلَةٌ حَالِكَةٌ كَالْغُرَابِ، ثم قالت عن شعره: قصصه (أي صفاته) مسترسلة حالكة كالغراب، ومن المعروف أن لون ريش الغراب أسود قاتم، والشعر الأسود علامة الشباب، في حين أن الشعر الأبيض علامة الشيخوخة. فالكتاب يريد القول: أن يسوع يتمتع بشباب دائم فلا يشيخ، فيسوع المسيح هو هو أمس واليوم وإلى الأبد، فشعره كالغراب حالك السواد. ولكي نقارب المعنى سوف نستعين بمثل من الكتاب، ففي سفر يشوع الأصحاح الأول، يكلم الرب يشوع ويقول له: "لا أهملك ولا أتركك" (يش ١: ٥). فهذا الكلام موجّه إلى يشوع، فيا لحظ يشوع! ولكن أنا ماذا يكون لي من هذه الكلمات؟ فيسوع الذي قُصَصُهُ مُسْتَرْسِلَةٌ وحَالِكَةٌ كالغراب، هو هو يسوع الذي قال هذا الوعد ليشوع منذ آلاف السنين، يقوله لي ولك اليوم، ولكن بقولنا هذا قد نُثَمِّمُ بتحريف الكتاب، وهذا منافٍ للحقيقة، لأن الكتاب قد أكد هذا الأمر على لسان بولس الرسول في رسالته إلى العبرانيين حين قال: "لتكن سيرتكم خالية من محبة

المال، (والكلام موجّه إلينا) كونوا مُكْتَفِينَ بما عندكم، لأنّه قال: لا أُمْلِكُ ولا أتركُ" (عب ١٣: ٥). وإن قلنا لبولس: أنّ هذا الكلام موجّه ليشوع. لقال لنا: نعم، ولكنّه أيضاً موجّه لكل إنسان. فيسوع المسيح هو هو لا يتغيّر، وجميع الوعود التي أعطيت للآباء في القديم، هي أيضاً موجّهة لكل من يقبلها بالإيمان، لذلك قال الكتاب بفم العروس: قُصَصُهُ مسترسلة حالكة كالغراب فيسوع لا يشيب.

وأيضاً "قُصَصُهُ مسترسلة حالكة كالغراب" تعني أنّ الإنسان الذي يحيا مع المسيح فإنّه يحيا في شباب روحي دائم. فقد يلثث الإنسان وراء أي شيء في الدنيا له بريق وله مجد ومن ثمّ يزدري به، لأنّه لا يوجد شيء في تجدد دائم، ولا يوجد شيء في شباب دائم، ولا يوجد شيء يقدر أن يحافظ على بريقه الأوّل إلى النهاية، لا أبداً، مهما كان هذا الشيء، والأمثلة كثيرة على ذلك، فلا بد بمرور الوقت أن يفقد قيمته ويشيخ ويفقد معناه. لكنّ الحياة مع المسيح شباب دائم، فكُلّما تتقابل معه تشعر وكأنك تقابله للمرة الأولى فلا يخامرك شعور بالضجر أو الملل. وإن سألنا الأنبا بولا: كم من الوقت مرّ عليك بصحبة المسيح؟ فيجيب: تسعون سنة، لم يرَ فيها وجه إنسان. ولكن، ألم تضجر يا أنبا بولا؟ فيقول: وكيف أضجر منه ومراحمه لا تزول فهي جديدة كل صباح. فكل يوم مع المسيح هو يوم جديد.

فلننظر إليه ولنطلب منه ونقول له: "ما دمت هكذا يا ربي أعطتنا في كل مرّة نشارك في القداس أن نشعر أنّه قداس جديد". لأنّ البعض يتدبّر من المواظبة على حضور القداس بحجة أنّه يشعر بالملل، وهذا ينسحب أيضاً على قراءة الإنجيل، فتسمعه يقول: لقد قرأت الأناجيل الأربعة وانتهيت. فهو يعوزه أن يجدد المسيح روحه القدوس فيه لأنّ ليس لكلمته حدود، حينئذٍ سوف يشعر كلما جلس مع المسيح وكأنّه يتقابل معه للمرّة الأولى.

لذا نرى أن البعض ممن جاءوا إلى الكنيسة في سن متقدّمة يرون أن الكنيسة مُبهرة، بينما البعض الآخر لأنهم مولودون فيها فلا يشعرون بالنعمة التي فيها نحن

مقيمون، ولكن لا ننكر تجدد عمل الله، لذا فكل واحد يفكر متى بدأ يتلامس مع النعمة وكيف شعر بأهمية وبهجة الصلاة والقداس والإنجيل والاعتراف والتناول حتى أن قلبه كان يذوب من شدة التأثر في هذه الممارسات، هذا ما قد يقوله البعض في بداية مجيئهم إلى الكنيسة، ولكن بعد فترة يبدأ الملل يتسرب إلى أنفسهم، ويترددون إلى الكنيسة كما لقوم عادة، وهذا الأمر لا يجوز. بل نحاول في كل مرة أن نصلي القداس وكأننا نصليه للمرة الأولى، ونتكل على عمل الروح فينا، فالمسيح ليس عنده خبز بائت أبداً، وهو أوصى الشعب في القديم أن لا يبيت شيئاً من المَن لأنه لا يعود ينفع فلا يأكلوا المَن البائت. فكل واحد يقف أمام الرب ويقول له: أعطني يا ربي خبز اليوم الجديد والمتجدد.

فُصَّصَهُ مسترسلة تذكّرنا أيضاً بشريعة النذير، فالمسيح كان يطيل شعره لأنه نذير للرب، فشريعة النذير كانت تقضي بأنّ الذي ينذر نفسه للرب يرخي شعره في فترة انتدازه (عد٦: ٥). وظلّ المسيح من ميلاده إلى صليبه نذيراً للرب. وقد ذكر لنا القديس لوقا أن المسيح دخل إلى الهيكل وهو في الثانية عشرة من عمره وجلس بين الشيوخ وكانوا يتعجبون من فهمه وأجوبته، مما يعني أنهم كانوا يسألونه عن أمور لم يفهموها لكي يشرحها لهم، والمفارقة أنهم شيوخ يجلسون مع الصبي يسوع وهو الذي يجابوب على تساؤلاتهم. (لو٢: ٤٧). وعندما بحثت عنه العذراء ويوسف، قال لهما: "لماذا كُنْتُمَا تَطْلُبَانِنِي؟ ألم تعلمَا أنّه يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ فِيمَا لِأَبِي؟"، وهو بكلامه هذا يؤكد على أنّه نذير للرب، وأيضاً في ختام حياته قال: "الْعَمَلُ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لِأَعْمَلْ قَدْ أَكْمَلْتُهُ" (يو١٧: ٤). فكان نذيراً للرب طوال حياته.

(١٢: ٥) "عَيْنَاهُ كَالْحَمَامِ عَلَى مَجَارِي الْمِيَاهِ، مَغْسُولَتَانِ بِاللَّبَنِ، جَالِسَتَانِ فِي وَقَبَيْهِمَا".

ثمّ تنتقل العروس إلى وصف عينيه، فتقول: عَيْنَاهُ كَالْحَمَامِ. والعين تكشف ما في داخل الإنسان، فالإنسان الذي يحمل في صدره قلباً شريراً ينعكس هذا الشر في نظرة

عينيه، والإنسان الذي يضمر في قلبه الحسد تجد في نظراته البُغضة، فكل خفايا القلب تظهر في العينين. ولكن عيني المسيح كالحمام تحمل السلام والمحبة والرقة. وإذا ما قمنا بجولة في الكتاب ويحثنا عن كل ما يتعلّق بعينيه أو نظراته أو رؤيته، سوف نرى جمال عيني المسيح ومن خلالها نتعرّف إلى مكنونات قلبه الذي يخفق بالحنو والمحبة. ففي مرّة كان يكلم جمعاً من الناس، وجاء إليه أمّه وإخوته، فأخبروه قائلين: "هوذا أمك وإخوتك خارجاً يطلبونك" (مر ٣: ٣٢)، ويقول الكتاب: نظر يسوع حوله إلى الجالسين وقال: "ها أمي وإخوتي"، فإلى ما ينظر المسيح؟ المسيح ينظر إلى الإنسان الذي يجلس عند قدميه ويسمع كلامه، فيقول عنه هو أمي وأخي وأختي وطبعاً لم يقل أبي لأنّ ليس له أب سوى أبيه السماوي وليس له أب على الأرض.

وأيضاً تستوقفنا نظرة المسيح عندما كان في قمة الألم، فبعد أن لطموه، وشتّموه، وبصقوا عليه، وبعد أن أنكره بطرس بدقائق قليلة، يقول الكتاب: "تَنَمَّتِ الرّب ونظر إلى بطرس" (لو ٢٢: ٦١)، فقد اكتفى يسوع بالنظر إلى بطرس دون أن يتفوّه بكلمة، فما تأثير هذه النظرة؟ هي نظرة جعلت بطرس يذوب خجلاً ونداماً حتى أنّه خرج وبكى بكاءً مرّاً. ويخبرنا القديس يوحنا أنهم جاءوا إليه بامرأة أمسيكت وهي تزني في ذات الفعل، ولو سألنا هذه المرأة في تلك اللحظة ماذا تتمنين في هذه الدنيا ل قالت: اتمنى أن تسقط عليّ الجبال كي أختبئ من نظرات أعينهم. ولكن ماذا فعل المسيح في هذا الموقف؟ فيقول الكتاب: "انحنى". ولكن، لماذا تنحني يا ربي يسوع؟ فقال: "لا أريد أن تقع عيناى عليها، فهي لم تعد تحتمل نظرة من أحد، ولا حتى نظرة شفقة، لا بل إنّها تتمنى أن تتشق الأرض وتبتلعها". والمسيح في رفته المعهودة، أخفض عينيه، ولم ينظر إليها لكي لا يجرحها. وفي اعتقادي الشخصي حتى عندما تكلم معها لم يرفع عينيه وينظر إليها حتى لا يجرعها، بل تابع النظر إلى الأرض وسألها: "يا امرأة... أما أدانك أحد؟" فقالت له: "لا أحد، يا سيّد. فقال لها يسوع ولا أنا أدِينك..." (يو ٨: ٣ - ١١)، فموقفه هذا منها ما هو إلا انعكاس لعينيه الجميلتين، عيني الحمام.

وأيضاً عندما رأى الجموع، رآهم بعينيه الجميلتين، رأى الناس المقبلة نحوه، منطرحين ومنزعجين كغنم لا راعي لها (مت ٩: ٣٦)، فتحنّن عليهم، فهو ينظر

إلى الناس نظرة حنو، مع أنه كان ذاهباً لكي يختلي بتلاميذه فجاءوا وأفسدوا الترتيب الذي كان قد قرره يسوع، والناس عادةً تنزعج إذا ما أفسد أحد ترتيباتهم ومشاريعهم، لكنَّ المسيح لم ينزعج وهذا نابع من الجمال والعذوبة اللتين في شخصه، فمع أنَّهم قطعوا عليه خلوته، نظر إليهم باهتمام وعطف حين رآهم.

"عَيْنَاهُ كَالْحَمَامِ ... جَالِسَتَانِ فِي وَفْيَيْهِمَا"، أحياناً تقف لتتكلَّم مع أحدهم، فإذا به يتلَقَّت شمالاً ويميناً، فيحرق في هذا وينظر إلى ذاك ويراقب الكل، فعيناه تجول في كل أرجاء المكان وتحيط بكل ما فيه في ثوانٍ معدودة. لكنَّ يسوع لم يكن هكذا، بل كانت نظراته هادئة ينظر في اتجاه واحد ولا يزوغ بصره، فعيناه حلوتان، ساكنة وغير تائهة. فعينه كانت مستقرّة على أمر واحد وهو الصليب، فمن بداية تجسده إلى نهاية حياته بالجسد على الأرض كانت عينه مركزة على الصليب. وحتى عندما أراه الشيطان ممالك العالم ومجدها لم تستهو عينه أبداً. فقال له الشيطان: أسجد لي، فأعطيك إياهم. فرفض، وقال سوف أحصل عليهم بالصليب، فعينه على الصليب.

فهو لا يرى سوى أمرٍ واحدٍ وهو "الكأس التي أعطاني الآب ألا أشربها؟" (يو ١٨: ١١)، وهذا ما رآه سمعان عندما حمله على ذراعيه، وكان عمره أربعين يوماً، فنظر في عينيه ورأى الصليب، لذلك قال للعذراء مريم: "هذا قد وُضِعَ لِسُقُوطِ وقيام كثيرين، ولعلامةٍ تُقَاوَمُ" (يو ٢٠: ٣٤)، فسمعان قد رأى علامة سوف تقاوم على مدى العصور، وهى علامة الصليب. ويا ليتنا نتعلَّم نحن أيضاً أن نركّز عيوننا نحو جعالة دعوة الله العليا في المسيح يسوع (في ٣ : ١٤)، كما قال بولس الرسول. وأيضاً نركّز عيوننا على شخص المسيح ونتوقف عن النظر إلى الناس. وهذا ما نبّه المسيح بطرس إليه عندما ظهر له وللتلاميذ على بحر طبرية في يوحنا ٢١، فقال لبطرس: اتبعني. فسار بطرس وراء المسيح، ولكنَّ بطرس لم يكن قد تعلَّم بعد أن يثبّت نظره على المسيح نهائياً، بل كان ينظر يميناً وشمالاً، فالتفت ورأى يوحنا يتبعه، فقال: يارب وهذا ما له؟ فقال له يسوع: وأنت ما شأنك يا بطرس! لماذا تنظر إلى يوحنا؟ لماذا تنظر إلى أخيك؟ اجعل عينك عليّ فقط. فيا ليت عيوننا تستقر على شخص المسيح دون سواه،

فلا نعود ننظر إلى فلان ذهب وفلان جاء، وفلان باع وفلان اشترى، فهذا ليس من شأننا. يكفيننا أن نركّز عيوننا على المسيح.

(٥ : ١٣) "خَذَاهُ كَخَمِيلَةِ الطَّيِّبِ وَأَتْلَامَ رِيَّاحِينَ ذَكِيَّةٍ. شَفَتَاهُ سُوسَنُ تَقْطُرَانِ مُرّاً مَائِعاً".

"خَذَاهُ كَخَمِيلَةِ الطَّيِّبِ وَأَتْلَامَ رِيَّاحِينَ ذَكِيَّةٍ"، الخميعة عبارة عن مجموعة أشجار متداخلة ومتشابكة وملتقّة مع بعضها البعض، وأتلام الرياحين هي أحواض زهور الريحان. طبعاً نحن نعرف خدي المسيح وكم تلقّت من اللطم والبصاق لدرجة أننا نصلي في القديس ونقول: "خداك أهملتهما للطم لأجلي يا سيدي لم ترد وجهك عن خزي البصاق"، مما يعني تخلّيت عنهما ومن أراد أن يلطم أو يصفع فليفعل، فصورة المسيح وهو حامل صليبه هو "كمستر عنه وجوهنا" (إش ٥٣ : ٣)، أي نضطر أن نستريح عيوننا حتى لا ننظر إليه من شدة الجراح التي أصابته والبصاق الذي غطى وجهه. ومضروب بقصبة على وجهه كما قالت النبوة. وبالرغم من أن هذه التفاصيل لم تذكر في الإنجيل، لكن بما أن النبوات تكلمت عنها فهي قد تمت بالتأكيد. كذلك بسبب سقوطه مراراً تحت الصليب فجرح وجهه وتورّم، فمع كل هذا المشهد المؤلم نضطر أن نستريح أعيننا تحاشياً من النظر إليه. هذا كان شعور أولئك الذين نظروا إليه آنذاك، لكن الكنيسة اليوم تحدّق في وجهه وتتأمل فيه، وتقول: "تحملت كل هذا من أجلنا نحن يا ربي". ولأنّ الريح يجب أن تهب على أتلام الرياحين حتى تقوح منها الرائحة العطرة، فلا يمكن أن تشتم رائحة الرياحين إن لم تعصف بها الريح وتهز أغصانها بقوة، هكذا صلب المسيح، فعندما لطمه العبد على خده، أخرج المسيح رائحة الريحان، فنظر إليه وقال له: "إِنْ كُنْتُ قَدْ تَكَلَّمْتُ رَدِيّاً فَاشْهَدْ عَلَيَّ الرَّدِيّ، وَإِنْ حَسَنّاً فَلَمَّادَا تُصَرِّبُنِي؟" (يو ١٨ : ٢٣).

"شَفَتَاهُ سُوسَنُ تَقْطُرَانِ مُرّاً مَائِعاً"، شفتاه سوسن لذا كانت الجموع يتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه، لكن في الوقت نفسه كانت شفتاه السوسن هذه.

تقطران مرأً مائعاً، لأنَّ كل كلمات السوسن العذبة التي قالها المسيح مبنية على المر الذي جناه جرأً حَمَل الصليب. فعندما قال للمفلوج مغفورة لك خطاياك ظهرت شفتاه السوسن لكن غفران الخطيئة هو على أساس أنَّه قد وُضِعَ عليه إثم جميعنا. وعندما شفى الأصم الأعقد (مر ٧: ٣٤)، يقول القديس مرقس: "فأنَّ يسوع وقال له: "إفثا"، أي انفتح. "فافثا" هو السوسن، لكن "أنَّ يسوع" هو المر. وكما قال إشعياء: "أحزاننا حَمَلَهَا، وأوجاعنا تحَمَلَهَا" (إش ٥٣: ٤)، والناس تعتقد أنَّ المسيح يتمشَّى ويمد يده ويشفي المرضى بينما هو في ملكوت ثان، بمعنى لا يتألم ولا يتوجع ولكنه عندما كان يلمس المريض فيشفيه ويحمل هو المرض، وعندما يقول لإنسان: مغفورة لك خطاياك، فهو يحمل عنه وزر الخطيئة، فهذه الشفاءات ليست مجانية، ففيما كانت شفتاه سوسن كان هو يحمل المرارة ويدفع الثمن. وأيضاً عندما قال لامرأة: كوني محلولة من ضعفك. وهنا ظهرت شفتاه السوسن، لكن بالمقابل رُبط عوضاً عنها على الصليب. لذلك لا يمكن أن نتعرّف إلى شخص المسيح خارج الصليب، فكل حياته، وكل كلماته أساسها الصليب.

(١٤: ٥) "يداهُ حَلَقَتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، مُرَصَّعَتَانِ بِالزَّبَرْجَدِ. بَطْنُهُ عَاجٌ أَبْيَضٌ مُغْلَفٌ

بَالْيَاقُوتِ الْأَزْرَقِ".

يَدَاهُ حَلَقَتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، فعندما نرى إنساناً يغرق، ونريد أن ننقذه، نرمي له طوقاً مستديراً على شكل حلقة، فلا يمكن أن نستعين بوسيلة نجاة على شكل هلال أو ما يشبه القضيب، لأنها سوف تنزلق من يدي الغريق ونفشل في إنقاذه، بينما الأسهل له أن يتمسك بالطوق أو حتى يمكنه أن يتسلل إلى داخله إن استطاع، وسوف ينجو حتماً. وبدا المسيح حلقتان من ذهب فيمدهما للخاطئ الذي يغرق في بحر العالم وينتشلها، وكل نفس ينتشلها المسيح لا بد أن تُظهر مجد المسيح، وهذا معنى الذهب. فكل نفس انتشلها المسيح من الخطية التي كانت تحيا فيها، فنتسمع قصتها وكيف رحمها المسيح فيتمجد الله، ويتمجد عمل الله وحكمته. فصارت يده أي الأعمال التي يقوم بها لينجّي الإنسان حلقتين من ذهب، أعمال تُظهر مجده.

مُرْصَعَتَانِ بِالزُّبُرِجِدِ، مما يعني أنَّ كل نفس يَخْلَصُهَا المسيح تصير لؤلؤة، والزبرجد أعلى من الذهب، فإذا كانت يد المسيح من ذهب فإنَّ النفس التي يَخْلَصُهَا من بحر العالم تَجَمُّلُ يديه كقطعة زبرجد ... أمَّا كيف يتكوَّن الزبرجد، فهو يتكوَّن في داخل الحيوان البحري عندما يدخل فيه جسم غريب، كحبة الرمل على سبيل المثال تجرحه، فيبدأ يفرز مادة على الجسم الغريب الذي في داخله وهكذا يتكوَّن الحجر الكريم المعروف بالزبرجد. فيدا المسيح ذهب، يداه التي جُرحت بالمسمار فسال دمه على أبناء كنيسته، نقشتكم على كف يميني، وعندما سال دمه على المؤمنين صاروا كزبرجد.

بَطْنُهُ عَاجٌ أبيضٌ مُغْلَفٌ بِالْيَاقُوتِ الأزرقِ، فبطنه هي مشاعره، أحشاء رأفاته، أحشاء محبة، ولكن أحياناً قد تفسد المحبة المحبوب، كما تفسد الأم ابنها باسم المحبة، ففتهاون في تربيته وتلبى جميع رغباته دون أن تميّز بين ما ينفعه وما يضره، مما يؤدي إلى ضياع الولد. لكن المسيح بطنه عاج أبيض، ويختزن أحشاء محبة، ومغْلَفٌ بالياقوت الأزرق في الوقت نفسه، مما يعني أنَّ غاية محبته هي أن يرث أولاده الياقوت الأزرق، السماء والملكوت، فمحبة إنسان لإنسان قد تساهم في إفساده وضياعه، ولكن محبة المسيح تقوده إلى السماء.

(١٥: ٥) "سَاقَاهُ عَمُودَا رُخَامٍ، مُؤَسَّسَتَانِ عَلَى قَاعِدَتَيْنِ مِنْ إِبْرِيزٍ. طَلَعَتْهُ كَلْبَنَانِ. فَتَّى كَالْأَرْزِ"

سَاقَاهُ عَمُودَا رُخَامٍ، آخر عضو تصفه العروس هو ساقاه مشبهة إياهما بالرخام، لأن مقاصد الرب وتدبيره لا يمكن أن تنزعزع، فعندما يقول: "لا يخطفها أحدٌ من يدي" (يو ١٠: ٢٨)، يعني لا يوجد قوّة في الوجود سوف تنثيه عن مقاصده، فرجلاه صلبة كالرخام، ولا أحد يقدر أن يقف أمامه فهو يسحق ويحطم أي شيء.

مُؤَسَّسَتَانِ عَلَى قَاعِدَتَيْنِ مِنْ إِبْرِيزٍ، وتعني أن غاية المسيح النهائية هي أن يرث أولاده السماء، والذي يرتبط بالمسيح هو ثابت كثبات المسيح. كما ارتبط دانيال بالرب

ووضع في قلبه أن لا يتنجس بأطياب الملك، فلم يكثرث لأقوال الناس ولا حتى تغربه عن بلده حدّ من عزمته، وأصرّ على رفضه وثبت، فتمسّك بطريق السماء بكل ما أوتي من قوّة.

طَلَعُهُ كَلْبَنَانْ، وتختتم العروس وصف المسيح وتقول: طلعت كلبنان، ولبنان بلد جميل، فحين تنتظر إليه ترى المجد والعظمة والفخامة، وهذه صفات تمنّع بها السيد المسيح، حتى أنّ أحدهم قال: لو دخل أحد الرؤساء الزمانيين أو الروحانيين إلى مجلس، لوقف الجميع احتراماً له. ولكن لو دخل المسيح لسجد الجميع سجود عبادة تحت قدميه، فطلعت بهيئة كلبنان. لذلك قال الشيخ الروحاني: "مَنْ رآه واحتمل ألا يراه!". لذا يستحيل على كل مَنْ رأى هذه الطلعة البهيّة بعيون الإيمان أن يشبّعه أو يفرحه أي شيء بعد ذلك.

فَتَى كَالْأَرْزِ، وشجر الأرز معروف بارتفاعه الشاهق واستقامة جذعه، وكذلك المسيح فقد كان شامخاً في مجد طوال حياته. فمنذ صغره كان فتى كالأرز، فجلس مع الشيوخ وهو في الثانية عشرة من عمره وحاورهم وكانوا يتعجبون من فهمه ومن أجوبته. وأيضاً في كلامه هو فتى كالأرز، فقالوا عنه: "لم يتكلّم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان" (يو ٦: ٤٦)، وكذلك في أعماله هو فتى كالأرز، فحين انتهر الريح واسكت البحر قالوا بعضهم لبعض: "مَنْ هُوَ هَذَا؟ فَإِنَّ الرِّيحَ أَيْضاً وَالْبَحْرَ يُطِيعَانِهِ!" (مر ٤: ٤١)، وفي دخوله إلى أورشليم كان فتى كالأرز، فارتجت المدينة كلها (مت ٢١ : ١٠)، وحين جاء الجنود ليقبضوا عليه في البستان كان فتى شامخاً كالأرز، فقال لهم: "مَنْ تطلبون؟". فقالوا: "يسوع الناصري". فقال لهم: "أنا هو". فرجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض. (يو ١٨ : ٦)، وحتى في صلبه كان فتى كالأرز، فحين علّق على الصليب، أظلمت الشمس، وتزلزلت الأرض وتشققت الصخور وتفتحت القبور (مت ٢٧ : ٥١ - ٥٢).

(١٦: ٥) "حَلَقَهُ حَلَاوَةً وَكُلَّهُ مُشْتَهَاتٌ. هذا حبيبي، وهذا خَليلي، يا بنات أُورُشَلِيم".

حَلَقَهُ حَلَاوَةً، عندما يأكل الإنسان طعاماً حلو المذاق، يستشعر في حلقه بطعم الحلاوة، إذأ، ماذا أكل المسيح؟ يخبرنا الإنجيل أن المسيح بعد القيامة ظهر لتلاميذه على بحر طبرية، وسألهم: "هل عندكم ما يؤكل؟" (يو ٢١ : ٥) لكي يؤكد لهم أنه يسوع نفسه وليس خيلاً. فقدموا له نوعين من الطعام، عسلاً وسمكاً. والعسل هو نتاج النحلة التي تنتقل من زهرة إلى أخرى لتجمع الرحيق، مما يعني أن النفس التي تشهد للمسيح ولمحبتة تصير العسل الذي يحلّي حلقه ويفرحه. وأيضاً السمك المشوي يرمز إلى المؤمنين المسيحيين، فكما أننا نصطاد من البحر آلاف الأطنان من السمك ومع ذلك لا نستطيع أن نقضي عليهم لأن كل سمكة تدخل الشبكة تترك وراءها آلاف البيض، كذلك المسيحيون فمهما ذبحوا وقتلوا منهم فلن يتمكنوا من إبادتهم لأن كل شهيد يجر وراءه الآلاف، فهم مثل السمك يستحيل القضاء عليهم مهما حاولوا.

قرأت مرّة كلمة جميلة مؤثرة ومعبرة في آن واحد، تقول: إنَّ الشهيد يموت مرّة واحدة لأجل المسيح، أمّا الراعي فيموت كل يوم من أجل قطيع المسيح، فيقدّم نفسه سمكاً مشوياً، وهذا يفرّج المسيح جداً. فالنفوس التي تشهد له بالعسل وأيضاً النفوس التي تقدم ذواتها كسمك مشوي محبّة به تفرح قلب المسيح وتلذذ حلقه بطعم الحلاوة. وعادة كل مؤمن يأتي إلى الكنيسة لسبب يخصصه، الذي يعاني من مرض، والذي عنده مشكلة، والذي تحاصره الضيقات والمثقل بالمتاعب، وهكذا يجتمعون لكي يقدموا له المر الذي عندهم، فإيا ليتهم يقدمون له العسل أيضاً فيفرحون قلبه، صحيح ليس لنا سواه لذلك نلجأ إليه لنلقي عليه أتعابنا وهمومنا "ادعني في يوم الضيق" (مز ٥٠: ١٥)، ولكن ألا يستحق أن نقدم له أيضاً العسل! فنأتي إليه ونشكره من كل قلوبنا ونقدم له التسبيح. فيأتي إليه المؤمن ويقول له: "يا ربي، أنا أتبعك بفرح، أنا خروف في قطيعك"، فيأكل المسيح هذا العسل ويصير حلقه حلاوة. فيكفيه أن العالم قد قدّم له الخل "في عطشه سقوه خلاً" كما نصلي في صلاة القسمة، أمّا أولاده فحري بهم أن يسقوه العسل.

ولكن بعد ذلك قالت عنه عروس النشيد، ما يلذ لكل نفس أحبت المسيح أن تقول، فقالت: "وَكُلُّهُ مُشْتَهَيَاتٌ". فهي لم تعد قادرة على وصفه وعجزت كلماتها أمام شخصه لأنه لا يوصف. فهل تستطيع أن تصف الذي يحل فيه كل ملء اللاهوت! وهل تقدر أن تصف الذي قال عنه الآب: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت" (مت ٣ : ١٧) فهو الذي يسر قلب الآب. فالعروس لا تستطيع أن تصفه ولا تجد الكلمات التي تعبر عن حقيقة ما هو عليه، فحلقة حلوة وكله مشتهيّات.

هذا حبيبي وهذا خليلي يا بنات أورشليم.

الفصل العاشر

(الأصاحاح ٦: ١ - ١٢):

نتابع مع عروس النشيد انحدارها في المرحلة السابعة، وكما رأينا فإنَّ أخطاءها ليست أخطاء كبيرة، فلم يقل سفر النشيد أنَّها زنت أو قتلت، فهي لم تقترب خطيئة كتلك التي نطن نحن أنَّها خطايا كبيرة، لكن كل الذي ذكره الكتاب أنَّها قالت: "أنا نائمة". فهذه هي خطيئتها، فالخطيئة الوحيدة التي دُكرت في سفر النشيد هي خطيئة الكسل. وفي سفر الأمثال أكثر خطيئة تكرر ذكرها هي خطيئة الجهل، أمَّا الخطيئة التي حُلَّت في المرتبة الثانية فهي خطيئة الكسل. ونحن في أحيان كثيرة نقيم الوصايا تقييماً مختلفاً عن تقييم الرب لها، فكل الذي فعلته العروس أنَّها تكاسلت، وهذا ما قد يحدث مع أي مؤمن، فيعود من الكنيسة بعد حضور العشية فيتكاسل عن الصلاة في البيت، وقد يتكاسل سواه عن حضور القداس، أو القراءة في الإنجيل، لأنَّه يظن أن هذا الأمر بسيط في حين أن هذا التكاسل هو الثعالب الصغيرة التي قد تقضي على الحياة الروحية بأكملها. وكما قال سفر الجامعة "الذُّباب المَيِّت يَتَنَّن وَيُخَمَّر طيب العطار (جا ١٠: ١)، فالعطار يجتهد ويتعب في جمع الطيب ويكفي أن يسهو عنه لحظة، لكي تنزل فيه ذبابة صغيرة وتفسده.

وهكذا الحياة الروحية فأى خطيئة صغيرة وإن كنا نطن أنَّها ليست خطيئة، فإنَّ التراخي فيها والكسل يمكن أن يُضَيِّع الحياة الروحية برمتها، ويكفي أن السيّد المسيح في مثل الوزنات عندما حاسب العبد الذي أخذ وزنة واحدة ودفنها في التراب، عاقبه بالقول له: "أَيُّهَا الْعَبْدُ الشَّرِيرُ وَالْكَسَلَانُ" (مت ٢٥: ٢٦) فمن الطبيعي أن يقول له المسيح: أَيُّهَا الْعَبْدُ الشَّرِيرُ. فلماذا إذاً قال له: الكسلان؟ لأنَّ الكسل هو الذي أوصله إلى الشر. مما يبيِّن خطورة الكسل، كما حدث مع داود النبي، هو الذي وصل إلى القمة بعد أن أخضع الأعداء وبدأ يبنى لنفسه قصراً وبدأت الأمور تستقر، فإذا به ذات يوم يتكاسل،

فالشعب خرج للحرب بينما هو قبع في البيت بحجة أنه كان يذهب إلى الحرب كل يوم فلن يؤثر إذا ما ارتاح يوماً واحداً ولم يذهب. فكانت نتيجة بقائه في البيت أنه ضجر وخرج ليتمشى على السطح فرأى امرأة أوريا تستحم فسقط داود.

لذلك فلنحذر من الخطيئة الصغيرة التي تبدو لنا ليست بذي أهمية، فعروس النشيد بسبب الكسل تسرب الخمول والضعف إلى حياتها الروحية، وعندما جاء المسيح وقرع على بابها تذرعت بحجج واهية، ومن ثم كما رأينا خرجت فيما بعد تشكر الله أنها تقابلت معه.

ثم بدأت العروس تتغنى في وصف الحبيب، فتقول: حبيبي أبيض وأحمر، معلّم بين ربوة ... فوصفها للمسيح يعني أنها بدأت تشهد للمسيح حتى وهى في حالة الضعف الروحي، إذاً فضعفها هذا لم يمنعها حتى أن تخدم. مع أن الكثير من الناس يتوقفون عن الخدمة في الفترة التي يتخللها ضعف في حياتهم بحجة أنهم تهاونوا، صحيح أن التهاون لا ينفع مع الخدمة، ولكن إن تركوا الخدمة فالتهاون سوف يزداد أكثر فأكثر، إذاً فما هو المطلوب؟ المطلوب هو أن يستمر المؤمن في خدمته كالمعتاد وفي نفس الوقت يقدم توبة ويتراجع عن أخطائه.

فالعروس حتى وهى في حالة الضعف استمرت في خدمتها وما أن شهدت للمسيح حتى استعادت حياة الشركة مع المسيح. فقالت: "هذا حبيبي". وهذا، اسم إشارة للقريب. فهى كانت محرومة منه، ولكن حين بدأت تشهد له تقابلت معه ثانية. والنفس تختبر هذا الاختبار في مرات كثيرة. فيكون المؤمن جالساً في المنزل في وقت خلوته، يتأمل في الإنجيل أو يطالع كتاباً روحياً ولكنه لا يشعر بتعزية، ولا يشعر بحضور الله، ولكن ما أن يخرج من البيت لكي يفتقد أخاً أو يسأل عن أخ، أو يشارك أخاً في حزن أو في ألم، حتى يجد فيضاً من التعزية قد انسكب في داخله.

ففي مرات كثيرة بسماع من الرب لا يتعزى المؤمن داخل المخدع كفاية، لماذا؟ لكي يحثه الرب على الخروج من البيت للسؤال عن إخوته فيشاركهم في متاعبهم، وفيما هو يشاركهم في أحزانهم ويكلّمهم عن المسيح يتقابل معه، "كنت مريضاً فزرتني، كنت جائعاً فأطعمتني" (مت ٢٥: ٣٥)، فبعد أن يشهد للمسيح تعود الشركة بينه وبين المسيح.

والعروس ارتبطت مجدداً بالمسيح وعادت الشركة ما بينهما، لذلك سوف نستكمل المرحلة السابعة لنرى نتائج هذه الشركة:

الجزء الأول يمتد من الآية (١ - ٤)، ويشير إلى ثمار عودة الشركة. فبعودة الشركة بينها وبين المسيح حازت على أربع ثمار، كل ثمرة أجمل من الأخرى.

الثمرة الأولى: شهادة حياة للمسيح. فعندما استعادت علاقتها بالمسيح، ماذا حدث؟ قالت لها بنات أورشليم:

(١:٦) "أين ذهب حبيبك أيتها الجميلة بين النساء؟ أين توجه حبيبك فنطلبه معك؟".

فعندما شهدت هذه النفس للمسيح كانت شهادتها قوية فأثرت في بنات أورشليم. ونحن في مرات كثيرة نشهد للمسيح ولكن دون أن يكون لنا شركة مع المسيح، ولا يوجد صلة بيننا وبينه، فيبدو الأمر أشبه بتأدية عمل روتيني، أو وظيفة، أو لإراحة الضمير، أو بهدف الظهور أمام الآخرين بمظهر التقوى، فيرتدي الإنسان ثوب الفضيلة ويكلم الناس عن يسوع، ولكن لأن المتكلم ليس له شركة مع المسيح، يكون كلامه، كلاماً ميتاً، بلا ثمر، كلاماً ليس له أي تأثير في النفوس.

فعندما عادت الشركة ما بين النفس والرب غدت شهادتها للمسيح شهادة قوية، ونحن عندما ندعو الآخرين للمسيح، ماذا نقول لهم؟ نقول لهم: "ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب" (مز ٣٤: ٨) وهنا نطرح سؤالاً بسيطاً، فهل أنت يا مَنْ تدعو الناس قد تذوقت المسيح؟ أتعلم أن تقول: "لأعرفه وقوة قيامته ... (في ٣: ١٠)، كما قالها بولس الرسول. فهل أحيا معه فرحاً به؟ لأنه معلوم عندما يفرح الإنسان بأمر ما ويكلم الناس عنه فمن المؤكد أنهم سوف يحبونه، وليكن هذا مبدءاً في حياتنا. فالذي يحب الإنجيل ويكلم الناس عن الإنجيل يجعل الناس تحب الإنجيل، والذي يحب التسبحة ويكلم الناس عن التسبحة يجعل الناس تحب التسبحة، والذي يحب الصلاة عندما يتكلم عن الصلاة فسوف يؤثر في الناس ويحملهم على حب الصلاة.

فالأمر الذي لي فيه شركة مع المسيح عندما أكلم الناس عنه فسوف أؤثر فيهم، لكن إذا ما تكلمت لمجرد الكلام بدون أن أحياء مع الرب فسوف يبقى مجرد كلام، وتكون ثمرته ضعيفة جداً.

لذلك عندما أراد آباؤنا الرسل أن يختاروا رسولاً عوضاً عن يهوذا قالوا يجب أن يكون مَنْ نختاره شاهداً معنا على قيامة الرب يسوع لأنه سوف يجول يبشر الناس بأن: المسيح قام. فالسؤال: هل رأيته أنت بنفسك؟ فإن قال لا، لكن سمعت فقط عن قيامته، فسوف يرحلون دون أن يؤمنوا، لكن إذا قال لهم: نعم رأيته، "الأعرفه، وقوة قيامته، وشركة آلامه، مُشَبَّهاً بَمَوْتِهِ" (في ٣: ١٠)، فتصبح حينئذٍ شهادته شهادة قوية.

والبرهان على أن شهادة العروس قوية هي ردة فعل بنات أورشليم، فسابقاً عندما كانت في فترة انقطاع الشركة ما بينها وبين المسيح قامت من نومها وبدأت تبحث عنه، فقابلت بنات أورشليم وسألنها: "ما حبيبك من حبيب أيتها الجميلة بين النساء! ما حبيبك من حبيب حتى تُحلفينا هكذا!" (نش ٥: ٩)، وقد تقول لي هن سألنها عن حبيبها، لكن لا، فالسؤال آنذاك كان فقط لمجرد حب الاستطلاع، فسألنها من هو حبيبك ومن الذي فعل بك هكذا؟ لكن بعد أن عادت الشركة بينها وبين المسيح، فلم يسألنها من باب حب الاستطلاع فقط إنما قلن لها: "سنطلبه معك"، فأردن أن يرتبطن بمسيحها، فهذه هي ثمرة الشهادة لله من نفس تحيا مع الرب، لذلك تصعب الشهادة بالكلام فقط، وقد سمعناها كثيراً من الناس، وعلى سبيل المثال أم تشتكي وتقول: عندما أكلم ابني عن المسيح يستهزئ، وهنا يأتي السؤال نفسه: هل يرى الابن المسيح في أمه عندما تكلمه عنه؟ أو إن الأمر يقتصر على بعض الممارسات؟ كأن تقول له: "اذهب إلى الكنيسة لئلا يغضب منك المسيح، اذهب إلى الكنيسة لكي يفرح الرب". ولكن إذا ما رأى هو كيف تفرح أمه الرب حينئذٍ يكون لكلامها تأثير عليه. فهذه النفس عندما عادت للشركة مع الرب أصبحت شهادتها شهادة مؤثرة.

وكذلك عندما ارتبط آباؤنا الرسل بالمسيح وأصبحت لديهم شركة بينهم وبين المسيح فوقفوا في يوم الخمسين يعظون، وتجدر الإشارة إلى أن بطرس لم يعظ وحده

فقط في ذلك اليوم، إنما "حينئذٍ وقف بطرس مع الأحد عشر" (أع ٢: ١٤) مما يعني أنَّ جميعهم قد وعظوا، وكل واحد منهم تكلم بلغة، وكل فئة سمعت لغتها اتجهت للرسول الذي يتحدث بها فكانت النتيجة أن اجتمع الناس إليهم وسألوهم: "ماذا نفعل أيها الرجال الإخوة". بمعنى قولوا لنا ماذا نفعل فنحن نريد أن نصبح مثلكم. فتجاوب الناس هذا، ما هو إلا دليل على ثمرة الشهادة للشركة التي ما بين الرسل والرب يسوع. فهي لذة ما بعدها لذة أن يستخدم الله الإنسان في خلاص نفس، فهو أمر مبهج، والذي جرب هذا الأمر يعرف هذه البهجة. فتصوّر عندما تقف أمام الرب ويقف إنسان واحد ويقول للمسيح: "أنا يا ربي أتيت إلى الكنيسة وتبت وعرفت طريقك عن طريق فلان"، فهذه تكفي الإنسان في السماء.

أمّا القديسون المثمرون فيقفون أمام الرب ولم يكتفوا بإحضار شخص واحد أو اثنين أو عشرة إلى حظيرة الرب، على مثال الأنبا أنطونيوس الذي جلب إلى الكنيسة الآلاف إن لم يكن الملايين من الرهبان الذين يقفون أمام الرب ويقولون: "نحن سلكنا هذه الطريق بفضل هذا القديس". فما هو مقدار مجد الأنبا أنطونيوس في السماء؟ إنه ليفوق التصور، فهي لذة مبهجة جداً. فهي تشبه رجلاً يصطاد السمك فإذا ما اصطاد سمكة واحدة يشعر بفرح عارم. والبعض من الرسل كانوا صيادي سمك وحوّلهم المسيح إلى صيادي الناس، لأنّ الأمر مشابه بمكان ما ولكن صيد البشر يزرع في قلب المؤمن بهجة لا تقاس.

"والذين ردّوا كثيرين إلى البرّ كالنواكب إلى أبد الدهور" (د ١٢: ٣)، "من ردّ خاطئاً عن ضلال طريقه، يخلص نفسه من الموت، ويستترّ كثرةً من الخطايا" (يع ٥: ٢٠). فلنصلّ أن يعطينا المسيح أن تكون لنا شركة معه لكي تكون شهادتنا للمسيح وكلامنا عن المسيح مؤثراً في الناس فينجذبون إلى المسيح. حتى إذا ما وقفنا في ذلك اليوم أمام المسيح، يقول لكل واحد منا: "أنت صاحب فضل على فلان". فتسأل متعجباً "كيف!". فيقول لك: "نعم، فأنت عندما عشت معي قد أثرت فيه حتى من دون أن تتكلم".

وفي ذاكرتي قصص عن أناس وقفوا في القديس وقفة صلاة، فلم يتكلموا ولم يعظوا، وكان لهم الأثر البالغ فيمن حولهم، وعلى سبيل المثال تاسوني كانت واقفة في القديس تفرغ صدرها وعيناها نحو الأرض ودموعها تسيل على خديها وهي تصلّي مع الكنيسة كرحمتك يارب وليس كخطايانا فقد تسببت في توبة فتاة كانت بعيدة عن الرب وتسير في طريق الخطيئة، ودون أن تكلمها ذهبت تعترف لأب اعترافها، فسألها أبونا: "ما الذي دفع بك للمجيء للاعتراف؟". فقالت له: "كنت واقفة في الكنيسة، ورأيت تاسوني واقفة تصلّي وتفرغ صدرها وتبكي، فقلت في نفسي: إذا كان هذا حال تاسوني! فماذا سيحل بي أنا". وهذه التاسوني لم تشعر بنفسها ولم تدر مدى تأثيرها على سواها. فتصوّر المجد الذي لها في السماء، عندما يقول لها المسيح: "أنت كنت السبب في خلاص فلانة". وكما كنت أقول فقد تؤثر فيمن حولك بكلمة أو بوقفة أو بابتسامة لطيفة تسند بها شخصاً ما، أو بسؤال عن شخص ما. فاجذب النفوس إلى المسيح مبهج، فطوبى للإنسان الذي يستخدمه الله في خلاص الآخرين.

فالناس سوف يسألوننا عن مسيحننا عندما يروننا مختلفين عنهم في مواقفنا من ظروف الحياة، لكن إذا كانوا هم متجهمي الوجوه وعابسين، ونحن عابسون مثلهم، هم يتذمرون ونحن نتذمر مثلهم، هم قلقون ونحن قلقون مثلهم، هم تضيق حقوقهم فيشتكون ويتذمرون ونحن تضيق حقوقنا فتصرف مثلهم، فما هو الفرق إذاً؟ هذا دين وهذا دين، هذا نبي وهذا نبي، فما هو الفرق بينهما؟ لكن عندما يرون السلوك مغايراً، فسوف يتعجبون ويتساءلون عن سر فرحنا، وحين يلاحظون السلام الذي أنت فيه رغم المضايقات في العمل أو في الوظيفة أو جرّاء مشكلة ما، فسوف يسألونك: من أين حصلت على هذا السلام؟، فتقول لهم: "هذا كله من حبيبي". حينئذ يبدأون يبحثون عن المسيح، أين ذهب حبيبك فنطلبه معك.

وما يدعو للعجب هو وصف بنات أورشليم للعروس، إذ قلن لها: "أين ذهب حبيبك أيتها الجميلة بين النساء"، مع أنّ المشهد الأخير صوّرها لنا في حالة يرثى

لها، فهي مضروبة ومجروحة وعارية بعد أن نزعوا إزارها عنها، لكنّها بدت في عيونهن جميلة، لأنّ جمال المسيح ظهر عليها من سلام وفرح يغمر النفس. فانظروا إلى استفانوس حين كان يُرجم، وما هو حاله، فلو ألقوا على وجه إنسان حجراً واحداً كان يكفي لتشويه وجهه، فكيف باستفانوس وهو يرحم من كل النواحي، فهو في منظر لا يمكنك أن تحتمل رؤيته، ومع ذلك فقد شهد الكل أنّ استفانوس جميل، حتى أنّهم قالوا أنّهم رأوا وجهه كأنّه وجه ملاك (أع ٦ : ١٥)، فعندما كان استفانوس يشهد للرب بدا شكله جميلاً رغم أنه مضطهد، رغم أنّه مضروب بالحجارة.

هناك آية في سفر الأعمال جديرة بالتوقف عندها، فبعد أن قُتل استفانوس حدث اضطهاد عظيم على الكنيسة، فتشتت الجميع وتركوا أورشليم وخرجوا. ويقول الكتاب: "فالذين تشتتوا جالوا مبشرين بالكلمة" (أع ٨ : ٤). فلنتخيل المشهد: إنسان مؤمن بالمسيح خارج من أورشليم مطرود، وبلا مال، لأنّ الكل قد باعوا أملاكهم ووضعوها تحت أقدام الرسل، ومطارد، فشاوّل وراءهم. ويقابل هذا المؤمن إنساناً آخر ليس بمسيحي، فيقول له: "هل تعرّفت إلى المسيح؟ وهل عرفت قصة الخلاص، وهل عرفت عمل الرب معنا؟" ويحكى له قصته. فيقول له الإنسان الغير مسيحي: "وماذا قدّم لك المسيح؟". فيقول المؤمن بالمسيح: "بصراحة، بسبب إيماني طردت من أورشليم، ومضطهد وليس معي مال، وليس لي مكان ألجأ إليه". فيتفرّس الرجل في وجه المؤمن ويقول له مستغرياً: "ورغم ذلك تشهد للمسيح الذي تسبب لك بكل هذه المعاناة؟". فما هذا السر؟ فبالرغم من أنّه مضطهد ومجروح ومهان، ما زال الناس يرون فيه جمال روحاني. فعندما تُضطهد نفس من أجل المسيح وترتسم فيها مشاعر الفرح والسلام ثمرة الشركة معه، فمن المؤكد سوف تترك عميق الأثر فيمن حولها، وهو أمر قد يعجز عنه الوعظ بالكلام لوحده، فالوعظ سهل ولكن نفس تحمل الصليب وفي نفس الوقت تقدّم الشكر للرب، لهو أمر يدعو الناس الذين يرونها أن يقولوا: أين توجّه حبيبك حتى نطلبه معك.

(٦: ٢) "حبيبي نزل إلى جَنَّتِهِ، إلى خَمَائِلِ الطَّيِّبِ، لِيَرَعَى في الجَنَّاتِ، ويَجْمَعَ

السَّوسَنَ".

الثمرة الثانية: فهم لأعمال الله ولمقاصده: حبيبي نزل إلى جنته.

فقبلاً عندما كانت عروس النشيد تبحث عن حبيبها، ذهبت إلى الحرس الطائف وقالت لهم: أرايتم مَنْ تحبّه نفسي؟ ففي تلك المرحلة لم تكن تعرف مكانه، أمّا اليوم وبعد عودة الشركة ما بينهما باتت تعرف مكانه، فهو موجود في جنته، وماذا يفعل هناك؟ إنّه يجمع السوسن. وطبعاً المقصود بالجنة هي النفس البشرية، أو الجنات والمقصود بها الكنيسة أو نفوس المؤمنين. مما يعني أنّ هذه النفس أصبحت قادرة على الفهم بمجرد أن استعادت الشركة مع الرب، فبدأت تفهم أعمال الله، ومقاصده وتدابيره، فهي تعي أين هو المسيح وتعرف ماذا يفعل.

وما توصلت إليه النفس هو مطلب كل إنسان يرغب بمعرفة فكر الرب ويسعى لكي يعرف مشيئته، ولكنّه لن يعرف إلّا عندما تتوطد الشركة مع الرب وحينئذٍ سوف يجد الأجوبة على تساؤلاته. فعندما كانت الشركة مقطوعة بين الرب وهذه النفس راحت تبحث عنه في الشوارع وفي الأسواق وفي المدينة، ولكن بعد أن عادت الشركة سألناها أين حبيبك؟ فقالت: أنا أعرف مكانه، وأعرف فكره، وأعرف تدابير، وهذا ما عبّرت عنه بالقول: حبيبي نزل إلى جنته.

وفي هذا المجال لا يمكننا إلّا أن ننظر بإعجاب كبير إلى بولس الرسول، الذي بدأ يفهم الرب عندما دخل في شركة معه، وإن جاز لي القول، أصبح يدرك كيف يفكر الله، لذلك لم يتردد أن يقول: "أمّا نحن فلنا فكر المسيح" (١كو٢: ١٦). وهذا ما لمسناه عندما دخل بولس إلى السجن في مدينة فيليبي، ومع أنّه سجن ظلماً لم يحرك ساكناً، وعند نصف الليل بدأ بولس وسيلا يصليان ويسبحان الله فانفتحت أبواب السجن، وأي إنسان مكان بولس ذي فهم محدود لكان اعتقد أن الأبواب انفتحت لأنّه صلّى فيسرع ويهرب من السجن! فهذه حال أي إنسان وُضِعَ في السجن ظلماً وبعد أن صلّى نظر فرأى أبواب السجن قد انفتحت فمن الطبيعي أن يخرج من السجن بأقصى سرعة وينجو

بنفسه. لكنَّ بولس لم يتصرَّف على هذا النحو ولم يغادر السجن بل بقي في مكانه هادئاً ساكناً. ولكن لماذا لم تهرب يا بولس؟ لأنَّه يؤمن أنَّ الله قد سمح بدخوله إلى السجن لأجل أمر معيَّن وهذا الأمر لم يتم بعد. فهو يفهم فكر الرب، لذلك لزم مكانه، وحين رأى السجَّان أبواب السجن مفتوحة استل سيفه وهمَّ بقتل نفسه، فناداه بولس من الداخل وقال له: تعال نحن جميعاً ههنا. فتقدَّم السجَّان نحوه، ودون أن يعظ بولس ودون أن يتفوَّه بكلمة، وقد يكون بولس وعظ المساجين، ومن المؤكد أنهم رأوه يصليَّ وبالتالي رأوه فرحاً داخل السجن، لذلك عندما انفتحت أبواب السجن لم يهرب المساجين، وهذا واضح من كلام بولس حين قال للسجَّان: "لأنَّ جميعنا ههنا"، فالمقبول أن يبقى بولس وسيلا ولكن المنطقي أن يهرب بقية المساجين ولكنَّهم لم يفعلوا بل آثروا البقاء مع بولس، لذلك عندما دخل السجَّان ورأى هذا المشهد ومع أنَّه لم يسمع وعظ بولس ولم يراه يصليَّ، لكنَّه رأى جمال المسيح في بولس، فسجد أمام بولس وقال له: "ماذا أفعل لكي أخلص؟". ولكن يا حضرة السجَّان ألا تريد أن تسمع وعظ بولس أولاً؟ لا، لم يعد يهتم أن يسمع أي كلمة فما رآه يكفيه لكي يؤمن، لأنَّه عندما رأى بولس بهذه الصورة أراد أن يصير مثله، لا سيما وأنَّه لم ينس كيف إنْهال عليه البارحة بالضرب على ظهره بالعصي، ولو أنَّ بولس هرب لكان السجَّان عوقب مكانه لأنَّه بحسب القانون الروماني على حافظ السجن أن يموت بدل السجين الهارب، وبولس لم يرض أن يهرب لأنَّه أراد أن ينجيه من الموت. هذا ما خطر في بال السجَّان لذلك اندهش بما فعله بولس وتساءل ما هذا الرجل!. فبولس فاهم فكر الرب، لذلك عندما انفتح باب السجن لم يفكر أن يخرج. (راجع أع ١٦ : ٢٥ - ٣٤) (قصة سجان فيلبى).

وهذه هي معضلة كل إنسان مسيحي فهو يرغب في معرفة فكر الرب، وهذه المعرفة لن تتحقق إلَّا للذي له شركة مع الرب.

وأيضاً حنة أم صموئيل هي امرأة مدهشة، لها شركة مع الله، تتحاور معه كما يفعل الأصحاب، جاءت يوماً إلى الهيكل ووقفت أمامه تصليَّ، فقالت له: بصراحة يا ربي عندي مشكلة. فقال لها: ما هي مشكلتك يا حنة؟ فقالت له: ليس عندي أولاد. فنظر إليها الرب وقال لها: أنا أيضاً عندي مشكلة! فقالت له: ما هي مشكلتك

يا ربي؟ فقال لها: ليس عندي أولاد يقدسونني، فانظري ماذا يفعل ولدي عالي، حفني وفينحاس، لقد شوها صورتني، ودنسا بيتي. فقالت له: ما رأيك يا ربي أن تعطيني ولداً وهكذا تكون قد حلت مشكلتي، وأنا أعطيك الولد يكون مكرساً لك، فيجل لك مشكلتك، هل توافق؟ فقال لها الله: طبعاً حل رائع. فتفاهما وتوافقا لأن بينهما شركة وهي فاهمة فكر الله.

فالكل يريد أن يعرف إرادة الرب، وإرادة الرب ليست ورقة نضعها على المذبح، لأن البعض يعتقد أنه سوف يعرف إرادة الرب عندما يضع ورقتين على المذبح وأبونا يختار واحدة منها فتكون هي التي تعبّر عن إرادة الرب، وهذا ليس صحيحاً وهو أمر مرفوض، فأبأونا الرسل اعتمدوا هذه الطريقة لمرة واحدة وذلك قبل حلول الروح القدس، كما ذكر لنا سفر أعمال الرسل، ولكن بعد حلول الروح أصبحوا يصغون إلى ما يقوله الروح، كما حصل عندما قال الروح: "أفرزوا لي برنابا وشاول للعمل الذي دعوتهم إليه" (أع ١٣: ٢). لأنه مع الروح أعطوا نعمة التمييز لصوت الرب وبالتالي معرفة مشيئته، وأصبح الإنسان يدرك مقاصد الله، فتصوروا المجد الذي أعطي لنا، "فنحن لم نأخذ روح العالم، بل الروح الذي من الله، لنعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله" (كو ٢: ١٢)، "لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله" (١ كو ٢: ١٠).

(٦: ٣) "أنا لحبيبي وحبيبي لي. الراعي بين السّوسن".

الثمرة الثالثة: نضج روحي، فالشركة تعطي نضجاً روحياً، لذا قالت العروس:

"أنا لحبيبي وحبيبي لي". ولكن أين هو النضوج في هذه الآية؟ فإذا ما عدنا إلى الأصحاح الثاني الآية ١٦ نسمع العروس تقول: "حبيبي لي"، وهنا يكمن الفرق، فالإنسان في بداية الطريق الروحي يردد: "حبيبي لي"، مما يعني أنه ينتظر من الرب دوماً أن يحقق له كل طلباته، ويحل له كل مشاكله، فيشفي أمراضه، ويسهل له كافة أموره الحيائية، والذي يضايقه تفتتح الأرض وتبتلعه كما حصل مع قورح وجماعته، وطالما "حبيبي لي" بهذه الصورة يتهلل به ويفرح ويلجأ إليه. وهذا التصرف يشير إلى أن هذا الإنسان ما زال في طفولة روحية.

وهذه العلاقة بهذه الصورة مقبولة في بداية الطريق الروحي، فهو يشبه الطفل المدلل الذي لم ينضج بعد، ولكن فيما بعد عليه أن يبدأ يرتقي في الطريق الروحي إلى أن يصل إلى درجة أعلى من النمو وفيها يقول: "أنا لحبيبي"، وبهذا يكون على استعداد أن يكون بكليته للمسيح، صحيح أن المسيح يعطيه نعمته وقوته ولكن المطلوب أن يرسخ في قلبه أنه هو للمسيح، حياته، أمواله، صحته، وقته، فيقبل أن يملك المسيح على حياته، فيوافق على كل ما يحقق مقاصد المسيح، ويسعى أن يفعل ما يرضي المسيح، حتى وإن كان هذا العمل متعباً له، فهذا هو الفرق ما بين "حبيبي لي" و"أنا لحبيبي".

ففي بداية الطريق يريد الإنسان أن يحقق له المسيح كل رغباته، وإن لم يلبس المسيح رغباته يشعر بالمرارة والتعاسة، هذا لأنه ما زال في البداية، ولكن المسيح يريد من الإنسان أن ينضج وهذا ما نبّه بطرس إليه، فقال له: "يا بطرس لماذا كنت أكثر حداثة، أي عندما كنت شاباً، كنت تذهب حيث تشاء، فتقرر ما تريد وترفض ما لا تريد، وهذا أمر طيب، ولكن متى شخت يا بطرس، أي عندما تتقدم في الطريق الروحي تمتد يدك، مما يعني أنك تسلم نفسك، وآخر يمنطقك أي الروح القدس، ويحملك حيث لا تشاء، فلا تعود ملك نفسك، هذا ما سوف يحصل لك متى شخت أي متى تقدمت في الطريق الروحي (يو ٢١: ١٨).

فالغاية المنشودة من الجهاد في الطريق الروحي أن يصل الإنسان في حياة الشركة إلى هذا المستوى من النضج الروحي، بالرغم من كل التعب والضيق والمشاكل التي تكتنف الطريق. فالمرأة الشونمية التي كانت في أيام أليشع النبي كان عندها مشكلة، فما هي مشكلتها؟ فهي لم تكن قادرة على الإنجاب، فقدّمت خدمة إلى أليشع رجل الله فأعطته العلية لكي يقيم فيها، وعرفاناً بجميلها أرسل أليشع تلميذه جحزي يسألها أن تطلب ما تشاء من عند الرئيس أو الملك فيحققه لها. والشونمية كانت تعلم أن أليشع رجل الله لذلك فمن الطبيعي أن تقول له أريد ولداً. فأى امرأة ليس

عندها أطفال فبديهاً أن يكون مطلبها الأول هو الحصول على ولد، كما لو أن إنساناً مريضاً سألناه ما هو مطلبك فيقول دون تردد أريد أن أشفى، أو إنساناً له ابنة مريضة ظهر له المسيح وسأله ما هو مطلبك لقال له في الحال أن تبرأ ابنتي. فأليشع رجل الله يسألها وهي اختبرت معجزات أليشع ومع ذلك عندما أرسل يسألها ما هي طلباتك قالت له: ليس لي طلبات! "أنا ساكنة وسط شعبي"، فيكفيني أنني وسط شعب الله، وهل يوجد أهم من ذلك! فالشونمية قد وصلت إلى مستوى عال من النضج الروحي (راجع ٢ مل ٤). والإنسان الناضج روحياً بالرغم من وجود المشاكل والضيق في حياته لا يطلب شيئاً، وإن سأله الرب: ماذا تريد؟ يقف يشكره ويقول له: يكفيني يا ربي أنني موجود في كنيستك، يكفيني بأنك فاتح لي بيتك، يكفي أنك اخترتني ابناً لك، يكفيني جسدك ودمك يغسلاني، يكفيني كلمتك التي تعزيني وتفرحني، يكفي بعد نهاية هذا العالم أن لي مجداً أبدياً. فأرى أهل العالم يجرون نحو بحيرة متقدة بالنار والكبريت بينما أنا أجري إلى الأحضان الإلهية. فهو معه لا يريد شيئاً. فالإنسان عندما يفكر في الخلاص، وما أقوله ليس كلاماً للوعظ، لكن صدقاً عندما يعيش الإنسان بهذا المستوى الإيماني لا يعود يكثر للتعبد بل ينظر إلى المسيح الذي تألم لأجله.

فعلى المؤمن أن لا ينحصر في طلباته الضعيفة "حبيبي لي"، وإن لم يلب المسيح طلباته فلا يعود يذهب إلى الكنيسة، ويتوقف عن الصلاة، بل عليه أن يرتقي في الطريق الروحي إلى أن يبلغ مرحلة النضج التي وصلت إليها العروس ويردد معها "أنا لحبيبي".

(٤: ٦) "أنت جميلة يا حبيبتي كترصة، حسنة كأورشليم، مرهبة كجيش بألوبة".

الثمرة الرابعة: النصر:

فما أن سمع المسيح قول العروس "أنا لحبيبي"، حتى قال لها: "أنت جميلة يا حبيبتي"، طبعاً عندما يسمع المسيح نفساً تقول له: أنا لك يارب فافعل بي ما تشاء. فسوف يفرح أشد الفرح. وهذا التسليم لإرادته قد عبّر عنه بولس الرسول بقوله: "لستُ

أَحْتَسِبُ لشيءٍ، ولا نفسي ثَمِينَةٌ عِنْدِي" (أع: ٢٠: ٢٤). فتصوّر الرب في السماء يسمع إنساناً على الأرض يقول له هذا الكلام! حينئذٍ لن يتوانى عن أن يصنع به العظام، كما فعل مع السيدة العذراء بعد أن قالت له: "هوذا أنا أمة الربّ. ليكن لي كقولك" (لوا: ٣٨). فما مدى فرحة قلب الرب عندما يقول له أحدهم: أنا يا ربي تحت أمرك، فافعل بي ما تشاء، فإن أردت أن أهان وأحتقر وأشتّم، ليكن لك ما تشاء، فهذا كلّه قد فعلوه بك، "وليس التلميذ أفضل من معلّمه" (لوا: ٦: ٤٠).

أمّا الثمرة الرابعة لعودة حياة الشركة فهي النصرّة التي تحيا بها النفس، وهي ما عبّر عنها المسيح بكلامه: أنت يا حبيبتى "كترصة"، وترصة كانت عاصمة مملكة الشمال قبل السامرة. "حسنة كأورشليم"، التي هي عاصمة مملكة الجنوب حيث يوجد الهيكل. ثم يتابع كلامه فيقول لها: "مرهبة كجيش بألوية". وماذا يعني بقوله جيش بألوية؟ اللواء هو الراية أو العلم الكبير، وقد سميّ لواء لأنّه يلوي عندما يُرفع عالياً لكبره، فالمسيح يصف النفس بعد عودة الشركة بأنّها مرهبة كجيش بألوية، مما يعني أنّها تعيش حياتها في حرب دائمة مع إبليس، ولكنّها حياة نصرّة وغلبة. فالإنسان عادة يخاف من الشيطان ولكنّ الحقيقة التي أعلنها الإنجيل هي أنّ الشيطان هو الذي يخاف من أولاد الله، وهذا لا يعود إلى قوّة الإنسان أو إلى اجتهاده لكن بسبب المسيح الذي يسكن داخل النفس، فيجب أن نضع هذه الحقيقة في قلوبنا.

والقديس يعقوب يقول لنا في رسالته: "قاوموا إبليس فيهرب منكم" (يع ٤: ٧)، لكنّ المشكلة في الإنسان لأنّه يتوهّم ويرى الأمور على غير حقيقتها، والمثل على ذلك ذكره لنا العهد القديم عندما أرسل موسى رجالاً ليتجسسوا أرض كنعان كما طلب منه الرب (عد ١٣: ١٧)، وهناك رأوا العمالقة سكان الأرض فرجعوا يقولون: "كنا في أعينهم كالجراد". وهنا أسأل سؤالاً: هل دخلتم إلى داخل عيونهم ورأيتم أنهم يرونكم كالجراد؟ فكيف عرفتم أنكم في عيونهم كالجراد؟ فالمشكلة أنهم هم يشعرون في أنفسهم أنهم هكذا "لأنّه كما شعر في نفسه هكذا هو" (أم ٢٣: ٧).

لا أنكر أن الشيطان مكر ولا ينفك ينصب الفخاخ للإنسان، لكن الإنسان المؤمن ليس وحده، فهو محاط بقوة المسيح، وحتى إن سمح المسيح للشيطان بأن يجرب الإنسان فالتجربة في حدود وفي حماية إلهية، فلنكف عن الرعب من الشيطان، فالشيطان ليس مخيفاً إلى هذه الدرجة، والنفس عندما ترتبط بالمسيح تصير مرهبة أي مخيفة كجيش يحمل رايات نصره ورايات ظفر. وقد يقول لي أحدهم لكنّ الواقع أنّ الإنسان مغلوب من الخطيئة. وله أقول: لكنّ الواقع أيضاً أن الخطيئة صارت بلا سم في أجسادنا. فالإنسان يخاف من الشيطان لأنّه يجهل كلمة الله ولكن عندما يفهم كلام الرب وخلص الرب يتشجع قلبه، وهذا لا يعني أنني أدعو إلى تحدّي الشيطان لأننا ضعفاء بدون المسيح، لكنّ الرعب الشديد الذي ينتاب الإنسان في أغلب الأحيان ليس في محله.

فعندما كان شعب إسرائيل يسير في البرية زحفت الحيات نحوهم، وكل من تلدغه الحية يسري السم في جسمه ويموت، فصلى موسى إلى الرب ليرفع عنهم الحيات، فقال الرب لموسى: ارفع على ربة عالية راية وضع عليها حية من نحاس، وكل من نظر إلى الحية يشفى (عد ٢١: ٩). فلنتخيل هذا المشهد لكي نفرح بخلص المسيح، ولكي نتق بكلمة بولس: "إله السلام سيسحق الشيطان تحت أرجلكم" (رو ١٦: ٢٠). فتصور رجلاً جالساً في خيمته وتسلّلت إلى داخل الخيمة حية وغرزت نابيها في جسمه، فبالأكيد سوف يموت، لكنّه يزحف بسرعة ويخرج من الخيمة ويرفع عينيه وينظر إلى الراية فيشفى في الحال، فهذا فقط كل ما كان عليه أن يفعله، أن ينظر إلى الحية النحاسية. فتتظر إلى الرجل متعجباً، هو الذي كان من المفترض أن يموت بعد أن غرزت الحية نابيها في جسده، وتقول له: لكن لماذا لم تمت؟ فيقول لك: لأنني نظرت إلى الراية. لذلك قال المسيح: "كما رفع موسى الحية هكذا ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان" (يو ٣: ١٤)، على الصليب.

فنابا الحية في جسم الإنسان ترمز إلى الخطيئة الساكنة فيه، فهو يقترب الخطيئة "إن قلنا إننا لم نخطئ نجعله كاذباً" (١ يوا ١٠)، فالإنسان يجاهد لكي لا يفعل

الخطيئة، ويحاول أن لا يسقط ولكن إن نجح الشيطان وأوقعه في الخطيئة وهو أقصى ما قد يفعله فلا أثر للخطية ما دام عند الإنسان تريقا عدم الموت، وعنده النظر إلى الصليب، وعنده جسد الرب ودمه الذي يطهر من كل خطيئة، صحيح أن آثار الخطيئة موجودة في الإنسان فهو يحتد ويغضب ويشتم وأحياناً تغزو عقله أفكار شريرة وهذه كلها من المفترض أن تؤدي به إلى الموت، ولكن لا، لأنه سوف يرفع عينيه إلى الحية وحينئذ ينتزع منه سم الخطيئة، فينظر الشيطان إلى المؤمن بالمسيح ويقول له: لقد أفلت من قبضتي فكلما أوقعك في خطيئة تهرع إلى المسيح وتتنظر إلى صليبه وتتناول من جسده ودمه فتشفى، فلم أعد قادراً على هزيمتك.

وهكذا فأقصى ما يقدر الشيطان على فعله هو أن يوقع الإنسان في الخطيئة ولكن المسيح فاتح له باب الغفران على الدوام، وهذا لا يعني أن يستهتر الإنسان ولكن لكي يكف عن الرعب الزائد من الخطيئة والخوف المفرط من الشيطان "لا تسمتي بي يا عدوتي، إذا سَقَطْتُ أقوم. إذا جلست في الظلمة فالرب نور لي" (ميخا ٧: ٨). فمع المسيح أصبح أولاد الله مرهبين. فالشيطان دأب على تجربة الإنسان وهو يعرف في قرارة نفسه أنه سوف يُغلب ومع ذلك يحاول لأنه وقح، ولكن الإنسان للأسف ما أن تلوح الفكرة في عقله يخضع لها في حين يفترض أن يقاوم إبليس لا سيما في البداية لأنه سهل جداً على الإنسان أن يتغلب على الخطيئة في بدايتها، لكن إن جاءه فكر حسد أو خوف أو زنى أو سواها من الأفكار الشريرة وضعف أمامها واستسلم لها فسوف يتملك الفكر من الإنسان وبالتالي يدوس عليه الشيطان، ولكن إن رفضها وقاوم إبليس باللجوء إلى الله والصلاة فسوف يغلب الشيطان.

(٦ : ٥ - ٧) "حوّلي عَنِّي عَيْنِكَ فَإِنَّهُمَا قَدْ غَلَبَتَانِي. شَعْرُكَ كَقَطِيعِ الْمَعْرِ الرَّابِضِ فِي جَلْعَادَ. أَسْنَانُكَ كَقَطِيعِ نَعَاجٍ صَادِرَةٍ مِنَ الْعَسَلِ، اللَّوَاتِي كُلُّ وَاحِدَةٍ مُتْنِمٌّ وَلَيْسَ فِيهَا عَقِيمٌ. كَفَلَقَةٍ رُمَانَةٍ خَدُّكَ تَحْتَ نِقَابِكِ".

فبعد أن ذكرنا الثمار الأربعة لعودة الشركة ما بين المسيح والنفس، ننقل إلى الجزء الثاني الذي يصف فيه المسيح النفس، فيصف عينيها وشعرها وأسنانها وخديها.

وبما أننا سبق وتكلّمنا عنها في فصل سابق سوف أتكلّم عنها باختصار . ولكن يهمني أن أوضح التالي: ففي الأصحاح الرابع وصف المسيح النفس وتكلّم عن سبعة أعضاء ومن ضمنها الشعر والأسنان والخدّين، وكما نلاحظ عاد في الفصل السادس واستخدم تقريباً ذات الكلمات في وصفه للعروس، وقد نتساءل لماذا يكرر الرب الكلام؟ لأنّ ما بين الأصحاح الرابع والأصحاح السادس يوجد في الوسط الأصحاح الخامس الذي يتكلّم عن ضعف النفس، فهي نامت وتكاسلت وتهاونت وكانت النتيجة أن الشيطان تغلب عليها، من هنا ندرك أن المسيح لا يقصد أن يكرر الكلام إنما يريد أن يقول للنفس: أنا قلت لك قبل أن تضعفي أنتِ جميلة وشعرك حلو وخذكِ حلو، وبعد أن ضعفتي وسقطتي في الأصحاح الخامس ها أنا أقول لك مجدداً في الأصحاح السادس لا زلتِ جميلة وشعرك جميل وعيناكِ جميلتان.

فتصرّفه هذا مع عروس النشيد يظهر لنا صورة من صور غلبة الخطيئة، لذلك نسأل: ماذا يمكن للشيطان أن يفعل؟ هل باستطاعته أن يغيّر نظرة المسيح للنفس؟ بالطبع لا. إنما وكما قال بولس بكل ما أوتي من قوّة روحية: "مَنْ سيفصلنا عن محبّة المسيح؟" (رو٨: ٣٥). فالمسيح وهبنا الخلاص. من هنا أهميّة معرفة كلمة الإنجيل، فننتعرف إلى فكر الرب، وعندما نمثلي بفكر الرب نقق أن لا شيء سوف يغيّر نظرة المسيح لنا.

فالمسيح قصد أن يكرر وصفه الرائع للنفس ثانية لكي يعلن للإنسان أنّ محبته له لا تتغيّر "محبّة أبدية أحببتك"، فمحبته ليست مرتبطة بأمانة الإنسان فيحبه عندما لا يخطأ وإن أخطأ يتوقف عن محبته، فهي محبّة أبدية، ثم يتابع القول: "من أجل ذلك أدمت لك الرحمة" (إر٣١: ٣)، وما هي حدود هذه الرحمة؟ رحمة وحق يدركانه جميع أيام حياته. فمعرفة هذا الوعد لوحده يكفي لكي تبتهج النفس وتتهلل.

فعندما كان الرب يسوع في السفينة في بحر طبرية، قال لبطرس: "من اليوم تكون صياداً للناس" (لوقه: ١٠)، فاعتقد بطرس إنّ الرب اختاره لأنّه رجل صالح وعزم على أن يكون على قدر ثقة المعلّم فلا يخيب ظنه به. ثم مرّت الأيام وبعد حوالي سنتين ونيف

قبضوا على يسوع ليصلبوه، فإذا ببطرس يسقط السَّقطة الرهيبة وينكر المعلّم، وحينها ظنّ بطرس أنّ الرب غضب منه وسوف يرفضه وأنّه لم يعد يصلح لكي يكون رسولاً، وبعد أيام التقى ببعض الرسل على شاطئ بحيرة طبريّة وقال لهم: هيا بنا نعود إلى صيد السمك مجدداً (يو ٢١ : ٣)، فجاء المسيح إلى شاطئ البحيرة بعد قيامته ليجدد الدعوة لبطرس في نفس المكان وعند ذات البحر، فبطرس تلقّى من الرب يسوع دعوة أولى ما قبل النكران "ستكون صياداً للناس" وبعد النكران جاء إليه وكرر ذات الدعوة وقال له: أتحبني يا بطرس، ارفع خرافي. واعتقد أنّ بطرس فوجئ وتسأل: ألم تتغيّر نظرتك إليّ يا ربي؟ لا لم تتغير. لأنّه أحبك يا بطرس محبةً أبديةً.

فأنا أحاول ألا أخطئ لكي لا أحزن الرب لأنّ الخطيّة تجرح قلبه، فأنا أحبّه ولا أريد أن أحزنه، لكن حتى إن تعثرت وسقطت لا أفقد رجائي مطلقاً، لماذا؟ لأنّ باب غفران الخطيّة مفتوح على مصراعيه، وأيضاً لأنّ نظرة المسيح لي لن تتغيّر بعد الخطيّة.

هذا من جهة، أمّا من جهة ثانية، فإنّ المسيح وإن وصف نفس الأعضاء كالعينين والأسنان وسواهما مستخدماً كلمات مشابهة في وصفه السابق ولكنّ مضمون الكلام مختلف فهو يريد أن يكشف عن النمو الروحي الذي بلغته النفس. فسابقاً قال واصفاً عينيها: "عيناك حمامتان تحت نقابك" مما يعني أن النقاب يغطّي عينيها، أمّا الآن فيتكلّم عن عينيها دون أن يأتي على ذكر النقاب، لأنّ النقاب أو البرقع قد نُزع عن عينيها، مما يعني أنّها وصلت إلى درجة روحية أعلى (٢كو ٣ : ١٤ - ١٦). ونحن، هل ننمو في الطريق الروحي؟ فهذا النمو نلمسه بملاحظات بسيطة، فسابقاً كنت تقرأ في الإنجيل والبرقع يحجب عينيك عن الفهم، فتقرأ ولا تفهم، أمّا اليوم فتقرأ في الإنجيل وإذا بالرب يفهمك، وهكذا كلما تعيش مع الرب وتقرأ في الإنجيل أكثر، كلما تدخل إلى أعماق أكثر، فتشعر أن البرقع يرفع عن عينيك شيئاً فشيئاً، فسابقاً لم تكن تفهم مقاصد الله في حياتك، بسبب وجود البرقع، ولكن بعد أن تعيش مع الرب

يرفع البرقع عن عينيك وتبدأ تفهم طرق الله، ورويداً رويداً تكتشف كيف يعمل الله في حياتك، فتفتتح عينك وترى مقاصد الله.

فمعرفة إرادة الرب ليست كمن يقف عند مفترق طرق ويريد أن يعلم مقدماً أي طريق يسلك، بل هي اكتشاف إرادة الله فيما هو سالك في طريق من هذه الطرق والذي يتفق مع الوصية ويرتاح هو إليه وكلما سار يتيقن أنها إرادة الله، لأن الكتاب يقول: "مختبرين ما هو مرضي عند الرب" (أف ٥: ١٠)، فتتعرف إلى إرادته وإلى ما يرضيه شيئاً فشيئاً ما دمت سالكاً في الطريق وإذا بالنقاب يُرفع رويداً رويداً إلى أن ينزع. ويبقى السؤال هل تنمو، أو ما زال النقاب مسدل على عينيك؟

ونفس الأمر ينسحب على وصف أسنان العروس إن كان على مستوى تشابه الكلمات أو اختلاف المعاني. فسبقاً قال لها: "أسنانك كقطيع الجرائز". أمّا الآن فيقول لها: "أسنانك كقطيع نعاج"، وقد يبدو لأول وهلة أنّ هذه كتلك ولكن الاختلاف كبير في المضمون. فالكتاب قال عن السيد المسيح: "كنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه" (إش ٥٣: ٧)، فهو يُشبه المسيح المعلق على الصليب بنعجة أمسكوا بها وبدأوا يجزون فروتها وهي صامتة، من هنا ندرك أن الغاية من قوله "أسنانك كقطيع النعاج" هي القول: أنّ النفس في هذه المرحلة الروحية أصبحت تشبه المسيح المصلوب. فالإنسان الذي ارتقى إلى هذه الدرجة الروحية هو الذي يتألم بصمت كسيده، فيسمع الناس تتكلم عنه ويسمعهم يشتمونه فلا يحرك ساكناً بل كما قيل عن شاول "كان كأصم" (١ صم ١٠: ٢٧)، فهل رأيتم نعجة يجزونها تتكلم أو تصرخ؟ وهذه الصورة البهية نراها في حياة موسى وذلك عندما اتخذ امرأة كوشية، فاغتاضت أخته مريم وهارون وبدأ يتكلمان عليه بالسوء وكأنهما يجزان فروته، فقالا: "هل كلم الرب موسى وحده؟ ألم يكلمنا نحن أيضاً؟" (عد ١٢: ٢)، وكان موسى يسمع ما يقولانه، فهل وقف موسى وقال لهما: أنا الذي خلصكم من السوط والعبودية؟ لا. بل كان كأصم وكأنه لا يسمع شيئاً، لكن الرب عندما رأى أن موسى لا يتكلم تدخّل هو وحسم الأمر من أجل موسى.

(٨:٦) "هُنَّ سِتُونَ مَلِكَةً وَثَمَانُونَ سُرِّيَّةً وَعِذَارَى بِلَا عَدَدٍ".

في هذه الآية يصف السيّد المسيح الكنيسة، فيقول: هُنَّ سِتُونَ مَلِكَةً. ورقم ٦٠ يساوي ١٢×٥ ، ورقم ١٢ يساوي ٣×٤ ، فيكون رقم ٦٠ يساوي $٣ \times ٤ \times ٥$. فرقم ثلاثة يرمز دائماً للثالث، ورقم أربعة يرمز إلى جهات الأرض الأربعة، أمّا رقم خمسة فيرمز إلى حواس الإنسان الخمس. مما يعني أنّ كنيسة المسيح هي المؤمنون بالثالث في كل أنحاء الأرض الذين يقدّسون الحواس الخمس.

وقوله: ثمانون سُرِّيَّةً، ترمز أيضاً إلى الكنيسة، فرقم ٨٠ يساوي ٨×١٠ ، ورقم عشرة يمثل الوصايا العشرة، أمّا رقم ثمانية فيمثل الأبدية أو السماء، مما يعني أن المؤمنين بالمسيح هم السالكون بوصايا الله بفكر سماوي وليس بفكر حرفي.

أمّا قوله: عِذَارَى بِلَا عَدَدٍ، فتعود بنا إلى قول القديس متى "يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى"، فالعذارى تمثّل كل النفوس العذراوية التي ارتبطت بالمسيح بمختلف أجناسهم رجالاً ونساء، متزوجين وبتولين.

(٩:٦) "وَاحِدَةٌ هِيَ حَمَامَتِي كَامَلَتِي. الْوَحِيدَةُ لِأُمِّهَا هِيَ. عَقِيلَةٌ وَالِدَتِهَا هِيَ. رَأَتْهَا الْبَنَاتُ فَطَوَّبْنَهَا. الْمَلِكَاتُ وَالسَّرَارِيُّ فَمَدَحْنَهَا".

ولكن وسط هذه الكنيسة يوجد واحدة متفردة، واحدة مميزة، واحدة مختلفة. واحدة هي حمامتي كاملتي، ففي وسط هذه الكنيسة التي تضم الكثيرين يوجد واحدة ممثلة نعمة، حمامة ممثلة من الروح القدس، هي وحيدة لأُمِّها، فلم تُنجب الكنيسة مثيلاً لها، لا في القديم ولا في الجديد، فهي وحيدة ليس لها مثيل، عقيلة والدتها هي، مكرّمة مختارة في وسط الكنيسة، هي التي نقول عنها في التسبحة: "الآب تطلع من السماء فلم يجد من يشبهك فأرسل وحيدته فأتى وحلّ في أحشائك"، فهي واحدة لم تتكرر، فريدة، رأتها البنات فطوبّنها، "هوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوّبنِي" (لوقا: ٤٨). الملكات والسراي فمدحنها، وأليصابات قالت لها: "فطوّبنِي للتي آمَنَتْ أَنْ يَتِمَّ مَا قِيلَ لَهَا مِنْ قَبْلِ الرَّبِّ" (لوقا: ٤٥).

يَجْمَلُ الوحي وصف النفس البشرية بالوصف التالي:

(١٠: ٦) "مَنْ هِيَ الْمُشْرِفَةُ مِثْلُ الصَّبَاحِ، جَمِيلَةٌ كَالْقَمَرِ، طَاهِرَةٌ كَالشَّمْسِ، مُرْهَبَةٌ

كَجَبَشٍ بِأُلُوبَةٍ؟".

يبدأ المسيح يصف شكل الكنيسة، فيقول: من هي المشرفة مثل الصباح. غالباً ما يشعر الإنسان بعد انقضاء فترة الليل وبزوغ نور الصباح ببهجة تغمر نفسه، لأن طبيعة الليل تحمله على الشعور بالكآبة والحزن، بعكس نور الفجر المبهج، وهكذا الكنيسة مبهجة للإنسان. وأيضاً كما يشعر الإنسان لحظة استيقاظه في الصباح الباكر سواء في الشتاء أو في الصيف بلفحة برد منعشة، كذلك الكنيسة منعشة للنفس.

مما يعني أنَّ على أولاد الله عندما يقابلون الآخرين أن ينعشوهم، لذا كل واحد يسأل نفسه، هل يمتلك هذه الميزة؟ فعندما يقابل إنساناً آخر هل يبحث في قلبه الفرح أو الكآبة؟ هل يقلق راحته بأخبار وهموم الناس والمجتمع والدنيا، أو يكلمه عن المسيح فيزرع في قلبه السلام والطمأنينة فيكون بحق ابن الكنيسة المشرفة، المبهجة والمنعشة.

والكنيسة أيضاً جميلة كالقمر، ولكن هل يصح هذا التشبيه بعد أن صعد الإنسان إلى القمر، ورآه عن قرب؟ فهو ليس جميلاً، ولا يوجد فيه سوى صخور وجبال. إذاً أين جمال القمر؟ جمال القمر يظهر عندما يقف أمام الشمس فيعكس نورها، فيخيل للناظر إليه أنَّ النور ينبعث منه، لا سيما في الليلة الرابعة عشرة من الشهر فيكون بدرًا، ولكن إن ابتعد القمر عن الشمس أو اختبأ وراء الأرض فلا نعود نرى القمر. وهكذا المؤمن بالمسيح فهو جميل ولكنَّ جماله ليس من نفسه، وكما أنَّ القمر لا يصدر نوراً من ذاته لكنه يشع بالنور عندما يرتبط بالشمس هكذا الإنسان المسيحي يعكس في حياته نور المسيح.

تتحدَّث بعض القصص عن قطرة ماء، تقول القصة: إنَّ قطرة ماء في البحر نظرت إلى أعلى وقالت في نفسها: أريد أن أصعد إلى السماء. وكانت كلما تأتي موجة تتركب الموجة فتحملها عالياً ثم تعود بها أدراجها إلى حيث كانت، وكررت هذا الأمر مراراً دون جدوى، أخيراً قالت: إنَّ أفضل ما يمكنني فعله هو أن أهدأ وأتطلع إلى فوق وأحرق بالشمس، فترسل الشمس شعاعها فيدفئني فأتبخر وأصعد إلى أعلى.

وهذا ما على الإنسان المسيحي فعله أيضاً هو الذي يحاول أن يجمل نفسه معتمداً على قدراته الذاتية، فلا ينال سوى الفشل. بينما المطلوب منه أن يحيا في سكون وهدوء، ناظراً إلى شمس البر الذي هو المسيح، فيعمل فيه ويجمله ويرفعه عالياً، إلى أن يصبح مثله. من هنا ندرك الغاية من استخدامه الصفة التي تليها حيث قال: طاهرة كالشمس، ومن هي الشمس سوى المسيح شمس البر، وعلى أولاد الله أن يكونوا طاهرين مثله، هم الذين غُسلوا بدم المسيح. والشمس ليست طاهرة فقط بل تطهر من الجراثيم أيضاً، كذلك أولاد الله عندما يدخلون إلى أي مكان يعملون على تطهيره، وحين يرى الشيطان أن أولاد الله دخلوا فيعدو ويخرج سريعاً.

فالكنيسة مشرفة كالصباح، جميلة كالقمر، طاهرة كالشمس، وهذه الثلاثية تعبر عن صورة الكنيسة بمختلف مراحلها وعلى مدى العصور، فمشرفة كالصباح، هي صورة لبداية انطلاق الكنيسة. طاهرة كالشمس هي صورة لحالة الكنيسة في منتصف الزمان أو نصف النهار. أما جميلة كالقمر فهي صورة لليل مجيء المسيح الثاني. وتبقى دائماً الكنيسة في مختلف مراحلها هذه مرهبة كجيش بألوية.

(١١: ٦) "نَزَلْتُ إِلَى جَنَّةِ الْجَوَوزِ لِأَنْظُرَ إِلَى خُصْرِ الْوَادِي، وَلَأَنْظُرَ: هَلْ أَفْعَلَ الْكَرْمَ؟ هَلْ نَوَّرَ الرُّمَّانُ؟"

فبعد اجتياز النفس المراحل السبع جاء المسيح لينظر هل أثمرت هذه النفس؟ هل تجاوزت مع محبته؟ هل لا زالت متمسكة به بعد أن مرّت بضغفات وسقطت في خطايا وتوالت عليها المراحل بين سقوط وقيام! هل ما زالت هذه النفس متعلقة به؟

فالمسيح في القديم أيضاً نظر إلى كرم إسرائيل وقال: "انتظرت أن يصنع عباً، صنع عباً رديئاً" (إش ٥: ٤)، فلم يفعل الكرم، لم يثمر. ولما جاء ملء الزمان وتجسد المسيح وذهب إلى الكرّامين قالوا: "هذا هو الوارث هلمّوا نقتله" (مت ٢١: ٣٨)، أما في نهاية الأزمنة فسوف يأتي المسيح، ينزل وينظر هل أقفل الكرم؟ وهذا ما عبّر عنه أيضاً حين تساءل: "ولكن متى جاء ابن الإنسان، ألعنه يجد الإيمان على الأرض؟" (لو ١٨: ٨).

(١٢:٦) " فلم أَشْعُرْ إِلَّا وَقَدْ جَعَلْتَنِي نَفْسِي بَيْنَ مَرْكَبَاتِ قَوْمٍ شَرِيفٍ".
 ولكن عندما ينزل المسيح في مجيئه الثاني، ماذا سوف يحلّ بالنفوس التقيّة التي
 تحيا على الأرض في ذلك الوقت؟ ففي لحظة مجيء المسيح الثاني، وحينما يبوق
 ميخائيل ببوق الله، يختطف الأحياء المؤمنون بالمسيح الموجودون على الأرض، سواء
 أكانوا من اليهود الذين سيقبلون الإيمان، أو سواء كانوا من كنيسة الأمم فيخلعون
 الأجساد الترابيّة ويلبسون الأجساد الممّجدة ويرفّعون على السحب لملاقاة الرب.
 والعروس تقول: "قلم أشعر إلا..."، مما يعني: فجأة! في لحظة في طرفة عين،
 يختطف المؤمنون بالمسيح في الهواء ليتلاقوا على السحاب مع مركبات قوم شريف،
 وقد قيل عن المسيح "إنسان شريف الجنس" (لو ١٩: ١٢)، فالذين ارتبطوا به صاروا مثله
 شرفاء "لأننا سنكون مثله" (١ يو ٣ : ٢)، وهؤلاء الشرفاء هم القديسون: السيّدّة العذراء،
 والقديس مرقس، والقديس جرجس وسواهم، فيختطف المؤمنون بالمسيح لينضموا إلى
 قافلة القديسين وهكذا يكونون مع الرب في كل حين.

الفصل الحادي عشر

(الأصحاح ٦: ١٣ - ٧ : ٤):

سنبدأ في هذا الفصل المرحلة الثامنة من رحلة النفس إلى الأحضان الإلهية، بعد أن رافقناها عن كثب في المراحل السبع التي لا تمرّ فيها النفس مرّة واحدة أو اثنتين أو ثلاثة إنما تتوالى عليها طالما هي سالكة في برية هذا العالم. فالرب يجعل الإنسان يذوق محبته في المرّة الأولى بطريقة معينة، ثم يذوق محبته ثانيةً بطريقة أخرى، وبالمقابل يجذب الإنسان إلى الله مرّة بطريقة معينة، ومرّة أخرى يجذب إلى الله بطريقة مختلفة عن سابقتها، ومرّة يعمد الله إلى إدخال الإنسان في وسط الشوك لكي يعلّمه درساً في الاتضاع، ومن ثمّ يكرر الدرس مراراً لمزيد من الاتضاع.

فما دام الإنسان سالك في العالم لا بد له من اجتياز المراحل السبع من وقت لآخر، لذلك تمر حياة الإنسان الروحية في فترات ضعف حيناً وفي فترات قوّة حيناً آخر، فيشعر بمعونة الله حيناً ويشعر بتخلّي الله حيناً آخر وهذا التبدّل في أحواله يستمر طوال الطريق.

لذلك كان عدد المراحل سبع، وكما نعرف فإنّ رقم سبعة هو رقم الزمن، لأنّ عدد أيام الأسبوع سبعة، والزمن هو مضاعفات الأسبوع، مما يعني أن رقم سبعة هو كمال الزمن. فالإنسان يتقلّب بين المراحل السبع طوال مدّة غربته على هذه الأرض، وليس من الضروري أن تتوالى المراحل بالترتيب نفسه أو حتى بالأسلوب نفسه، ولكنّ الأكيد أنّ الله يتعامل مع الإنسان بهذه المراحل السبع. إنّما يبقى السؤال: إلى متى؟ إلى أن يحين موعد مجيء المسيح الثاني. وهو ما عبّرت عنه أفضل تعبير الآية التي ختمنا بها الفصل السابق، حيث قال المسيح: "تزلّت لأنظر هل أقفل الكرم؟". فبعد أن اجتازت النفس المراحل السبع جاء المسيح لينظر حالة النفس، هل أثمرت؟

هل تجاوزت مع محبته؟ هل لا زالت متمسكة به؟ ومع مجيء المسيح ختمنا المرحلة السابعة التي هي كمال غربتنا على الأرض.

أمّا المرحلة الثامنة فتُعني بتصوير شكل النفس فيما هي صاعدة من الأرض أو بتعبير آخر تقدّم لنا الصورة النهائية التي تخرج بها النفس من غربة العالم، فنرى ثمرة التجارب الكثيرة التي مرّت بها، وثمرة المراحل السبع التي تناوبت على النفس طوال فترة غربتها، أو ثمرة عمل الفخاري الأعظم وما آلت إليه النفس، وكأن المراحل السبع هذه تمثّل الدولاب ويد الفخاري اللذين يشكلان الإناء.

ولكن، ما هي حكاية الفخاري؟ ففي أيام إرميا كان الشعب في حالة فساد وضياع حتى أنّ إرميا يؤس منهم، وشعر أنه لا جدوى تُرجى، فكلما كلمهم عن الرب، يضحكون منه ويهزأون به، حتى تعب منهم. فنظر إليه الرب وقال له: يا إرميا أنت تعتقد أنّ هذا الإناء قد تلف ولن أتمكن من إصلاحه، فقم وانزل إلى بيت الفخاري، فتري الرجل يعمل عملاً على الدولاب. فنزل إرميا إلى الفخاري وراقب عمله، وإذا بالوعاء الذي كان يعمل به قد فسد، فعاد وعمله وعاء آخر كما حسن في عيني الفخاري أن يصنعه. فقال الرب لإرميا: الإناء الذي في يد الفخاري فسد ولكنّ الفخاري لم يعجز عن إعادة صنعه من نفس العجينة فجدد خلقته (إر ١٨ : ١-٦). وهكذا تعمل المراحل السبع في النفس، إنّها يد الفخاري التي تشكل نفوسنا.

لذلك أقول: لنحذر أن نفقد رجاءنا في الله، لأنّه لا يعجز مطلقاً عن أن يشكّل الإنسان مهما كان سيئاً. فنحن ننظر إلى الناس ونقول: "هل يعقل أن يصبح فلان إنساناً صالحاً! وهل يعقل أن يتغيّر فلان! لا مستحيل!". ولكن هل هناك مستحيل أكثر من شاول الذي كان "لم يزل ينفث تهديداً وقتلاً على أبناء الكنيسة!" (أع ٩ : ١)، وهل يوجد مستحيل أكثر من شاول الذي قال عن نفسه: "أنا الذي كنت قبلاً مُجَدِّفاً ومُضْطَهِّداً ومُفْتَرِباً" (١ تي ١: ١٣)، فإلى هذه الدرجة من الانحدار وصل بولس، فكان يدخل البيوت ويجزّ رجالاً ونساءً ويسلمهم إلى السجن (أع ٨ : ٣)، وأيضاً كان يُعَذِّب المسيحيين ويضطرهم إلى التجديف (أع ٢٦ : ١١)، فلم يرحم لا رجل ولا امرأة

ولا طفلاً، فأغلب الظن أنَّ هذا إناء في منتهى الفساد، وأكثر ما قد نتمناه مع إنسان كهذا هو أن يبعد الله شره عنا، لأنَّه في اعتقادنا يستحيل أن يتغيَّر. وهذا طبعاً فكرنا البشري ولكن عندما استلمه الفخاري الأعظم كما نقول في الترتيلة: "أيها الفخاري الأعظم أنا كالخزف بين يديك عُد فاصنعني وعاءً آخر مثلاً يحسن في عينيك"، ولكن كيف يا ربي تصنع مني وعاءً جديداً؟ قال: أضعك على الدولاب وأمررك في المراحل السبع هذه، فمرةً تذوق نعمتي، ومرةً أخرى أحجب عنك نعمتي، ومرةً أدخلك في الشوك وأخرى أتخلّى عنك، وهكذا يستمر الرب في تشكيل الإناء إلى أن يصل به إلى المرحلة الثامنة حيث تظهر فيه الصورة النهائية لعمل الفخاري.

فما هي صورة النفس في المرحلة الثامنة؟

(١٣:٦) "ارْجِعِي، ارْجِعِي يا شَوْلَمَيْثُ. ارْجِعِي، ارْجِعِي فنَنْظُرُ إِلَيْكَ".

اسم شَوْلَمَيْث هو مؤنث اسم سليمان باللغة العبريّة، وشَوْلَمَيْث هي العروس أو النفس البشريّة. وكما هو واضح من الآية هناك من ينادي شَوْلَمَيْث، ويقول لها: ارْجِعِي فنَنْظُرُ إِلَيْكَ. وكلمة فنَنْظُرُ التي جاءت بصيغة الجمع تعود إلى الثالث الذي يدعوها. فالله يدعو كل الخليقة ملائكة وبشرًا، وقد قال بولس: "صِرْنَا مَنْظَرًا للعالم، للملائكة والناس" (١كو٤: ٩). فالرب يدعو الخليقة جمعاء، ويقول لها: تعالي وانظري ثمرة عملي، تعالي يا خليقتي وانظري كيف شكّل الفخاري الأعظم الإناء وجعل منه إناءً للكرامة، انظري كيف أصبح شكل الإناء الذي قيل عنه: مستحيل أن يصلح حاله! أمثال أريانوس والي أنصنا الذي جعلت منه ليس فقط مؤمناً بالمسيح بل شهيداً على اسم المسيح.

فالثالث يدعو عروسه من أربع أقطار الأرض في مجيء المسيح الثاني، ويقول لها: ارْجِعِي يا شَوْلَمَيْث ارْجِعِي من الشمال ومن الجنوب، من الشرق ومن الغرب. فالله يجمع مختاريه من أربع جهات الأرض. فجَمَعَ النفوس المؤمنة به ثمَّ سأل: ماذا ترون في شَوْلَمَيْث؟ ما رأيكم في عروستي التي زَيَّنَّتها وجَمَلَّتها؟ فما يفعله الله يشبه فنناً قد أبدع في رسم لوحة جميلة جداً، هكذا هو الرب مفتون بالإناء الذي شكّله فجلس يتأمله

وهو فرح به، فهو ينظر إلى عمل يديه ويقول للجميع، للملائكة وللخليقة جمعاء: تعالوا انظروا كيف شكَّلت الطينة الفاسدة، الطينة العاصية، إناء الهوان هذا، انظروا كيف شكَّلت نعمتي وحكمتي هذا الإناء وجعلت منه إناءً للكرامة.

هذا ما قاله الأنبا أثناسيوس بالضبط، عندما أراد أن يشرح ما هو الخلاص، فقال: فنان قد رسم لوحة بديعة جداً، وعندما انتهى من رسمها وجدها في غاية الجمال، وهذا ما يقوله سفر التكوين: "وَرَأَى اللَّهُ كُلَّ مَا عَمِلَهُ فَإِذَا هُوَ حَسَنٌ جِداً" (تك: ١: ٣١)، ولكن المؤسف أنَّ الصورة التي رسمها الرب للإنسان المخلوق والتي هي على صورته ومثاله قد فسدت. ثمَّ تساءل أثناسيوس: ماذا يفعل الله أمام هذا الأمر؟ فقال: يأتي الرسام نفسه ويعمل على ذات اللوحة ويرمم الأجزاء التالفة فيها. وهذا ما فعله الله بالضبط. فبعد الخلقة الأولى رأى الله أنَّ كل ما عمله حسنٌ ولكنها فسدت بالخطيئة، فتجسَّد المسيح، وبصلبه وبموته وقيامته أحيا الإنسان، أعطاه حياة جديدة، أعطاه خلقة جديدة، أعاد تشكيل النفس البشريَّة مرَّة أخرى، لذلك هو فرح بعمل يديه "مِنْ تَعَبِ نَفْسِهِ يَرَى وَيُسَبِّحُ" (إش: ٥٣: ١١).

فتصوِّر المسيح جالساَ على عرش مجده، ويقف أمامه مارمقس وأثناسيوس وأنطونيوس، وكافة القديسين على مدار العصور، فيحدِّق بهم ويقول: انظروا، ماذا ترون في شولميث؟ ما رأيكم في هذه النفوس التي شكَّلتها وهي ثمرة صليبي.

كيف خلق الله العالم؟ فقد خلقه بالكلمة، فلم يتعب الله في خلقه الإنسان . حاشا لله، فالله منزَّه عن التعب - لكنَّه قال: ليكن فكان. وقال: "تَعْمَلُ الْإِنْسَانُ عَلَى صُورَتِنَا" (تك: ١: ٢٦)، فعمل الإنسان. ورغم أنَّ الله لم يتعب في عمل الخلق - إن جاز التعبير عن اللاهوت، ولكن لكي نفهم - ومع ذلك لمَّا أتم الخلق قال: رأى الله كل ما عمله فإذا هو حسنٌ جداً. فكم بالأكثر يرى الله ثمرة صليب ابنه! ثمرة الآلام وسفك الدم! حسنٌ جداً في عينيه. وليس عجباً أن نجد هذه المفاهيم الإلهيَّة في سفر النشيد لأنَّ سفر النشيد هو القمَّة في الكتاب المقدَّس لأنَّ تركيزه أساساً ليس على الإنسان بقدر ما هو على الرب، على مشاعره وعلى فرحه. وكما ذكرنا في فصل سابق وقلنا عن المسيح: "خلق

حلاوة وكلّه مشتهيات"، فمتى يكون الحلق حلواً؟ عندما يأكل طعاماً حلو المذاق. فما الذي يجعل حلق المسيح حلواً سوى النفوس التي تؤمن به، والتي تتشكّل بحسب نعمته، فينظر إليها المسيح بفرح.

"ماذا ترون في شولميث"، هي المرحلة الثامنة التي سوف نتكلّم عنها بنعمة المسيح. ولكن قبل الدخول في التفاصيل أحب أن أشير بدايةً إلى ملحوظتين.

الملحوظة الأولى: لقد سبق ورأينا وصف العروس مرتين في سفر النشيد، في الأصحاح الرابع، ومن ثمّ في الأصحاح السادس، بالإضافة إلى الوصف الثالث الذي سوف نتطرق إليه في الفصل السابع. فسفر النشيد قد وصف العروس ثلاث مرات بينما وصف العريس مرّة واحدة فقط، لماذا؟ لأنّ العريس، حبيب النفس، السيّد المسيح ليس عنده تغيير ولا ظل دوران (يع ١: ١٧)، أمّا العروس، النفس البشريّة، فهي متغيّرة وتمرّ في مراحل مختلفة، لذلك وصفت أكثر من مرّة.

الملحوظة الثانية: ما هي الغاية من تكرار وصف العروس؟ هل غاية الرب من التكرار هي زيادة حجم الكتاب المقدّس؟ بالطبع لا، فلا توجد آية في الكتاب المقدّس قد كتبت عشوائياً أو لمجرّد الكتابة، أو أنّها ليست مهمة ويمكننا الاستغناء عنها، لا، ولا حتى يوجد حرف قد كُتب زيادة، لذلك قال المسيح: "إلى أن تزول السّماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من النّاموس" (مت ٥: ١٨)، الروح يهيمن حتى على اللفظ.

إذاً ما معنى التكرار؟ نرى في الوصف الأوّل في الأصحاح الرابع نظرة المسيح للنفس، أو عمل نعمة الله في النفس، فما إن تقابلت النفس مع الله حتى أفاض عليها نعمه، وهذا ما ظهر جلياً من خلال وصفه لعينيها وشعرها وأسنانها وخديّها، فكان يكفي أن تذهب إلى المسيح حتى يهبها هذه الهبات الكثيرة. ولو ظلت النفس أمينة لاستمرّت هذه العطايا كما هي لا بل زادت. لكنّ النفس بدأت تتكاسل وتضعف، فحببيها يقف خارجاً يقرع بينما هي نائمة تاركة إيّاه يقرع دون أي جواب غير مكرّثة

لأمره، وحتى عندما قال لها: افتحي لي يا أختي يا حمامتي يا كاملتي. قالت له: أنا نائمة وقد خلعت ثوبي وغسلت رجلي. وبعد هذا الضعف في الأصحاب الخامس، عاد ووصفها المسيح في الأصحاب السادس مرّة أخرى، لماذا؟ لأنّه يريد أن يقول لها: إنّ ضعفك واستهتارك لم يغيّر نظرتي لك، فأنت ما زلت في عيني كما أنت وأنا لا زلت أحبك، "محبّة أبدية أحببتك من أجل ذلك أدمت لك الرحمة" (١٨: ٣).

فتكرار الخطيئة علامة على الضعف الذي في الإنسان، ومع أنّ الله يحزن لضعف الإنسان ولكنّ محبّته له لا تتغيّر، فهو من لحظة اختياره لهذا الإناء لكي يجعله إناءً للكرامة كان يعلم الفشل المزمع أن يلقاه ويعلم الضعف الذي سوف يمر فيه، وأيضاً عندما أعطاه نعمته كان يعلم وهو يعطيه إيّاها أنّه سوف يضيّعها، ومع ذلك لم يمنعها عنه لأنّ المسيح واثق بما له من حكمة أنّه قادر على تشكيل الإناء مجدداً، وكون الإنسان ضعف وتراخي فهذا لا يعني أن نظرة المسيح له تغيّرت وهذا أمر مؤكد. فما هو مقدار فرح كل نفس عندما تعلم هذا الأمر! وهذا ما حاول الرب يسوع أن يعلنه لبطرس.

فالمسيح قال لبطرس: قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات. وطبعاً فكر بطرس أنّه ليس نافعاً ولا يصلح أن يكون رسولاً، ولكن فيما هو يفكر تابع المسيح كلامه وقال له: "ولكنني طلبت من أجلك لكي لا يفني إيمانك. وأنت متى رجعت ثبتت إخوتك" (٢٢: ٣٢). ففي نفس الموقف قال له المسيح: سوف تنكرني، وسوف تضعف ولكن انتبه يا بطرس، محبتي لك لن تتغيّر، فأنت سوف ترجع ثانيةً ومتى رجعت ثبتت إخوتك. والرائع في المسيح أنّه لم يقل لبطرس عندما أرجعك أنا، إنما قال متى رجعت يا بطرس. وكأنّ بطرس سوف يرجع بنفسه، وفي الحقيقة بطرس لم يفعل شيئاً ولكن المسيح من فرط محبته عندما صاح الديك التفت ونظر إلى بطرس وهذه النظرة هي التي جعلت بطرس يفهم ويخرج إلى الخارج ويبكي بكاءً مرّاً.

وكما سبق وقلنا أن المسيح وصف العروس في الأصحاب الرابع، ثمّ عاد ووصفها مرّة أخرى في الأصحاب السادس كما يراها هو بعينه المحبّة، لكنّه في

الأصاحاح السابع سوف يصف المسيح النفس كما تراها أعين الآخرين بعد أن شكّلها الفخاري الأعظم.

فكيف ينظر الناس لشولمّيث، وكيف يرون فيها ثمرة عمل نعمة الله؟ هذا ما سوف نصفه في المرحلة الثامنة. ولكن قبل ذلك أحب أن ألفت إلى ملحوظة لطيفة جداً وهي أنّ الوصف الرابع والسادس للعروس التي تمثّل النفس البشريّة هو وصف في عينيّ المسيح قبل السقوط وبعد السقوط، لذلك عندما وصفها المسيح بدأ من فوق فوصف عينيها ومن ثمّ تابع وصفه لها متنقلاً من عضو إلى آخر بشكل انحداري نحو الأسفل، أمّا في وصف العروس في الأصاحاح السابع فقد بدأ الوصف من أسفل من رجليها ثمّ تابع وصف باقي أعضائها بشكل تصاعدي إلى فوق. لماذا؟ لكي يقول أنّ الوصف في الأصاحاح الرابع والسادس هو تعبير عن نظرة المسيح للنفس، بينما الوصف في الأصاحاح السابع فهو يعبر عن نظرة الناس للنفس.

فعندما ينظر المسيح إلى الإنسان فإنّه ينظر بقوة فيحدّق في العين التي تكشف أعماق الإنسان، لأنّ "سراج الجسد هو العين، فإن كانت عينك بسيطةً فجسدك كلّه يكون نيّراً" (مت ٦: ٢٢). فالمسيح يركّز على الداخل، أمّا الناس حين ينظرون إلى إنسان ما، فلا يرون جماله الداخلي، ولا يستطيعون معرفة أفكاره إن كانت صالحة أو لا، طبعاً لا، فمن أين لهم أن يدركوا ما الذي في قلب الإنسان أو في فكره، لكنّ الناس ينظرون إلى الرجلين، أي إلى السلوك "يرى الناس أعمالكم الحسنة" (مت ٥: ١٦)، ولكنهم لن يروا داخل الإنسان، ولن يروا أفكاره، ولن يدركوا مشاعره، لا أبداً، ف رؤية هذه الأمور مقتصرة على المسيح وحده، لذلك عندما وصف النفس البشريّة بدأ بوصفها من أعلى ومن ثمّ تابع نزولاً إلى أسفل، لكنّ الناس عندما ينظرون إلى إنسان فسوف يركزون نظرهم على رجليه فيبدأون من أسفل ثمّ ينتقلون إلى أعلى.

وبعد هذه الملحوظة سوف ندخل في وصف النفس ونتعرّف إلى عشر صفات بدیعة جداً.

(٧: ١) "ما أَجْمَلَ رَجُلَيْكَ بِالنَّعْلَيْنِ يَا بِنْتَ الْكَرِيمِ! دَوَائِرُ فُخْدَيْكَ مِثْلُ الْحَلِيِّ، صَّنْعَةُ يَدَيْ صَنَّاعٍ".

فأول ما بدأ المسيح في وصف العروس فقد وصف قدميها، وقال لها: ما أجمل رجلك بالنعلين يا بنت الكريم. فعندما ينظر الناس إلى شخص ما فإنهم يلاحظون سلوكه بالدرجة الأولى، فيقولون: هذا إنسان أمين، أو إنسان طويل البال، أو إنسان عفيف اللسان، فهم يرون سلوكه وتصرفاته الخارجية، لذلك فالمطلوب من أولاد الله أن يسبروا على خطى المسيح، لأنه كما سلك ذاك ينبغي أن يسلك أولاد الله (١ يوحنا ٢: ٦)، فينظرون إلى عمل المسيح ويفعلون كما فعل. ولكن كيف لنا أن ننظر إلى أعمال المسيح فهل نحن عشنا في أيام المسيح! لنرى كيف عاش وسلك! بالطبع لا، إنما السبيل إلى ذلك هو التأمل في الإنجيل "حاذين أرجلكم باستعداد إنجيل السلام" (أف ٦: ١٥)، فرجلا المؤمن المسيحي تسيران بحسب وصية الإنجيل.

من هنا ندرك أهمية قراءة الإنجيل المقدس، لأن البعض يقول: "لقد قرأت الأنجيل الأربعة، فهل يوجد فيها شيء جديد لكي أقرأها ثانية! فهي تحكي لنا قصة الميلاد وبعض المعجزات، وتتكلم عن الصليب وموت المسيح وقيامته، وهذه كلها قد حفظتها منذ حدثتي، فلماذا أقرأها مجدداً؟" ولكن، نحن لا نقرأ في الإنجيل لكي نعرف بعض المعلومات، إنما نقرأ في الإنجيل لكي نرى كيف سلك "ذاك"، والمفترض بأولاد الله أن يسلكوا كما سلك هو.

لهذا أريد أن أسأل ما هو الفرق بين العهد القديم والعهد الجديد؟ ففي العهد القديم نرى الطبيعة البشرية القديمة أو طبيعة الإنسان العتيق، لذلك فالذي يبحث في العهد القديم فقد يرى نفسه في مكر يعقوب الذي مكر على أبيه، ومكر على أخيه. أو قد يرى نفسه في داود ونزواته الجسدية حين نظر إلى امرأة واشتهاها وزنى معها. فعندما يتأمل الإنسان في رجال العهد القديم فلا بد أن يرى نفسه في واحد منها على الأقل، فيقول: "هذا أنا، بينما لو جاء آخر وقال له مباشرة وبصراحة: يا أخي ما ترتكبه خطيئة أو ما تفعله خطأ. فلن يقبلها منه، وسوف يدافع عن نفسه بكل ما أوتي من قوة، مردداً

لست مخطئاً". ولكن حين يقرأ الكتاب المقدس بنفسه ويضع نفسه تحت تأثير كلمة الله، فسوف يحكم على نفسه حتماً ويقول: "أنا هو الرجل".

فالإنسان يرى في العهد القديم صورته وطبيعته، بينما في العهد الجديد يرى المسيح في كماله المطلق. لذا وإن كان يرى في العهد القديم حقيقته الآنيّة، ففي العهد الجديد سوف يرى ما يجب عليه أن يكون. فيرى الصورة التي يريد الرب أن يصل به إليها. إذاً عندما يقرأ الإنسان في الإنجيل فهو لا يقرأ لكي يكتسب معلومات إنما لكي يعرف كيف سلك المسيح، المسيح الذي يريد منه أن يسلك مثله، "تَمَسَّكَ خُطَوَاتِي بِأَثَارِكَ فَمَا زِلْتُ قَدَمَايَ" (مز ١٧ : ٥)، فينظر إلى رجلي المسيح ويسير على آثار خطواته.

"ما أجمل رجلكِ بالنعلين يا بنت الكريم"، و"بنت الكريم" تعني في اللغة العبريّة بنت إسرائيل، وإسرائيل هو الاسم الذي أُعطي لأبينا يعقوب، حيث قال له الرب: "لا يُدعى اسمك في ما بعدُ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ، لِأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللَّهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ" (تك ٣٢ : ٢٨)، وبما أن كلمة إسرائيل تعني أمير، فيمكننا قراءة الآية على الشكل التالي: "ما أجمل رجلكِ بالنعلين يا بنت الأمير". مما يعني أن سلوكك هو سلوك الأمراء، والأميرة هي بنت الملك، فهل يُعقل أن تعيش بنت الملك كسائر الناس؟ طبعاً لا، ولا حتى يمكننا أن نتصوّر ابنة ملك تلعب كسائر الأولاد في الشارع. لماذا؟ أليست هي كسائر الأولاد؟ لا، فهي مختلفة عنهم لأنها أميرة ابنة ملك، وهكذا يفترض بأولاد الله أن يسلكوا سلوك أمراء، فالأمير له بروتوكول خاص في التعامل وفي تناول الطعام وحتى في اللعب، فأولاد الله مختلفون ولكن، هل أنا من طينة غير طينة الناس؟ لا، ولكن أنا أمير ابن الملك، فهذه هي النعمة التي أنعم بها الله عليّ، لذا ينبغي أن أسلك بموجب هذه النعمة.

ولكن مشكلة البعض أنه لا يريد أن يكون أميراً، أو ابناً للملك! فتتنازعه رغبة للعيش كسائر الناس الذين يفتقرون إلى الفرحة الحقيقي فيقصدون أماكن غير لائقة بحثاً عن السعادة واللذة، وهو بعمله هذا يشابه شحاذاً فقيراً يبحث عن فتات الخبز العفن في

مستودع النفايات، فينحدر إلى هذا المستوى الدنيء بينما يفترض به أن يعي أنه أمير ويسلك سلوك ابن الملك.

وهذه كانت مشكلة شعب إسرائيل في القديم أيضاً، فجاءوا إلى صموئيل وقالوا له: "اجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب" (١ صم ٨: ٥)، فأرادوا أن يتشبهوا بسائر الناس، ناسين أنهم مختلفين، فهم شعب الله، والله ملكهم ولكنهم رفضوا أن يملك عليهم الله.

"ما أجمل رجلِكِ بالنعلين"، تمثلان كلمة الله في العهدين القديم والجديد والإنسان الذي يسلك بها يصير ابن ملك الملوك.

وأيضاً نستشف من قوله لها ما أجمل رجلِكِ بالنعلين أنها تتنعل حذاءً في رجلِها، ولكنَّ الله عندما خلق أبانا آدم لم يصنع له حذاء، فكان يسير حافي القدمين، ليس محتاجاً إلى حذاء لأنَّ الأرض كانت خالية من الشوك، إلى أن أخطأ آدم فبدأت الأرض تنبت له شوكة وحسكاً (تك ٣ : ١٨). فصنع لنفسه نعلًا لكي يحمي رجلِيه من تراب العالم. لكن عندما يدخل الإنسان إلى المواضع المقدَّسة لا سيما الهيكل يخلع نعل رجلِيه، لماذا؟ "لأنَّ الموضع الذي يقف عليه أرض مقدَّسة" (خر ٣ : ٥)، ولا يوجد فيه شوك. وهذا يعني أنَّ النعل يشير إلى الانفصال عن العالم. لذا على أولاد الله أن يضعوا نعلًا في أرجلهم علامة على انفصالهم عن العالم. وهنا يبرز جمالهم، "ما أجمل رجلِكِ بالنعلين" فجمال المؤمن يكمن في أنَّه يضع نعلًا في رجلِيه، جماله في انفصاله عن العالم. والبعض عندما يسمع هذا الكلام ينزعج ويتذمَّر، ويتساءل: هل عليه أن يشذ عن أهل العالم! طبعاً عليه أن يشذ ويفصل لأنَّ الذي حصلت عليه أنت المؤمن بالمسيح، لم يحصل عليه العالم.

وقد يقول لي أحدهم: أنا أقرأ في الإنجيل وأرى جمال المسيح في اتضاعه وفي تسامحه، ولكن كيف السبيل لتنفيذ كل هذا؟ هذا ما سوف نكتشفه عندما ندخل على الوصف الثاني، وصف مفاصل رجلِها، فيقول لها:

"دَوَائِرُ فَخْذَيْكَ مِثْلَ الْحَلِيِّ، صَنْعَةُ يَدَيَّ صَنَاعٌ"، فدوائر الفخذين هي مفاصل الفخذين أو حق الفخذ، وهو عضو بغاية الأهمية، لأنه يساعد الإنسان على المشي، فعندما ينكسر مفصل الفخذ يعجز الإنسان عن أن يخطو برجله ولو خطوة واحدة. فالمسيح قال لها: رجلاك جميلة وسالكة كأمية ابنة أمير، ولكن مصدر قوّتك نابع من حق فخذك، فدوائر فخذك هي التي تعطيك القدرة على المشي. ولكن كيف صُنِعَتْ هذه المفاصل؟ يتابع المسيح ويقول: هذه المفاصل كالحليّ صنعها صانع ماهر.

إذاً لكي يسلك الإنسان كما سلك المسيح ينبغي على الصانع أن يشكّل مفاصله والتي بدونها لا يستطيع أن يمشي، لذا فأمنية كل إنسان روحاني أن يشكّل المسيح مفاصله كما يحسن في عينيه، حتى يتمكن من السير بخطى توافق مشيئة الله في بريّة هذا العالم. ولكن، كيف يشكّلها؟

فحق الفخذ يذكرنا بسفر التكوين الأصحاح ٣٢ الذي يتكلّم عن يعقوب، يعقوب الذي كان يعتقد أن المكر هو سر النجاح في هذه الحياة مع أنّ في داخله اشتياقات روحية ولكنه كان يخاف أن يستهين به أحد، فاشتتهى البركة ومع أنّ هذه الاشتياقات تفرح قلب الله، ولكنّ يعقوب بدل أن يسلم أمره للرب اجتهد أن يحقق رغباته الروحية بفكره الخاص فلجأ إلى المكر. فمكر على أبيه ونجح، ومكر على أخيه وسرق منه البكورية! وأيضاً نجح. فمن جهة كان يعقوب رجل الله ومن جهة ثانية كان يعتبر أن عليه أن يفكر ويضع خططاً لحياته بمعزل عن الله.

ورأى الله أن يعقوب لا يسلك كما يريد فلم يكن راضياً عن تصرفاته، فقال له: أنت يا يعقوب عندك اشتياقات تتوافق مع إرادتي، لكن سلوكك معوجاً فأريد أن أصلح سلوكك. فماذا فعل الله؟ يقول الكتاب: "صارعه إنسان حتى طلوع الفجر". فكان يعقوب راجعاً في طريقه وإذا بإنسان يتعارك معه، فليس يعقوب من بدأ بالحرب فهو كان راضياً بما هو فيه، بل الله. فقال له ماذا تريد يا ربي؟ فقال له الرب: أريد أن أعلمك أنّ فكرك لن يفيدك، واشتياقاتك الروحية لا تستطيع أن تحققها بالطرق البشرية، فأرسلتك إلى لابان فأمعن في إذلالك، فأنت مأكّر ولابان يفوقك مأكراً.

وقد قيل عن يعقوب: عندما تعامل مع أبيه إسحق، كان كشيطان يتعامل مع ملاك. وعندما تعامل مع أخيه عيسو، كان كشيطان يتعامل مع إنسان، أي الطبيعة البشرية التي في عيسو. أما تعامله مع لابان فشيطان يعامل شيطانياً. فكان كلاهما يخدع الآخر، فهذا يعقوب قبل أن يغيره الرب، ولابان ذل يعقوب، لماذا؟ لكي يعرف يعقوب أن الطريق الذي اختاره لنفسه غير صالح لتحقيق رغباته، فلا تكفي الاشتياقات الروحية إنما ينبغي أن تترافق مع سلوك روي.

فالبعض يحاول مراراً أن يسلك بأساليب العالم، وبأفكار العالم، واتجاهات العالم، وجميع محاولاته تبوء بالفشل. فينظر حوله فيرى سواه يسلك في نفس الاتجاه ولكنه ينجح! فيتساءل: لماذا عندما سلكت أنا في هذه الطريق فشلت بينما نجح سواي؟! لأن هذه الطريق ليست طريق المؤمن بالمسيح. فهذا السبب صارع الرب يعقوب لأنه يريد تغييره، ورغم ذلك ظل يعقوب معتداً بنفسه، حينئذ لمس الرب حق فخذته فانكسر. وبعد أن انكسر يعقوب أخذ يبكي، "بكي واسترحمه" (هو ١٢: ٤)، وبعد أن انكسر وبكى أعطاه الرب البركة. وهنا تعلم يعقوب ألا يخطو خطوة إلا بعد أن يسأل الرب، فلم يعد يعتمد على فكره ومكره وخطئه، فتغير يعقوب إلى إسرائيل، وذلك عندما لمس الصانع الماهر حق فخذته فانكسر، فانصلح يعقوب وتشكل، وكيف شكله الرب؟ عندما كسره. فبعدما انخلع حق فخذته لم يعد قادراً على المشي، فأخذ يجمع على حق فخذته، وأصبح بحاجة إلى من يستند عليه، ومن له غير الرب ليستند عليه، فلم يعد يخطو ولو خطوة صغيرة، إلا بعد أن يستشير الله ويحصل على موافقته.

والمثل على ذلك أن يعقوب حرم من ابنه حوالي ٢١ سنة ووصله خبر أن يوسف حي وهو سيد مصر كلها، وأي إنسان مكان يعقوب محروم من ابنه هذه السنين الطوال وسمع أن ابنه في مصر وهو سيد الأرض سوف يسافر إلى مصر دون تفكير، لكن يعقوب لم يفعل فقد تعلم الدرس، وحق فخذته انكسر فلا يمشي إلا متكلأ على الرب، فوقف يصلي، وقال: ما هو رأيك يارب؟ هل أذهب إلى مصر، أو لا أذهب؟ وقد نقول نحن ليعقوب وهل هي محتاجة سؤال؟! فاذهب يا يعقوب لرؤية ابنك. ولكن لا، فيعقوب تعلم فلم يعد يسلك بفكره ولم ينزل إلا عندما سمع وعد الرب (تك ٣٦ : ١ - ٤).

هناك علاقة بين "ما أجمل رجلِك بالنعلين" و"دوائر فخذيكَ مثل الحَلَى"، فعندما أقرأ الإنجيل وأرى المسيح كيف سَلَكَ، فلا أستطيع بذاتي أن أسلك كما هو سَلَكَ؟ ولكن المطلوب مني أن أرى ماذا يقول الإنجيل وأقف أصارع مع الله وأبكي واسترحمه إلى أن يمدَّ يده ذاك الصانع الماهر ويشكِّل فخذيَّ ويشكِّل مفاصلي، لكي يَعْلَمَنِي أن أسلك كما سلك هو، وهذا هو جوهر الحياة الروحيَّة. لأنَّه يستحيل على الإنسان أن يسلك بدون معونة المسيح، فهو لا يستطيع أن يسامح، ولا يعرف أن يتنازل، ولا يعرف كيف يحافظ على طهارته، فالإنسان جبلة من طين لا يعرف ماذا يفعل، لذا عليه أن يقف أمام الرب ويصَلِّي بدموع فيبكي ويصرخ إليه ليس من أجل شفاء جسدي، ولا لكي تحل مشاكله، فالإنسان تعود أن يقف يصَلِّي لكي يحل الله له مشاكله ولا يدري أن هذه المشاكل هي الشوك الذي يجذب به الله الإنسان إليه، لكن عليه أن يقف يصَلِّي ويقول: "أنت يا ربي قلت في الإنجيل لا تدينوا لكي لا تدانوا. وأنا يا ربي ليس لي ما أفعله سوى النسيمة فيما يخص سيرة الناس، فعَلَمَنِي عدم الإدانة". وتحقيق هذه الطلبة قد يستغرق يوماً أو شهراً أو سنة أو حتى العمر كله.

أعتقد أننا الآن ندرك لماذا كان يقضي القديسون الليل في الصلاة، فالقديس لم يكن يصرف وقته في الصلاة في طلبات تخصَّ الجسد من المأكَل والمشرب والملبس واهتمامات الحياة الأرضيَّة، بل "اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرَّه وهذه كلها تُزاد لكم" (مت ٦: ٣٣).

حاول أحدهم أن يراقب خلصة الأنبا ابرام أسقف الفيوم وهو يصَلِّي فرآه يمسك بالأجبية كما يفعل سائر المؤمنين، فبدأ في صلاة أبانا الذي...، ثم فلنشكر...، ثم بدأ يصَلِّي مزموماً راحمني يا الله، إلى أن وصل إلى "قلباً نقياً أخلق فيَّ يا الله"، وأخذ يرددُها دون توقف والدموع تنهمر من عينيه، وفيما هو يرددُها كان يقرع صدره ويسجد في الأرض، ويقول: "أنت يا ربي قلبك نقي فاجعل قلبي نقياً". وأمضى طوال الليل على هذه الحال يصَلِّي ويقول: قلباً نقياً أخلق فيَّ يا الله. هذه هي صلاة القديسين.

(٢:٧) "سُرَّتْكَ كَأْسُ مُدَوَّرَةٍ، لَا يُعَوِّزُهَا شَرَابٌ مَمَزُوجٌ. بَطْنُكَ صُبْرَةٌ حِنْطَةٌ مُسَبَّحَةٌ
بِالسَّوْسَنِ".

فبعد أن وصف رجلها ودوائر فخذها انتقل إلى وصف سُرَّتْهَا، فقال لها: "سُرَّتْكَ
كَأْسُ مُدَوَّرَةٍ، لَا يُعَوِّزُهَا شَرَابٌ". فالسُرَّةُ تجويف صغير في وسط البطن وهو موضع
اتصال الحبل السري بالجنين قبل ولادته، فعندما يكون الجنين في رحم أمه يتغذى
بواسطة الحبل السري من أمه، وحين يولد الطفل يقطعون الحبل السري، فينفصل
الطفل عن أمه، هذا ما يحصل في الولادة الطبيعية، بينما في الولادة الروحية، فالحبل
السري لا ينقطع، بل كما قال حزقيال: "يوم ولدت لم تُقَطَّعْ سُرَّتُكَ" (حز ١٦: ٤)، فالإنسان
يولد ولادة أولى من أبيه وأمّه، ثم يولد ولادة ثانية من الكنيسة، ولادة روحية، "مولودين
ثانية، لا من زرع ينفى" (ابط ١: ٢٣)، "إن كان أَحَدٌ لَا يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ (المعمودية)
لَا يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللَّهِ" (يو ٣: ٥).

لذا فالمفترض بالحبل السري أن يظل مرتبطاً في الميلاد الثاني بالأم التي ولدنا
منها، فيظل الاتصال بالكنيسة دائماً فلا نقطع الحبل السري لأنّه يغذيها منه. وأروع
ما في الكنيسة القبطية أنها تحافظ على رباط الحبل السري مع أولادها بطريقة بديعة،
فتجمع أولادها في مختلف المناسبات الطقسية، إن كان في المعمودية أو في الأفراح
أو في الجنازات، أو الخلوات الروحية، وبذلك تحافظ على الصلة ما بينها وبين أولادها
لأنّها هي مصدر تغذيتهم.

لذلك قال القديس كبريانوس أنّه لا خلاص خارج الكنيسة، فكما أنّ الجنين في
بطن أمه بحاجة إلى الحبل السري لكي يتغذى فلا يموت، كذلك ينبغي بنا نحن
المؤمنون أن لا نقطع صلتنا بالكنيسة. وهذه الصلة قد حافظت عليها العروس لذلك
قال لها: "لايعوزها شراب ممزوج". فالإنسان الذي يحافظ على حبله السري مرتبطاً
بالكنيسة فلن ييحت عن شراب العالم ومسرّات العالم وملذات العالم لكي تقدّم له الفرح
فهو له مسرّة أخرى. فطوبى للإنسان الذي يرفض الارتباط بالعالم بل يأتي إلى الكنيسة
لأنّها فعلاً هي مكان الشيع بالمسيح، فشبعه ليس مع أهل العالم ولا مسرّته، وحتى لو

وجد البعض من الناس مسرتهم في العالم، لكن الإنسان المسيحي لن يجد فرحه سوى في الكنيسة.

فماذا سوف تفعل له الكنيسة؟ هذا ما أوضحه المسيح في معرض كلامه للعروس عندما قال لها: **سُرَّتِكَ كَأْسُ مَدْوَرَةٍ**. فالدائرة تشير دائماً للأبدية، وعندما يرتبط الإنسان بالكنيسة لا يعوزه شراب ممزوج الذي هو أفراح العالم، لأن الكنيسة تربطه بالأبدية، فعندما يأتي المؤمن إلى الكنيسة ويفرح ليس لأن الكنيسة تقدّم له عروضاً مسرحية أو تقيم حفلات فليست هذه الأمور هي التي تدخل الفرح إلى نفسه، لكنه يفرح في الكنيسة لأنها تذوقه الأبدية.

"كأس مدوّرة"، والدائرة ليس لها بداية ولا نهاية، لذلك نصلي إلى الله ونقول: "إذا ما وقفنا في هيكلك المقدّس نحسب كالقيام في السماء". فما تملكه الكنيسة ولا يملكه العالم هي الأبدية، فلو الكنيسة فقط لكي تقيم حفلات فالعالم يقيم حفلات أفضل منها بكثير، ولو الكنيسة فقط لكي تقدّم مسرّات وملذات فالعالم يملك مسرات وملذات أكثر منها بكثير، فما هو الموجود في الكنيسة ولا يملكه العالم؟ هو السماء، الأبدية، المسيح، عمل الروح القدس وثماره، فهذه كلها العالم لا يعرفها، فنحن نأتي إلى الكنيسة لكي نحصل على الذي لا يعرفه العالم، والذي هو عنده جهالة.

ثمّ يصف المسيح بطنها فيقول لها: **بَطْنُكَ صُبْرَةٌ حِنْطَةٌ**، وتعني كومة من الحنطة، **مُسَيَّجَةٌ بِالسَّوْسَنِ**. فالبطن في الكتاب المقدّس يشير إلى الأحشاء الداخلية، للعواطف، للمشاعر. ومعلمنا بولس الرسول يقول: "أشتاق إلى جميعكم في أحشاء يسوع المسيح" (في ١: ٨)، وتعني: أحبكم من نفس محبة المسيح. ويقول أيضاً: "البسوا كمختاري الله القديسين المحبوبين أحشاء وأفاتٍ ولطفاً" (كو ٣: ١٢)، وتعني: لنكن مشاعركم غنية بالرأفة واللفظ. فالأحشاء تشير دائماً للعواطف والمشاعر.

من هنا يأتي السؤال، وكل إنسان يسأل نفسه: "ما هي مشاعرك الداخلية تجاه الآخرين؟ أو بتعبير آخر: "من تحب من الناس؟ أعتقد سوف تقول لي: "بصراحة أنا أحب فلان من كل قلبي، هل تعرف لماذا، لأنّه يوافقني الرأي في كل ما أقوله، فلا يوبخني، ولا ينتهزني، ويغض الطرف عن أخطائي، لذلك أجد راحتي معه. وبالمقابل

يوجد شخص آخر لا أحمل له في أحشائي أيّة مشاعر، لأنّه ينتقد رأيي، ويوبخني حين أخطئ في تصرفاتي، لذلك لا أحبه".

لذلك أقول لك انظر إلى أحشاء المسيح، وانظر إلى مشاعر المسيح، وبالتحديد انظر إلى يهوذا الذي قدّم له المسيح كل الحبّ، فاختره ليكون أحد الاثنى عشر، وجعله من المقرّبين منه، وحتى ائتمنه على الصندوق مع أنّه يعرف أنّه لص وسارق ويتآمر ضده. فما هي مشاعر المسيح تجاه يهوذا؟ فحين نبحث عن الجواب في الإنجيل نجد أنّ المسيح قد حدّر يهوذا أكثر من مرّة، وقال له الكلام بطريقة غير مباشرة: "ينبغي أن يُسلّم ابن الإنسان ولكن ويل لذلك الرجل" (مر ١٤ : ٢١)، فالمسيح لا يحذّره لأنّه خائف على نفسه ولكن لأنّه خائف عليه، وأيضاً في يوم الخميس قال له: "ما أنت فاعله فافعله بأكثر سرعة"، وكذلك عندما جاء يهوذا إلى البستان برفقة الجنود وقبل السيّد المسيح، قال له: "يا يهوذا أبقبلة تُسلّم ابن الإنسان" (يو ٢٢ : ٤٨)، فهو بعلامة المحبة خان المحبّة. لذلك نصليّ في صلاة من صلوات القسمة ونقول: "لم تحرق الخائن الغاش حين دنا منك ليقبلك قبلة المصاحبة"، فمع أنّ للمسيح قدرة على إحراقه لكنّ لأنّ أحشاء المسيح أحشاء رافة لم يفعل.

لكن كيف لنا أن نحصل على أحشاء رافة حتى تصير مشاعرنا تجاه الآخرين كمشاعر المسيح؟ يقول لها المسيح: بطنك صبرة حنطة. أي عليك أن تأكلي الكثير من الحنطة، والحنطة هي المسيح "إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وثمّت" (يو ١٢ : ٢٤) والحنطة هي كلمة الله، كما يتضح لنا من مثل الزارع، فالزارع يزرع الكلمة، البذرة، الحنطة، كلمة الله. فعندما نقرأ الإنجيل نحصل على أحشاء المسيح، فسر المسيح يكمن في أننا كل ما نراه في المسيح نحصل عليه، فعندما نلهج كثيراً في طباع المسيح، وفي سلوك المسيح، وفي تصرفات المسيح، فإذا بها تتضح علينا.

فما أن تضع صورة المسيح أمامك وتتأمل بها وتتشغل فيها، فأنت تأكل الحنطة، فإذا بطباع المسيح تتطبع فيك، فتقف أمام الرب وتطلب منه أن تعيش كما عاش هو، فتجد أن صورة المسيح قد انطبعت فيك.

ولكن الرائع في هاتين الآيتين أنهما تشيران إلى الافخارستيا، "سُرَّتْكَ كَأْسُ مَدْوَرَةٍ"، وتذكرنا بكأس الخلاص التي هي دم المسيح. و"بطنك صبرة حنطة"، تذكرنا بالقريان، جسد الرب. إذاً كيف يكون لنا أحشاء المسيح؟ عندما نتناول باستمرار من جسد الرب ودمه سوف نحصل على طبع المسيح، وسلوك المسيح، وبالأكثر على أحشاء المسيح، التي سوف تشبعنا وبالتالي تغنيانا عن العالم.

في سفر التكوين الأصحاح ١٤ قصة رائعة تخبرنا عن إبراهيم أنه ذهب وحارب كدرلعومر ليخلص لوط، وفيما هو راجع من المعركة تقابل مع ملكي صادق، وملك ي صادق قدّم ذبيحة خبز وخمر، التي ترمز لذبيحة التناول في القدّاس، ثم خرج ملك سدوم لاستقبال إبراهيم العائد من كسرة الأمم ومعه مقتنيات كثيرة وأملاك كثيرة، فقال له: "يا إبراهيم من حَقَّك أن تأخذ الأملاك والمقتنيات التي غنمتها من الحرب". فرفع أبونا إبراهيم يده واقسم بالله العلي ألا يأخذ خيلاً ولا شراك نعل. فإبراهيم رفض أن يأخذ حتى خيلاً يصلح به نعله. لكن لماذا ترفض يا أبانا إبراهيم، فأَيُّ إنسان تُعرض عليه هذه الخيرات يستحيل أن يرفضها. فقال: "لأنّي شعبان". فما الذي أشبعك يا إبراهيم؟ فقال: "لقد تناولت من الذبيحة". فالتناول من جسد الرب ودمه يشبع نفس الإنسان.

فبعد أن وصف المسيح سلوكها "ما أجمل رجلك"، ووصف المفاصل "دوائر فخذيك"، ووصف سُرَّتْها "سُرَّتْكَ كَأْسُ مَدْوَرَةٍ"، ووصف بطنها، أحشاءها "بطنك صبرة حنطة"، ينتقل إلى وصف ثدييها، ويقول لها:

(٧: ٣) "ثدياكِ كَحَشَفَتَيْنِ، تَوَامِي ظَبِيَةٍ".

فهو يشبه ثدييها بغزالتين توأمين، والثدي في الكتاب المقدس يشير إلى الرضاعة، لأنّ معلمنا بولس الرسول قال: "كُنَّا مُتَرْفِقِينَ فِي وَسْطِكُمْ كَمَا تُرَبِّي المُرْضِعَةُ أولادها" (١ تس ٢: ٧)، أي كأم تُرضع أطفالها.

وكان النفس بعد أن سمعت الوصيّة في الوصف الأوّل صارعت مع الله في الصلاة، وارتبطت بالكنيسة بالمفاصل، وشبعت بالمسيح بالسُرّة من خلال كلمته وجسده

ودمه، بطنك صبرة حنطة، فكانت النتيجة أنها خرجت تغذي الآخرين من الذي شبعته به، فتديهاها يشبعان الناس.

فهل نحن أيضاً عندما نشبع بالرب في الكنيسة نخرج ونكلم الناس عن هذا الشبع؟ أرجو ألا نخجل من التكلم عن المسيح! واتمنى أن يضع كل واحد منا في ذهنه، عندما يأتي إلى الكنيسة ويجتمع متناً، المَن الذي هو المسيح أنه حين يخرج ويلتقي بإخوته أن يعطيهم من هذا المَن، فالمسيح يعطينا بفيض وأكثر من احتياجاتنا، لماذا؟ لكي نأكل ونشبع ونعطي للآخرين من الذي جمعناه، فكم هو رائع أن ترضع الناس الذين تقابلهم فتعطيهم "اللبن الثقلي العديم الغش" (١بط ٢: ٢). فإن سمعت كلمة حلوة في الكنيسة فقلها لأخيك، وإن قرأت آية حلوة في الإنجيل شارك بها أخاك، وبهذا تكون قد أرضعته، فينظر إليك المسيح ويقول لك كما قال للنفس "تَدِيَاكِ كَحَشَفَتَيْنِ، تَوَامِي طَبِيَّةٍ".

ولكن الملحوظة التي نلاحظها في وصف الثديين حين نقارن وصفهما في المواضع الثلاثة في سفر النشيد أن وصف الثديين لم يتغير، لماذا؟ لأن الثديين يشيران إلى كلمة الله في العهدين القديم والجديد، وكلمة الله ثابتة لا تتغير.

(٧: ٤) "عُنُقُكَ كَبْرُجٍ مِنْ عَاجٍ. عَيْنَاكَ كَالْبَرَكِ فِي حَشْبُونٍ عِنْدَ بَابِ بَثْ رَبَّيْمَ. أَنْفُكَ كَبْرُجٍ لِبْنَانٍ النَّاطِرُ تَجَاهَ دَمَشَقَ".

عُنُقُكَ كَبْرُجٍ مِنْ عَاجٍ، والعنق يشير إلى الخضوع، وأسوأ ما كان في إسرائيل أنه شعب معاند يخالف أوامر الله، حتى قال عنه الرب أنه: "شَعْبٌ صُلْبُ الرِّقَبَةِ" (خر ٣٣: ٥). لكن من أين يأتي الخضوع؟ وكيف يتعلم الإنسان أن يخضع، ويسلم إرادته؟ فالمسيح قال للعروس: عُنُقُكَ كَبْرُجٍ مِنْ عَاجٍ. ومصدر العاج من الفيل، فيقتلون الفيل ويأخذون نابيه ويصنعون منها العاج، مما يعني أن عُنُقُكَ سيتعلم الخضوع عندما تتألمي في ذاك الذي مات من أجلك ومن أجلنا. بالمسيح الذي مات لكي يهبنا حياة أبدية. فكلما نظرنا إلى المسيح الذي أطاع حتى الموت، موت الصليب، نتعلم الخضوع. وكلما نظرنا إلى المسيح الذي قال للآب في البستان: "إِنْ أَمَكْنَ فَلَتَعْبُرَ عَنِّي

هذه الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت" (مت ٢٦: ٣٩). فعندما نتأمل كثيراً في خضوع المسيح نتعلم منه أن نقتني أعناق عاج تخضع ولو للموت، موت الصليب.

هناك قصة عن معلّنا القديس بطرس تحكي أنّه عندما قُرب وقت استشهاده، قال له المؤمنون في روما: نحن لا نريد يا بطرس أن تموت بل أن تبقى معنا، ونحن سوف نساعدك على الهرب. فوافقهم بطرس الرأي. وفيما هو هارب النقي بالمسيح حاملاً الصليب. فنظر إليه بطرس متعجباً وقال له: إلى أين يا سيد؟ فقال له المسيح: أنت رفضت صليبي فأنا ذاهب لأصلب عنك! فعندما تأمل بطرس في المسيح وهو يحمل الصليب عاد أدراجه مسرعاً وقال لهم: أصليبوني، ولكن ليس كما صُلب سيدي بل منكس الرأس.

فمن المستحسن لحياتنا الروحية أن نخصّص وقتاً للتأمل في الصليب، وهو تدريب طالما أوصى به أبونا بيشوى كامل. فتضع صورة الصليب أمامك وتأمل فيها، تخيل نفسك راكعاً بمفردك تحت صليب المسيح، تأمل مرة في الجلدات التي انهالت على جسده الطاهر، وتأمل مرة في المسامير التي ثقت يديه ورجليه، تأمل مرة في الحرية التي طعنت جنبه، ومرة في القلوب المحبة التي كانت تحت الصليب، ومرة أخرى المشاعر المؤلمة التي أحاطت بالصليب، وفكر في كلمات المسيح على الصليب، فعلى قدر ما ينظر المسيحي للصليب على قدر ما يجد نفسه منكسراً وخاضعاً للمسيح.

عيناك كالبرك في حشْبُون عند باب بَثْ رَيْيم، لم يسبق أن شبّه الكتاب المقدس المؤمنين بالبحر، لأنّ البحر مضطرب لا يهدأ وأمواجه تقذف حمأة وطيناً، فالبحر يشير إلى العالم. لكن عندما أراد الكتاب تشبيه أولاد الله فقد شبههم بالبركة، لأنّ مياه البركة ساكنة هادئة. وهذا الفرق نلاحظه في الناس، فهناك إنسان تنظر في عينيه فتشعر أنّ في داخلهما بركاناً، وهناك إنسان آخر تنظر في عينيه فترى هدوءاً وصفاءً وسلاماً، وتسمع المسيح يقول له: عيناك كالبركة في حشْبُون.

فالنفوس الروحية تتمتع بسلام روحي عجيب، بينما نحن نظن أن الإنسان الذي يتمتع بالسلام هو إنسان ينعم باستقرار اجتماعي ومادي ويتمتع بصحة جيدة، ولكن ما أن يحصل أي تغيير في ظروف حياته حتى يفقد سلامه ويضطرب. فهذا ليس سلاماً إنما السلام الحقيقي الذي أعطانا إياه المسيح عندما قال: "سلاماً أترك لكم. سلامي أُعطيكم" (يو ١٤: ٢٧)، يظل مهما تقلبت الظروف ويستمر بالرغم من المشاكل والاضطرابات والضيقات.

يحكي الكتاب المقدس عن امرأة تدعى المرأة الشونمية، كان لها ابن رُزقت بصلاة أليشع بعد أن شاخ رجلها. وكبر الولد وذات يوم ألمه رأسه ومات، فذهبت المرأة بسرعة إلى أليشع رجل الله، ولما رآها أليشع تعجّب وتساءل لماذا تأتي إليه في يوم ليس رأس شهر ولا سبت، فقال لجيحزي غلامه: أُرْكُضِ الآنَ لِلْقَائِهَا وَقُلْ لَهَا: أَسْلَامٌ لَكَ؟ فقالت سلام. أَسْلَامٌ لِرُؤُوسِكَ؟ فقالت سلام. أَسْلَامٌ لِلْوَلَدِ؟ فقالت: سَلَامٌ (٢مل ٤: ٢٦). فمن أين لها هذا السلام وابنها ميت! فهذه المرأة كانت تتمتع بسلام غير عادي. لماذا؟ لأنها واثقة بعمل الله.

ولكن أنا لماذا أضطرب؟ لأنني عندما أرى المشاكل تتراكم فوق رأسي أخاف، وأنسى أن في هذا الكون إلهاً ضابطاً لكل. وحتى إن سمح الله ببعض الضيقات أو بأمواج عاتية تلطم السفينة، أنسى أنه لا يزال في السفينة، ولا يمكن للسفينة أن تهلك طالما هو في داخلها، فهذا الإيمان هو الذي يهب النفس السلام.

وكما لاحظنا فإن المسيح قد وصف العين في ثلاثة مواضع في سفر النشيد، وسوف نجري مقارنة ما بينها لنرى من خلالها كيف تقدّمت النفس في حياتها الروحية. ففي الإصحاح الرابع قال لها: "عيناك حمامتان من تحت نقابك"، فعيناها كالحمام وديعةً وجميلة لكنّها مستترة بالنقاب. وفي الأصحاح السادس، قال لها: حوّليني عينيكَ فإنهما قد غلبتاني. أمّا في الأصحاح السابع فقال لها: عيناك كالبرك. فما الذي يحصل؟ إن الذي يحصل أن النفس تنمو. فما هذا النمو؟

يقول القديس يوحنا في رسالته (١يو ٢ : ١٢ - ١٣). إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ ثَلَاثَ دَرَجَاتٍ:

"اُكْتُبْ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْأَوْلَادُ"، أَيِ الْأَطْفَالِ الصَّغَارِ،

"اُكْتُبْ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْأَحْدَاثُ" أَيِ الشَّبَابِ.

"اُكْتُبْ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْآبَاءُ"، وَهَؤُلَاءِ يُمَثِّلُونَ الدَّرَجَاتِ الرُّوحِيَّةَ الثَّلَاثَ.

ففي الأصحاح الرابع، في الوصف الأوَّل "عيناك حمامتان من تحت نقابك"، يمثِّل الدرجة الأولى، مرحلة الأولاد. فالولد الصغير لا يعرف الكثير ومعلوماته محدودة، لكنَّ محبَّته للمسيح فيَّاضة، ففي بداية مجيئه إلى الكنيسة تكون معرفته وفهمه للأمور سطحية بعض الشيء، لكنَّ المحبَّة تجاه شخص المسيح تغمر قلبه. فالمسيح ينظر إليه ويقول: عيناك جميلتان حتى وإن أسدل النقاب على عينيك.

ولكن بعد أن يعيش الولد فترة مع الرب ينمو ويرتقي إلى مرحلة الأحداث، "اُكْتُبْ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْأَحْدَاثُ لَأُنْكِمَ أَقْوِيَاءَ وَقَدْ غَلِبْتُمُ الشَّرِيرَ". ولكن، كيف يغلب الشرير؟ عندما يغلب أولاً في المخدع، يسمع الوصف الثاني الذي قاله المسيح للعروس "حوَّلي عني عَيْنِيكَ فَإِنَّهُمَا قَدْ غَلِبْتَانِي". فعندما يصل الشاب إلى مرحلة ذرف الدموع في الصلاة، فيبكي أمام الله فيغلب الرب من تحنُّنه حينئذٍ يتمكَّن الشاب من أن يغلب الشرير.

ثمَّ يرتقي الإنسان في الطريق الروحي إلى درجة أعلى فيصل إلى مرحلة الآباء، مرحلة النضوج الروحي. فتصير عيناه كالبرك، يشع منهما هدوء وسلام وسكينة، فهو إنسان بات له خبرات روحية بعد أن مرَّ بتجارب متنوِّعة، وأصبح له قدرة على تشجيع الآخرين فيأتي إليه أخ يمرَّ بتجربة مضطرب وخائف تعتريه الظنون والشكوك مما سوف قد يحصل، فيجده جالساً هادئاً فيشجعه ويقول له: لا تخف! ومن شدة هدوئه يخيل إليه أنَّه إنسان لا مبالى، لكن لا، فهو قلبياً متفاعل مع أخيه الإنسان مع همومه وشجونه، ولكن لأنه مرَّ بخبرات وحصلت معه أمور مشابهة والمسيح نجَّاه، لذلك هو ينعم بالسلام. فالمسيح ينظر إليه ويقول له: عيناك كالبرك في حشبون.

وهذا الارتقاء الروحي في الدرجات الثلاثة يقودنا إلى مريم أخت لعازر، التي ذكرها الكتاب المقدَّس ثلاث مرات. ففي المرَّة الأولى في إنجيل لوقا، عندما دخل

المسيح إلى بيت مرثا ومريم، فجلست مريم عند قدميه تستمع إلى كلامه، وكانت مرثا مرتبكة في أمور كثيرة، ثم قالت للمسيح كلاماً قاسياً: "يا مُعَلِّم، أَمَا تُبَالِي بَأَنَّ أُخْتِي قَدْ تَرَكَّتْنِي أَخْدُمُ وَحْدِي؟ فَقُلْ لَهَا أَنْ تُعَيِّنِي!" (لو ١٠: ٤٠)، فنظر إليها المسيح وقال لها: أختك هذه عيناها حمامتان فهي جالسة بقربي لأنها اختارت النصيب الصالح الذي هو سماع كلمة الله.

وأيضاً ذكرها لنا الكتاب المقدس مرّة ثانية في إنجيل يوحنا الأصحاح ١١، عندما مات أخوها لعازر فجاء المسيح إلى بيت عنيا وتقابل أولاً مع مرثا التي تمثل الفكر والعقل، ودار حوار ما بينهما. فقالت له: "يا مُعَلِّم لَوْ كُنْتُ هَهُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي!". فقال لها: "سيقوم أخوك". قالت له: "أعلم أَنَّهُ سيقوم في اليوم الأخير". فقال لها: "يا مرثا أنا القيامة والحياة فمن آمن بي ولو مات فسيحيا". ولكن بعد هذا الجدل اتضح لمرثا أنها لم تفهمه كما يجب، فقالت في نفسها سوف أذهب وأدعو التي تفهمك، فذهبت مسرعة وقالت لمريم: "الْمُعَلِّمُ قَدْ حَضَرَ، وَهُوَ يَدْعُوكِ"، مع أَنَّ المسيح لم يرسل بطلب مريم، ولكن مرثا قررت أن تستدعي مريم لأنها هي التي تفهمه. وجاءت مريم إلى المسيح لكنها لم تسأله ولم تحاوره، إنما نظرت إليه والدموع تترقرق في عينيها، وقالت له: "يا مُعَلِّم لَوْ كُنْتُ هَهُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي". ثم استرسلت في البكاء، فقد حرّ في نفسها أَنَّهُ لم يأت مع أَنَّها أرسلت مَنْ يقول له أَنَّ أَخاها مريض، فاخترت الكلمات ولم تعرف أن تقول شيئاً سوى أن تسكب دموعها أمامه. فماذا فعل المسيح؟ لم يتفوه بكلمة ولم يحاورها "حولي عني عينيك فإنهما قد غلبتاني" فصمت أمام دموع مريم. ثم التفت إلى الذين جاءوا معها وقال لهم: "أين وضعتموه؟". ثم ذهب إلى القبر دون أن يتناقش مع مريم فعندما رأى دموعها غلبته، وبكى يسوع، ولمّا رآه الناس يبكي قالوا: انظروا كيف كان يحبّه. فقال يسوع: "لعازر، هَلُمَّ خارجاً". وكأن يسوع أراد أن يقول لمريم: تحاورتُ مع مرثا وقلّت لها ما قلّته، لكن معكِ دموعك غلبتني.

كذلك ذُكرت مريم في إنجيل يوحنا الأصحاح ١٢ وفيه سوف نرى ارتقاء مريم إلى الدرجة الثالثة: "عيناك كالبرك". فقبل الفصح بستة أيام أتى يسوع إلى بيت عنيا

فصنعوا له هناك وليمة، فقامت مريم وسكبت على قدميه طيب ناردين خالص كثير الثمن. لماذا فعلت هذا يا مريم لأنَّ عينيك كالبرك في حشبون، فقد فهمتي أسراراً لم يفهمها حتي التلاميذ! أدركتي أنَّ المسيح سيُصلَّب ولن يتسنى لك الوقت لتكفينه، فسكبت عليه الطيب لتكفينه. والمسيح نفسه قد شهد وقال: "إنَّهَا لِيَوْمُ تُكْفِينِي قَدْ حَفِظْتُهُ"، فعيناها رأت ما عجز سواها عن رؤيته. لأنَّ عيناها كالبرك في حشبون.

عَيْنَاكَ كَالْبَرْكِ فِي حَشْبُون : فقد جاء في سفر يشوع الأصحاح ٢٠، أن الرب قد أمر إسرائيل ببناء مَدُن تسمى مدن الملجأ، ست مدن في شرق الأردن، وست مدن في غرب الأردن، على أن يهرب إليها قاتل السهو ليحتمي فيها لئلا يقبض عليه ولي الدم، لأنَّه عندما يقتل إنسان إنساناً آخراً يأتي أهل القتل وينتقمون من القاتل فيقتلوه، لذلك حدَّد الرب هذه المدن للقاتل سهواً لأنَّه بغير علم قتل قريبه وهو غير مبغض له، فيدخل إلى المدينة فلا يجروا أحد أن يمسّه بسوء، فيأتي رئيس الكهنة وينظر في القضية فإن تأكد من أن القاتل قد قتل سهواً فيقول له: ادخل مدينة الكهنة أو مدن الملجأ فلا أحد يتعرَّض لك، أمّا إذا خرجت من مدينة الملجأ تُقتل.

وهكذا الإنسان الذي يرتبط بالله تصبح عيناه بمثابة مَدُن ملجأ للأخريين، فعندما تتقابل معه تشعر بسلام وتحرَّر من قلقك واضطرابك، وعلى سبيل المثال أب الاعتراف، أو إنسان روحاني تجلس معه فتجد تعزية، وتشعر كأنك قد دخلت إلى حصن حصين، أو دخلت إلى مدينة ملجأ فتشعر في داخلك بمنعة، وتشعر أن الشيطان الذي كان يطاردك بأفكار القلق وأفكار الشك قد رحل ما إن التقيت بهاتين العينين فينسكب في قلبك سلام المسيح. فلنشكر المسيح الذي ينعم دائماً على الكنيسة بنفوس لها عيان كالبرك في حشبون.

الفصل الثاني عشر

(الأصحاح ٧: ٤ - ٨ : ١٤):

سوف نتابع سلسلة الثمار ونتكلم عن ثلاثة أعضاء، فنذكرهم أولاً كعناوين ومن ثم نتكلم عن كل واحدة منهم بالتفصيل:

"أنفك كبرج لبنان": والأنف يرمز إلى فضيلة التمييز الروحي.

"رأسك عليك مثل الكرمل": والرأس يرمز إلى الأفكار المقدسة.

"شعر رأسك كأرجوان": ويرمز إلى الأعمال المقدسة.

وهذه الثمار العشر ما هي إلا ثمرة الإيمان بالمسيح والارتباط به، من هنا نفهم منهج الكنيسة عندما تقول أن الخلاص بالإيمان والأعمال معاً، وليس كما يدعي البعض أن الخلاص بالإيمان فقط، أو كما يدعي البعض الآخر أن الخلاص بالأعمال. فالموضوع ليس معقداً لهذه الدرجة لكن الموضوع هو أن ثمرة تمتعي بالمسيح وثمرة ارتباطي به، وثمرة تناول من جسد الرب ودمه وثمرة ارتباطي بالكنيسة لا بد أن تظهر في حياتي، فهذه البذرة التي زُرعت فيّ، لا بد أن تثمر أعمالاً صالحة. لذلك كانت "الأعمال المقدسة" هي الثمرة الأخيرة بعد كل هذه السلسلة الطويلة، وكما قال القديس يعقوب: "أرني إيمانك بدون أعمالك، وأنا أريك بأعمالي إيماني" (يع ٢: ١٨)، فعندما تقول أنا آمنت بالمسيح ومرتبطة بالمسيح وثابت بالمسيح فلا بد أن نرى الثمرة التي هي الأعمال الصالحة. وعندما يقول آخر أنا مرتبط بالمسيح ولا نرى منه أعمالاً صالحة، فسوف نطرح علامة استفهام حول صحة إيمانه.

إذاً لا بد أن يظهر الإيمان بالأعمال، وعدم وجود أعمال صالحة دليل على عدم وجود إيمان، فالإيمان بدون أعمال ميت، فالاثنتان مرتبطتان ببعضهما ارتباطاً وثيقاً ولا يمكن فصلهما عن بعض، فعندما تضع بذرة في الأرض فلا بد من أن تثمر، كذلك إن ارتبطت بالمسيح فينبغي أن يظهر الثمر، فعدم ظهور الثمر يشير حكماً إلى عدم ارتباطك بالمسيح، وبالتالي فإيمانك مجرد كلام ظاهري وليس إيمان حقيقي.

(٧: ٤) "أَنْفُكَ كَبْرُجٌ لُبَّانَ النَّاطِرِ تَجَاهَ دَمَشَقَ".

والأنف مرتبط بحاسة الشم التي هي ضرورية جداً للإنسان فمن دونها تصبح حياته في خطر، لأنه قد يتواجد في مكان ما ويندلع فيه حريق وهو لا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً وحدها حاسة الشم سوف تعلمه أنه في خطر، أو قد يحدث تسرب للغاز، وهو لا يراه ولا يسمعه ولا يمكنه أن يعرف بانتشاره في أرجاء المكان إلا بواسطة حاسة الشم، فحاسة الشم سوف تتجيه، أما إذا كانت حاسة الشم لديه ضعيفة أو معطلة فسوف يقضي عليه دون أن يدري.

من هنا نستشف المعنى الروحي للأنف، فثمرة ارتباط الإنسان بالمسيح حصوله على نعمة التمييز، وكما قال معلمنا القديس يوحنا: "لَا تُصَدِّقُوا كُلَّ رُوحٍ، بَلْ امْتَحِنُوا الْأَرْوَاحَ: هل هي من الله؟ لَأَنَّ أَنْبِيَاءَ كَذَبَةً كَثِيرِينَ قَدْ خَرَجُوا إِلَى الْعَالَمِ" (١ يوحنا: ٤: ١)، فمن المهم أن يفتني الإنسان روح التمييز، فهو الذي يهبه القدرة على التمييز ما بين التعليم الصحيح والتعليم الخاطئ.

لكن من الأمور اللطيفة التي كَوَّنَ فيها الله وجه الإنسان أنه جعل أنفه قرب فمه مع أنه كان بإمكانه أن يجعله فوق على جبينه أو خلف رأسه أو على خده، لكن الله بحكمته قرر أن يضع الأنف قريباً من الفم، لكي يميّز الإنسان الأكل الجيد من الأكل الرديء. وإذا كان الحكيم قال له: اذهب إلى النملة وتعلّم أيّها الكسلان. فيسمح لي سليمان أن أقول: اذهب إلى القط وتعلّم أيّها الإنسان. فماذا يفعل القط؟ عندما تقدّم له الطعام لا يفتح فمه ويأكل إنما يشتم الطعام أولاً، وحتى لو كان من وضع له الطعام هو صاحبه الذي يعتني به ويربيه ولكنه يتكل على أنفه فيشتم الطعام أولاً ثم يقرر أن يأكل أو لا.

والمسيح يريد أن يعلمنا أن نشتم الطعام قبل أن نأكله، ونحن على المستوى الروحي ماذا نأكل، نحن نأكل في كلمة الله "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلّ كلمةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ اللَّهِ" (مت ٤: ٤)، لذا ينبغي أن نميّز قبل أن نأكل، لأنّ البعض يذهب إلى اجتماع المؤمنين بالرغم من وجود اختلاف في بعض النواحي الإيمانية، بحجة أن

الجميع يتكلمون عن المسيح الواحد، ولا يدري أن كلمة قد تساهم في ضياعه. وأنا أقول هذا الكلام بصدق وبأمانة، وليس للهجوم على أحد.

حواء سمعت كلمة مغلوطة من الحيّة فكانت السبب في ضياعها، فجاءت الحيّة وقالت لها: "أحقاً قال الله لا تأكل من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحيّة: من ثمّر شجر الجنة نأكل، وأمّا ثمّر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكل منه ولا تمسّاه لئلاً تموتاً"، فقالت الحيّة للمرأة: "لن تموتاً!" (تك ٣: ١-٤). فصدّقت حواء كلام الحيّة: لن تموتاً، مع أنّ الله قال: موتاً تموت. فحواء عصت إرادة الله وبالتالي فقدت روح التمييز فسمعت كلمة الحيّة واتخذت قراراً تسبب بسقوطها وكل الجنس البشري معها، فالتمييز مرتبط بالطاعة لكلمة الله فهي التي تعطي النور "فتح كلامك يُنير" (مز ١١٩: ١٣٠).

فمن الضروري أن نتحلّى بروح التمييز، الذي غفل عنه الهرطقة أمثال أريوس، فالتعاليم التي أعلنوها لم تكن من خارج الكتاب المقدّس، فأريوس اعتمد على شواهد من الكتاب لينشر فكره، ولكن الذي ساهم في انحرافه عن التعليم المستقيم هو كما قال الرب في سفر الخروج، أنّه لم يكن موزوناً بالشاقل المقدّس، شاقل الهيكل. فتعليم أريوس لم يكن بحسب تعاليم الكنيسة، وأفكاره لم تتوافق مع فكر الآباء، فاتبع فكره الخاص وكانت النتيجة أنه شرد. إذ لا بد من أن تكون لنا حاسة التمييز للكلام الذي نسمعه، كما فعل ذاكَ الرجل البسيط الذي لم يكن مُلمّاً بعلوم الكتاب وليس هو من الدّارسين، عندما سمع أحدهم يعظ جاء قائلاً أنا لست مرتاحاً للكلام الذي سمعته". هو لم يحدد الأخطاء التي في كلام الواعظ لكنّ أذنه لم تكن مرتاحة للكلام. فمثله تقول له: طوباك. فهو لم يكن دارساً ولكنّه أدرك أنّ ما سمعه لا يتوافق مع روح الكنيسة. فالمسيح ينظر إليه ويقول له: "أنفك كبرج لبنان الناظر إلى دمشق".

(٧: ٥) "رَأْسُكَ عَلَيْكَ مِثْلُ الْكَوْمَلِ، وَشَعْرُ رَأْسِكَ كَأَرْجُوَانٍ. مَلِكٌ قَدْ أُسِرَ بِالْخَصَلِ".

ينتقل المسيح إلى وصف رأسها، والرأس تعني الأفكار، أمّا جبل الكرمل فهو جبل مثمر، وهو الجبل الذي وقف عليه النبي إيليا وقتل أنبياء البعل بعد أن قال لهم ولكل

الشعب بالروح القدس قوله المشهور: "حتى متى تَعْرُجُونَ بين الفرقَتَيْنِ؟" (امل ١٨: ٢١). فماذا يقصد المسيح بقوله رأسك عليك مثل الكرمل؟ فهو يريد أن يقول للعروس: "أَنْ رأسك ملآن بالأفكار المثمرة، بالأفكار المفرحة". وهى قد اختزنتها في رأسها لأنها تلهج بناموسه نهاراً وليلاً. في حين أسمع البعض يقول: "أنا قرأت في الإنجيل وأخذت بركة، أو أنا أقرأ الإنجيل لكي يرتاح ضميري لأنني إذا لم أقرأ الإنجيل أشعر بالذنب. نعم، صحيح أن الإنجيل بركة، "سَاجِيءٌ في ملء بركة إنجيل المسيح" (رو ١٥: ٢٩)، لكن ليست هذه هى الغاية، إنما عليّ أن أقرأ الإنجيل لكي يمتلئ رأسي بأفكار مقدسة، بأفكار مفرحة.

لاحظ الفرق بين إنسان يقرأ الإنجيل صباحاً ثم ينطلق إلى عمله وفيما هو يسير في الشارع أو في إحدى المواصلات يجلس ويجتر الأفكار المقدسة التي قرأها في الإنجيل، وحتى وهو في عمله تجده يسرح في كلام وأعمال المسيح. وبين إنسان آخر لا يقرأ في الإنجيل يعود من عمله ليلاً ويدخل لكي ينام فما أن يضع رأسه على الوسادة حتى تساوره أفكار قلق وخوف واضطراب ومشاكل. فهذا مكتئب ويأس وذاك في سلام وفرح بالمسيح.

فالمسيح يمدح هذه النفس ويقول لها: "رأسك عليك مثل الكرمل". لأنها تسرح بأفكارها في كل ما هو طاهر، كل ما هو صيته حسن، كل ما هو مُسر، كل ما هو فضيلة، كقول الرسول بولس في (في ٤ : ٨)، ففي هذه افكروا. لكن من أين حصل على هذه النوعية من الأفكار؟ يقول بولس: نحن نمتلئ من كلمة الله، ليحل المسيح بالإيمان في قلوبنا.

وبولس الرسول أيضاً كان رأسه عليه مثل الكرمل، فكان في رأسه الكثير من الأفكار المثمرة، فهو إنسان عجيب فعلاً. حتى أنه قال لتلميذه تيموثاوس: "وما سمعته مني بشهود كثيرين، أودعه أناساً أمناء، يكونون أكفاءً أن يعلموا آخرين أيضاً" (٢ تي ٢: ٢). فبولس لم يفكر فقط في أبناء جيله، ولا حتى في جيل تيموثاوس وحسب، بل فكر كذلك في تلاميذ تيموثاوس الذين سوف يعلمون الجيل الرابع أيضاً. فإلى هذه الدرجة بلغ فكر بولس المثمر. في حين قد نسمع إنساناً لامبالياً يقول: "المهم اليومان اللذان أعيش

فيهما تكون الدنيا بخير وبعد ذلك لا يهمني شيء وما يحدث يحدث"، فهو رجل ذو فكر محدود. لكنَّ صاحب الفكر المثمر كبولس يقول: أنا أفكر في أبناء جبلي والجيل الذي بعدي والجيل الثالث وحتى الجيل الرابع. فأفكار بولس المثمرة قد تخطت كل الحدود.

فأحياناً تلتقي بإنسان صاحب رؤية، وبدون رؤية كما قال الكتاب يجمع الشعب (أم ٢٩: ١٨)، إنسان قد أنعم عليه المسيح بموهبة، إنسان خلّاق تجالسه فتجد عنده دائماً أفكار جديدة، وأساليب جديدة للعمل، فهو يمتلك أفكاراً بناة، أفكاراً مثمرة، فالمسيح ينظر إليه ويقول له: رأسك عليك مثل الكرمل.

وأيضاً كما سبق وأشرنا فإنَّ قول المسيح "رأسك عليك مثل الكرمل" تذكرنا بالنبي إيليا عندما وقف على جبل الكرمل وقال لهم: "حتى متى تعرجون ما بين الفرقتين"، وقد قالها أيضاً القديس يعقوب: "رجُلٌ ذُو رَأْيَيْنِ هُوَ مُتَقَلِّبٌ فِي جَمِيعِ طُرُقِهِ" (يع ١: ٨)، فهو يحذرنا من خطورة الفكر، لأنَّ أي عمل يبدأ بفكرة، فإن كانت أفكارنا مثمرة وطاهرة، أفكاراً صالحة، فسوف تؤدي إلى أعمال صالحة. هناك قول مأثور: ازرع فكرة تحصد عملاً، ازرع عملاً تحصد عادة، ازرع عادة تحصد مصيراً! فالحكاية تبدأ بفكرة، وفي اليوم التالي تتحوّل هذه الفكرة إلى عمل، وعندما يتكرر العمل يصبح عادة. والعادات الطيبة تقرر مستقبلاً آمناً للإنسان، أمّا إذا كانت عادات سيئة فسوف تؤدي به إلى طريق الهلاك. فالحكاية دائماً تبدأ بالأفكار، فإن كنا نريد أن تتغيّر حياتنا فلننتبع قول الكتاب "تغيّروا عن شكلِكُم بتجديد أذهانِكُم" (رو ١٢: ٢)، أي أن التغيير يبدأ بتغيير بالفكر. والأنبا أنطونيوس قد علّمنا وعلم الكنيسة جمعاء عن خطورة الفكر، إذ قال: على الإنسان أن يرفض الفكر الشرير في بدايته. وقد حرص على تأكيد هذا الخطر لأولاده بأسلوب عملي. ففي يوم من الأيام حين كان يسير معهم في الطريق، قال لواحد من تلاميذه: "تقدّمنا". فتقدّمهم التلميذ بأمر الطاعة للمعلّم. فنظر الأنبا أنطونيوس إلى الأرض فرأى عشباً صغيرة، فقال للتلميذ: "اقلعها". فانحنى التلميذ واقتلعها بأصبعه بسهولة. ثم تابعوا سيرهم فرأى الأنبا أنطونيوس سنبله قمح، فقال للتلميذ: "اقلعها".

فمد التلميذ يده وامسك بها واقتلعها، ثم تقدّموا قليلاً وإذ بشجرة جميز في طور النمو على جانب الطريق، فقال الأنبا أنطونيوس للتلميذ: "اقلعها". فأمسك بها التلميذ بكلتا يديه وصار يهزها بقوة حتى اقتلعها، ثم بعد ذلك وصلوا إلى نخلة فقال له: اقلعها!" فقال له التلميذ: "أنا أعجز من أن أقدر على اقتلاعها. فنظر التلاميذ إلى الأنبا أنطونيوس وسألوه: ما الغاية من كل ذلك؟ فقال لهم: "يا أولادي هكذا، ها الأفكار". فما أن تلوح الفكرة في رأسك فهي كالعشبة الطرية يكفي أصبعين لاقتلاعها، فتطرحها خارجاً وينتهي أمرها، وسوف يساعدك على طردها من رأسك التفكير في أفكار مقدّسة. لكن إن تساهلت مع الأفكار السيئة بحجة أنها مجرد أفكار بسيطة وليس لها تأثير في حياتك، فسوف تتأصل في داخلك وتتطور إلى أفعال، لذلك من الأفضل عندما تلوح الفكرة في عقلك أن ترفضها على الفور. وكما قال بولس: "مُسْتَأْسِرِينَ كُلَّ فِكْرٍ إِلَى طَاعَةِ الْمَسِيحِ" (٢كو: ١٠: ٥)، فعندما تراودك فكرة أمسك بها واربطها وضعها تحت رجلي المسيح. واسأله وقل له: "يا ربي، هل أنت موافق على هذه الفكرة؟".

وأيضاً ترى البعض يراوده فكر خوف أو فكر خطيئة ولو صغير فيستترسل به ويقول في نفسه سوف يحصل كذا وكذا ويبدأ يرتجف، فهي كانت مجرد فكرة ولكنها تسلّطت وتملكت عليه لأنه غداًها فتمت وتأصلت وأصبح اقتلاعها لن أقول مستحيلاً لكنّه صعباً، لذا فالأجدى للإنسان أن لا يعرج بين الفرقتين بل يحصر تفكيره كلّ في أفكار صالحة.

وإن كان القديس يعقوب قال عن الفم أنّه لا يصح أن يخرج منه أي من ذات الفم اللعنة والبركة، فهكذا العقل لا يصح يا إخوتي أن تكون هذه الأمور هكذا. فالعقل الذي يفكر في الروحيّات ليس من اللائق له أن يفكر في الطين وفي التراب، وفي الدنس "حتى متى تعرجون بين الفرقتين".

أمّا الصفة العاشرة والأخيرة التي يمتدح النفس عليها، أو الصورة الأخيرة لها التي هي ثمرة عمل الفخاري في هذه الرحلة الطويلة التي رافقنا فيها العروس أو النفس هي: الشعر.

"وَشَعْرُ رَأْسِكَ كَأَرْجَوَانٍ. مَلِكٌ قَدْ أُسِرَ بِالْخُصَلِ" فالشعر ينبت من الجسد فهو من نتاج الجسد وبالتالي يرمز إلى أعمال الجسد، والمسيح قال لها: شعر رأسك كأرجوان. أي أعمالك كأرجوان، والأرجوان لباس الملوك، مما يعني أن أعمال جسدها هي أعمال ملوكية، هي أعمال معمولة بالروح القدس "لكي تظهر أعمالكم أنها بالله معمولة"، فعندما يمتلئ رأس الإنسان بالأفكار المقدسة فسوف تكون أعماله مقدسة حتماً. وهنا يظهر ارتباط الاثنين، ارتباط الرأس بالشعر وبالتالي ارتباط الأفكار بالأعمال، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على روعة الكتاب المقدس.

وأيضاً في هذا المجال، لا بد أن ألفت الانتباه إلى أن كنيستنا لطيفة، فبعد عيد القيامة وعلى مدى خمسين يوماً نحتفل بعيد القيامة، وطوال هذه الفترة نتوقّف عن ممارسة الصوم والميطانيات، وتكون القراءات في القداسات صغيرة ولا نعاود هذه الممارسات إلا بعد حلول الروح القدس في اليوم الخمسين. لأن الكنيسة تريد أن تعلمنا أن نقول للرب: يارب لا صلاتنا ولا صيامنا ولا ميطانيتنا لها قيمة، لكننا منتظرون حلول روحك القدوس في يوم الخمسين، وبعد حلول الروح نصوم ونقدّم الميطانيات لكي تظهر أعمالنا أنها بالله معمولة.

فنحن لا نقدّم أعمال نسك وإماتات الجسد في الخماسين، فهي فترة مخصّصة للفرحة بالقيامة ولا ننكر هذا، ولكن لا يغيين عن أذهاننا أن هذه الأعمال المعمولة ليست مجرد أعمال جسد بحتة كما يتهمنا البعض، فمهما قسونا على الجسد بأعمال النسك فهذا لن يشبع أرواحنا، ومهما فعلنا ولو حتى قطعنا أجسادنا فلا نفعل شيئاً مقارنة بما يفعله الهنود الذين فاقونا نسكاً بأشواطٍ كثيرة. إذاً ما هو هدف الكنيسة؟ ليس هدفها من ساعات الصوم الطويلة وأعمال النسك، تعذيب الجسد، لا أبداً. إنما هدف الكنيسة هو القول لأولادها أن أعمالكم هي ثمرة عمل روح الله فيكم.

"وَشَعْرُ رَأْسِكَ كَأَرْجَوَانٍ. مَلِكٌ قَدْ أُسِرَ بِالْخُصَلِ" وكما سبق ورأينا فإن الشعر يشير إلى الخضوع، فالمرأة ترخي شعر رأسها كعلامة خضوع لرجلها، فإذا كان شعر المرأة هو مجدها فإن مجد المرأة في خضوعها لزوجها، فالمسيح ينظر إلى الزوجة الخاضعة

لزوجها ويقول لها: شعر رأسك أرجوان. لكنَّ السائد بين الناس أنَّ الخضوع ضعف أو هزيمة، بينما المسيح يقول أن الخضوع يجعل الإنسان ملكاً، "طوبى للودعاء، لأنَّهم يرثون الأرض" (مت ٥: ٥).

وفي تدابير الله للعلاقة ما بين الزوجين أنَّه جعل الرجل رأس المرأة، لأنَّ آدم قد جُبل أولاً، من هنا أصبحت القيادة لآدم، فأدم هو الرأس وحواء هي الجسد، فكما يخضع الجسد للرأس، هكذا تخضع المرأة للرجل، والكنيسة للمسيح. وأصبحت قوَّة المرأة في خضوعها. لكنَّ الخطيئة جاءت عندما ترك آدم دفة القيادة لحواء، وكما ذكر لنا سفر التكوين فإنَّ حواء أخذت الثمرة وأعطت آدم فأكل (تك ٣: ٦). فالله لم يطلب من آدم أن يتبع حواء وينصاع لأوامرها. فمع أنَّ الكتاب قال: "ليس الرجل من دون المرأة في الرب"، لكنَّ تدبير الله في الأسرة والكنيسة أن يسلم القيادة لآدم، وما أُعطي لآدم قد أُعطي لكي يهيئه لهذه القيادة.

لكن للعالم منطقاً آخر مغاير لتدابير الله ونحن قد تأثرنا بكلام العالم لذا لا أستغرب أن يعترض البعض على كلامي ويعتبره يصلح للعصور الغابرة، لكن ما أقوله هو كلام الإنجيل الذي أوصى المرأة بالخضوع لرجلها، لذلك بعدما أخطأت حواء سمعت مباشرة التأديب الإلهي يقول لها: "إلى رَجُلِكَ يَكُونُ اسْتِيقَاكَ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكَ" (تك ٣: ١٦)، لماذا؟ لأنه ينبغي للرجل أن يقود وليس المرأة.

ولكن هل الخضوع ضعف أو مذلة أو مسكنة! لا أبداً، فالزوجة التي تخضع لزوجها فإنَّه لا يتردد أن يقدِّم لها أغلى ما عنده، وأنا لست في موقع الدفاع عن الرجل ولكني تحدثت عن هذا الموضوع في سياق الكلام عن رمزية الشعر في الكتاب، فالرجل لا يريد من زوجته أن تقف أمامه كرجل وتحاوِّره فكرياً بفكر وكلمة بكلمة، ولكن هذا لا ينفي ضرورة وأهمية الحوار ما بين الزوجين، وحتى إمكانية الاختلاف في الرأي واردة ولن تشكِّل مشكلة، ولكني أتكلَّم عن القيادة بالتحديد فالله قد أوكل القيادة للرجل ورتَّب حياة الزوجين على هذا الأساس، فلن نأتي نحن ونقلب الموازين ونرفض أوامر الله ونسلم القيادة للمرأة لتقود الرجل، وما رتبَّه الله ليس ضد أن تتبوأ المرأة المناصب فتشغل منصب وزيرة أو أي منصب آخر في الحياة العامة، إنما نحن نتكلَّم عن تدبير

شئون البيت، وتدبير الحياة الزوجية، ولكن أحب أن ألفت النظر إلى أن المرأة الخاضعة سوف تحصل بالمقابل على كل ما تريد، فتصور زوجة لا تتردد في أن تقول لزوجها: "حاضر، حاضر" على أي طلب، فهو بينه وبين نفسه سوف يخجل أمام هذا الاحترام فالزوجة الخاضعة سوف تحصل على كل تريده.

"مَلِكٌ قَدْ أُسِرَ بِالْخُصَلِ"، وفي هذه الآية نختصر ردّ المسيح على كل الكلام، فالخُصَل ترمز إلى الخضوع، والملك قد أسر بالخضوع. فمن هو الملك؟ هو المسيح ملك الملوك. وحتى الملك على مستوى الأرض هل يوجد شيء يأسر قلبه؟ طبعاً هذا أمر صعب. لأنّه ملكٌ فهو يسمو على كل الرغبات. لكن ما الذي يأسر ملك الملوك؟ الذي يأسره هو الشعر الطويل أي الخضوع التام.

نصلّي إلى الله أن ينعم علينا بهذه الثمار التي هي ثمرة عمل الفخاري فينا طوال فترة غربتنا على الأرض.

نبدأ الآن مرحلة نمو جديدة للنفس ففي الأصحاح الثاني قالت النفس: "حبيبي لي وأنا له". وهذه كانت مرحلة روحية أولى. ثمّ تدرّجت ونمت إلى مرحلة ثانية، فقالت: "أنا لحبيبي وحبيبي لي". فما الفرق بينهما؟

فالمرحلة الأولى هي أول ما تتقابل النفس مع المسيح، فتحب بشدة من قلب طاهر، فالنفس في بداية دخولها الحياة الروحية، وبداية سلوكها في الطريق الروحي يكون المسيح بالنسبة إليها حياتها وهي على استعداد أن تقدّم له ذاتها، لأنّها تحمل له في قلبها محبةً فيّاضة، ولكن كل هذه المحبة تترافق مع رغبات طفولية. ففي مرحلة "حبيبي لي"، تنتظر النفس من الرب أن تكون شغله الشاغل ويحقق لها كل طلباتها، طعامها، شربها، ويحل لها كل مشاكلها، فهذه مرحلة الأولاد بحسب تعبير القديس يوحنا في رسالته "أكتب إليكم أيّها الأولاد"، أو المبتدئين في الطريق الروحي. ولكن ما الذي حصلوا عليه في هذه المرحلة؟ "أنكم قد غفرت خطاياكم" (يو ٢ : ١٢). فأول ما تبدأ النفس تعيش مع الرب تنال غفران الخطيئة. وهذا الغفران يزرع في داخلها فرح لا يوصف "طوبى لرجل لا يحسب له الرب خطيئة" (مز ٣٢ : ٢).

فهذه درجة في الحياة الروحية ولا يفترض بالنفس الوقوف عندها بل أن تنمو وترتقي إلى درجة أعلى. وهكذا بعد أن كانت في مرحلة: "حبيبي لي"، أي حبيبي لتلبية رغباتي وخدمة مصالحتي! أصبحت "أنا لحبيبي" فأصبحت هي له. وبلغت مرحلة الأحداث، "أكتب إليكم أيها الأحداث"، الذين هم الشبان. فالولد عندما يحب يريد أن يأخذ كل شيء لنفسه، هذه هي درجة محبة الولد، محبة طفولية والتي عبرت عنها العروس بقولها: "حبيبي لي". ولكن عندما ينمو الولد ويصل إلى مرحلة سن الشباب أو المراهقة، فإنه لا يتردد أن يقدم كل ما له لمحبيه، ويبدل الغالي والنفيس من أجله، فهو يعطي من كل قلبه، وذلك في مرحلة "أنا لحبيبي". ولكن النفس سوف ترتقي مجدداً وتنقل إلى مرحلة الثالثة أعلى من هاتين المرحلتين. وهي ما سوف نتطرق إليها في الأصحاح السابع.

(١٠: ٧) "أنا لحبيبي، وإليّ اشتياقه".

هنا وصلت النفس إلى درجة عالية في النضج، وفيها بدأت تدرك أن كل أشواق الله، وكل محبة الله "لها هي"، وهنا نلاحظ التدرج في النمو، فبعد أن كان "حبيبي لي"، يحقق كل طلباتها، اكتشفت أن هذا لا يصح، فارتقت قليلاً وبدأت تقول له: "أنا يا ربي لك، وتحت أمرك". وطبعاً هذا أمر جيد. ولكن يوجد أيضاً درجة أعلى من هذه وهي "أنا لحبيبي، وإليّ اشتياقه"، فاشتياقاته لي أنا، فهو يحبني أنا، ومهتم بي أنا، فهي قد بلغت درجة أعلى في النمو والتي قال عنها القديس يوحنا: "كُتِبَتْ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْآبَاءُ، لَأَنْكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ الَّذِي مِنَ الْبَدْءِ" (١ يوحنا ٢: ١٤)، والذي هو الله الآب. مما يعني أنكم عرفتم أبوة الله، وعرفتم مقدار اشتياقات الله إليكم، فهو يشاق كما يشاق أب لأولاده. وإن سألتها ماذا تريد من أولادك، فيقول لك: لا أريد شيئاً. لكن هي مشاعر الأبوة، فعندما يتدرج الإنسان وينمو، يبدأ يدرك مشاعر الله، فتسأله ماذا يريد الرب منك؟ فيقول لك: لا شيء، ولكن هو أب يفرح بأولاده، وكل محبته واشتياقاته نحو أولاده.

فعندما تنمو النفس وتصل إلى درجة الآباء هذه، إلى هذه القامة الروحية، فتدرك أشواق الله نحوها. فأبي اجتماع أو لقاء حول كلمة الله هو ملذات قلب المسيح.

والعجيب في المسيحية هي محبة الله للإنسان المحبول من طين حتى أنه يقول: "لذاتي مع بني آدم" (أم ٨: ٣١)، فنسأله: ما الذي يعجبك في الإنسان! الإنسان بكل ما فيه من ضعفات وأعمال ترابية فيقول: أنا فرح بكم. وعندما نجتمع يكون المسيح في وسطنا، فيخاطب الأب ويقول له: "في وسط الجماعة أُسَبِّحُكَ" (مز ٢٢: ٢٢)، فتصوّروا المشهد: نحن مجتمعون والمسيح في وسطنا فرح بنا ويقدمنا إلى الأب، ويقول له: "ها أنا والأولاد الذين أعطانيهم الله" (عب ٢: ١٣)، فالمسيح فخور بنا أمام أبيه وأمام ملائكته القديسين.

(١١: ٧) "تعال يا حبيبي لنخرج إلى الحقل، ولنبت في القرى".

عندما بلغت النفس المرحلة الأخيرة حيث عرفت فكر الرب ومشاعره وقلبه، قالت له: تعال يا حبيبي لنخرج إلى الحقل ولنبت في القرى. وفي دعوتها هذه تجلّت قمة الشركة. فقربها منه ومعرفة فكره جعلها تتساءل: ماذا يحب الرب؟ ما هي اهتماماته، وما هي اشتياقاته؟ ولأنّ اشتياقاته في أنّ الجميع يخلصون (١ تي ٢: ٤)، قررت النفس أن تتقدّم للعمل مع الرب حيث أصبح لها فكر المسيح الذي يبحث عن الضال حتى يجده، فتبدأ بعمل عمله.

"تعال يا حبيبي لنخرج إلى الحقل" الذي هو العالم، "ولنبت في القرى"، فنبحت عن النفوس البعيدة ونأتي بها إليك، فعودتها إليك سوف تفرحك حتماً. لأنه "يكون فرحاً قدام ملائكة الله بخاطي واحد يتوب" (لو ١٥: ١٠) والملائكة وقوف أمام عرش الله، فالفرح الذي أمام الملائكة هو فرح الله.

(١٢: ٧) "لُبُّكْرَنَ إِلَى الْكُرُومِ، لِنَنْظُرَ: هَلْ أَزْهَرَ الْكَرْمُ؟ هَلْ تَفَتَّحَ الْقَعَالُ؟ هَلْ نَوَّرَ الرُّمَّانُ؟ هِنَالِكَ أُعْطِيكَ حَبِّي".

في الأصحاح السادس قال المسيح: "نزلت لأنظر هل أقعل الكرم؟ هل نور الرمان؟". وها هي النفس تكرّر الكلام عينه، فتقول: تعال يا حبيبي لننظر هل أزهـر

الكرم؟ هل تفتح القفال؟ (والفعال هي ثمرة العنب الصغيرة) هل نور الرمان؟ مما يدل أنه أصبح لهذه النفس فكر المسيح واهتمامات المسيح، فالمسيح ينظر إلى النفوس ليرى هل بدأت تتضح! وكذلك النفس تقوم بالعمل نفسه فتتابع مسيرة نمو الآخرين لترى هل ابيضت الحقول للحصاد!

ثم تتابع كلامها فتقول له: فيما أنا أبحث في الحقول عن النفوس التائهة هناك أعطيك حبّي. فلكي أظهر محبتي للمسيح، ماذا أفعل؟ هذا ما كشفه المسيح لبطرس عندما قال له: يا بطرس، أتحبني؟ ارفع خرافتي. فهناك في الخدمة وفيما أبحث عن النفوس وأحضرها للمسيح، في هذا الوقت وفي هذه الخدمة بالذات أعطيك حبّي. ثم نلاحظ أن النفس تذكر أنواع الخدمات التي قد تقوم بها:

أولاً: قالت لنخرج إلى الحقول. وهذا يمثل عمل المبشّر. فالحقول هو العالم، مما يعني يوجد أناس غير مؤمنة بالمسيح، فيذهب المبشّر إليهم ليبشّرهم بالمسيح، فهذا عمل الخدمة مع أناس غير مؤمنة، لا تعرف المسيح فيذهب إليهم ويبشّرهم.

ثانياً: قالت هل أزهر الكرم؟ هل تفتح القفال؟ هل نور الرمان؟ وهذا يمثل عمل الراعي. فالمبشّر يجول من بلد إلى آخر، ومن مكان إلى آخر، ويتكلّم عن خلاص المسيح، وعن الصليب الذي ينجي من الهلاك، فهو يلقي عظات تبشيرية. أمّا عمل الراعي فهو الاهتمام بالنفوس التي قبلت المسيح، وأصبحت مؤمنة به، وتحيا معه، فيرعاها ويحوط عليها، فهو كراعي يجمع الحملان ويهتم في كل نفس لكي تنمو في الحياة الروحية وتثمر. فالراعي يتواجد باستمرار مع قطيعه، فإن سألت عنه أو بحثت عنه، سوف تجده دائماً في وسط القطيع، فهو حاضر طوال النهار في وسط القطيع، حتى إذا ما احتاج إليه واحد من الخراف يجده إلى جانبه.

(١٣: ٧) "اللُّفَّاحُ يُفُوحُ رَائِحَةً، وعند أبوابنا كلُّ النَّفَّاسِ من جديدهِ وقديمه، ذَخَرْتُهَا لك يا حبيبي".

ثالثاً: قالت عند أبوابنا كل النفائس من جديدة وقديمة. وهذا يمثل عمل المعلم. لأن قولها هذا يذكرنا بما جاء في إنجيل القديس متى (١٣: ٥٢) "كُلُّ كَاتِبٍ مُتَعَلِّمٍ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ يُشَبِّهُ رَجُلًا رَبَّ بَيْتٍ يُخْرِجُ مِنْ كَنْزِهِ جُدُودًا وَعَتَقَاءً". فمصدر التعليم هو الكتاب المقدس بعهديه، والمعلم يخرج تعليماً من الجديد ويخرج تعليماً من القديم. ولكن هناك معنى أعمق من هذا، ففي كل مرة يتأمل الإنسان في نص من الكتاب المقدس قديم أي سبق وتأمل فيه يخرج منه بمعاني جديدة، وهذا العجب في كلمة الله! فقد مرَّ على العهد الجديد أكثر من ألفي سنة، وهناك عدد لا يحصى من الشروحات والتأملات والتفسيرات للكثير من الآباء، حتى إنك تخال أنه لا يوجد بعد ما يقال، وبالرغم من ذلك تجد دائماً في كلمة الله معاني جديدة، إنه بالحق أمر مذهل، يجعلنا نتساءل وهل هناك ما لم يقله الآباء؟ ولكن الأمر لا يتعلق بمقدرة أو مدى معرفة الآباء إنما هو عمق الكتاب الذي لا تسبر أغواره، "كُلُّ كَمَالٍ رَأَيْتُ حَدًّا، أَمَّا وَصِيَّتُكَ فَوَاسِعَةٌ جَدًّا" (مز ١١٩: ٩٦).

والمعلم لا يخرج فقط ما هو جديد، بل ما هو قديم أيضاً، فيقرأ تفسيرات الآباء وتأملات الآباء ويمزج الاثنين معاً في وجبة دسمة ليطلع القطيع.

"هَنَّاكَ أُعْطِيكَ حُبِّي"، فالنفس تظهر محبتها للمسيح سواء أكان في عمل التبشير لنفوس غير مؤمنة، أو سواء أكان في عمل الراعي الذي يرعى القطيع ويسهر على حراسته، وأيضاً في عمل المعلم الذي يخرج جدداً وعتقاءً.

ولكن قد يقول البعض: ألا يمكنني أن أظهر محبتي للمسيح إلا في الخدمة! فأنا لا أعرف أن أخدم، وقد يقول آخر: أنا لست معلماً، لأن التعليم موهبة، وقد يقول سواه: أنا لست راعياً! ولكن حقاً أنت راعي! فلا تقل كما قال قايين: "أحارسُ أنا لأخي؟" (تك ٤: ٩)، لأنك فعلاً حارس لأخيك، فعمل الرعاية ليس مقتصرًا فقط على رجال الكهنوت والخدام، إنما ينبغي عليك أنت أيضاً أن تكون راعياً في محيطك فترعى

من حولك، فتهتم بزوجتك وتسهر على أولادك وتلاحظ أصحابك وجيرانك وإخوتك في الكنيسة، وكما قال بولس: "ملاحظين لئلا يخبى أحد من نعمة الله" (عب ١٢: ١٥). وحتى إن كانت الرعاية من مهام الكاهن، لكن الكاهن هو بالنهاية إنسان، وله طاقة محدودة، لا سيما وأن الرعية كثيرة، مما يجعل مهمته صعبة إلى حد كبير، فنسمع عتاباً من البعض لقد تغيبت عن الكنيسة ولا أحد يسأل عني". طبعاً هو له الحق فيما يقول، ولا أنكر مسئوليتنا وتقصيرنا كخدام للمسيح، ولكن ما يهمني أن يعي أولاد الله لدورهم في الكنيسة، فعلى كل واحد منهم أن يلاحظ أخاه ويهتم لأمره، فيسأل عن فلان لماذا تغيب عن الحضور إلى الكنيسة، لئلا يخور من نعمة الله، فيبحث عنه ويطمئن عن أحواله، فيكفي أن يهاتفه ويسأله: "لماذا لم تأت اليوم إلى القداس أو إلى الاجتماع، فنحن انشغلنا عليك". ثم تحكي له الموضوع الذي فرحت به في الاجتماع، فعملك هذا هو عمل الراعي.

فالجميع لهم نصيب في الخدمة، ولا يعتقدن أحد أن الخدمة تقتصر على المكرسين فقط. لكن يبقى السؤال: "أليس هناك من سبيل غير الخدمة لكي أظهر محبتي للمسيح؟". بالطبع يوجد سبل أخرى، وكما يوجد مرثا يوجد مريم أيضاً. فمرثا تمثل الخدمة وتظهر محبتها للمسيح في خدمات شتى، أما ما تمثله مريم فسوف نتعرف عليه في الآية التالية.

(٨ : ١ - ٢) "لَيْتَكَ كَأَخٍ لِي الرَّاضِعُ ثَدْيِي أُمِّي، فَأَجِدَكَ فِي الْخَارِجِ وَأُقَبِّلَكَ وَلَا يُخْزُونِي، وَأَقُودُكَ وَأَدْخُلُ بَكَ بَيْتَ أُمِّي، وَهِيَ تُعَلِّمُنِي، فَأَسْقِيكَ مِنَ الْخَمْرِ الْمَمْرُوجَةِ مِنْ سَلَافٍ رُمَانِي".

هي تقول للمسيح: يا ليتك أخي. لماذا؟ لكي تستطيع أن تقبله في الشارع دون أن ينتهرها أحد، لأنه من الطبيعي أن تقبل أخت أخاها، فهو أمر عادي وليس بمعيب. وأيضاً حتى تتمكن من أن تدخل به بيت أمها، دون أن تستاء أمها، أو تسألها: من هذا الذي أدخلته إلى البيت؟ لأنه أخوها. هذا هو المعنى البسيط للآية.

لكنَّ المعنى الروحي المقصود من قول العروس للمسيح: ليتك كأخ لي. يتوضَّح بربطه بما جاء في إشعياء "لِتِكَ تَشَقُّ السَّمَوَاتُ وَتَنْزِلُ" (إش ٦٤: ١). فالبشريَّة تتاجي المسيح يا ليتك تنزل وتصير أماً لنا فتأخذ طبيعتنا وتشعر بالذي نعانیه وتخلَّصنا. وهو الذي قيل عنه "ليكون هو بكرًا بين إخوة كثيرين" (رو ٨: ٢٩)، وقد تحقَّقت شهوة النفس هذه بتجسُّد المسيح.

"لِتِكَ كَأَخٍ لِي الرَّاضِعِ ثُدِي أُمِّي"، فالمسيح قد رضع من ثديي العذراء مريم، ومن على الصليب قال لنا بشخص يوحنا "يا يوحنا هذه أُمُّكَ" (يو ١٩: ٢٧)، وهذا هو سبب محبتنا للعذراء وتعلُّقنا بها، فلا يوجد مَنْ يماثلها باتضاعها أو مَنْ يشابهها في نعمتها، "فالآب تطلَّع من السماء لم يجد من يشبهك فأرسل وحيداً أتى وتجسَّد منك" كما نصلي في التسبحة. فالعذراء ليس لها مثل ولا حتى في الكتاب فلم توجَّه تحيةً لإنسان كالتي حملها غبريال رئيس الملائكة إلى العذراء مريم فقال لها: "السلام لك يا ممثلة نعمة"، تحية لم تعطَ لأحد سواها.

فالمسيح قد وهبها أمّاً لنا والكنيسة تمسَّكت بهذه العطية، لا سيما الكنيسة القبطية، ولأنَّ الأب يعطي أولاده أغلى عطية قبل انتقاله، فقد أعطانا المسيح أغلى عطيتين قبل أن يسلم ذاته على الصليب، فأعطانا جسده ودمه يوم الخميس، وأعطانا أمّه يوم الجمعة "يا يوحنا هذه أُمُّكَ"، ومن تلك الساعة أخذها ذلك التلميذ إلى خاصته، ومن تلك الساعة دخلت العذراء الكنيسة، فلا يوجد بيت قبطي أو قلاية راهب إلا وتجد أيقونة للعذراء، ولا يوجد طفل قبطي إلا وتعلَّم قول "ماما العذرا"، فالمسيح قد أعطانا إياها لتكون أُمّاً، فلماذا نتهرَّب من هذه الحقيقة! أليست هي آية صريحة في الكتاب! فالعروس تقول للمسيح أنت رضعت من ثديي أُمِّي، والمسيحي يقول معها هي أُمِّي أنا أيضاً فالمسيح قد وهبها لي.

"لِتِكَ كَأَخٍ لِي الرَّاضِعِ ثُدِي أُمِّي فَأَجِدْكَ فِي الْخَارِجِ" ولماذا في الخارج؟ لأنَّها طُرِدَتْ مع أبيها آدم إلى الخارج، فعندما أخطأ آدم أخرجته الرب خارج جنة عدن،

فأصبح آدم في الخارج والمسيح في الداخل، فأخذ آدم يناديه ويقول له: ليتك تصير كأخ لي ترضع ثديي أُمِّي فتوجد في الهيئة كإنسان، فأجده في الخارج، لأنه محظورٌ عليّ الدخول حيث أنت لذلك أدعوك للخروج إليّ.

لذلك تقابل المسيح مع المولود أعمى عندما أخرجه خارجاً (يو ٩: ٣٥). ولذلك أيضاً تقول شريعة الأبرص للإنسان الأبرص أن يخرج إلى خارج المحلة والكاهن يخرج إليه خارج المحلة، والكاهن يرمز للسيد المسيح رئيس كهنتنا، لذلك فهو الذي يخرج إلينا.

"فأجده في الخارج"، فعندما أجده في الخارج، أي عندما تخرج من حضن الآب وتأتي إلى العالم من أجلي وتصير لي كأخ في الجسد حينئذٍ أقبلتك ولا يخزونني، حينئذٍ أظهر لك حبي وأشواقي دون أن أسمع كلمات انتهار لأننا "نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً" (١يو ٤: ١٩).

ومريم عندما سكبت الطيب على قدمي يسوع سمعت كلمات التوبيخ فلم تبال بالكلام لأنّ عمله المسيح معها لا يمكن أن يعملهُ شخص آخر، فلا يوجد أحد سواه يعرف أو يقدر أن يعملهُ، لذلك فهي تعتبر أنّها مهما قدّمت للرب فهو ليس بالكثير مقارنةً بما قدّمه هو، فقد خرج إلينا وصار في الهيئة كإنسان ووضع ذاته وأطاع حتى الموت، موت الصليب، فمهما قدّمنا له فلن نوفيه حقه، لذلك يستد كل فم أمام عظم عطيتّه.

وأيضاً القديس أنطونيوس الذي تخلّى عن كل ما يملك من أجل المسيح، حتى ليخيل للبعض أنّه مختل العقل، فانتقدوه اذ تخلّى عن ثلاثمائة فدان دفعةً واحدة، معتبرين بتفكيرهم البشري أنّ التخلي عن عشرة فدادين تكفي أو حتى عن مئة فدان كحدٍ أقصى، ولم يستطيعوا أن يفهموا كيف تجرّ الأنبا أنطونيوس وأعطى ثلاثمائة فدان، ولكنّ لسان حال الأنبا أنطونيوس يقول: "أقبله ولا يخزونني". فهو يرد على منتقديه ويقول: وهل أنا قدّمت إليه ما يستحق! فكل ما قدّمته لا يساوي شيئاً أمام ما قدّمه إليّ ربي وإلهي، والتنازل الذي تنازلته أين هو من التنازل الذي تنازله المسيح من أجلي! فمهما قدّمت إليه من حب فليس بشيء أمام عظم محبّته.

والانتقادات التي تعرّض لها كل من مريم والأنبا أنطونيوس تجعلني أتساءل: لماذا يحزن الناس عندما تتكرّس نفوس لله؟ مع العلم أنّ هذا التكرّس هو أقل ما يمكن للإنسان فعله أمام تضحيات المسيح الهائلة. وأيضاً أسمع البعض يعاتب على النهج الأرثوذكسي عندما يرون أشخاصاً يتركون الدنيا وما فيها ويدخلون إلى الدير، ولا يدرون أنّ ما يفعله هؤلاء ليس سوى تعبير عن محبتهم الكبيرة للمسيح، محبتهم للذي ترك كل شيء من أجلهم فأقل ما يمكنهم فعله هو أن يعطوه حياتهم، فيعيشون بتولين في عشق وحب إلهي دائم.

وأيضاً قد يعترض البعض الآخر على تنسّكهم بحجة أنّهم تخلّوا عن الخدمة في الكنيسة وهذا غير صحيح فالأنبا بولا كان يحمل العالم أجمع في قلبه، هو الذي عاش عشرات السنين منقطعاً عن الناس ولم يرَ وجه إنسان ورغم ذلك عندما تقابل مع الأنبا أنطونيوس سأله مستفسراً عن أخبار الكنيسة وإن كان لا يزال يوجد فيها هراطقة وأيضاً سأله ما هي أخبار مياه النيل. فمع أنّه بعيد بالجسد عن الكنيسة لكنّه كان يحملها في فكره وفي قلبه وفي صلواته. فالذين اختاروا الحياة النسكية لم يتخلوا عن الكنيسة بل على العكس أصبحوا سوراً يحمي الكنيسة. فهؤلاء النساك الرهبان تركوا كل شيء وتبعوا المسيح محبةً له! وتكرّسوا له وهم مقتنعون في قرارة أنفسهم أنّهم لم يفعلوا شيئاً بالنظر إلى ما عمله المسيح لأجلهم.

"فأجِدْكَ فِي الْخَارِجِ وَأَقْبَلْكَ وَلَا يُخْزُونِي" وأيضاً عندما تخرج إليّ ياربي إلى خارج أقبلك ولا يخزني الكاروب الممسك بسيف نار متقلب ليحرس طريق شجرة الحياة التي خسرتها عندما أخطأ آدم فوقف الملاك ورفع في وجهه سيفاً لئلا يدخل ويأكل من شجرة الحياة (تك ٣: ٢٤). لذلك أصرخ إليك لتخرج إليّ فألتقي بك، فيا ليتك تأتي إليّ في الخارج فأمنيتي أن أظهر لك حبي وأعبر عن مدى شوقي إليك، ولكن لا أجسر على الاقتراب خوفاً من سيف نار الكاروب، لذا ليس لي سوى أن تخرج أنت إليّ حينئذٍ أقبلك ولا يخزني أحد.

أما الثمرة الأخيرة للتجسّد التي حصلنا عليها فهي الكنيسة، فنقول له: "أقودك وادخل بك بيت أمي (التي هي الكنيسة) وهي تعلّمني". فالمسيح خرج من أجلي وأنا مشتاق أن أقدم له المحبة، لكن كيف ذلك، ماذا أفعل؟ فالسبيل الوحيد لتحقيق هذا الأمر هو أن أدخل بيت أمي، الكنيسة، وهي تعلمني كيف أحب المسيح وتدريني في تداريب روحية للنمو كالصلاة من الأجبية، وقانون الصوم ...

ولكن البعض يعترض قائلاً: لماذا أصلي الأجبية؟ لماذا لا أصلي من فكري! صلّ من فكري فلا مانع بل هو أمر ضروري ولكن أحيان كثيرة سوف تمر في فترات فتور روحي وتفقد الرغبة في الصلاة، ولن تجد كلاماً لتقوله في الصلاة، وحينها سوف تتوقف عن الصلاة رغماً عنك. لذا تلزمك الكنيسة بصلاة الأجبية حتى تتمكن من المواظبة على الصلاة مهما تقلبت أحوالك الروحية. فهل يعقل أن نترك الإنسان الذي فقد الرغبة في الطعام أن يموت جوعاً؟ بالطبع لا، فنقول له تناول لقمة صغيرة تسد بها رمقك، من هنا ندرك أهمية صلاة الأجبية في حياتنا الروحية. فالمؤمن غير المعتاد على صلاة الأجبية سوف يتوقف عن الصلاة في أحيان كثيرة، لذلك تعلّمنا الكنيسة وتحثنا على صلاة الأجبية، ونحن علينا أن نسلّم بما تعلّمنا إيّاه كنيسةنا، أدخل بيت أمي وهي تعلمني حياة المخدع وحياة الخلوة مع المسيح. وإن قالت العروس هناك أعطيك حبي في الخدمة، فأيضاً وبالتوازي تقول هناك أعطيك حبي في حياة المخدع وفي حياة الشركة مع المسيح.

يتبقى لنا القسم الأخير وهي المرحلة التاسعة التي نختم بها سفر النشيد وهي مرحلة الأبدية. والتي تمتد من الآية ٥ إلى الآية ١٤ من الأصحاح الثامن، وفيها يصف المسيح جمال الأبدية ومجدها وأكاليلها.

(٨ : ٥) "مَنْ هَذِهِ الطَّالِعَةُ مِنَ الْبَرِّيَّةِ مُسْتَبَدَّةٌ عَلَى حَبِيبِهَا؟ تَحْتَ شَجَرَةِ التَّفَاحِ شَوَّقُكَ هُنَاكَ خَطَبْتَ لَكَ أُمُّكَ هُنَاكَ خَطَبْتَ لَكَ وَالدُّنْكَ".

"الطَّالِعَةُ مِنَ الْبَرِّيَّةِ"، ترمز إلى الخروج من العالم، فالنفس بعد أن أنهت فترة غربتها على الأرض وطالعة من برية العالم بهيئة مزينة بكل آذرة التاجر بعد أن شكّلها

الفخاري وجعل منها عروساً مهياً لرجلها، رأتها الملائكة وهي طالعة من الأرض فانبهروا بها وقالوا: مَنْ هذه الطالعة من البرية؟

والعلاقة مع الملائكة تبدأ من خلق الله لأبينا آدم، فنظرت إليه الملائكة فرأوا فيه شخصاً جديداً ورائعاً لأنه يعمل عملهم فهم يسبحون الله وآدم على مثالهم يسبح الله، فقال الملائكة لله: أن المميز في آدم أنه يقوم بعملنا ولكن أصل جبلته من تراب فأصبح آدم بالنسبة للملائكة شخصاً مبهرًا فكيف هو مخلوق من تراب، وله طبيعة أدنى، وكيف يعمل العمل السامي الذي يعمله الملائكة، فكان الملائكة فرحين بآدم وكان آدم يشارك الملائكة في تسبيح الله فترة نجهل مدتها إلى أن سقط آدم فصار حزن في وسط الملائكة، فأدم المخلوق اللطيف المجبول من طين قد طُرد من بيننا، وسألوا الله هل يمكن أن يعود آدم إلى مكانته الأولى؟ لقد كان شخصاً رائعاً ولطيفاً ولكن قد أوقع به. فأكد الرب رجوعه. وانتظرت الملائكة عودة آدم دون جدوى، ومات آدم ووضع تحت التراب. فنظر الملائكة إلى المسيح وقالوا له: هل ستتركه في مثنوى الأموات ألن تفعل شيئاً لكي ترجعه! فقال لهم المسيح: اصبروا، اصبروا. ووقف الملائكة يلحون على المسيح ويتوسلون إليه كي ينقذ آدم من قبضة الموت. إلى أن تجسد المسيح وأعاد خلقه الإنسان من جديد، ففرح الملائكة بعمل الله في آدم، ورجع أبونا آدم إلى الفردوس. وفرح به الملائكة فرحاً لا يوصف.

وهكذا عندما رأى الملائكة النفس خارجة من العالم ثمرة صليب المسيح انبهروا بها، وقالوا: "مَنْ هَذِهِ الطَّالِعَةُ مِنَ الْبَرِّيَّةِ مُسْتَنْدَةً عَلَى حَبِيبِهَا"، وكيف سندها حبيبها؟ قالت لهم: "تحت شجرة التفاح"، فالمسيح قد سندها تحت شجرة التفاح، والتفاح كما سبق ورأينا يرمز إلى المسيح، "كالتفاح بين شجر الوعر كذلك حبيبي بين البنين". والشجرة هي الصليب لأن كلمة الصليب في اللغة القبطية: "بي شيه"، وتعني الخشبة، ولأن المسيح صُلبَ على جذع شجرة بما تحمله من نتوءات وخشونة وليس على خشبة مجهزة وملساء، لذا فالصليب هو الشجرة.

"تحت شجرة التفاح شوقتك"، الشجرة التي هي الصليب الذي علّق عليه حبيبي الذي كالتفاح، فالمسيح يخاطب النفس ويقول لها: يا نفس عندما علّقت على شجرة التفاح شوقتك للأبدية وللسماء، فكشفت لك عن محبتي وأنت في الخطية لكي أشوقك لهبات كثيرة تنتظرك في السماء عندما تأتي إليّ. ومعلمنا بولس الرسول يقول: "ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا" (رو ٥: ٨)، فكم بالبحري عندما تصالحنا معه! فكم من الهبات والنعم سوف يعد لنا! فإذا كان قد أعطانا العطية الفائقة وهي موت الابن على الصليب من أجلنا ونحن خطاة، فكيف سيكون عظم المجد الذي ينتظرنا في الأبدية.

"هناك خطبت لك أمك، هناك خطبت لك والدتك"، فالنفس تقول للمسيح: هناك عند الصليب خطبت لك أمك، وتقصد بها الأمة اليهودية، فماذا فعلت؟ لقد خطبت لك عروساً، ولأنه في الخطوبة يدفع العريس المهر، فالأمة اليهودية جعلتك تدفع المهر بالصليب، فأخذت العالم عروساً لك، "خطبتكم لرجل واحد، لأقدم عذراء عفيفة للمسيح" (٢كو ١١: ٢).

وأيضاً تقول له: هناك خطبت لك والدتك، التي هي العذراء مريم، ولكن كيف خطبت له؟ عند الصليب قال السيد المسيح للعذراء مريم كلمة قد يكون وقعها على مسامع البعض صعباً، فقال لها: "يا امرأة". ولكنّه التعبير الذي كان يقال للسيدات في ذلك العصر، والمسيح قال يا امرأة للسامرية أيضاً، فهذا جانب. ولكن هناك جانب آخر يحمل معنى أعمق من هذا. فعندما اخطأ أبونا آدم، ماذا قال له الرب؟ قال له: نسل المرأة يسحق رأس الحية. وفي عرس قانا الجليل جاءت العذراء وقالت للمسيح: "ليس لهم خمر" (يو ٢: ٣)، فقال لها: "ما لي ولك يا امرأة؟ لم تأت ساعتي بعد" (يو ٤: ٢١)، وفيما بعد عندما وقفت مريم عند أقدام الصليب، قال لها المسيح: "يا امرأة هذا ابنك"، مما يعني أنك أنت هي المرأة التي سوف تسحق رأس الحية، ألم تقولي لي أنك تريدين خمرًا، فمن أين سيأتي هذا الخمر؟ سوف يسكب عندما أصلب، فأنت هي المرأة التي وعدت بها حواء. فنظرت العذراء للصليب وقالت له: أقدمك للصليب بقلب أم ينفطر على ابنها المصلوب. فلا ننسى مشاعر الأمومة التي اختلجت في قلب العذراء في تلك

الساعة، ولكنها قالت له: هذا عربون المهر الذي تدفعه من أجل أن ترتبط بالعالم كله، كما نصلي في الأجيال (العالم يفرح لقبوله الخلاص أما أحشائي فتلتهب عند نظري إلى صليبتك الذي أنت صابر عليه من أجل الكل يا ابني وإلهي).

(٨ : ٦) "اجعلني كخاتم على قلبك، كخاتم على ساعدك. لأن المحبة قوية كالموت. الغيرة قاسية كالهواية. لهيبها لهيب نار لظى الرب".
ثم تبدأ العروس بوصف الأبدية، فالحياة الأبدية تتلخص بالمحبة، لأن الملكوت اسمه: "ملكوت ابن محبته" (كو ١ : ١٣) لذلك فالمحبة هي التي تسود في الأبدية. فالمواهب سوف تنتهي والألسنة ستبطل لكن الذي يبقى للأبد هي المحبة، فالمحبة أعظم من الإيمان ومن الرجاء، لذلك عندما قررت أن تصف الأبدية ارتأت أن تصف المحبة. فوصفتها في ثلاثة صفات إيجابية وثلاثة صفات سلبية.

المحبة قوية كالموت: ففي الصفات الإيجابية قالت أن المحبة قوية كالموت. فلا يوجد شيء أقوى من الموت، فمحبتك لي كأقوى شيء في الأرض الذي هو الموت. ولكن هل يجوز أن تشبه المحبة بالموت؟ ولم لا؟ فمحبة المسيح تجلت بأبهى صورة عندما مات على الصليب من أجلنا، فنحن الآن نعرف بعض المعرفة ونحاول على قدر ما أعطي لنا أن نتأمل في الصليب، أمّا في الأبدية فسوف نكتشف أن محبة المسيح على الصليب لا يمكن إدراك عمقها فهي بحر سباحة لا يُعبر. وللذي يسأل ماذا سنفعل في السماء، أقول له سوف نكتشف سر محبة المسيح لنا، هو الذي أحبنا حتى المنتهى.

الغيرة قاسية كالهواية، ماذا يوجد أيضاً في السماء؟ فالعروس قالت له الغيرة قاسية كالهواية. فالذي يحب يغار على محبوبه، فلو كنت تحب أحداً ولا تغار عليه، فهذا يعني أنك لا تحبه! فالمسيح يقول لي: أنا أحبك وأغار عليك، فالذي يحب أباً أو أمّاً أكثر مني فلا يستحقني، ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني (مت ١٠ : ٣٧).

لذلك سوف نكتشف أيضاً كم أغظنا الرب، والكتاب المقدس قد تكلم عن كل ما يغيظ الرب عندما تحب أمور العالم التافهة. ففي السماء سوف يدرك كل واحد منا كم كانت تعمل في قلب الرب مشاعر الغيرة في كل مرة تعلقت بمحبة غريبة في العالم. لذلك قال القديس يعقوب "الروح الذي حل فينا يشتاق إلى الحسد (بمعنى الغيرة الروحية)" (يع ٥ : ٤).

لهيبها لهيب نار لظى الرب، أيضاً سوف أعرف في السماء كم أن لهيب محبة المسيح قطعت رباطات كنت مريباً بها، ولم أكن مستحقاً أن أنفك منها أبداً، لكن لهيب نار محبته قد اعتقني منها، لذلك سوف نتأمل في السماء محبته وغيته، وكيف أني كلما ملئت إلى محبة غريبة تدخل هو وفطمني عنها.

(٨ : ٧) "مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفئ المحبة، والسيول لا تغمرها. إن أعطى الإنسان كل ثروة بينه بدل المحبة، تحتقر احتقاراً".
لكن هناك أيضاً جانباً سلبياً في المحبة يعرضها لنا سفر النشيد من خلال قول العروس: مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفئ المحبة، فالمياه الكثيرة تشير لكل ما قد يعوق المحبة. ففي السماء سوف أتذكر كم مرة مررت في فترات برودة أو في فترات رفض للطريق الروحي، وأسأل الرب: عندما مررت في هذه الفترات، هل تغيرت محبتك لي؟ فيقول لي: لا يا حبيبي مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفئ المحبة، فالبرودة التي تخللت حياتك الروحية والعالم الذي انجرفت وراءه والصلاة التي كنت تتلوها بروتين، لم تقل من محبتي لك.

والسيول لا تغمرها، وسوف أكتشف أيضاً أن السيول لا تغمرها، فكم من تجارب وكم من ضعفات وكم من سقطات سقطتها، وأسأل الرب: هل يا ربي تغيرت محبتك لي؟ فيقول لي: لا، فكل هذه السيول لم تقل من محبتي لك.

إن أعطى الإنسان كل ثروة بيتيه بدل المحبة، تُحْتَقَرُ احْتِقَارًا، وسوف أكتشف في السماء أن مقاييس الرب يسوع مختلفة عن مقاييس الناس، فالمسيح عنده ترمومتر اسمه ترمومتر المحبة، وأي عمل أقوم به سوف يقيسه بهذا الترمومتر، فيرى مقدار المحبة التي في العمل، وإن قلت له: يا ربي أنا عملت أعمالاً عظيمة وكثيرة. فيقول لي: لكنّها كانت خالية من المحبة، فلا نفع منها. وأقول له: لكني في مرة عملت عملاً بسيطاً جداً، فأعطيت فلسين. فيفرح الرب ويقول: هذا يساوي عندي عملاً كبيراً جداً. ففي السماء سوف أكتشف أن كل عمل عملته، لا يقاس بمقدار التعب أو بمقدار التضحية التي بذلتها أو بمقدار الفائدة التي عادت منه على الناس، إنما بمقدار المحبة التي عملت بها العمل، فسوف أكتشف في السماء إنني إن أطعمت كل أموالي، وإن سلّمت جسدي حتى أحترق، ولكن ليس لي محبة فلا أنتفع شيئاً (١كو ١٣: ٣).

(٨: ٧-١٤) "لنا أخت صغيرة ليس لها ثديان. فماذا نصنع لأختنا في يوم تُخطب؟ إن تكن سورا فبنني عليها برج فضة. وإن تكن باباً فنحصّرها بألواح أرز. أنا سور وثندياي كبرجيين. حينئذ كنت في عينيه كواحدة سلامة. كان لسليمان كرم في بعل هامون. دفع الكرم إلى نواطير، كل واحد يؤدّي عن ثمره ألفاً من الفضة. كرمي الذي لي هو أمامي. الألف لك يا سليمان، ومئتان لنواطير الثمر. أيتها الجالسة في الجنّات، الأصحاب يسمعون صوّتك، فأسمعييني. أهرّب يا حبيبي، وكُنْ كالظبي أو كغفّر الأيائل على جبال الأطياب".

إذاً في السماء سوف نعرف قيمة المحبة، وفي السماء سوف نكلل على قدر المحبة، لأنّ العروس تقول: "كان لسليمان كرم، فدفع الكرم إلى نواطير". وهو يشابه في معناه ما جاء في مثل الكرامين، فالمسيح سلّم الكرم إلى خدامه، وعلى قدر انشغال الخادم بإخوته تظهر مدى محبته للمسيح، لأنّ "كل من يحب الوالد يحب المولود منه أيضاً" (١يو ٥: ١). فإن قال الخادم أنا أحب الله وأبغض أخاه فسوف يقول له الرب: هذه ليست محبة. فكل واحد ينال إكليلاً يتساوى مع مقدار محبته للمسيح ومقياس محبة المسيح يتساوى مع مدى اهتمامه بإخوته.

وكأنَّ الجانب الأوَّل يمثل محبة الله للإنسان، والجانب الثاني يمثل محبة الإنسان لقريبه لذلك تقول: لنا أُخْتٌ صَغِيرَةٌ لَيْسَ لَهَا ثُدَيَانِ، فأنت لك أخت في البيت أو في العمل أو في الكنيسة صغيرة ليس لها ثدين، لم تتزوج بعد، ليست مرتبطة بالرب، أو لم تتعلم بعد كلمة الله في العهدين القديم والجديد فتجعل كل اهتمامك نحو أختك هذه، لعلَّها تأتي إلى الكنيسة وتتعرَّف إلى الرب، فتبدأ تخطو في الطريق الروحي، لأنَّ اهتمامك بهذه الأخت هو الإكليل الذي سوف تحصل عليه في السماء.

فماذا نَصْنَعُ لأُخْتِنَا في يومِ تَخْطُبُ، يشغل الخادم بكيفية إحضار النفوس للمسيح لئلا يأتي المسيح لكي يخطبها فلا يجد في قلبها محبة. فيجعل هذا الموضوع مركز اهتمامه، لأنَّ الخادم الأمين يكثر ثل خلاص الآخرين ويسعى من أجل ارتباط النفوس بالمسيح، سواء أكان في صلاة أم في خدمة. ولكنَّ عروس النشيد تقدِّم له الحل، فتقول:

إِنْ تَكُنْ سَوْرًا فَنَبْنِي عَلَيْهَا بَرْجَ فِضَّةٍ، فهذه الأخت بَنَتْ حول نفسها سوراً لكي تمنع كل من يحاول أن يقترب منها، مما يعني كلَّما أراد أحد أن يكلمها عن المسيح تترجع وترفض الاستماع إليه، فهي محوطة نفسها بسور ولا تقبل أي كلام عن المسيح، لذلك لا بد من وسيلة أخرى "أخذتكم بمكر" (١٢: ١٦)، فنبنينا برج فضة ونقفز من عليه لنصل إليها والفضة هي كلمة الإنجيل، وهذا يعني ليس لنا سوى اللجوء لكلمة الإنجيل فهي التي ستؤثر فيها، فيرسل إليها الخادم نصاً من الإنجيل أو يعطيها الكتاب لتقرأه أو يشاركها بآية فرح بها، ولا يتوقع منها أن تتجاوب معه سريعاً، بل على العكس فقد تشور ولا ترحب بعمله هذا وعلى الأرجح سوف تنتهره أو قد تقول له كلمة قاسية، فلا بأس، ولكن لا بد لكلمة الله من أن تقتحم هذا السور وتدخل وتفتح القلب للمسيح.

وَإِنْ تَكُنْ بَابًا فَنَحْصُرْهَا بِالْأَوَاحِ أَرْزُ، وإن صادفت أختاً ثانية ووجدتها فاتحة الباب لعالم الملذات والشهوات، فماذا تفعل؟ هل ستتركها تضيع؟ لا، بل تحصرها بالأواح أَرْزُ،

"حبيبي فتى كالأرز"، فلو ان أختك مشرعة أبوابها للعالم تبدأ تحاصرها بمحبة المسيح، فتكشف لها عن محبة المسيح، وعذوبة المسيح، وجمال المسيح، إلى أن تصرخ أخيراً وتقول: محبة المسيح تحصرني. "أنا سورٌ وثدياي كبرجيين"، فأنا سور لإخوتي فأصلي لهم وأفرحهم بكلمة الإنجيل التي أفرح بها.

ولكنَّ النفس تكتشف أنَّها ما زالت في العالم ولم تصعد بعد للأبدية، وكل ما جرى معها ليس سوى عربون الأبدية. فتختم وتقول: أَهْرُبُ يَا حَبِيبِي، وَكُنْ كَالظَّبِّي، فيا ليتك تأتي يا حبيبي مسرعاً كالغزال. أَوْ كَغُفْرِ الْأَيَّامِ عَلَى جِبَالِ الْأَطْيَابِ، فيا ليتك تأتي يا حبيبي بسرعة لأنك شوقتني للسماء.

أخيراً، لا يسعني سوى القول أن الكلام عن المسيح مفرح جداً، ومعزّي جداً، والقلب فعلاً يفيض بمحبة المسيح، حتى أصبحت طلبتنا الوحيدة: آمين تعال أيها الرب يسوع.

فإذا كنا قد تذوقنا المحبة بكلمات بسيطة فكيف بنا عندما نرى المسيح في الأبدية، وإذا كانت بكلمة الحياة قد تعرّت قلوبنا فكيف سيكون شكل الحياة معه! لذلك أصبحت اشتياقات النفس: آمين. تعال أيها الرب يسوع.

الفهرس

٧ مقدمة الكتاب
٩ مقدمة السفر
	- الفصل الأول (الأصاحاح ١ : ١ - ٣)
١٥ حبك أطييب من الخمر
	- الفصل الثاني (الأصاحاح ١ : ٤ - ٦)
٢٦ أنا سوداء وجميلة
	- الفصل الثالث (الأصاحاح ١ : ٧ - ١٧)
٤١ أين ترعى وقت الظهيرة
	- الفصل الرابع (الأصاحاح ٢ : ١ - ٩)
٦٩ كالسوسنة بين الشوك
	- الفصل الخامس (الأصاحاح ٢ : ٩ - ٣ : ٤)
٩٤ هوذا واقف وراء حائطنا
	- الفصل السادس (الأصاحاح ٣ : ٤ - ١١)
١١٩ أمسكتة ولم أرخه
	- الفصل السابع (الأصاحاح ٤ : ١ - ٥ : ١)
١٣٩ ها أنتِ جميلة يا حبيبتي
	- الفصل الثامن (الأصاحاح ٥ : ٢ - ٩)
١٧٨ صوت حبيبي قارعاً
	- الفصل التاسع (الأصاحاح ٥ : ١٠ - ١٦)
١٩٩ هذا حبيبي
	- الفصل العاشر (الأصاحاح ٦ : ١ - ١٢)
٢٢٥ أنا لحبيبي

- الفصل الحادي عشر (الأصاح ٦ : ١٣ - ٧ : ٤)

٢٤٧ ما أجملك وما أحلاك

- الفصل الثاني عشر (الأصاح ٧ : ٤ - ٨ : ١٤)

٢٧٠ المحبة قوية كالموت

الثنى : ٨ جنيهات
(أقل من التكلفة)